

سأعدت ءامعة بغداد على نشره

الضئلكم التصوم والنشئع

زئنا الترءامعئة

الءزهء الاول

النشئع والزهد

ءالئف

الءكءورءاءام صظفئ الشئلئوئ

ءكوزاءة فئ الفلسفة (ءكءولءء)

لئسانئءءء الفئنة العربئة (الأسكندرئة)

مطبعة الزهراء - بغداد

١٩٦٣/١٣٨٢

تقديم

اصل هذا الكتاب رسالة جامعية كتبت تحت اشرافى الاستاذ الدكتور ابو العلا عفيفى ، وناقشتها لجنة مؤلفة منه ومن المرحوم الاستاذ محمود الخضيرى والاستاذ الدكتور على سامى النشار ، فالت درجة الماجستير فى الآداب بدرجة جيد جدا من قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى آب ١٩٥٨ •

وغرض الكتاب من هذه الاشارة هو ان هذا البحث ، وان استغرق الفراغ منه خمسة اعوام كاملة ، كان أول رياضة عقلية له فى فترة من غرور الشباب وحماسه وتسرعه • وكان لابد ان يظهر فى البحث آيات على هذه الاوصاف • على انى رجعت الى البحث من جديد فاعملت فيه يد التؤدة والتهذيب بقدر الاستطاعة واضفت اليه الكثير خلال اعدادى رسالة الدكتوراه فى كمبردج غير انه بقى يحمل طابعه البارز •

ويحسن ان انبه الى ان هذا العمل قد قام على اساس من الاكثار من النصوص بغية جمع ما تفرق منها فى مكان واحد فيتاح للباحثين تدبرها من جديد واستخلاص النتائج التى يمكن استخلاصها منها ان بالنفى او بالاثبات او بالملاءمة • ومسألة أخرى يهمنى ان اؤكد هنا هى انى تناولت بدايات الاسلام وتطوراته على نحو موضوعى خالص لاثموبه شائبة من عاطفة أو محاباة ولا تقية او رياء وتركت للحقائق وحدها ان تتمخض عن الاحكام وتؤسس للآراء • ويتعين على ان أقرن بهذه الحقيقة أمرا آخر هو أنى لم اصدر عن تحيز او نكرة وأن ما قد يبدو كذلك يتوجب ان يوجه الى الاعتزاز بموضوع البحث والتعلق يتبعه واستكناهم لا الحرص على تأييد العقيدة نفسها على نحو كلامى ، وقد لاحظ ذلك كله الدكتور ابو العلا عفيفى فى اناء مناقشة هذه الرسالة وافصح عنه جهارا •

(أ)

2274
876563
→→←

ومما يريح ضميري ان اعترف للقارىء بأنى لا اعتبر هذا البحث مرضيا
لغرور الباحث ، على انى اصارحه ايضا بأنى لم ادخر وسعا فى سد الثغرات
التى عرضت لى فى اثناء البحث وأنى لم أفر امام صعوبة • لقد كان رائدى
الاخلاص ، واحسبى لايسعفى التواضع على اغفال هذه الخلّة فى هذه
الرسالة •

ولا يتم هذا التقديم دون التوجه بالشكر الى من يستحقه من الاساتذة
والباحثين الذين كانت مشورتهم عنصرا مهما فى اعداد هذا البحث • واول
هؤلاء الاستاذ الدكتور ابو العلا عفيفى ، الرئيس السابق لقسم الفلسفة
بجامعة الاسكندرية ، الذى اشرف على اصل هذه الرسالة وراجع كل كلمة
فيها وبذل وقته وجهده خالصين للعلم شهورا طويلا حرصا على ابراز اصالتها
وغنائها • وينبغى ان اذكر بالشكر الاستاذ الدكتور على سامى النشار ، الرئيس
الحالى لقسم الفلسفة بجامعة الاسكندرية ، فلقد كان من حظى ان اشرف على
رسالتى هذه فترة قصيرة حفلت بالفائدة واقرنت بالموودة والاخلاص • ومن
الوفاء ان اكلل بأكاليل الشكر من اساتذتنا وشيوخنا العراقيين السيد هبة الدين
الشهرستاني لاسهامه برأيه ومشورته فى بعض موضوعات هذه الرسالة
وبخاصة فيما يتعلق بجابر بن حيان واشتقاق كلمة «صوفى» ، والاستاذ
توفيق وهبى لالقائه الى الكثير مما تعلمته منه عن البكتاشية ونظمها ، والدكتور
مصطفى جواد لاعارته اياى بحثه فى الفتوة قبل نشره •

ويسرنى ان اقرن بالشكر اسم صديقى الدكتور حسين على محفوظ
لنيابته عنى فى الاتصال بالباحثين الايرانيين حول موضوع رسالتى ولتعريفى
بالشيخ محمد باقر ألفت ، من متصوفة ايران المعروفين علما وعملا ، وللخير
جزيل الشكر على ما سدد به خطاى فيما يتصل بمعروف الكرخى ودوره فى
التصوف فى ضوء صلته بالامام على بن موسى الرضا • ولا بد لى من الاشادة

بفضل الشيخ محمد رضا الشيبى والاساذ محمد بهجة الاثرى ، فلقد كانا من
اوائل من استشرتهم من الباحثين فى قيام الصلة بين التصوف والتشيع ، ولئن
نفا تحققها لقد كان ذلك منهما حافظا لى على تعمق الموضوع ومضاعفة
الجهد فى استقصائه • واختم صحيفة الشكر هذه بذكر صديقى الحميم
الاساذ ناجى محفوظ ، المعين المستور ، الذى كان عون الصامت سببا فى سد
بعض ما انفتح فى هذا البحث من ثغرات •

اما بعد ، فان كان فى هذا الكتاب من قصور فمرده الى قلة تجربة الكاتب
لا الى تقصير منه ، وهذا اعتراف صريح هو فى الوقت عينه حافظ الى
الاستزادة من العلم والبحث والتجربة والتزام بغد السير الى الغاية المنشودة
من التعلم والتفهم والتعمق ، وفوق كل ذى علم عليم •

كامل مصطفى الشيبى

بغداد - آب ١٩٦٣

تمهيد

يدور موضوع هذه الرسالة حول الصلة بين التصوف والتنسيع • وليس من السهل تبين هذه الصلة بين العالمين ، لأن امورا قد جرت على كل منهما منذ بدأ في الاسلام حتى صار مستقلا مستقيا عن الاخر • ومن الغريب انه قد ظهر في الحياة الاسلامية ثلاثة اتجاهات متزال ثابتة ظاهرة للعيان ، فقد نجد ناحية من العالم الاسلامي تسودها مذاهب اهل السنة ، ونجد مكانا آخر تسوده مذاهب الشيعة ، ونلمح مناطق ثالثة يظلم عليها التصوف مختلطا باحدى هاتين المجموعتين من المذاهب • ومن الملاحظ ان المسلم يستطيع الاستغناء عن مذاهب اهل السنة اذا كان شيعيا ، وعن مذاهب الشيعة اذا كان سننيا ، ويستطيع كل من السني والشيعي ان يحيا حياة اسلامية دون ان يتصل ذهنه بالتصوف ونظرياته وعملياته • غير ان التصوف لا يستطيع الاستغناء عن احدى هذين الاتجاهين الاسلاميين • فلا بد ان تتصل الطرق الصوفية - وهي في حكم المذاهب الاسلامية من حيث تنظيمها لمجتمعها عقيدة واجتماعا - باتجاه من هذين الاتجاهين الاسلاميين • فمن المعروف ان النقشبندية مثلا من الطرق الصوفية السنية ، والبكتاشية من الطرق الشيعية ، فتدخل الاولى في فرق اهل السنة واثنائية في فرق الشيعة ، وان كان التصوفة انفسهم قد حاولوا ان يجعلوا من الصوفية فرقة اسلامية مستقلة عن كلا هذين الاتجاهين على نحو ما ينقل جولد تسبير عن حافظ الشيرازي انه قال : « لاتلم الاتنين والسبعين فرقة على منازعاتها لانها لاترى الحقيقة وانما تطرق باب الخرافة^(١) ، فيجعل الفرقة الناجية هي فرقة التصوفة التي هو من رجالها ويلقى بالاثنين والسبعين في الهاوية • وعلى هذا فان التصوفة - ممن يعتبرون انفسهم فرقة اسلامية - يستطيعون هم ايضا ان يحيا حياة اسلامية دون ان تكون بهم حاجة الى النظر الشيعي او السني • فكان الاسلام قد انشق منه

(١) العقيدة والشريعة في الاسلام ص ١٥٣ •

ثلاثة فروع هي هذه الاتجاهات التي ذكرناها بالاضافة الى اتجاهى الحوارج
والمعتزلة اللذين عفى عليهما الزمان الا فى مواطن محدودة جدا .

وقد بين كثير من الباحثين انقضاء اتصال المتصوفة باتجاه اهل السنة
والجماعة : فقد قال القشيري فى رسالته التى وجهها الى المتصوفة سنة
٤٣٠/١٠٣٨-٩ هـ : « اعلموا - رحمكم الله - ان شيوخ هذه الطائفة بنوا
قواعد امرهم على اصول صحيحة فى التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع
ودانوا بما وجدوا عليه السلف واهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل
ولا تعطيل^(٢) » . وروى القشيري ايضا ان الجنيد المتوفى سنة ٢٩٨/٩١٠-١١
« كان قضيها على مذهب ابي نوره^(٣) » ، وكان العباس بن سريج الشافعى
يقول باخذه عن ابي القاسم الجنيد^(٤) ، وكان الجنيد نفسه يقول : « مذهبا
هذا مقيد باصول الكتاب والسنة^(٥) » ، والشيخ عبدالقادر الجيلى « كان من
الحنابلة^(٦) » ، وكان سهل بن عبدالله التستري يفسر الآية : يا اهل الكتاب
لا تظلموا فى دينكم^(٧) بقوله : « لاتجاوزوا دينكم بالبدع وتعلموا عن الحق
- وهو الكتاب والسنة الاجماع - ميلا الى هوى انفسكم^(٨) » ، وكان
النصر اباذى يقول : « اصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الاهواء
والبدع وتعظيم حرمات المشايخ ورؤية اعذار الخلق والمداومة على الاوراد
وترك ارتكاب الرخص والتأويلات^(٩) » ، ويقول ابو بكر الطمستاني :

-
- (٢) الرسالة القشيرية ص ٣ .
 - (٣) الرسالة القشيرية ص ٢١ .
 - (٤) وفيات الاعيان ١/٣٢٣ .
 - (٥) الرسالة القشيرية ص ٢٢ .
 - (٦) انظر مثلا شذرات الذهب ٤/٢٠٠ ، طبقات الشعراى ١/١٠٩ الخ .
 - (٧) النساء ١٧١ .
 - (٨) تفسير التستري ص ٢٤ .
 - (٩) الرسالة القشيرية ٣٩ .

• الطريق واضح ، والكتاب والسنة قائمان بين اظهرنا وفضل الصحابة معلوم لسبقهم الى الهجرة وسحبهم • فمن سحب الكتاب والسنة وتغرب عن نفسه وخلق ، وهاجر بقلبه الى الله فهو الصادق المصيب، (١٠) ، وهكذا كان شأن زملائهم من رجال التصوف الذين رأى معظمهم انه ثمرة اسلامية لها اللون السننى دون الشيعى • وقد نشأ فى الشيعة المتأخرين متصوفة واضحو الاتجاه كجيدر بن على الأملى المتوفى بعد سنة ١٣٩٢/٧٩٤ وأبن فهد الحلى المتوفى سنة ١٤٣٨/٨٤١ وأبناء صفى الدين الاردبلى المتوفى سنة ١٣٣٤/٧٣٥ الذين مهدوا لقيام الدولة الصفوية سنة ١٤٩٩/٩٠٥ والمحسن الفيض المتوفى سنة ١٦٧٩/١٠٩٠ وغيرهم ، ولكن احدا لم يلتفت الى علاقة التصوف - فى بدئه - بالشييع ، وهذه الرسالة تدرس هذا الموضوع • ولهذا يحسن بنا ان ندخل مبحث التشيع لتتعرف الى معناه ومثله ورجاله وتطوره ليكون ذلك اساسا نعرض عليه افكار التصوف وعندئذ يتبين لنا مدى العلاقة بين المشريين •

(١٠) الرسالة القشيرية ٣٨ •

الباب الاول

التشيع

الفصل الاول

مقدمات فى التشيع

التشيع لفظا واصطلاحا :

التشيع لفظ ينصل بلفظ : شيعه ، و «شيعه الرجل - بالكسر - : اتباعه وانصاره والفرقة على حدة ، ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث . وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليا وأهل بيته حتى صار أسما خاصا لهم ، وجميها اشباع وشيع^(١) . » والتشيع - فى اصل اللغة - هو الاتباع على وجه التدين والولاء للمتبوع على الاخلاص ، قال الله عز وجل : فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه^(٢) ، ففرق بينهما فى الاسم بما اخبر به من فرق ما بينهما فى الولاية والمداوة وجعل موجب التشيع لاحدهما هو الولاء بصريح الذكر له فى الكلام . وقال الله تعالى : وان من شيعته لابراهيم^(٣) ، ففضى باليسمة بالاتباع منه لنوح عليه السلام على سبيل الولاء ، ومنه قولهم : فلان تكلم كذا وكذا فتشيع فلان لكلامه اى صدق فيه واتبعه فى معانيه^(٤) . فالتشيع اذن يتضمن فى معناه الاتباع والنصرة من جماعة لرجل عموما . ولكن كلمة (شيعه) - مجردة - لاتعنى الموم وانما تنصرف الى دلالة خاصة هى الجماعة التى ناصرته عليا وشايسته والتفت حوله وجملت منه اماما لها : تقتدى به وتجعل له مقاما يسمو على مقام معاصريه فيما عدا الرسول (ص) .

وذكر أبو الحسن الأشعري أنهم « انما قيل لهم : الشيعة لانهم شيعوا

(١) القاموس المحيط ٤٧/٣ .

(٢) القصص ١٥ .

(٣) الصافات ٨٣ .

(٤) اوائل المقالات ٣٢ .

(شايعوا) عليا - رضوان الله عليه - ويقدمونه على سائر اصحاب رسول الله، (٥) .

وقد ذكر ابن حزم ذلك في وضوح ورأى أن « من وافق الشيعة في أن عليا - رضى الله عنه - أفضل الناس بعد رسول الله فهو شيعي وان خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف فيه المسلمون • فان خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيا » (٦) وابن حزم متعصب على الشيعة - كما هو معروف - ولكنه هنا يحدد ويجمع ويمنع ، فرأيه هنا شهادة باحث •

وهكذا يتبين المعنى الذى ينصرف اليه مدلول شيعة وتشيع • ويضيف الشيخ المفيد المتوفى سنة ٤٤٣/١٠٢٢ (من اعظم الشيعة الامامية) قيادا جديدا الى هذين اللفظين وذلك بربط التشيع بالاعتقاد بكون على اماما للمسلمين بوصية من الرسول وبارادة من الله « اما نصا كما يرى الامامية او وصفا كما يرى الجارودية من الزيدية » (٧) الذين قالوا بالنص من النبى على امامة على وصفا لتسمية (٨) • وهكذا يخرج الشيخ المفيد ثلثى الزيدية من الشيعة ويدخل الثلث الذى يستغرق الجارودية فقط ، لان من رأى الزيدية السليمانية - وهم اتباع سليمان بن جرير الزيدى - ان « الامامة شورى متى ما عقدها اثنان من اخيار الامة لمن يصلح لها : فهو امام فى الحقيقة • وكان يقر بامامة ابى بكر وعمر ويجوز امامة المفضول ، وكان يقول : ان الصحابة تركوا الاصلح بتركهم بيعة على فانه كان اولى بها (٧-) وهذا هو اعتقاد التبرية (٨-) التى اخرجها تعريف الشيخ المفيد من التشيع مع انها فرقة زيدية • والحقيقة ان هذا الاعتقاد من فرقتي الزيدية انما هو تطور لعقائدهم عموما ولاشك ان الاصل يرجع الى تفضيلهم جميعا لعلى وجعلهم الخلق له فى

(٥) مقالات الاسلاميين ص ٥ •

(٦) الفصل ١١٣/٢ •

(٧) التبصير فى الدين ١٦ - ١٧ •

(٨) الملل والنحل ١/٢٢٥ •

الخلافة • ولو اخذنا برأى الشيخ المفيد لكان علينا ان نخرج الكيسانية من الشيعة ايضا مع انهم اول من قال بفكرة المهدي وطبقها ، وتلك فكرة تعتبر من مبادئ الشيعة الرئيسية • ورأى الشيخ المفيد يمنع انطباق التشيع على الغلاة ايضا لانهم خرجوا عن حد الامامة الى الالوهية •

والرأى عندنا ان ذلك غير عملي ، لان التشيع - وهو اسباغ الحق الالهي او الاسلامي على امامة علي - هو الذي يجمع فرق الشيعة التي انبثت من اصل واحد ثم تشعبت بها الطرق وتقطعت بعضها الاسباب ونحن في هذه البداية نعنى بالتشيع فى جوهره وليس من شأن هذا الفصل التعرض لشعبه وفرقه فالاساس فى تحديد التشيع هو هذا الذى ذكرناه مما يستغرق كل الفرق الشيعية التى تؤمن بحق علي فى الامامة وفضليته على زملائه من الصحابة •

ولعله ليس من الاطالة الاشارة الى ان الاسلام ادخل عبارات اصطلاحية من هذا القبيل ، فالانصار عبارة توازى معنى «الشيعة» بل ترادفها ولكنها تصرف الى من نصروا النبي من اهل المدينة ، فهى خاصة بفريق يتصل سببه بالنبي ، وصارت عبارة «الشيعة» مختصة بمشايبي علي وناصره • ولعل الاصل فى دلالة عبارة «شيعة» صادر من هذه الدلالة ومحدد بهذا الحد • ثم تبدو عبارة «الصحابة» متصلة بهذه الدلالة ايضا على نحو آخر ، وكذلك عبارة «التابعين» و «المهاجرين» • وبهذا تبين اصالة عبارة «الشيعة» وصدورها عن روح الاسلام وطابعه الجديد فى اطلاق الاوصاف على الجماعات التى يجمعها جامع معين ، وتلك روح عربية تنعكس من طابع العرب وطراز تفكيرهم • ولا ريب ان عبارة «الاسلام» نابعة من هذا المنبع ايضا وآية ذلك الآية التى ذكرت ابراهيم وأنه «ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما»^(٩) • وقد ورد فى فرعون قوله تعالى : «حتى اذا أدركه

(٩) آل عمران ٣ - ٦٧ •

الفرق ، قال : آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل ، وأنا من المسلمين، (١٠) . فالمسلمون هم المتقادون لله ، والانصار من نصرنا النبي والمهاجرون من هجروا الاوطان لنصرة النبي والصحابة من صحبوه والتابعون من تبعوه ، والشيعه من شايعوا عليا وكل ذلك جار على أسلوب المصرب وطابعهم .

حتى ظهر التشيع :

اختلف الباحثون - قدماء ومحدثين - في تحديد الوقت الذي ظهر فيه التشيع في الاسلام . والزمن الذي حددوه لظهور هذه الفكرة يتفاوت بين بداية الاسلام وبعد مقتل علي ، ويرى المرحومان الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء - من ابرز جتهدي الشيعة المتأخرين - والاستاذ أحمد أمين ان التشيع قد ظهر في حياة النبي نفسه (١١) اما التوبختي - وهو من اعلام القرن الثالث الهجري ومن اوائل مؤلفي الشيعة - فيرى ان ذلك قد حدث بعد وفاة الرسول (ص) (١٢) . وكذلك فعل ابن خلدون (١٣) . ثم يطالعنا رأى آخر لولها وزن يحدد فيه ظهور الشيعة في عهد عثمان معاصرا ومرافقا لحركة الخوارج (١٤) . ويشارك ابن النديم في هذه المصعفة برأى غريب وذلك انه قد جعل التشيع لقباً اطلقه على نفسه على أصحابه عند خروجه بجيشه لحرب طلحة والزبير (١٥) . ثم يأتي الدكتور طه حين فيرى ان ذلك قد حدث بعد قتل علي ويدلل على ذلك بان لفظ (شيعة) قد اطلق على المراقبين والشاميين معا في صحيفة التحكيم (١٦) . ويختم الدكتور عبدالعزيز

-
- (١٠) يونس ١٠ - ٩٠ .
 (١١) اصل الشيعة واصولها ٨٧ .
 ضحى الاسلام ٢٠٩/٣ .
 (١٢) فرق الشيعة ٢ - ٣ .
 (١٣) العبر ١٧١/٣ .
 (١٤) الدولة العربية وسقوطها ٥٦ .
 (١٥) الفهرست ٢٤٩ .
 (١٦) علي وبنوه ١٩٢ .

الدورى هذه الاراء بتفريقه بين التشيع باعتباره عقيدة روحية وباعتباره حزبا سياسيا فيؤيد رأى كاشف الغطاء فيما يتعلق بالتشيع الروحى وينحاز الى رأى طه حسين فيما يتعلق بالتشيع السياسى (١٧) . على اننا نرى ان التشيع السياسى ، وان كان ظهر فى الفترة التى افترضها الباحثون السابقون ، الا ان دلالة الاصطلاح «شيعة» على الكتلة التى ندرسها من المسلمين وانصرافه اليهم دون غيرهم قد بدأ بحركة التوايين التى ظهرت سنة ٦١ هـ وانتهت بالفشل سنة ٦٥ ، وكان قائد الحركة يلقب بشيخ الشيعة (١٨) دون ان تحدد الجهة التى تضاف اليها هذه الجماعة ، فلم يقل : شيعة على ولا شيعة الحسين وانما استقل هذا اللفظ لوضوح مدلوله ورسوخه فى الميدان السياسى .

والواقع ان علينا ان ننظر الى التشيع من هذه الزاوية بالذات لان الشيعة الاوائل كما سنرى عما قليل كانوا يرون صفات روحية يتميز بها على عن باقى المسلمين ولم يحاولوا مع ذلك ان يثوروا ثورة الشيعة حين عاضدوا عليا على معاوية واستماتوا فى نصرته . والرأى عندنا ان التشيع بمضاه الذى حددناه من نصرة على والتشيع له قد كان قديما قدم الاسلام وظهر على شكل دعوة سياسية فى اول لحظة بدا من المناسب ان يظهر للناس ، وقد كان الاربعة الاوائل من شيعة على وهم سلمان الفارسى وابو ذر وعمار بن ياسر والمقداد بن اسود يتصرفون فى حياة النبي ساعبارهم شيعة تصرفهم فى نهاية الامر حين انكشف تشيعهم واضحا ، وكان ذلك يعرف عنهم . وهذا ابن حجر يذكر فى الصواعق المحرقة ان النبي خاطب عليا بقوله : يا على انت واصحابك فى الجنة (١٩) . واخرج ابن عساكر قول النبي : « والذى نفسى

(١٧) مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ٧٢ .

(١٨) انساب الاشراف للبلاذرى ، القدس ١٩٣٦ ، ٢٠٦/٥ ، وعن حركة

التوايين انظر ص ٢٠٤-٢١٣ ، وعن فشلها انظر ص ٢٠٨ .

(١٩) الصواعق المحرقة ، مصر ١٣٧٥ ، ص ١٥٩ .

بيده ان هذا (يعنى عليا) وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة (٢٠) ثم يذكر
 يعقوبى انه تخلف عن بيعة ابي بكر قوم من المهاجرين ومالوا مع علي بن
 ابي طالب : منهم العباس بن عبدالمطلب والفضل بن العباس والزبير بن العوام
 وخالد بن سعيد والمقداد بن عمرو وسلمان الفارسي وابو ذر الغفاري وعمار بن
 ياسر والبراء بن العازب وأبى بن كعب (٢١) ، وقد كان سلمان معروفا بكونه
 من شيعة علي ويزكيه حديث مشهور يقول : سلمان منا اهل البيت (٢٢) ، اما
 عمار بن ياسر فانه اشهر من ان تخفى شيعة في جميع ادوار حياته وهو القائل
 بعد انتخاب عثمان : « يا معشر قريش ، اما اذا صرفتم هذا الامر عن اهل بيت
 نبيكم ههنا مرة وههنا مرة فما انا باء من من ان ينزعه الله فيضعه في غيركم
 كما نزعتموه من اهلهم ووضعتموه في غير اهلهم » (٢٣) ، واما المقداد بن اسود
 فقد قال في نفس المجلس : « ما رأيت مثل ما اودى به اهل هذا البيت بمد
 نبيهم فقال له عبدالرحمن بن عوف : ما انت وذاك يا مقداد ؟ فقال : انى والله
 لاحبهم بحب رسول الله (ص) وان الحق معهم وفيهم اما وايم الله يا
 عبدالرحمن ، لو أجد على قريش انصارا لقتلتهم كقتالي أيامهم مع رسول الله
 يوم بدر » (٢٤) ، اما ابو ذر فصلته بعلي ايام عثمان معروفة وهو المعارض
 الضيف لسياسة عثمان حتى لقد نفاه الى الشام مرة والى الريزة مرة اخرى
 بل انه هو الذى أثار الاساس العقيدى الذى حارب عمار بن ياسر والشيعه
 الاوائل من أجله معاوية حين قال فى صفين واليوم نضربكم على تأويله (٢٥)
 وذلك ان معاوية كان يرى ان الآية : والذين يكنزون الذهب والفضة

(٢٠) اصل الشيعة واصولها ٨٧ .

(٢١) تاريخ يعقوبى ١٠٣/٢ .

(٢٢) صفة الصفوة ١/٢١٥ .

(٢٣) مروج الذهب ١/٤٣٩ - ٤٤٠ .

(٢٤) مروج الذهب ١/٤٤٠ .

(٢٥) مروج الذهب ٢/٢١ .

ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعتاب أليم ، (٢٦) قد نزلت في أهل الكتاب وأنه لا خير على المسلم من ان يكتز الذهب والفضة (٢٧) اما ابو ذر فكان يقول : «نزلت فينا وفيهم» وهذه اول اشارة الى بداية التأويل ومنها تتضح حقيقة غريبة وهى ان التأويل الشيعى نم يظهر الا معارضة لتأويل خاص يخدم مصلحة سياسية • والمهم ان ابا ذر قد نسب اليه قوله : «...» والعرة الهادية الذرية الطاهرة من محمد ، والصديق الاكبر على بن ابي طالب» (٢٨) • وهكذا كانت صلة هؤلاء بالتشيع سابقة على ظهوره السياسى الرسمى ، بل لقد توفى سلمان وابو ذر قيل تولى على للخلافة •

وتأتى علة تشيع هؤلاء من الناحية الاجتماعية والاقتصادية يعكسها الاسلام عليهم ويجذبهم الى اتخاذ جانب على لانه مكروه من قريش بحكم كونه ربيب النبي وبأنه قد تشرب مبادئ الاسلام وبأنه يمثل امتداد سيطرة روحية من جنس سيطرة النبي وسياسته ومجاربته لهم • اما سلمان فقد كان فارسيا فاسلم فكان يحس بانه غريب فى هذه البيئة الجديدة وبان مقامه لا يكون الا مع النبي وأقرب الناس اليه وكان عمار يقول فى على : «فجعلك لانترأ من الدنيا شيئا ولا ترزأ الدنيا منك شيئا ، ووهب لك حب المساكين ، فجعلك ترضى بهم اتباعا ويرضون بك اماما ، (٢٩) • اما ابو ذر فهو الزاهد الذى يريد ان يكون توزيع الثروة عادلا وان تتحقق العدالة الاجتماعية فى العالم الاسلامى • وكان على من صنفهم زهدا وعفة وقوة ايمان وشدة فى الحق ، فكان الحزب العلوى • ولكنه لم يكن حزبا بالمعنى المفهوم له مبادئ ومناهج وله فروع وانصار وسياسته وخطط ، بل كان حزبا همه ان يسير

(٢٦) التوبة ٣٤ •

(٢٧) صفة الصفوة ١/٢٢٣ •

(٢٨) طرائق الحقائق ٢/٩ •

(٢٩) حلية الاولياء ١/٧١ •

الاسلام سيره الطبيعي انذى اراده الله ورسونه ولهذا وجدناهم يعارضون مع معارضة على ويوافقون مع موافقته وكيف يكون الولاء اذا لم يكن كذلك • وقوم مثل هؤلاء ليست لهم عصبية ولا يطمعون فى جاه ولا سلطان ما الذى يحدوهم الى هذه المعارضة وهذه المغامرة الا ان يكون لهم رأى فى مسن ينصرونه وهذا هو الذى حدث بالفعل مما تقتضيه طبيعة الاشياء •

ونستطيع ان نزع - اذا شئنا - ان عليا نفسه قد نفى قيام التشيع زمن النبى بل حتى فى خلافته ، ولكن ذلك لايعنى انه الحقيقة المطلقة وانما يظهر وجهها منها ولكن الحقيقة تكمن فى هذا الذى اوضح وظهر • فعلى قد كتب الى اهل الانصار يقص ما جرى بينه وبين اهل صفين « وكان بدء امرنا اتسا التقينا والقوم من أهل الشام والظاهر ان ربنا واحد وديننا واحد ودعوتنا فى الاسلام واحدة ولا نستزيدهم فى الايمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا ، الامر واحد الا ما اختلفنا فيه من دم عثمان ونحن منه براء » (٣٠) ، ولكن هذا القول - على صحته - لاينفى قيام التشيع قبل صفين وقبل عثمان وقبل عذر بل وقبل ابى بكر رضى الله عنهم ، وليس من الصدق ان نجد هؤلاء الاربعة : عليا وسلمان و ابا ذر وعمارا على نسق واحد رجالا زاهدين مؤمنين اعمق الايمان متحلين بنفس الخلق متلقين بذات المبادئ ، بل كانوا قوما يقبل عليهم الجانب الروحى ، فسلما قد طاف بلاد الشرق يبحث عن النبى الجديد (٣١) وكان يعلم بظهوره وقد قاسى الامرين من الالم والعبودية فى سبيل هذا الهدف ، وكان يبحث عن علامات فى النبى تنبئ بنبوته (٣٢) ، وكان على يقول فيه : « من لكم بمثل لقمان الحكيم ، ذلك امرؤ منا والينسا أهل البيت ، ادرك العلم الاول والعلم الاخر وقرأ الكتاب الاول والكتاب

(٣٠) نهج البلاغة ٣/١٢٥-١٢٦ •

(٣١) طبقات ابن سعد ٤/٥٣-٥٧ •

(٣٢) حلية الاولياء ١/١٩١ •

الآخر ، بحر لا ينزف ، (٣٣) وقد قال سلمان في علي : «فلو حدثتكم بكل ما أعلم من فضائل امير المؤمنين عليه السلام لقاتل طائفة منكم : هو مجنون ، وقالت اخرى : اللهم اغفر لقاتل سلمان (٣٤) وكان يقول غير ذلك من الاقوال التي تبين الصلة الوثيقة بينه وبين علي . اما ابو ذر فقد صلى قبل ان يلتقى الرسول بثلاث سنين وكان يتوجه حيث وجهه الله ، (٣٥) ، واما حذيفة بن اليمان فقد كان صاحب سر رسول الله (٣٦) وكان يقول : « كان الناس يسألون رسول الله (ص) عن الخير وكنت اسأله عن الشر» (٣٧) وكان علي يقول له « لاتحدث الناس بما لا يعرفون فيظفوا ويكفروا ، (٣٨) وكان عمار اول من عذب في الاسلام وقتلت امه وابوه ممذيين رمى اخوه من فوق جدار فمات ، وكان في صفين يقول : « والله لو هزمونا حتى يلففوا بنا سفات هجر لكانا على الحق وكانوا على الباطل (٣٩) وقد رأينا فيما مضى انه كان يقاتل في صفين وردد قوله : نحن ضربناكم على تنزيهه ، واليوم نضربكم على تأويله» (٤٠) . فبين انه اتما قاتل في صفين تحقيقا للهدف الذي قاتل من أجله يوم بدر ، وهكذا كان عمار مثالا رائعا للعقيدة الراسخة والايمان العميق . وسوف نرى ان هؤلاء الشيعة الاوائل هم انفسهم اوائل الزهاد في الاسلام وان الزهد قد اخذ عنهم حتى بلغ مرحلة التصوف . ويكفي ان تشير هنا الى ان ابا ذر كان من اظهر الزهاد زمن النبي (ص) وبعده

(٣٣) صفة الصفوة ١/٢١٩ .

(٣٤) طرائق الحقائق ١/٢١١ .

(٣٥) صفة الصفوة ١/٢٣٨ .

(٣٦) قوت القلوب ١/٢٣ .

(٣٧) حلية الاولياء ١/٢٧٢ .

(٣٨) الطبري ٣/٣٧٥ .

(٣٩) مروج الذهب ٢/٢١ .

(٤٠) مروج الذهب ٢/٢١ .

وان عمار بن ياسر كان من اهل الصفة (٤٢) وكذلك سلمان (٤٢) وهكذا مضى اصحاب على في حياتهم على الاخلاص لفكرة الاسلام الاولى التي نبتت في ارواحهم وفاضت على السنتهم وخلقهم وطراز معيشتهم • ويتضح لنا في ختام هذا الفصل ان التشيع في معدنه هو التيار المعارض لصب الاسلام في قوالب سياسية واجتماعية مصدحية تختلف عن قوالبه الاولى وان الشيعة الاوائل قد قاوموا سياسة المصالح واقتناص الفرص التي طبقها المجتمع الاسلامي بعد وفاة النبي مباشرة حتى بلغت في حياتهم اسوأ ما رأوا أيام معاوية ، ويتضح بعد ذلك ان التشيع قد عاصر بدء الاسلام باعتباره جوهره له وأنه ظهر كحركة سياسية بعد ان نازع معاوية على الامارة وتدير شؤون المسلمين عليا الخليفة الشرعي • ويتبين بعد ذلك ان تبلور الحركة السياسية تحت اسم « الشيعة » كان بعد قتل الحسين مباشرة وان كانت الحركة سبقت الاصطلاح ، وبذلك يمكننا ان نلخص هذا الفصل في كلمة بيانها ان التشيع كان تكتلا اسلاميا ظهرت نزعته ايام النبي وتبلور اتجاهه السياسي بعد قتل عثمان واستقل الاصطلاح الدال عليه بعد قتل الحسين •

(٤١) خطط الكوفة ٣٦ هامش المترجم •
(٤٢) شخصيات قلقة في الاسلام ٣٤ •

قبل ان نعرض للكلام على الشيعة البارزين يحسن بنا ان نحددهم ونحاول ان نعلل تشيعهم وموالاتهم لعل بن ابي طالب • وقد سبقنا الى ذلك باحثون من الشيعة المتأخرين منهم الحاج معصوم على والشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء والسيد محسن الامين العاملي والشيخ محمد حسين الزين وغيرهم • ويخبرنا الحاج معصوم على ان منهم : « سلمان وابا ذر وعمارا والمقداد وغالب اصحاب الصفة ^(٤٣) » وذلك يوحى بأن فقراء المسلمين ومن لا مصلحة لهم في الحكم والسلطان هم الذين والوا عليا ونصروه اتباعا لوصايا النبي الكريمة التي يورد منها احمد امين عن البخارى ومسلم قول النبي (ص) في حديث الغدير «من كنت مولاه فهذا علي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وحديث « لاعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، فتناول الناس فقال : ادعوا عليا » وحديث : اما ترضى ان تكون امنى بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي» وكقول علي بن ابي طالب نفسه : فوالذي برأ النسمة انه لعهد النبي الى انه لايجبني الا مؤمن ولا يفضني الا منافق» ^(٤٤) وكقول ابي سعيد الخدرى : ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله الا بفض علي بن ابي طالب» ^(٤٥) واذا عرفنا ان المنافقين هم سراة قريش وغيرهم من الارستقراطيين القدماء ادركنا لماذا التف الضعفاء والفقراء حول علي بن ابي طالب وكانوا هم انفسهم الذين آمنوا بالاسلام والتفوا حول النبي ونصروه في بدء الدعوة الاسلامية • وقد ورد عن النبي حديث يقرن فيه اسم علي باسم ثلاثة من شيعته المقربين فقال (ص) : «تشتاق الجنة الى لقاء اربعة وهم علي وعمار وسلمان والمقداد» ^(٤٦) ويرد حديث آخر نصه : ان الله أمرني بحب اربعة وأخبرني بأنه يحبهم ، قيل :

(٤٣) طرائق الحقائق ٢/٢ •

(٤٤) ضحى الاسلام ١٢٢/٢ •

(٤٥) الشيعة فى التاريخ ٢٦ •

(٤٦) حلية الاولياء ١/١٣٩ •

يا رسول الله عسى ان تسميهم لنا قال : على منهم ، ويقول ذلك ، وابو ذر والمقداد وسلمان^(٤٧) ويتضح بذلك من هم اوائل من والوا عليا زمن النبي واستمروا على ذلك بعد وفاته . اما ابن خلدون فيسجل تشيع الزبير وعمار ابن ياسر والمقداد بن الاسود منذ قصة الثورى ويضيف الى ذلك عبارة « وغيرهم » مما يوحي باضافة عدد آخر الى هذا الفريق من المسلمين^(٤٨) . ثم يورد صاحب طرائق الحقائق خبرا باسناده عن منتهى المقال يدخل فيه حذيفة بن اليمان مع من تقدم ويجعل معهم سهل بن حنيف و ابا الهيثم مالك ابن التيهان وخالد بن سعيد وعبادة بن الصامت و ابا أيوب الانصارى وغيرهم ويسميهم رواية عن الرضا : الامام الثامن : « الذين مضوا على منهاج رسول الله ولم يدلوا ولم يغيروا بعد نبينهم »^(٤٩) وقد اورد الشيخ كاشف الغطاء ثبوتا باسماء الشيعة من الصحابة يتضمن السابقين ومعهم الزبير والفضل بن العباس وأخوه عبدالله وينص على انه قد جمع من كتب تراجم الصحابة كالأصابة وأسد الغابة والاستيعاب ونظائرها زهاء ثلاثمائة رجل من عظماء رجال النبي كلهم من شيعة على^(٥٠) اما الشيخ محمد حسين الزين فيخبرنا الى ذلك ان جميع الهاشميين كانوا ايام النبي من الشيعة^(٥١) . والمهم بعد هذا ان الشيعة انفسهم قد اختاروا اربعة من المقربين الى على ودعوهم بالقباء اولا كما يسميهم على بن ابراهيم من اوائل مفسرى الشيعة^(٥٢) ثم دعوا

(٤٧) طرائق الحقائق ٧/٢ .

(٤٨) العبر ١٧١/٣ .

(٤٩) طرائق الحقائق ٧/٢ .

(٥٠) اصل الشيعة واصولها ٦٨ .

(٥١) الشيعة فى التاريخ ٢٦ .

(٥٢) تفسير على بن ابراهيم ٢٧٨ .

يصف السيد محسن الفيض تفسير على بن ابراهيم بقوله : « المنسوب الى اهل البيت انظر كلمات مكنونة من علوم اهل الحكمة : مخطوط فى المتحف البريطانى بلندن برقم Add. 16832) وقد ذكره الشيخ الطوسى فى فهرسته (طبع كلكتا ١٨٥٣ - ٥٥ ، ص ٢٠٩) ولم يذكر ابن النديم التفسير مع كتب على بن ابراهيم وانما ادرج ثلاثة غيره منها اختيار القرآن (الفهرست لايبزج ١٨٧١ ، ٢/٢٢٢) فلعل ذلك لايعنى ان التفسير ليس له ، .

بالاركان فى زمن متأخر وهؤلاء الاركان هم سلمان وابو ذر وعمار والمقداد وحذيفة يسقط منهم واحد ويوضع مكانه آخر ولكنهم يذكرون رباع • وبعد هذا العرض الطويل لاوائل الشيعة نخرج بان الصحابة الذين يتردد ذكرهم كثيرا بوصفهم اخلاص الناس لعلى واصدقهم ولاء له - ما عدا الهاشميين واولاد على نفسه - انما هم : سلمان الفارسى وابو ذر الغفارى وعمار بن ياسر والمقداد بن الاسود وحذيفة بن اليمان وكل اولئك من المستضعفين والعييد والغرباء الذين والوا عليا لا لطمع فى مادة او جاه وانما اتباعا لوصايا النبى وتوسما الخير والايمان فى على وسنرى مصداق ذلك كله فى الفصل الاتى •

سلمان الفارسى

اختلف الباحثون فى اسم سلمان الاصلى وفى موطنه وفى عمره وفى كل شىء يتصل به حتى ان كليمان هيوار وهوروقنس انكرا تاريخيته^(٥٣) ولكن ما سينيون يرد ذلك ويثبت وجوده بأن اسمه « يدخل فى الاطار التاريخى للمشاجرات بين الصحابة »^(٥٤) ، وهما يكن من شىء فقد كان سلمان من ابناء الدهاقين^(٥٥) وكان سائحا مسيحيا بعد ان ترك المزدكية وجعل يبحث عن النبى الجديد الذى اخبره الرهبان الذين تلقى عنهم انه سيظهر فى ارض تيماء وتفصيل ذلك وارد فى طبقات ابن سعد^(٥٦) • فنستطيع بادىء ذى بدء ان نعتبره سلفا للزهاد السائحين من امثال ابراهيم بن ادهم • وقد عانى سلمان الفارسى الاصفهانى الاصل العبودية فى سبيل اسلامه وكان اسمه روزبة بن خشنود او مابه^(٥٧) ثم صار من موالى النبى قبل ان يعتق^(٥٨) • والمهم فى سلمان انه « كان يدرى ان الرسول سيظهر فكان

(٥٣) شخصيات قلقة فى الاسلام ٨ •

(٥٤) شخصيات قلقة فى الاسلام ١٠ •

(٥٥) طرائق الحقائق ٢/٢ •

(٥٦) طبقات ابن سعد ٥٣/٤ - ٥٧ •

(٥٧) طرائق الحقائق ٢/٢ •

(٥٨) طرائق الحقائق ٢/٢ •

يبحث عنه ويسأل حتى رأى النبي (٥٩) ورأى فيه علامات النبوة ومنها خاتم النبوة وهو قطعة لحم ناثه على غضروف الكتف الايمن (٦٠) وستكون هذه العلامة نفسها دليلا على مهديّة محمد بن عبدالله بن الحسن النائر الزيدى فى المدينة سنة ٧٦٢/١٤٥٠ • وقد كان من اهمية سلمان فى الاسلام انه عنى بالآية : لسان الذى يلحدون اليه اعجمى وهذا لسان عربى مبين (٦١) التى صرفها المؤرخون الى بحيرا سرجيوس الذى ايد ماسينيون انه شخصية مشكوك فيها • وهذا كله يعنى ان سلمان قد اتجه الى الاسلام بكلية وانه كان يبحث عن حقيقة ينشدها فوجدها فى محمد والاسلام فاعتق الدعوة الجديدة وخدمها من بدء دخوله فيها باشارته بحفر الخندق • ورجل مثل سلمان فى جهده الذى بذله عقليا وروحيا وجسديا وماديا بتركه وطنه وبسياحته الطويلة فى فارس ودمشق والموصل ونصيبين وعمورية ثم رحلته الى مكة (٦٢) وبتركه الراحة والرفاهية عند اسرته فى اصفهان لابد ان يكون مسلما مخلص الايمان لاتزعزعه الانواء ولا تؤثر فى عقيدته مؤثرات مادية • ويبدو ان الصلة بينه وبين على كانت قوية فاننا نجده يقود بغلة النبى الشهباء التى كانت تركبها فاطمة فى زفافها الى على (٦٣) وقد كان سلمان من الاربعة الذين تشاق اليهم الجنة وعلى اولهم كما رأينا ، وروى ابن الجوزى وابن سعد ان عليا قال فيه : ذلك امرؤ منا والينا اهل البيت ، ادرك العلم الاول والعلم الاخر وقرأ الكتاب الاول والكتاب الاخر» (٦٤) وقد مر بنا ما قاله سلمان فى على الى حد انه خشى ان يفصح عن حقيقة مركزه خوف تعرضه للقتل والتكفير (٦٥) ويبين حدود علم سلمان السرى خبر يرد عن على بن الحسين زين العابدين

(٥٩) حلية الاولياء ١/١٩١ •

(٦٠) شخصيات قلقة ١٠ •

(٦١) طرائق الحقائق ٢/٢ •

(٦٢) طبقات ابن سعد ٤/٥٧ •

(٦٣) من لا يحضره الفقيه الجزء الثالث •

(٦٤) صفة الصفوة ١/٢٢٠ ابن سعد ٤/٨١ •

(٦٥) طرائق الحقائق ١/٢١١ •

نصه : « لو علم ابو ذر مافى قلب سلمان لقتله وقد آخى رسول الله بينهما ، فما ظنكم بسائر الخلق » (٦٦) وهذا الخبر وسابقه تكمل صلة سلمان بعلى وتحدد معنى الامامة والوصية والعلم اللذنى الذى وهبه على تعلمنا من النبى ، والمعرفة التى توجب قتل مسلم هى الاشراك بالله ، فيفهم من هذه الاخبار ان المقصود بفضائل امير المؤمنين على صفاته الالهية والعلوم السرية التى يعرفها ، والخبر الاخير يمثل طبيعة المعرفة التى يشتمل عليها سلمان الذى خبر الاديان وتنقل فيها ولعله يشير ايضا الى الاصل الذى ربما اعتمد عليه الاسماعيليون فى مذهبهم المستند الى طبقات المعرفة التى تدق بزيادة ايمان المريد بالمذهب ، ولعله المصدر الذى قبس منه الصوفية مراحل السلوك . وهذا الحديث على كل حال يبين الى اى مدى كان سلمان مطلعا على العلوم السرية وغيباتها وطبيعة النبوة ، ويستتبع ذلك الوصية التى هى من خصائص الاديان السابقة . ولهذا فانه ليس من العتب ان يذكر ابن الاثير فى حوادث سنة ٣٦ : « وفيها مات سلمان فى قول بعضهم ، وكان عمره ٢٥٠ سنة - هذا اقل ما قيل فيه - وقيل ٣٥٠ سنة ، وكان قد ادرك بعض اصحاب المسيح (ع) ، لان ذلك يربطه بالنبوة التى تؤثر عن المسيح بظهور نبى بعده اسمه احمد كما يرد ذلك فى القرآن . وقد كان سلمان معاصرا لاصحاب المسيح فيكون سلمان الواسطة بين المسيحية والاسلام والمبشر الخير بظهور النبى الجديد . ليس هنا فقط بل ان عمر سلمان الطويل يجعله موصولا بالنبؤات السابقة التى يعتمد عليها الشيعة فى الوصية ومنها الحديث : « انت منى بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبى بعدى » (٦٧) وبهذا تم سلسلة السند الذى يثبت الوصية والامامة لملى فيكون وارث علم النبى كما ورث اوصياء الانبياء الاسرائيليين علومهم . وقد التفت ماسينيون الى هذه المحاولة ايضا ولكنه لم يلتفت الى صلتها بالوصية . ومع ذلك فقد لاحظ انه قد كان سلمان داعية شيعيا قديما فى

(٦٦) طرائق الحقائق ٢٣٢/١ .

(٦٧) مروج الذهب ٤٩/٢ .

الكوفة و «عقد حلفا مع بنى عبد القيس . . . واستطاع ان يضمهم هم وحلفاءهم من الحمراء (الجنود الفرس السابقين) الى آرائه الخاصة باحقية على» (٦٨) ويضيف ماسينيون الى ذلك ان تلميذا لسلمان هو الذى قام بهذا العمل .

وإذا اتضح لنا مقام سلمان من بداية التشيع واسباغه الولاية على على واعتبارها مصداقا لارادة الله ونبؤات الرسل ، فان من الواضح من سيرته ان يكون زاهدا قديما بل سائحا مسيحيا سابقا قطع المسافات الطويلة بحثا عن الحقيقة . واذن نستطيع ان نربط الزهد بالتشيع منذ نشأته الاولى ونجعل المقدمات التى ذكرناها من زهد سلمان شيئا روحيا يتصل بالنفس البشرية التى تطمح الى السمو الروحي لا زهدا قائما على الاحداث السياسية والثورات الاجتماعية والاسباب المادية . فيكون سلمان بدء للزهد الذى اوصل الى التصوف أو ابلغ الى الغاية التى يطمح اليها المتصوفة ، بل نستطيع ان نجعل من عقيدة سلمان السرية التى كان يخشى البوح بها من فضائل على بن ابي طالب خوف القتل اعتقادا قائما على التحلول الذى قال به غلاة الشيعة بعدئذ ثم دخل التصوف فى شخص الحلاج وابي يزيد البسطامى . وليس عجيبا اذن ان يركب سلمان الزاهد حمارا (٦٩) كما فعل السيد المسيح الذى اخذ عنه تعاليمه من الرهبان قبل اسلامه ومن حياته الاسطورية التى امتدت الى معاصرتة لاصحاب المسيح الاوائل . وكان سلمان من اهل الصفة « وله المقام الثانى فى ثبت الاربعة والثلاثين الذين ذكرهم وجمعهم السلمى مؤرخ الصوفية ، فهو من الفقراء الذين انقطعوا للعبادة فى مسجد رسول الله وكانوا اسلاف المتصوفة » (٧٠) وكان كلام سلمان مزيجا غريبا عجيبا من الفساذ القرآن ومعانيه مختلطين بالافكار الجديدة ذوات الاسرار والزهد الذى طلع بهما على الاسلام اخذا عن الزهد الرهبانى ، فقد افتخرت قريش عند

-
- (٦٨) شخصيات قلقة فى الاسلام ٢٩
(٦٩) حلية الاولياء ١/١٩٥ .
(٧٠) شخصيات قلقة فى الاسلام ٣٤

سلمان فقال ولكنني خلقت من نطفة قدرة ثم اعود جيفة منتنة ، ثم يؤتى بي الى الميزان : فان ثقلت فانا كريم وان خففت فانا لئيم ، (٧١) وهذا معنى عبر عنه على عبارته المشهورة : ما لابن آدم والفخر ، واوله نطفة وآخره جيفة (٧٢) . ويروى عن سلمان تصرف سيعتاده زهاد البصرة في أواخر القرن الثاني وذلك انه لما نزلت آية : وان جهنم لموعدهم اجمعين (٧٣) ، صاح صيحة ووضع يده على رأسه ثم خرج هاربا ثلاثة ايام (٧٤) وقد فسر السراج هذه الصيحة بانها مصداق قول الرسول (ص) : لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولما تلذذتم بالنساء ولا تقاررتن على فرشكم ، ولخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله تعالى «...» (٧٥) ، فقد كان سلمان - اذا صح ما تقدم - مطلعا على العلوم والاسرار التي لا يعرفها الا الانبياء . وقد استغل مؤلفو كتب الصوفية مركز سلمان في الزهد وانقسموا فريقين : فريق تحاشى ذكره مع كونه احد مشاهير الزهاد من الصحابة لصلته بالتشيع ولخوفهم من ان ينم ذكروهم له - بجعله من مؤسسى الزهد - على صلتهم هم بالتشيع ، وكان القرن الثالث والرابع اللذان ظهر في اولهما التصوف ونضج في ثانيهما يتسمان باضطهاد الشيعة ومن يتصل بهم ، وفريق حاولوا ان يصلوا سلمان بالتصوف باخذهم عنه من طريق رجال نسبهم على الأقل من غير الشيعة . يقول ماسينيون « فنجد اسناد سلمان لدى بعض الفرق الدينية السنية القادرية والبكتاشية والنقشبندية ، ليس الا ظاهرة عرضية ، فهي ترجع الى ما قبل القرن السادس ، وقد نشأت عن استعارة - يتفاوت التصريح بوجودها - من الاسناد النسبي الصوفى للسهروردية الذين زعم رأسهم ابن عمويه السهروردي المتوفى حوالى سنة ١١٥٥/٥٥٠ تلميذ الزنجاني

-
- (٧١) صفة الصفوة ٢١٩/١ .
(٧٢) الكواكب الدرية ١/٠٤٠ .
(٧٣) الحجر ٤٣ .
(٧٤) اللمع ١٣٤ .
(٧٥) اللمع ٣٨٧ .

انه بكرى ، وذلك انه السبط السابع لعبد الرحمن (المتوفى سنة ١٢٦/٧٤٤)
 بن القاسم بن محمد بن ابى بكر ، وابوه القاسم (المتوفى سنة ١٠٨/٧٢٦)
 يقال : انه كان تلميذاً لسلمان وهذا كان تلميذاً لابي بكر (هكذا) ،^(٧٦) ،
 ويضيف ماسينيون الى ذلك قوله : « فاذا عرفنا الى اى مدى شارك ابوه محمد
 - المتوفى سنة ٣٧/٦٥٧ - فى قتل عثمان لم نفهم لماذا تعلقت هذه الطريقة
 السنية بمثل هذا الاسناد الذى لم ينسب اليها الا نادراً »^(٧٦) ، والحق ان
 ذلك ليس عجيباً وان السبب فى جعل القاسم بن محمد بن ابى بكر تلميذاً
 لسلمان وجعل سلمان تلميذاً لابي بكر واضح فى محاولة أخذ التصوف من
 طريق غير شيعى لان كل السلاسل الصوفية تتصل بالامام على ، ووصل
 سلسلة من السلاسل بابى بكر عن طريق القاسم وسلمان يخفف من حدة
 الصلة الشيعية بالسند الصوفى مع ان القاسم نفسه «راوية معترف به من السنة
 والشيعية» : اى هو شيعى الميل • ويحسن أن نلتفت الى ان لنسب السهروردي
 البكرى مدخلا الى ذلك ، ولعله ملاك الامر كله •

ثم ان البكاشية الذين ذكرهم ماسينيون على انهم من اهل السنة انما هم
 امامية اثنا عشرية ليس فى صحة ذلك شك مطلقاً ، ووصل سلسلتهم بابى بكر
 عن طريق سلمان الذى عرفت صلته بعلى بالاضافة الى طرق اخرى علوية
 شيعية تسبغ على طريقتهم شيئاً من التسامح والبعد عن التعصب •

وعقد سلمان - من حيث صلته بمؤلفى كتب التصوف الذين حاولوا
 جهد الامكان ان يخفوا الاثر الشيعى فيه - انه قد قيل فيه : سلمان منا أهل
 البيت^(٧٧) ، وانه شيعى لامراء فى شيعيته لقول على فيه «سلمان منا والينا أهل
 البيت»^(٧٨) ، فاولوا هذا الحديث بحديث اخر رفعوه عن انس الى النبي
 (صلم) قيل : « يا نبى الله ، من آل محمد؟ قال : كل تقى »^(٧٩) وارادوا

(٧٦) شخصيات قلقة فى الاسلام ٣٠ •

(٧٧) الفتوحات المكية ١٦٧/٢ وطبقات ابن سعد ٥٩/٤ •

(٧٨) صفة الصفوة ٢١٩/١ •

(٧٩) الرسالة القشيرية ٦٨ •

بذلك ان يخففوا من أثر ذلك الحديث الذى اضاف الى سلمان كونه من أهل البيت ولاء واخلاصا وعلما باسرار الدين والنوصية و العلم اللدنى • وكان مقصدهم بالاضافة الى ذلك تفتيت الاثر الشيعى فى سلمان وكونه واحدا من أهل البيت فجعلوا الامة الاسلامية كلها - وتقاهما امر بديهى - اهل البيت بكل ما كان فى الامة من خصومة ومناقضة فى حياة الرسول وبعد موته • ولكن ابا نعيم يصحح هذه النتائج ويصل الزهاد والمتصوفة بالشيعة بل ويجعلهم من خصوص الشيعة ، ويثبت بذلك الصلة الوثيقة بين الزهد والتشيع ، فيورد عن حذيفة عن النبي (ص) انه قال : «من سره ان يحيا حياتى ويعوت ميتى ويتمسك بالقصبة الياقوتة التى خلقها الله بيده ثم قال لها كونى فكانت ، فليتولى على بن ابي طالب» (٨٠) • وبين ابو نعيم من هم اولئك الشيعة فيقول : «حدثنا احمد بن على عن ابيه عن جده عن سلمة بن كهيل عن مجاهد قال : شيعة على الحكماء العلماء الذبل الشفاء الاخير الذين يعرفون بالرهبانية من اثر العبادة ، وعن على بن الحسين : شيعتنا الذبل الشفاء والامام منا من دعا الى طاعة ربه» (٨١) ثم يعقب على ذلك بقوله : « فالمحققون بموالات العترة الطيبة هم الذبل الشفاء المقترشوا الحياء ، الاذلاء فى نفوسهم العتاة ، المفارقون لمؤثرى الدنيا من الطغاة • هم الذين خلعوا الراحة و زهدوا فى لذيد الشهوات وانواع الاطعمة والوان الاشربة فدرجوا على منهاج المرسلين والاولياء من الصديقين ورفضوا الزائل الفانى ورجعوا فى الزائد الباقي فى جوار المنعم المفضل ومولى الايادى والنوال» (٨٢) وهكذا يتبين الاثر الشيعى فى الاتجاه الذى تركه سلمان منذ بدء الاسلام •

ولكن دور سلمان فى الاسلام لم ينته بكونه من الشيعة الاولين على اساس المعرفة والعلوم السرية ولا بكونه من اوائل الزهاد الذين شقوا

(٨٠) حلية الاولياء ١/٨٦ •

(٨١) حلية الاولياء ١/١١٦ •

(٨٢) حلية الاولياء ١/١١٦ •

للتصوف طريقه المرسوم بل جعل - بسيرته تلك وبحياته الحافلة بالتجربة والثقافة والعلم السرى - زعيم فرقة دينية غالية هي السينية على اعتبار انه « الحلقة المفقودة الضرورية بين محمد وعلى » (٨٣) و « هذا الدور العالى : دور السين اى دور النقيب الموحى اليه ، هو الذى ادعاه ابو الخطاب وكان لقبه فى البدء : مولى بنى هاشم (٨٤) فى سنة ١٣٨ بالكوفة قائلا : ان الامام جعفر (الصادق) اعترف له به متخذاً صيغة اخرى مدسنة له - غنوصية - يزعم ان محمدا استخدمها متحدثا عن سلمان (٨٥) .

وينقل الحاج معصوم على عن مجمع البيان ان « الغلاة هم الذين يغالون فى على ويجعلونه ربا . والتخميس - عندهم - هو ان : سلمان الفارسى والمقداد وابا ذر وعمارا وعمرو بن امية الضمرى هم الموكلون بمصالح العالم عن على ، وهو رب » (٨٦) . وكذلك يورد ماسينيون (٨٧) .

ولسلمان شخصية شعبية اخرى لا علاقة لها بالعقائد - وان كان اصلها اسماعيليا - وهى انه قد اختير حاميا للنقابات فى بغداد « تجتمع عند قبره وتقيم الولائم والحفلات فى النصف من شعبان كل سنة » (٨٨) وانتهت حياة سلمان اسطورية كما بدأت ، فقد روى الراوون انه « لما حضر سلمان الموت دعانى (المتكلم زوجه بقيرة) وهو فى علية لها اربعة ابواب فقال : افتحى هذه الابواب يا بقيرة ، فان لى اليوم زوارا لا ادرى من اى هذه الابواب يدخلون على . ثم دعا بمسك له ثم قال : اديفية فى تنور ففعلت . ثم قال : انضحيه حول فراشى ثم انزلى فامكئى ، فسوف تتطلعين فتريننى على فراشى .

(٨٣) شخصيات قلقة ٣٧ .

(٨٤) ميزان الاعتدال للذهبي ٦٤/٣ .

(٨٥) شخصيات قلقة فى الاسلام ١٩ .

(٨٦) طرائق الحقائق ١٠٩/٢ .

(٨٧) شخصيات قلقة ٤٨ .

(٨٨) شخصيات قلقة .

فاطلعت فاذا هو قد اخذ روحه فكأنه نائم على فراشه» (٨٩) .

ويضيف الحاج معصوم علي : « قال السيد الشهيد القاضى نور الله فى المجلد الثالث من مجالس المؤمنين : ٠٠٠ و يروى ان امير المؤمنين رحل من المدينة الى المدائن ذات ليلة وغسل سلمان ورجع الى المدينة فى نفس الليلة ٠٠٠٠ (٩٠) .

ابو ذر الغفارى

أحد الاركان ، يتميز بطابع خاص ولكنه من طراز سلمان فى السبق الى التوحيد قبل ظهور الاسلام (٩١) وقد جهر باسلامه فى مكة وتعرض للضرب فيها ولم يشفع له الا كونه من غفار محطة القوافل القاصدة الى الشام (٩٢) فرسخت هذه الحادثة فى ذهنه وطبعت زهده بطابعها فرأيناه يدور حول محاربة خزن الاموال والاكتثار منها . وكان ابو ذر رابع المسلمين وذلك مدعاة للفخر حقا وبخاصة انه بدوى ، والبدواة والايمان العميق لا يتفقان . وقد مر بنا تحقيق شيعية ابى ذر ونضيف الان انه قد كان له مقام رفيع فى التشيع الاول الى حد انه قد روى عنه ثلاثة من الائمة : على بن ابى طالب (٩٣) والحسين بن على (٩٤) وجعفر الصادق ، وذلك شرف لم يحظ به أحد من اصحاب رسول الله . وكان الى ذلك يقول : « ان بنى أمية تهددنى بالفقر والقتل ، ولبطن الارض احب الى من ظهرها ، وللفقير احب الى من الغنى» (٩٥) وكان عثمان يقول له - بعد ان بدت معارضته له - : «كن عندى تغدو عليك وتروح اللقاح» (٩٦) فاجابه ابو ذر : « لا حاجة لى فى دنياكم» (٩٦-) وتلك

- (٨٩) حلية الاولياء ابن سعد ٦٢/٤ .
- (٩٠) طرائق الحقائق ٥/٢ .
- (٩١) طبقات ابن سعد ١٦٣/٤ .
- (٩٢) حلية الاولياء ١٥٧/١ .
- (٩٣) طرائق الحقائق ٩/٢ .
- (٩٤) روضات الجنات ٢٢٩ .
- (٩٥) حلية الاولياء ١٦٢/١ .
- (٩٦) صفة الصفوة ١/٢٢٣ .

سمة اخرى للزهد الذى عكسه ابو ذر المسلم القديم الذى دخل الاسلام وهو يعلم انه دين الضعفاء ومنقذ المستضعفين من سطوة التجار القرشيين فعارض عثمان فى المدينة لانه جعل يتصرف فى اموال المسلمين تصرفا قصد به خلق طبقة من الاغنياء الارستقراطيين صارت فيما بعد السبب فى الثورة على عثمان . وجرت الثورة على عثمان الى عودة القرشيين الذين تغلب عليهم محمد بانصاره من الضعفاء والعييد السابقين والمستضعفين ، الى سابق مجدهم بحيث صار خصم الثائرين على عثمان ، وهم جل الامة الاسلامية ، معاوية بن ابي سفيان ولى عهد رئيس مكة الذى كانت هزيمته فى بدر بداية لمولد الاسلام القوى . وكان من تشيع ابي ذر وقربه من على انه خرج لوداعه «يصحبه ولداه الحسن والحسين وأخوه عقيل وابن اخيه عيد الله بن جهمر» (٩٧) حين نفاه عثمان الى الريزة - قرية قرب المدينة - وأمر الا يودعه احد (٩٧) . وكانت سياسة ابي ذر من جنس سياسة على تكمن فى المعارضة الايجابية دون خروج على السلطان ودون نكول عن البيعة التى فى العنق ، فقد كان ابو ذر يعارض عثمان معارضة شديدة لتصرفه فى اموال المسلمين وكأنها امواله (٩٨) ، ولكنه لم يحرك يده وانما كان لسانه هو سلاحه الوحيد فكان يقول - لتدليل على ذلك :- « لو أمر على حبشى لسمعت وأطعت » (٩٩) . وقال للذين طلبوا اليه ان يكون قائدهم فى الثورة : « لو صلبنى عثمان على اطول جذع من جذوع النخل لما غضبت » (١٠٠) ، وتلك سياسة على بعينها حين بايع لابي بكر وعمر ثم عثمان وكان لهم ناصحا ومستشارا مرشدا وكان ايام الفتنة يقول : « لو امرنى عثمان ان اخرج من بينى لخرجت » (١٠١) . وكان ابو ذر - الى ذلك - مع على حين امتنع عن بيعة ابي بكر فى بداية الصراع على الخلافة (١٠٢) ،

-
- (٩٧) اهل البيت لعبد الحميد جودة السحار ٦٨ .
(٩٨) الفتنة الكبرى ١٩٣ .
(٩٩) الفتنة الكبرى ١٩٣ .
(١٠٠) الفتنة الكبرى ٦٤ .
(١٠١) الفتنة الكبرى ٦٤ .
(١٠٢) تاريخ يعقوبى ١٠٢/٢

وهكذا يتبين لنا تشيع ابي ذر .

اما مثله فقد نبت من جوهر الاسلام الذى فهمه ابو ذر على انه محق لارستقراطيى قريش الذين رجعوا عن ضربه وكفوا عن ايدائه - يوم اسلم- لمجرد كونه من غفار التى تتحكم فى طريق القوافل الى الشام ، فادرك منذ ذلك الوقت ان المال هو المبكى عليه وان المال هو الهدف وهو المصدر والمورد وان معارضتهم لدعوة محمد انما كانت لخوفهم من زوال هذا المال ، ومن هنا برز ابو ذر بوصفه اول اشتراكى فى الاسلام . والنواقح انه كان حارسا للاسلام ومراقبا لتطبيق مثله ومبادئه هو وزملاؤه من المسلمين الاولين . ويبدأ زهد ابي ذر - وكان منصبا فى الدرجة الاولى على اثار الفقر والنهى عن كنز المال - يوم نفاه عثمان الى الشام ، فقد ادھسه تفسير معاوية للآية : والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعباب اليم» (١٠٣) بانها : « نزلت فى اهل الكتاب» (١٠٤) وكان ابو ذر يرى انها « نزلت فينا وفيهم» (١٠٥) وبذلك اخذ ابو ذر على معاوية تأويل القرآن على هواه فشعر ابو ذر : حارس المثل الاسلامية الاسلامية ان واجبه يدعو الى ايضاح الحقيقة للناس ففعل وحقت عليه كلمة النفى والتشريد وقد قبلهما ابو ذر راضيا . ويدعوننا اعتراض ابي ذر وثورته على تأويل معاوية للقرآن الى التذكير بان التأويل الشيعى لم يكن من بدايته كذلك وانما كان رد فعل لما صدر من معاوية واعوانه - وبخاصة بعد قتل عثمان - فقابله الشيعة بتأويل حاولوا ان يضعوا به الامور فى نصابها ولكن الظروف حكمت بان

(١٠٣) التوبة : ٣٤ .

(١٠٤) حلية الاولياء ١/٢١٢ . كان معاوية - كما يبدو من روايات اليعقوبى - مغرما بالذهب والفضة ، ذلك انه روى ان زيادا كتب الى الحكم بن عمرو الغفارى عامله على خراسان ابان فتح كورها « ان أمير المؤمنين معاوية كتب الى ان اصطفى له البيضاء والصفراء ، فلا تقسمن شيئا من الذهب والفضة ، فلم يلتفت الحكم الى كتابة ٥٠٠ » (البلدان لليعقوبى ص ٢٩٦-٧) وهذا هو الاصل فى هذا الجدل الذى يبدو لاول وهلة شكليا ولكن الحوادث والتحليل يبديان جذوره وأصوله .

(١٠٥) طبقات ابن سعد ٤/١٦٦ ، قوت القلوب ١/١١٦ .

تقطع به السبل حين استولى الغلاة على اذهان العامة وساروا بالتأويل المتحكم الى نهاية الشوط • ويكفينا دلالة على صحة ماسقناه ان عمار بن ياسر علل حربه لمعاوية وانصاره بردهم عن التأويل كما حارب أباه لانكاره التنزيل^(١٠٦) •

لقد كان ابو ذر زاهدا يصدر عن المثل الاسلامية التي طبقتها ابو بكر وعمر حين وليا أمر المسلمين فقيرين بعد غنى حتى ان عمر(ع) خطب وهو خليفة « وعليه ازار فيه اثنتا عشرة رقعة»^(١٠٧) وتبناها ابو ذر مصداقا لقول علي : « ان الله اخذ على ائمة الهدى ان يكونوا في مثل ادنى الناس ليقسدى بهم الغنى ولا يزرى بالفقر فقره»^(١٠٨) اما عثمان فقد كان « عند خازنه - يوم قتل - ثلاثون الف الف درهم وخمسمائة الف درهم وخمسون ومائة الف دينار فاتهبت وذهبت •••»^(١٠٩) ومن هنا قال ابو ذر « لقد اصبحت وان الفقر احب الى من الغنى ، والسقم احب الى من الصحة ، والموت احب الى من الحياة»^(١١٠) وكان يقول «جزى الله الدنيا عنى مذمة بعد رغيفين من الشعير اتعدى باحدهما واتعشى بالآخر ، وبعد شملتى الصوف انزر باحدهما وارتدى بالآخرى»^(١١١) وهكذا رأينا اقتران الزهد العملي منذ القديم بلبس الصوف واعتباره متمما لمظهر الفقر الذي كان السلاح الماضى الذى ثبت به الاسلام نفسه وتغلب على دسائس القرشيين الارستقراطيين •

ومن الامثلة على زهد ابى ذر ما يرويه عنه سفيان الثورى : «قام ابو ذر عند الكعبة فقال : يا ايها الناس انا جندب الغضارى ، هلم الى الاخ الناصح الشفيق ، فاكنفه الناس فقال : ارايتم لو أن أحدكم أراد سفرا ، اليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ؟ قالوا : بلى ، قال : فسفر طريق القيامة ابعدا ما تريدون ، فخذوا منه ما يصلحكم • قالوا : وما يصلحنا ؟ قال : حجوا حجة لعظام

-
- (١٠٦) مروج الذهب ٢/٢١ •
(١٠٧) حلية الاولياء ١/٥١ •
(١٠٨) قوت القلوب ٢/٨٠ ، احياء العلوم ٤/٢٢٢ •
(١٠٩) ابن سعد ٣/٥٣ •
(١١٠) البيان والتبيين ٣/١٣٧ •
(١١١) اصول الكفاى ١٨٦ •

الامور ، صوموا يوما شديدا حره لطول النشور ، صلوا ركعتين فى سواد الليل لوحشة القبور . . . ثم قال : يا ايها الناس قد قتلكم حرص لاندركونه ابداء (١١٢) وابو ذر يصدر - فى تشبيهه الموت بالسفر - عن قول على يا ايها الناس كأن الموت على غيرنا قد كتب ، وكأن الذين تشيعون من الاموات سفر عما قليل الينا راجعون ، نبوئهم اجدائهم ونأكل تراثهم كأننا مخلدون بعدهم» (١١٣) وقال ابو ذر « فى المال ثلاثة شركاء : القدر لا يستأمر ان يذهب بخيرها وشرها من هلاك او موت ، والوارث ينتظر ان تضع رأسك ثم يستاقها وانت ذميم ، وانت الثالث . فان استطعت الا تكون اعجز الثلاثة فلا تكونه ، ان الله يقول : لن تالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون (١١٤) ، وان هذا الحمل مما كنت احب من مالى فاحببت ان اقدمه لى (١١٥) وهكذا يتكرر ورود المال وجهه فى كلام ابى ذر .

وقد اغرت بساطة ابى ذر وزهده وصراحته واخلاصه اصحاب كتب التصوف بان يجعلوه رأسا من رؤوس هذا المشرب وان يضعوا على لسانه مالم يقله وان يصفوه بما لم يتصف به كرواية السراج عنه قوله : « ان قيامى بالحق لله تعالى لم يترك لى صديقا ، وان خوفى من يوم الحساب ماترك على بدنى لحما ، وان يقينى بثواب الله ماترك فى بيتى شيئا » (١١٦) فهذا الخبر يجعل من ابى ذر رجلا من اصحاب المواجد وكذلك الخبر الذى يورده الكشى - كما ينقل عنه الحاج معصوم على - عن ابى ذر انه « بكى من خشية الله حتى اشتكى عينيه . . . » (١١٧) فهو هنا بكاء ، وتلك صفة لم تؤثر عنه . وأضاف ابو نعيم الى ابى ذر صفة صوفية محضة فزعم انه « أول من تكلم فى علم الفناء والبقاء » (١١٨) وذلك ادعاء يحمل جرثومة تهافته .

-
- (١١٢) حلية الاولياء ١/١٦٥ .
 - (١١٣) نهج البلاغة ٢/٨٢ .
 - (١١٤) آل عمران : ٩٢ .
 - (١١٥) صفة الصفوة ١/٢٤١ .
 - (١١٦) اللمع ١٣٥ .

ومثل ذلك في التهافت ما يورده ابن الجوزي ان رجلا دخل على ابي ذر «فجعل يقلب بصره في بيته ، فقال : يا أبا ذر ، انه لا بد لك مسن متاع ما دمت ها هنا . قال : ان صاحب المنزل لا يدعنا فيه» (١١٩) ويأتي تهافته من ركة اسلوبه ومن ايراده اصطلاح : صاحب المنزل ، الذي يبعد استعماله في القرن الاول . وقد استغل الشيعة ابا ذر في اسباغ الروحانية على الائمة فرووا انه قال في تفسير قوله تعالى : ان الله اصطفى آدم ونوحا . . . فاما النورية فمن نوح والآل ن ابراهيم والسلالة من اسماعيل والعترة الهادية الطاهرة من محمد والصديق الاكبر على بن ابي طالب . . .» (١٢٠) .

وقد انتهت حياة ابي ذر في الربذة بسيطة عميقة كبدائتها في الاسلام ، وكانت مصداقا لنبوءة القاها النبي باخباره له : « . . . ليموتن رجل بفلاة من الارض تشهد عصابة من المؤمنين » (١٢١) وكان هو هذا الميت بالفلاة غريبا الربذة ، وقد مر به المؤمنون الموعودون فطلب اليهم « لا يكفنتي رجل منكم كان اميرا او عريفا او بريدا او نقييا . . .» (١٢٢) وهكذا ضرب ابو ذر مثلا عاليا من سلامة الايمان والاصرار على العقيدة والمعارضة الايجابية حتى في موته .

عمار بن ياسر

ركن آخر من اركان التشيع وصورة جديدة للشخصيات الشيعية الاولى ، وكان يمثل الاصرار المنقطع النظر على ما يراه حقا والاندفاع الى اقصى غايات الاندفاع وتضحية النفس - اذا اقتضى الامر - في سبيل المبدأ . والجديد في أمر عمار أنه قد كتب له ان يعيش الى بيعة الامام على فعكس لنا ما كان سيفعله سلمان وابو ذر لو قدر لهما ان يحيا الى ذلك اليوم .

-
- (١١٧) طرائق الحقائق ٩/٢ .
 - (١١٨) الوسائل الى مسامرة الاوائل (عن ابي نعيم في كتابه « معرفة الصحابة») ص ١٢٩ .
 - (١١٩) صفة الصفوة ١/٢٤٤ .
 - (١٢٠) طرائق الحقائق ١١٢/٢ .
 - (١٢١) صفة الصفوة ١/٢٤٣ .
 - (١٢٢) حليه الاولياء ١/١٦٩ .

لقد قال معاوية لمناسبة قتل الاشتر : « لقد كان لعلي يمينان ، فقطعت احدهما بصفين (يعنى عمار بن ياسر) وقطعت الاخرى اليوم » (١٢٣) . وبذلك تبدو شيعة عمار على لسان من قاتله الشيعة . وكان عمار ممن اودى في اسلامه وعذب ابوه وامه واخوه بيد القرشيين لسبقهم الى الاسلام في مكة (١٢٤) ، وعاد اليه الاذى ايام عثمان (١٢٥) . لانه عارض سياسته في الانعام على الامويين من اعداء الاسلام السابقين الذين لقي هو واهله منهم مالمقوا ودخل الاسلام ليستظل به من عبوديته لهم في الجاهلية حتى لقد زعم قاتله في صفين انه انما فعل ذلك لانه كان « يقع في عثمان ويشتمه بالمدينة » (١٢٦) .

وقد كان عمار - لهذا - اشد حراس الاسلام مراسا واكثرهم عنادا في الحفاظ على مثله ومبادئه ، وهذا يفسر لنا نصرته لعلي وموالاته الشديدة له ، فقد كان يراه عمار ملك المساكين وأمير المستضعفين الذي يحفظ للمسلمين الحقيقيين مكاتهم وكرامتهم ولهذا قال عمار في علي : « . . . ووهب لك حب المساكين ، فجملك ترضى بهم اتباعا ويرضون بك اماما » (١٢٧) . وكان عمار - الى ذلك - محوطا بهالة من الاحاديث النبوية التي ترفع من شأنه وتعوضه عن العذاب الذي لقيه وتجعله من عظماء المسلمين وتغطي على عبوديته فقال (ص) فيه : « ان ابن سمية لم يخير بين امرين الا اختار ارشدهما » (١٢٨) . وقال : « ويحك يا ابن عمار تقتلك الفئة الباغية » (١٢٩) فاقر له (ص) بلزوم

(١٢٣) طرائق الحقائق ١٧/٢ .

(١٢٤) طبقات ابن سعد ٣ : ١٧٨/١ .

(١٢٥) الفتنة الكبرى ١٩٨ .

(١٢٦) طبقات ابن سعد ٣ : ١٨٦/١ .

(١٢٧) حلية الاولياء ٧١/١ . وينبغي ان نقرن تلقيب علي بابي تراب بهذا المعنى ايضا ، وذلك ان الفقراء عند العرب كانوا يسمون بني غبراء أى بني تراب (انظر معلقة طرفة) ومن هنا كان علي حتى في لقبه هذا ملكا للمساكين .

(١٢٨) وقعة صفين ٣٨٧ ، مسند ابن حنبل (الحديث ٤٢٤٩) بنص آخر .

(١٢٩) طبقات ابن سعد ٣ : ١٨٠/١ ، مسند ابن حنبل (الحديث ٦٤٩٩)

بنص آخر ، وانظر البخارى صلاة : ٦٣ ، فتن : ٧٠ ، ٧٢ . الترمذى =

سمت الحق طول حياته وجعل خصومه الفئة الباغية واوصى النبي (ص) المسلمين بان يكونوا مع الفريق الذى فيه عمار فقال (ص) : « فالزموا سمتة » (١٣٠) وقال : « يدور الحق مع عمار حيثما دار » (١٣١) فكان النبي الاكرم اراد ان يقرر ان عمار بن ياسر واشباهه لا مصلحة لهم الا فى الاسلام وبقائه على ما كان يريد له الرسول وانهم هم حراس هذه المبادئ لان الاسلام قد رفعهم من ضعة وانهم من خوف فمصلحتهم هى مصلحة الاسلام وكل تغيير يمسها انما يمسهم بقول عمار حين سمي جيش معاوية فى صفين بالاحزاب اعداء النبي » (١٣٢) وكان يقول : « ان مراكزنا على مراكز رايات رسول الله (ص) عليهم يوم بدر ويوم احد ويوم حنين ، وان هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الاحزاب » (١٣٣) . وقد اعترف عمار بقتل عثمان صراحة (١٣٤) لانه اعاد بنى عبد شمس الى سابق مجدهم وساعد - ان قصدا او عفوا - على نشوء طبقة ارستقراطية اسلامية تضم سراة مكة السابقين .

وقد صار عمار واشباهه من العبيد السابقين والمستضعفين عظماء الاسلام ورجاله شاء القرشيون أم ابوا ، وكان هوى عمار مع على اقرب الناس الى مثل الاسلام الصحيحة ، وكان القرشيون خصومه . وكان معاوية قد شرع سب على وجعله سنة فقابله عمار واصحابه بأن جعلوا يرفعون من شأن على ويحطون من شأن القرشيين فكان ان احس اعداء على بان أثر عمار ابقى فى نفوس المسلمين ولم يستطيعوا ان يعادوه صراحة ولا ان ينقضوا اقواله مواجهة ، فالتجؤوا الى حيلة قديمة وحرب خفية هى الاشاعات والندس فنعثوا عليا بأبى

= مناقب : ٣٤ ، ابن حنبل ١٦١/٢ ، ١٦٤ ، ٢٠٦ ، ٥/٣ ، ٢٢ ، ٢٨ ، ٩١ ، ١٩٧/٤ ، ١٩٩ ، ٢١٥/٥ ، ٣٠٦ .

- وقعة صفين ٣٨٧ (١٣٠)
- طرائق الحقائق ١٢/٢ (١٣١)
- وقعة صفين ٢١٢ (١٣٢)
- وقعة صفين ٣٦٤ (١٣٣)
- الطبرى ١٨٧/٥ (١٣٤)

تراب وجعلوا يسبوناه في الشام دون ان يعلم كثير من الناس من هو ابو تراب هذا (١٣٥) وظنوه مبتدعا خارجا على الاسلام . ويحسن بنا ان ننبه الى الرأى الصائب الذى طلع به علينا الدكتور على الوردى الباحث العراقى فى اثبات كون عمار هو ابن سبأ وهذا هو نص الادلة :

ومن غرائب التاريخ ان نرى ان كثيرا من الامور التى تنسب الى ابن سبأ موجودة فى سيرة عمار بن ياسر على وجه من الوجوه :

١ - كان ابن سبأ يعرف بابن السوداء ، وقد رأينا كيف كان عمار يكتبى بابن السوداء ايضا

٢ - وكان من أب يمان ، ومعنى هذا انه كان من ابناء سبأ ، فكل يمان يصح ان يقال عنه : انه ابن سبأ فأهل اليمن كلهم ينتسبون الى سبأ بن يشجب بن قحطان ، وفى القرآن : قال الهدهد لسليمان انه جاءه من سبأ ، وقصد بذلك اليمن (النمل : ٢٢) (سبأ : ١٤) .

٣ - وعمار فوق ذلك كان شديد الحب لعلى بن ابي طالب (ع) يدعو له ويحرض الناس على بيعته فى كل سبيل .

٤ - وقد ذهب عمار فى ايام عثمان الى مصر وأخذ يحرض الناس ثمة فضج الوالى منه وهم بالبطش به ، وهذا الخبر يشابهه ما نسب الى ابن سبأ من انه استقر فى مصر واتخذ القسطاط . مركزا لدعوته وشرع يرأسل انصاره منها (١٣٦) .

٥ - وينسب الى ابن سبأ قوله : ان عثمان اخذ الخلافة بغير حق وان

(١٣٥) مروج الذهب ٧٢/٢ .

ومن اوضح ما يتعلق بهذه الخطة مارواه مسلم فى صحيحة من أن رجلا من آل مروان استعمل على المدينة «فدعا سهيل بن سعد فأمره ان يشتم عليا فأبى ، فقال أما اذا أبيت فقل : لعن الله ابا تراب ، (صحيح مسلم ، مصر ١٣٤٩ ، ٢/٣٢٦) .

(١٣٦) نيكلسون

صاحبها الشرعى هو على بن ابي طالب • والواقع ان هذا هو كلام عمار بن ياسر بالذات ، فقد سمع ذات يوم يصيح فى المسجد - اثر بيعة عثمان - : يا معشر قريش ، اما اذا حرفتم هذا الامر عن بيت نبيكم ها هنا مرة وها هنا مرة ، فما أنا بأمن عليكم من ان ينزعه الله فيضعه فى غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه فى غير اهله (١٣٧) •

٦ - ويعزى الى ابن سبأ انه هو الذى عرفل مساعى الصلح بين على وعائشة ابان معركة البصرة ، فلولاه لثم الصلح بينهما حسب ما يقول الرواة • ومن يدرس تفاصيل واقعة معركة البصرة يجد عمارا يقوم بدور فعال فيها ، فهو الذى ذهب مع الحسن ومالك الاشر الى الكوفة يحرض الناس على الانتماء الى جيش على ، وكان وقوف عمار بجانب على اثناء المعركة سببا من اسباب ندم الزبير وخروجه منها ••

٧ - وقالوا عن ابن سبأ : انه هو الذى حرك ابا ذر فى دعوته الاشرابية ، ولو درسنا صلة عمار بابى ذر لوجدناها وثيقة جدا ، فكلاهما من مدرسة واحدة هى مدرسة على بن ابي طالب ، وكان هؤلاء الثلاثة يجتمعون ويتشاورون ويتعاونون معا •••

نستخلص من هذا ان ابن سبأ لم يكن سوى عمار بن ياسر ، فلقد كانت قريش تعتبر عمارا رأس الثورة على عثمان ، ولكنها لم تشأ - فى اول الامر - ان تصرح باسمه فرمزت عنه بابن سبأ او ابن السوداء ، وتناقل الرواة هذا الامر غافلين وهم لا يعرفون ماذا كان يجرى وراء الستار (١٣٨) •

وهذه الادلة مقنعة ومنطقية ولكنها فى حاجة الى نصوص تسند تسمية عمار بن ياسر بابن السوداء وابن سبأ ، فاما كون عمار بن ياسر ابن السوداء فقد ورد فى نص رواه على بن ابراهيم القمى صاحب التفسير الشيعى القديم

(١٣٧) اهل البيت ٦٦ •

(١٣٨) وعاظ السلاطين ٢٧٤-٨ •

لمناسبة الآية : يمنون عليك ان اسلموا (١٣٩) ، فقال : « نزلت في عثكن بن معاوية يوم الخندق ، وذلك انه مر بعمار يحفر الخندق وقد ارتفع الغبار من الحفر ، فوضع عثكن كفه على أنفه ومر ، فقال عمار :

لايستوى من بيتى المساجدا يظل فيها راكعا وساجدا
ومن يمر بالغبار حايدا يعرض عنه جاحدا معاندا

فالتفت اليه عثكن فقال : يا ابن السوداء ، اياى تعنى • ثم اتى رسول الله فقال له : لم ندخل معك لسب اعراضنا • فقا له الرسول : قد اقلتك اسلامك فاذهب ، فانزل الله عز وجل : يمنون عليك ان اسلموا ••• (١٤٠) •
وأما كونه ابن سبأ فقد ورد في نسب عمار في طبقات ابن سعد فقال : « هو عمار بن ياسر بن مالك ابن عوف بن حارثة بن عامر بن يام بن عنس ، وهو زيد بن مالك بن ادد بن زيد بن يشجب بن غريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان » (١٤١) وكذلك في طرائق الحقائق (١٤٢) نقلا عن الكامل بمناسبة عنس بن مذحج جد عمار وكذلك في تاريخ ابن خلدون برواية الحاج معصوم على ايضا • ويرد في فتوح البلدان نسب عنس ايضا فيقول : « هو زيد بن مالك بن ادد بن غريب بن زيد بن كهلان بن سبأ وعنس اخو مراد » (١٤٣) •

(١٣٩) الحجرات ٤٩ : ١٧ •

(١٤٠) تفسير على بن ابراهيم ٦٤٢ •

روى ابن سعد الشطر الاول من هذه الارجوزة مصحفا على هذه الصورة :

«نحن المسلمون نبتنى المساجدا» وذكر أنه قيل لما بنى مسجد رسول الله (صن) (الطبقات ٣ : ١٧٩/١) وقد كان عمار يومئذ يجهد نفسه في العمل حتى خيل الى زملائه انه سيموت • ونقل عن ابي سعيد الخدرى ان زملاء عمار كانوا يحملون لبنة لبنة • وجعل هو يحمل لبنتين لبنتين» (الطبقات ٣ : ١٨٠/١) •

(١٤١) طبقات ابن سعد ٣/١٨٦ •

(١٤٢) طرائق الحقائق ٢/١١ •

(١٤٣) فتوح البلدان ١١٣ •

وأما كونه عبد الله فكل المسلمين كذلك وهو لقب عام لهم جميعاً ، وكانت كل الكتب التي تصدر عن الخلفاء والامراء والتي ترد اليهم تبدأ بعبارة : « من عبد الله فلان » أو « الى عبدالله فلان » وقد سمي على نفسه في السقيفة بعبد الله (١٤٤) وسمى المنصور نفسه بذلك ، وكذلك محمد بن عبد الله بن الحسن (١٤٥) وعبد الملك بن مروان (١٤٦) ، فالتسمية لعمار بهذا الاسم كسميته بابن سبأ قصد بها التلميح فكأن قائلهم يقول : فلان أو الرجل المثق عليه (١٤٧) ، وذلك امر تقتضيه سرية التلميح . يضاف الى هذه الادلة كلها دليل لم يلتفت اليه الدكتور الوردى وذلك ان الطبرى فى تطرقه الى حرب الجمل قد عرض لانصار على فيها فكان اذا عددهم وذكر اسم عمار فى جملتهم اغفل ذكر ابن السوداء ، واذا ذكر ابن السوداء تحامى ذكر اسم عمار مما يرجح أن الرجلين شخص واحد . وهكذا نخرج من هذا الاستطراد بان عمار بن ياسر كان ثائرا على عثمان وانه استطاع ان يتحقق ماصبا اليه من اعادة الاسلام الى قلبه الاصيل وارجاع الامرة الى على بحسب وصية النبى التى كان عمار يؤمن بها . وجليه الامر فى معارضة عمار لعثمان انه كان يرى بان الاسلام قد جاء لازالة الفرق بين الطبقات ، وبمعنى آخر لنشر العدالة الاجتماعية بالاضافة الى الاصلاح الروحى والعقلى ، وقد طبق ابو بكر وعمر خطة الرسول فرأينا عمارا ساكنا عن معارضتهما مع على وابى

(١٤٤) الامامة والسياسة ١٢ .

(١٤٥) الطبرى ٢١٠/٩ .

(١٤٦) العقد الفريد ٢٦١/٥ .

(١٤٧) من طريق ما يذكر ان التقية الشيعية اضطرت احمد بن طاووس

الحلى (المتوفى حوالى سنة ٦٧٣/١٢٣٥-٦) الى تصنيف كتاب لم يشأ

ان يقرنه باسمه فنسبة الى عبدالله بن اسماعيل . وقد علق الشهيد

الثانى (زين الدين العاطل المقتول سنة ٩٦٦/١٥٥٨-٩) على ذلك بأنه

فعل ذلك « لان كل العالم عباد الله ولانه من ولد اسماعيل الذبيح » وتلك

اعادة لقصة تسمية عمار بعبدالله بن سبأ على صورة شيعية (انظر

روضات الجنات ص١٩) .

ذر وغيرهما من التمسكين بجوهر الاسلام • وقد اتاحت هذه العدالة والمساواة للعبد السابقين والمستضعفين ان يرتفعوا باخلاصهم وايمانهم الى المراكز العليا في الاسلام ، فكان سلمان اميرا على المدائن وعمار امير الحسب في الكوفة وكان غيرهما في مثل مركزهما • فلما افضت الخلافة الى عثمان تنفس الملأ المكى القديم الصعداء وحاولوا ان يعيدوا الامور الى نصابها القديم فكانت الثورة التي ادت الى التضحية بعثمان ، ولم يستفد من الملحمة كلها الا معاوية : ولى عهد ابى سفيان الذى ثار عليه النبي وقاتله فزحزحه ، وهكذا عاد معاوية الى عرش ابيه من جديد • وكانت مهمة عمار واشباهه ان يحرسوا النظام الجديد باشاعة الزهد فى المسلمين بحيث يصير طابعا للدين الجديد ويقطع الطريق على الاغنياء والارستقراطيين ان يهدموا الاسلام بمائهم وجاههم ولهذا وجدنا عمارا يحتفل بعلى لانه كان زاهدا ويجعل الزهد زينة الابرار كما كان المال زينة الملأ المكى الذى حاربه الاسلام فروى عمار عن النبي (ص) انه قال فى على : « يا على ان الله تبارك وتعالى زينك بزينة لم يزين العباد بزينة احب الى الله تعالى منها : هى زينة الابرار عند الله عز وجل ، فجعلك لاترزا من الدنيا شيئا ولا ترزا الدنيا منك شيئا ... » (١٤٨) • ومادام زعيم عمار وقوته زاهدا فاحر بعمار ان يكون كذلك وهو من اهل الصفة ايضا (١٤٩) •

وشىء اخر يجب ان يذكر فى سيرة عمار وذلك انه كان السابقة الشيعية للثقة وذلك ان القرشيين عذبوا اباه وامه حتى قتلوهما وعمار ينظر ، فلما حل عليه الدور فى التعذيب « لم يتركوه حتى سب رسول الله (ص) وذكر آلهتهم بخير » (١٥٠) • ولم يصنع عمار الا ان جعل للقدرة البشرية على تحمل الالام حدودا ، ولكنه ندم فيما بعد اشد الندم وعذبه ضميره غاية التعذيب

-
- (١٤٨) حلية الاولياء ١/ ٧١ •
(١٤٩) خطط الكوفة ٣٦ هامش •
(١٥٠) حلية الاولياء ١/ ١٤٠ •

«فلما اتى رسول الله قال : ماوراءك ؟ قال : شر يا رسول الله ، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير ، فقال رسول الله : فكيف تجد قلبك ؟ قال : اجد قلبي مطمئنا بالايمان . قال : فان عادوا فعد ،^(١٥١) وهكذا يقرر الرسول بنفسه مبدأ التقية التي بدأت بعمار وصارت تقليدا للشيعه فيما بعد ، وعمار من الاربعة الذين تشتاق اليهم الجنة^(١٥٢) .

وانتهت حياة عمار في صفين طافحة بالاخلاص والايمان بالمثل العليا ، فتذكر قبل قتله نبوة النبي بانه تقتله الفئة الباغية فعزم ان يضحي بنفسه في صفين ليدعم مركز علي بن ابي طالب قدوته ورئيسه ، على أمل ان يكون قتله قضية تعطف على الانصار وتنبه الناس الى حقه . فلما استسقى اتته « امرأة من بنى شيان بعسل فيه لبن فدفعته اليه »^(١٥٣) فتذكر نبوة اخرى للنبي اسرها اليه بقوله (ص) : « وآخر شربة تشربها ضياح من لبن »^(١٥٤) ، فشاع الرضا على وجهه وملاً الايمان قلبه من جديد ورأى ان ما عزم عليه يحظى بالقبول من الله والنبي ورأى كل ذلك الشقاء قد اجتمع في لحظة من السعادة الابدية فقال : « الله اكبر اليوم القى الاحبة تحت الاسنة ، صدق الصادق وبذلك خبر الناطق وهو اليوم الذي وعدت فيه »^(١٥٥) . وهكذا انطوت صفحة ثالث الاركان ضاربة للآتين بعده امثالا عظيمة في التضحية والزهد والفداء .

-
- حلية الاولياء ١/١٤٠ (١٥١)
 - حلية الاولياء ١/١٣٩ (١٥٢)
 - مروج الذهب ٢/٢١ (١٥٣)
 - وقعة صفين ٣٨٧ (١٥٤)
 - مروج الذهب ٢/٢١ (١٥٥)

أحد الذين يتردد اسمهم ضمن الأركان الشيعية الأربعة ، وهو المقصود بالآية : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه،^(١٥٦) كما يقصد بها زملاؤه : أبو ذر والمقداد وسلمان وعمار^(١٥٦) . وكان حذيفة من الطبقة الأولى المخلصة للإسلام لذاته ومن التمسكين بمثل الإسلام على صورته الجوهرية لان في ذلك استمرارا للحرية التي شعر بها الفقراء والعييد والضعفاء الذين رفعهم الإسلام وصاروا - بنصرتهم له قبل غيرهم - مادته الأساسية والطبقة الأولى فيه . ومن هنا لم يذكر الذاكرون ان اسمه حذيفة بن حسل بن جرو^(١٥٧) وانما اقتصروا على نسبته الى اليمن على غير قياس^(١٥٨) فانعكس مقام حذيفة من هذه الإشارة البسيطة وبدت مكاتته والاحترام الذي خيف ان يمس بذكر نسبه الذي قد يدعو الى ذهاب المهابة .

وتأتى شيعية حذيفة من ذكره مع الأركان ومن مؤاخاة النبي بينه وبين عمار بن ياسر^(١٥٩) اوضح الأركان شيعية وادخلهم فيها ومن ذكر الطوسي المتوفى سنة ١٠٦٨/٤٦٠ له في اصحاب على بن ابي طالب^(١٦٠) ومن الصلة الواضحة بين علم على السرى وعلم حذيفة الذي ستتعرض له في هذا الفصل .

واول ما يتميز به حذيفة انه كان يلقب بصاحب السر او صاحب سر رسول الله^(١٦١) ، فتبدأ بذلك مسألة طبيعة العلم في الإسلام هل هو علم أحد

-
- اعيان الشيعة ٢/٢٤٨ (١٥٦)
 - اعيان الشيعة ٢/٢٤٨ (١٥٧)
 - اعيان الشيعة ٢/٢٤٨ (١٥٨)
 - اعيان الشيعة ٢/٢٥٥ (١٥٩)
 - اعيان الشيعة ٢/٢٥٦ (١٦٠)
 - البخارى : الاستئذان ٣٨ (١٦١)

ام علمان : ظاهر وباطن ؟ لقد تبني الشيعة ازدواج العلم كما فعل المتصوفة وهذا السراج يقول : « لاخلاف بين اهل العلم ان في اصحاب رسول الله (ص) من كان مخصوصا بنوع من العلم كما كان حذيفة مخصوصا بعلم اسماء المنافقين ، كان اسره اليه رسول الله (ص) » (١٦٢) واذا وضعنا بازاء هذا ان بعض الصحابة كان يقول : « ما كنا نعرف المنافقين ايام رسول الله الا ببغض على بن ابي طالب » (١٦٣) ادركنا الى اى مدى كان اتصال حذيفة بالتشيع الاول . وعلم حذيفة الخاص جزء من العلم الذى قال على بن ابي طالب فيه - برواية السراج - : « علمنى رسول الله (ص) سبعين بابا من العلم لم يعلم ذلك احدا غيرى » . وقد عرض ابو طالب المكي لعلم حذيفة فقال فيه : « قد خص بعلم المنافقين وافرد بمعرفة علم النفاق وسرائر العلم ودقائق الفهم وخفايا اليقين من بين الصحابة ، فكان عمر وعثمان - من أكابر اصحاب رسول الله - يسألونه عن الفتن العامة والفتن الخاصة ويرجعون اليه فى العلم الذى حظى به ويسألونه عن المنافقين . . . فكان يخبر باعدادهم ولا يذكر اسماءهم » (١٦٤) ويجب ان نلاحظ امتناع ان يقصد بهذا العلم مجرد اسماء حفظها حذيفة والالم يكن فى الامر علم ولم تكن لحذيفة ميزة ، ولعل المراد بعلمه ان الرسول قد وجد فيه قوة من الكشف او بعثها فيه وهداه اليها ليستطيع بها ان ينفذ بها الى مستودع سر الرجل بنظره اليه فيعرف هواه ويعرف سر نجواه ولعل مصداق ذلك مايرويه ابو طالب المكي من انه « كان عمر يستكشفه عن نفسه : هل يعلم فيه شيئا من النفاق ؟ فبرأه منه » (١٦٤) واذا كان المقصود بعلم حذيفة هذا الذى اشرنا اليه ، استحق ان يكون موصولا بالكشف الصوفى الذى سيأتى بعدئذ ويكون مرتبطا بقول الله تعالى : « ان فى ذلك لآيات

(١٦٢) اللمع ١٩ .

(١٦٣) الصواعق المحرقة ١٢٠ عن الترمذى ، الشيعة فى التاريخ ٢٢٦ .

ضحى الاسلام ١٢٢/٢ عن مسلم .

(١٦٤) قوت القلوب ٢٣/١ .

للمتوسمين،^(١٦٥) • وبذلك نستطيع ان نعلل سبب استكشاف عمر له عن نفسه ويستقيم الامر على هذا الاساس •

لقد فتح علم حذيفة بن اليمان وكونه صاحب السر بابا لن يوصد في طبيعة العلم ، فأخذ المتصوفة الاساس وبنوا عليه نظريتهم في المعرفة وانواعها وفي الرجال ودرجاتهم ، قسمهم السراج الى ثلاثة : « علم بين للخاصة والعامه وهو علم الحدود والامر والنهى وعلم خص به قوم من الصحابة دون غيرهم هو العلم الذى كان يعلم حذيفة بن اليمان ••• وعلم خص به رسول الله لم يشاركه فيه احد »^(١٦٦) وهذا التقسيم الثلاثى للعلم وحامله قد اورده ابو طالب المكي عن الامام على أنه قال : « •• الناس ثلاثة : عالم ربانى ومتعلم على سبيل نجاته وهمج رعاع اتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح »^(١٦٧) ، والصلة بين حديث على وتقسيم السراج ان عليا قد ادمج العلم المخصوص وعلم النبى فى علم واحد وافرد السراج للنبي علما وللصحابه المخصوصين بالسر علما وكلا التقسيمين واحد فى الجوهر غير ان السراج يخشى ان يتهم بالتشيع لان الشيعة يعتبرون علم النبى وعلم على واحدا هو علم الانبياء والاوصياء اى العلم اللدنى • وقد اتفت ابو طالب المكي الى هذه الحقيقة ولكنه تحامى ان يصرح بها وان كان اقرب من رأى الشيعة فى قوله : « وكان عند اهل العلم ان علمهم مخصص لا يصلح الا للخصوص والخصوص قليل ولم يكونوا ينطقون به الا عند اهلهم ••• كما وصفهم على كرم الله وجهه فى قوله : حتى يودعوه امثالهم ويزرعوه فى قلوب اشكالهم »^(١٦٨) • وقد

(١٦٥) الحجر : ٧٥ •

(١٦٦) اللمع ٣٧٨ •

(١٦٧) قوت القلوب ٣١/١ •

(١٦٨) قوت القلوب ٣١/١ •

تطورت هذه النظرية فى المعرفة واتواعها وعادت الى قالبها الشيعى القديم الذى يجعل من الناس طائفتين : طائفة اختصت بعلم الهى خاص وهم طبقة الانبياء ويلحق بهم الائمة عند الشيعة ، وطائفة تمثلهم عامة الناس لم يختصوا بهذا العلم . وهكذا صار شيعى آخر سببا فى اتجاه جديد دخل الاسلام واتسع فيه حتى صار قائما بذاته .

والواقع ان صلة حذيفة بالتصوف وثيقة لانه السابقة الخطيرة فى امكان اطلاع غير الرسل وغير اوصيائهم - كما عند الشيعة - على اسرار لايتساح الاطلاع عليها الا لذوى الاستعداد الروحى الخاص . وقد أدخل المتصوفة هذه العلوم فى طريقتهم وسرعان ما صنعوا حديثا رفعوه الى الله عز وجل وكان من سلسلة سنده حذيفة بن اليمان صاحب السر ، فكان بذلك اول شيعى يأخذ منه الصوفية نظرية المعرفة عندهم : النظرية التى تقوم على الذوق والكشف والاستعداد الشخصى والفراسة ، ويتأتى كل ذلك بالمجاهدة والعبادات ، والحديث : « عن عبدالواحد بن زياد قال : سألت الحسن (البرقى) عن علم الباطن فقال : سألت حذيفة بن اليمان عن علم الباطن فقال : سألت رسول الله عن علم الباطن فقال : سألت جبريل عن علم الباطن فقال : سألت الله عن علم الباطن فقال : هو سر من سرى اجعله فى قلب عبدى لايقف عليه احد من خلتي (١٦٩) ، والمهم فى هذا الحديث القدسى انه يستند الى رواية حذيفة عن النبى مباشرة ويبين حد العلم الباطن الذى كان حذيفة نفسه مشتملا عليه .

ويدأ زهد حذيفة من حديث يروييه عن النبى (ص) انه قال : يا حذيفة ، ان فى كل طائفة من امتى قوما شعنا غربا اياى يريدون واياى يتبعون وكتاب الله يقيمون ، اولئك منى وانا منهم وان لم يرونى (١٧٠) ، ورائحة التحل

(١٦٩) التعرف ٥٩ .

(١٧٠) حلية الاولياء ٩/١ .

فأحقة من هذا الحديث لان طوائف الامة قد تشعبت فيما بعد ولان الشعب
الغبر لم يكونوا يحتلون مركزا خاصا فى الاسلام الاول لمجرد انهم كذلك ،
ولكن هذا الحديث يبين تمسك الزهاد ، اسلاف المتصوفة ، بهذه الصفة الروحية
التي تتسم بها شخصية حذيفة فجملوا منه راوية لاحاديث عن النبي تخدم
طريقتهم • ومما يوثق اتصال زهد حذيفة بالكشف على عمومته انه تنبأ للكوفيين
يوم طردوا سعيد بن العاص عامل عثمان عليهم انه « والله لتردن على عقبيها
ولا يكون فيها محجمة من دم • وما اعلم منها اليوم شيئا الا وقد علمته ومحمد
(ص) حى» (١٧١) • وكان حذيفة يحذر الناس - بعد - من الفتنة والشر
اللذين سيحدثان بعد ذلك وينقل الى الكوفيين نصيحة الرسول له : « فلأن
تعصد على جذع شجرة خير لك من ان تتبع احدا منهم» (١٧٢) والمهم - بعد
ذلك - ان عليا كان يعلم سر حذيفة فكان يقول له : « يا حذيفة لاتحدث الناس
بما لا يعرفون فيظفوا ويكفروا» (١٧٣) وهذا قول يذكرنا بما فاه به الشبلى
بمناسبة قتل الحلاج : « كنت انا والحسين بن منصور شيئا واحدا الا انه
اظهر وكتمت» (١٧٤) ووقف الشبلى على الحلاج وقال نفس مقالة على بن
ابى طالب لحذيفة بن اليمان - ولكن بعد ان سبق السيف العذل - : « السم
نهك عن العالمين» (١٧٥) وذلك يذكرنا ايضا بالنص الذى اوردناه عن على
ابن الحسين بن على بن ابى طالب متضمنا قوله : « لو علم ابو ذر بما فى قلب
سلمان لقتله» (١٧٦) وهكذا يبدو التصوف مرتبطا بالتشيع برباط وثيق ولكنه
شفاف اخفاء المتصوفة لسبب وجيه اوردناه فى اول هذه الرسالة •

-
- (١٧١) الطبرى ٣/ ٣٧٥ •
(١٧٢) حلية الاولياء ١/ ٢٧٢ •
(١٧٣) الغيبة لابن زينب ٧٥ •
(١٧٤) اربعة نصوص تتعلق بالحلاج ١٩/٢
(١٧٥) اربعة نصوص ١٩/٢ •
(١٧٦) طرائق الحقائق ١/ ٢٣٢ •

وقد كان حذيفة يحب الفقر ويألفه كما كان زملاؤه يفعلون وكان حذيفة يحبه لنفسه ولأهله فقال : « ان اقر يوم لعيني ليوم اذا رجعت فيه الى اهلي فيشكون الى الحاجة » (١٧٧) فكان بذلك كأبي ذر وسلمان عمار وغيرهم ممن وعوا رسالة الاسلام على حقيقتها • وقال حذيفة في آخر ساعة من حياته : « لولا ارى ان هذا اليوم آخر يوم من الدنيا واول يوم من الآخرة لم اتكلم به • اللهم انك تعلم اني كنت احب الفقر على الغنى واحب الذل على العز واحب الموت على الحياة ، حبيب جاء على فاقة ••• » (١٧٨) وفي ذلك شبه ايضا بما صدر عن الشيعة الاولين في ساعات موتهم ، وانه لغريب ان يجمعوا على حب الموت وعلى حب الله على صورة واحدة ، ولكن مدرسة الاسلام الاصيله هي السبب في كل ذلك وهي - لذلك - تزيد هذا العجب • ونختم فصل حذيفة بانه قال لما اتاه قتل عثمان وبيعة على وكان عليا بالكوفة : « أخرجوني وادعوا : الصلاة جامعة ، فوضع على المنبر فحمد الله واثى عليه وصلى على النبي وآله ثم قال : ايها الناس ، ان الناس قد بايعوا عليا فعليكم بتقوى الله وانصروا عليا وآزروه ، فوالله انه لعلى الحق اولا وآخرا • انه لخير من مضى بعد نبيكم ومن بقى الى يوم القيامة • الحمد لله الذى ابقانى الى هذا اليوم » (١٧٩) ثم تنبأ لولديه صفوان وسعد بانه « سيكون لعلى حروب كثيرة فيهلك فيها خلق من الناس ، فاجتهدا ان تستشهدا معه فانه والله على الحق ومن خالفه على الباطل » (١٧٩) واخبرنا المسعودى بانهما قد فعلا (١٧٩) •

ومات حذيفة في المدائن فدفن بعيدا عن سلمان « ولكن قبره كان قريبا من الشط فخيّف طغيان الماء عليه فنقل ترابه الى مشهد سلمان في زماننا

(١٧٧) اللمع ١٣٧ •

(١٧٨) حلية الاولياء ١/١٧٢ •

(١٧٩) مروج الذهب ٢/٢٣ •

هذا ، (١٨٠) • وهكذا جمع الموت بين الركنين كما جمعتهما الحياة ومن يدرى فلعل في اجتماعهما في مشهد واحد سرا كان يعلمه حذيفة ولم يطلع عليه احدا • وكانت وفاته سنة ٣٦ •

المقداد بن اسود

شخصية اخرى من الشيعة الاوائل وكان من طراز الاربعة السابقين من حيث انه لاينتمى الى عصبية او ارستقراطية قرشية فهو مولى الاسود بن عبد يغوث وقد كان تبناه في الجاهلية ، فلما اسلم عاد الى نسبه القديم المقداد بن عمرو اتبعا للآية : ادعوهم لآبائهم (١٨١) ، وكان من السابقين الى الاسلام وينصرف اليه الحديث : « ان الله أمرني بحب أربعة واخبرني انه يحبهم وانك يا على منهم والمقداد وابو ذر وسلمان » (١٨٢) وهو الى ذلك يلقب « بصاحب رسول الله » (١٨٣) وقد كان حتن الزبير وذلك دليل على مكانة السابقين الى الاسلام وان كانوا من مستوى اجتماعى ادنى من القرشيين وذلك ان المقداد بن عمرو خطب الى رجل من قریش فابى ان يزوجه ، فقال له النبي : لكتي ازوجك صياغة ابنة الزبير بن عبدالمطلب • ويأتى مقام المقداد في الاسلام من موقف وقفه من رسول الله (ص) يرويه ابن سعد «عن عبدالله قال : شهدت من المقداد مشهدا لان اكون انا صاحبه احب النبي مما عدل به • انه اتى النبي وهو يدعو على المشركين فقال : يا رسول الله انا قاعدون (١٨٤) ، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك وبين يديك ومن خلفك •

-
- اعيان الشيعة ٢/٢٤٨ (١٨٠)
 - صفة الصفوة ١/١٦٧ (١٨١)
 - حلية الاولياء ١/١٣٩ (١٨٢)
 - ابن الاثير ٣/٧١ (١٨٣)
 - المائدة : ٢٧ (١٨٤)

فرأيت النبي يشرق لذلك ويسره ذلك، (١٨٥) . والمقداد هو القائل - بعد انتخاب عثمان - : « ما رأيت مثل ما اودى به أهل هذا البيت بعد نبهم . اما وأيم الله يا عبدالرحمن (بن عوف) لو اجد على قريش انصارا لقاتلتهم كقتالي اياهم مع رسول الله يوم بدر، (١٨٦) .

والمقداد زاهد كزملائه السابقين الاولين ، وزهده آت عن تجربة عاناها فكاد يفتن عن دينه ، فانه يقول : « استعملني رسول الله (ص) على عمل ، فلما رجعت قال : كيف وجدت الامارة ؟ قلت : يا رسول الله ما ظننت الا ان الناس خول لي . والله لا ألى على عمل ما دمت حيا، (١٨٧) .

ويبدو ان المقداد كان ممن اودى ايام عثمان لمعارضته لسياسته فعلم زملائه في الجهاد ، ولعل هذا هو الذي جعله من الاركان ، فانه لا يتميز بميزة معينة شأن زملائه السابقين الاولين اللهم الا هذا الذي نجده من اخلاصه وايمانه الشديد . وهو لم يشارك عليا حروبه لانه توفي في خلافة عثمان . ويروى عن الزبير خبر يدل على هذه المعارضة التي ابداهها المقداد لعثمان حتى احفظه عليه ، فانه يروى ان عثمان قد ترحم على المقداد بعد موته (سنة ٣٣) وجعل يثنى عليه ، وعذئذ قال الزبير : (١٨٨)

لا ألفتك بعد الموت تسدني وفي حياتي ما زودتني زادي

الشيعة الاخرون

وكان خباب بن الارت من هذا الطراز ايضا وهو « احد المستضعفين الذين عذبوا بمكة ليرجع عن دينه» (١٨٩) . ويروى خباب الاهوال التي قاساها في مكة بقوته : « فلقد رأيتني يوما اخذوني واوقدوا لي نارا ثم سلقوني

(١٨٥) طبقات ابن سعد ٣/١١٤-١١٥ .

(١٨٦) مروج الذهب ١/٤٤٠ .

(١٨٧) حلية الاولياء ١/١٧٤ .

(١٨٨) طبقات ابن سعد ٣/١١٥-١٦ .

(١٨٩) ابن سعد ٣/١١٦ .

فيها ثم وضع رجل رجله على صدرى فما اتقيت الارض - وقال : برد الارض -
 الا بظهرى ، قال : ثم كشف عن ظهره فاذا هو برص» (١٩٠) وكان خباب
 من اصحاب على وشيعته وهو « اول من قبره على بالكوفة وصلى عليه منصرفه
 من صفين» (١٩١) . وهكذا كان البراء بن عازب وصهيب وبلال وغيرهم ،
 وهؤلاء كلهم يمثلون طائفة ممن جعلت من على هاديا لها ومرشدا ومرجعا
 بعد النبي ، وكانت تنظر اليه ايام النبي على انه المرشح الوحيد لتولى هذا
 المنصب لقربته القرية وعلمه الوافر وامتلائه بمعاني الاسلام ومقوماته الاخرى،
 وتلك ناحية تمثل الاتجاه الاجتماعى المرتبط بالمستضعفين الذين كان الاسلام
 لهم درعا وحاميا ، فكان مكانهم مع على لانه يمثل امتداد الاسلام وحرب
 فريش والتيار الاسلامى الاصيل ، ثم ان عليا فقير مثلهم ولعلنا نذكر كيف
 كتمله النبي (ص) ليخفف عن ابي طالب شيئا من عبء عياله الذى كان يتقله .
 وكان فى الشيعة فريق اخر ينصر عليا هو الفريق الذى يمثل العصبية القبلية
 النابعة من طبيعة العربى فلقد رأينا بنى هاشم يمتنعون عن البيعة مع على فى
 السقيفة ، ومن هنا وجدنا الاركان الاربعة منحصرة فى الفريق الاول الذى
 تولى عليا بوصفه الرجل الذى يستطيع ان يدير عجلة الاسلام على منهج رسول
 الله دون خلل او زلل . ولم نجد الاركان تستغرق الهاشميين لان ايمانهم
 بعلى كان ايمان قرابة ودم اكثر منه ايمان مبدأ وقلب ، فقد ترك عبدالله بن
 العباس عليا وهو فى اشد الحاجة اية وذهب الى مكة بما اخذه من مال ،
 ووجدنا الزبير نائرا على على بعد مبايعته له وقد كان يعد نفسه من الهاشميين
 بامه صفية بنت عبدالمطلب (١٩٢) وكان على يقول فيه : « مازال الزبير منا حتى
 نشأ بنوه فصرفوه عنا» (١٩٣) . ونجد - بازاء هذين الهاشميين الخارجين عن

(١٩٠) ابن سعد ١١٦/٣ .

(١٩١) ابن سعد ١١٨/٣ .

(١٩٢) الامامة والسياسة ١١ .

(١٩٣) الامامة والسياسة ١١ .

على - شيعيين غريبيين هم الاخوان الامويان : خالد وعمر و ابنا سعيد بن العاص وقضية خالد مشهورة يرويها ابن سعد في طبقاته (١٩٤) وذلك انه خامس من اسلم واول من هاجر الى الحبشة وكان عامل النبي على اليمن حتى توفى (ص) وقد امتنع عن البيعة لابي بكر كما مر بنا ، وكان ابوه ابو احيحة من عتاة اصحاب الاموال في مكة ، فلما سمع باسلام ابنه لم يستطع المقام فيها « فاعتزل في ماله بالطريفة نحو الطائف » (١٩٥) .

وهناك فريق شيعى ثالث هم الانصار الذين نصروا النبي ونصروا آله فيما بعد ، والعلة مفهومة من حربهم للقرشيين مع النبي ثم حربهم الامويين الذين هم خلف ذلك السلف فيما بعد ، وكان الامويون - لذلك - من اعدى اعدائهم بما نصروا محمدا في الواقعة الفاصلة التي ثبت بعدها الاسلام ، ولذلك روى المسعودى انه كان ممن شهد صفين مع على من اصحاب بدر سبعة وثمانون رجلا منهم سبعة عشر من المهاجرين وسبعون من الانصار .» (١٩٦) ويروى ايضا انه كان مع على في الجمل ابو ايوب الانصارى صاحب رسول الله . وخزيمه بن ثابت الانصارى ذو الشهادتين و قتادة بن ربعى وعمار لابن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة .» (١٩٧) . ويخبرنا الطبرى في عرضه لصفين انه « عظم من معه من اهل المدينة والانصار » (١٩٨) . وهكذا يتبين لنا ان حركة التشيع انما هي حركة المحافظة على الاسلام ومراقبة تطبيق مبادئه على الوجه الصحيح ، ورأينا ان اكثر الذين التزموا بالعبقيدة والمبدأ هم اصحاب المصلحة فى بقاء الاسلام على ما اراد الله والرسول ، فلهم فى ذلك مصلحة تتعلق بحريتهم والمحافظة عليها من عبث من حاربوهم ، ولهم مصلحة

-
- طبقات ابن سعد ٦٨/٤ (١٩٤)
 - طبقات ابن سعد ٧٢/٤ (١٩٥)
 - مروج الذهب ٣/٢ (١٩٦)
 - مروج الذهب ٨/٢ (١٩٧)
 - الطبرى ١٠/٣ (١٩٨)

فى بقاء الاسلام على حقيقته دينا يصلح السرائر ويبشر بالمساواة بين باناسى • وكان المستضعفون والعبيد السابقون وابناء الاغنياء المؤمنون برسالة محمد(ص) كالمومنين السابقين هم الذين يمثلون الفريق المؤمن بالاسلام نفسه ويهمنه ان يبقى كذلك • يضاف الى هؤلاء الانصار الذين تبناوا سياسة النبى فى خلق مركز تجمع ينافس مركز مكة القرشية فكانوا انصار على ايماننا بالاسلام ومثله وتطلبا لمصلحة مادية ومعنوية فى وقت واحد • اما الهاشميون فقد مزجوا العقيدة الاسلامية بنظرهم الى الحق الذى اسبغه الاسلام على على فى استحقاؤه للقيادة وجدارته بها ووضعوا ذلك بازاء كون على واحدا منهم عليهم ان ينصروه لان فى ذلك نصرا لهم وليتهم الهاشمى ، ثم من يدرى فلعل الظروف فى تقلبها تتيح لهم املا فى الامارة ، وقد حدث ذلك فعلا كما فى حركة ابن الزبير بعد قتل الحسين وحركة العباسيين بعد قتل زيد فان فيهما ابلغ شاهدين على ذلك • وهكذا ينتهى بنا التشيع الاول الى ما رأينا ولكنه سيتغير ويتطور وقد يحيد وسرى كل ذلك فى موضعه •

وقبل ان نتقل الى الفصل التالى لابد ان نقرر ما يراه الدكتور على النوردي من « ان البلدان التى سكنها هؤلاء الثلاثة (من الاركان : عمار وسلمان وابو ذر) اصبحت فيما بعد مركزا من مراكز التشيع لعلى بن ابي طالب • فعمار سكن الكوفة يوم كان وانيا عليها فى عهد عمر • اما سلمان فقد تولى امر المدائن ، ثم صارت المدائن فيما بعد موطنا للتشيع كما اشار اليه البروفسور ماسينيون (١٩٩) ، وربما اتقل التشيع الى الفرس من هناك • اما ابو ذر فقد نفاه معاوية الى جبل عامل ، ولا يزال ذلك الجبل حتى يومنا هذا موطن المتأولة اى الذين يتولون عليا » (٢٠٠) •

(١٩٩) شخصيات قلقة فى الاسلام ٤٣-٤٤ •
 (٢٠٠) وعاظ السلاطين ٢٩٧ •

الامام علي

قبل ان ندخل في تفاصيل جوانب الامام علي الروحية والشخصية ،
يحسن بنا ان نلفت الاذهان الى حقيقة قد تكون خافية : ذلك ان الامام عليا
شخص له جانبان : جانب تاريخي يعرفه الناس وتعرض الكتب العامة له ،
وجانب روحي دخلت فيه اضافات قد تكون اسطورية ، ويبدو هذا الجانب عند
الشيعة اولاً ثم عند المتصوفة • ونستطيع ان نسمى الجانب الاول بالجانب
العام والثاني بالجانب الخاص •

اما الجانب العام فمعروف خلاصته ان الامام قد ولد بعد النبي بثلاثين
سنة أي (٦٠١م) ^(١) ، واسلم وعمره عشر سنين في اليوم الثاني لبعثة
النبي وبعد خديجة مباشرة وانه لم يعبد الاصنام قط لصغره ^(٢) ، وانه « كان
اقرب الناس اليه (ص) وكان ربيبه وكان خليفته على ودائمه وكان حخته وابا
عقبه وكان صاحب لوائه وكان خليفته في اهله وكانت منزلته منه بمنزلة هرون
من موسى بنص الحديث عن النبي نفسه » ^(٣) ومن المعروف ايضا ان النبي
آخى بينه وبين علي ^(٤) وقال فيه : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وآل من
والاه وعاد من عاداه ^(٥) وان الشيعة قد رأوا في هذا الحديث ترشيحا له
لتولى الامر بعد النبي (ص) وان بقية المسلمين لم يوافقوهم على ذلك مستندين
الى حديث آخر القاه النبي في آخر لحظة من حياته وكان متسورا لان
الحاضرين حالوا دون اتمامه ، وذلك هو حديث الخميس ^(٦) وان النبي (ص)
قال في علي : انا مدينة العلم وعلى بابها ^(٧) • وانه كان مغاليا في الزهد والعدل ^(٨)

-
- (١) ابطال الاسلام ١٧ •
 - (٢) طبقات ابن سعد ١٣/٣ •
 - (٣) الفتنة الكبرى ١٥١ •
 - (٤) طبقات ابن سعد ١٤/٣ •
 - (٥) تاريخ اليعقوبي ٩٣/٢ •
 - (٦) صحيح البخاري ٥/٤ •
 - (٧) اصول الكافي ٢١٠ •
 - (٨) تاريخ التمدن الاسلامي ١٧/٢ •

الى حد انه قسم رغيفا سبعة اسهم^(٩) ، وروى ابو طالب المكي انه كان « ازهد الصحابة »^(١٠) ، وانه لم يترك صفراء ولا بيضاء الا سبعمائة درهم بقيت من عطائه أراد ان يشتري بها خادما لاهله^(١١) .

اما الجانب الخاص من على(ع) فهو الذى يعيننا فى هذه الرسالة ويندمج على المثل والوصاف والجوانب الروحية التى اضافها اليه الشيعة اولاً ثم المتصوفة حين جعلوا علياً مرجعهم ورأسهم فى التصوف والزهد ، وتلك أمور يحسن بنا ان نقسمها ونفصلها • ويجب ان نقرر - الان - ان الشيعة - كغيرهم من المسلمين - يرون فى على ما يراه غيرهم ولكنهم يضيفون اليه اشياء تميزه من زملائه من الصحابة • ويجب ان ننبه الى حقيقة اخرى وهى اننا فى عرضنا لعلى سنين الافكار التى انتهى اليها التفكير الشيعى وسنترك امر أصولها وبياناتها الى مواضعها المناسبة •

يرى الشيعة انه « لا يقاس بأل محمد من هذه الامة أحد ، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه ابدا • هم اساس الدين وعماد اليقين • اليهم يقىء الغالى وبهم يلحق اتالى ، ولهم خصائص حق الولاية والنورانية »^(١٢) • بل اننا نلمح اعتقاد الشيعة قدم نفوس الائمة واولهم على - فى التفسير المنسوب الى الحسن العسكري الامام الحادى عشر المتوفى سنة ٢٦٠ - « ان الله لما خلق آدم وسواه وعلمه اسماء كل شىء وعرضه على الملائكة جعل محمداً وعلياً وفاطمة والحسن والحسين اشباحاً خمسة فى ظهر آدم وكانت انوارهم تضىء فى الآفاق من السموات والحجب والجنان والكرسى والعرش • فامروا مع الملائكة بالسجود لآدم تعظيماً له لانه قد فضله بان جعله وعاء لتلك الاشباح

(٩) ابن الاثير ٢٠٢/٣ •

(١٠) قوت القلوب ١٩٥/٢ •

(١١) مروج الذهب ٤٢/٢ •

(١٢) نهج البلاغة ١/٢٤-٥ •

التي قد عم أنوارها الآفاق فسجدوا الا ابليس» (١٣) • ويروى الشيعة ايضا عن النبي (ص) ما يفيد خلود الائمة من ابناء على كقدمهم ، فان في نهج البلاغة انه (ص) قال : « ايها الناس خذوها من خاتم النبيين : انه يموت من مات منا وليس بميت ويبيلى من بلى منا وليس ببال» (١٤) • وسيمر بنا ان فكرة انور هذه بدأت سنة ٧٤٦/١٢٨ من عبدالله بن الحارث واسبغت على عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب الثائر بالكوفة والمتوفى بفارس سنة ١٣٠ ويرد في هذا التفسير ايضا ان موسى انما فرق البحر بعصاه بعد ان قال : « اللهم بجاه محمد وآله الطيبين الافلقتة» (١٥) ، ويذكر ان « كل فرقة نجت فقد نجت من العذاب بتوسلهم الى الله باسم محمد وآله» (١٦) ، ويرد في التفسير نفسه « ان الشجرة المحرمة في الجنة هي شجرة علم محمد وآل محمد الذين آثرهم الله عز وجل به دون سائر خلقه» (١٧) • بل ان الحاج معصوم على يروى ان النبي (ص) قال : « اول ما خلق الله نوري واول ما خلق الله روحى ، وقال : انا وعلى من نور واحد ، وقال كلنا واحد وامرنا واحد وسرنا واحد ونحن شيء واحد» (١٨) • ويورد الكليني « ان الامام ينطق عن الله في الكتاب وانه اوضح بأئمة الهدى من اهل بيت نبينا (ص) عن دينه وابلج بهم عن سبيل مناهجه وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه وجعلهم مسالك معرفته ومعالم لدينه وحجابا بينه وبين خلقه والباب المؤدى الى معرفة حقه اطلعهم على المكنون من غيب سره •••» (١٩) ، وذلك لان الكليني نفسه يورد عن علي بن ابي طالب (ع) ان الله عز وجل خلق النبيين على النبوة فلا يكونون الا انبياء ، وخلق الله الاوصياء على الوصية فلا يكونون الا اوصياء» (٢٠) ولهذا وجدنا

(١٣) تفسير الحسن العسكري ١٦٢ •

(١٤) نهج البلاغة ١/١٥٣ •

(١٥-١٧) تفسير الحسن العسكري ١٦٢-٣ •

(١٨) طرائق الحقائق ١/٤٣ •

(١٩) اصول الكافي ١ •

(٢٠) اصول الكافي ٢ •

علياً برواية الشيعة يقول : « انا آدم وانا نوح وانا ابراهيم وانا موسى وانا عيسى انتقل في الصور كيف اشاء من رأيتي فقد رأهم » (٢١) وتلك صورة تذكرنا بمقالة الحلاج المشهورة .

فاذا ابصرته ابصرتي واذا ابصرتني ابصرتنا

ويوضح الامام ذلك بقوله : « ولو ظهرت للناس في صورة واحدة لهلك في الناس وقالوا : هو لا يزول ولا يتغير ، وانما انا عبد من عباد الله . لا تسمونا اربابا وقولوا في فضلنا ما شئتم فانكم لن تبلغوا كنه ما جعله الله لنا الا معشار العشر لانا آيات الله ودلائله وحجج الله وخلفاؤه وامناء الله ووجهه الله وعين الله ولسان الله .. » (٢٢) . وهذه امور تتصل بتناسخ النور الآلهي الذي قال به عبدالله بن الحارث او هي افكار متأخرة جاءت من الغلو الذي شكل الاسماعيلية بلونه ، وسرى كل ذلك في موضعه . ويرد في (من لا يحضره الفقيه) - وهو ثاني مراجع الشيعة الرئيسية - في باب صلاة الاستسقاء عن سلمان الفارسي - الذي مر بنا تشيعه - عن النبي (ص) انه قال : « اجريت الحكمة على لسان اهل بيتي » (٢٣) ، ولفظ اهل البيت كما يورد الشيعة على لسان مفسرهم علي بن ابراهيم المنصوص عليهم في الآية : انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا ، يراد به رسول الله (ص) وعلي (ع) وفاطمة والحسن والحسين برواية ابي الجارود عن ابي جعفر محمد الباقر المتوفى سنة ١١٩/٧٣٧ ، وذلك ان الرسول (ص) دعا علياً وفاطمة والحسن والحسين ثم البسهم كساء خبيريا ودخل معهم فيه ثم قال : اللهم هؤلاء اهل بيتي الذين وعدتني بهم ما وعدتني اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فقالت ام سلمة - التي جرت هذه الواقعة في دارها - وانا

(٢١ ، ٢٢) طرائق الحقائق ٤٣/١ .

(٢٣) من لا يحضره الفقيه ، والآية في سورة الاحزاب : ١٠٣ .

معهم يا رسول الله؟ قال: ابشري يا ام سلمة انت الى خير» (٢٤) . وقد ورد في الصواعق المحرقة تأييد لهذا التفسير. فذكر ابن حجر « ان اكثر المفسرين على ما ذكرنا ويروى عن مسلم انه اورد رواية الكساء بكاملها » (٢٥) . وهذه الآية اساس من اساس العقيدة الشيعية توثقها آية المباهلة: «قل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نتهل فنجعل لعنة الله على الكافرين» (٢٦) برواية ابن حجر ايضا . وذلك انها لما نزلت غدا (ص) محتضنا الحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلى خلفها ، وهؤلاء هم اهل الكساء ، فهم المراد في آية المباهلة (٢٧) . وبذلك يتضح لنا لماذا يعتبر على من اهل البيت ولا يعتبر كذلك العباس عم النبي (ص) . فملاك الامر اذا ان لدى على استعدادا روحيا وانه صنو لاي نبي فالتسمية هنا تعين الوظيفة ولا تؤثر في مقام الشخص . ولم يقصد الشيعة بذلك ان عليا احق بالرسالة من النبي وان الرسالة لو لم تكن في محمد (ص) لسكانت في على : انهم لا يفكرون في المسألة على هذا النحو كما قد يخيل الى غيرهم ، وانما يوجهون المسألة الى سمو روحى حظى به على من الله نفسه بحكم وجوده في مهبط الوحي وكونه اخا شخصيا وروحيا للرسول (ص) . وقد ورد ذلك في اصول الكافي الكتاب الشيعى الاول الذى يجمع اقوال الائمة . قال على : « انا قسيم الله بين الجنة والنار وانا الفاروق الاكبر وانا صاحب العصا والميسم وبهذا اقرت لى جميع الملائكة والروح بمثل ما اقرت لمحمد (ص) . . . » (٢٨) ، وشرح الباقر - الامام الخامس - ذلك بان عليا « جرى له من الطاعة بعد رسول الله والفضل ما لرسول الله . . . فان رسول الله باب الله الذى لا يؤتى الا منه وسبيله الذى من سلكه وصل الى الله عز وجل ، وكذلك كان امير المؤمنين من بعده وجرى للائمة واحدا بعد واحد» (٢٨) . ويدل على سمو

-
- (٢٤) تفسير على بن ابراهيم ٥٣١ .
(٢٥) الصواعق المحرقة ١٤١ .
(٢٦) آل عمران : ٥٤ .
(٢٧) الصواعق المحرقة ١٤٣ .
(٢٨) اصول الكافي ٣٦ .

مقام على الروحي ما يرد في تفسير علي بن ابراهيم من ان الرسول قال لعلي :
 « ان الله اشهدك معي في سبعة مواطن هي : الاسراء الاول والثاني وفي بعثتي
 الى الجحن وفي ليلة القدر ودعوة النبي لله في علي ان يعطي كل شيء فاعطاه الا
 النبوة وكان مثال علي مع الرسول في صلواته بالانبياء في اسرائه الى السماء ،
 وكان علي معه في هلاك الاحزاب» (٢٩) وقد ورد في نص الاسراء انه «اما اول
 ذلك فليلة اسرى بي الى السماء ، قال لي جبرائيل ابن اخوك فقلت : خلفته
 ورائي قال ادع الله لعله يأتيك به ، فدعوت الله واذا مثالك معي واذا الملائكة
 وقوف صفوف ، فقلت يا جبرائيل من هؤلاء قال : هم الذين يباهيهم الله بك
 يوم القيامة ، والثاني حين اسرى بي المرة الثانية فقال جبرائيل ابن اخوك
 قلت : خلفته ورائي قال ادع الله فليات بك فدعوت الله فاذا مثالك معي فكشط
 لي عن سبع سموات حتى رأيت سكانها وعمارها وموضع كل ملك منها» (٢٩-)
 وسيرد مثل ذلك عند ابن قضيبة الباب (المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ) الذي عرج
 الى السماء بنفسه (٣٠) واذن فعلى هو رأس البيت بعد النبي وهو اول الائمة
 وقد اورد اليعقوبي حديثا يبدو وكأن فيه رسما للامام علي وصيا واخا روحيا
 حقا : « قال (ص) لعلي بن ابي طالب (ع) : عليك بالصدق فلا تخرجن من
 فيك كذبة ابدا والورع فلا تجترىء على خيانة ابدا ، والخوف من الله كانتك
 تراه ، والبكاء من خشية الله بين لك بكل دمعة بيتا في الجنة ، والاخذ
 بستى (٣١) ولهذا فانه ليس من الغريب ان نجد في كتاب الغيبة للطوسي
 المتوفى سنة ١٠٦٨/٤٦٠ بعد تبيان فضل النبي (ص) وشرفه ومقامه عبارة
 تتم عن مقام علي نفسه ، « وعلى اخيه امير المؤمنين تاليه في الفضل ومؤازره في
 الأواء والازل وسيف الله على اهل الكفر والجهل ٠٠٠ والخازن علمه
 والمستودع سره والظاهر على مكنون أمره (٣٢) ، ومن هذا يتبين مدى ما

-
- (٢٩) تفسير علي بن ابراهيم ٦٥٢ .
 (٣٠) الانسان الكامل في الاسلام ١٣٥ .
 (٣١) تاريخ اليعقوبي ٧٦/٢ .
 (٣٢) الغيبة للطوسي ٣ .

للامام على من سمو روحى ومقام رفيع عند الشيعة الذين يقولون فى زيارة قبره : « السلام على ذات الله العليا السلام على ذات الله القائمة بالسنن ، السلام على المن والسلوى » (٣٣) .

وقد تلقف المتصوفة امثال هذه النصوص واخذوا افكار الغلاة وجعلوها مستند طريقتهم ومثالا للنسج على منواله . والواقع ان نصوصا مثل هذه تجسم الهدف الذى يرمى اليه المتصوفة من السلوك والمجاهدة وقد دار كل ذلك فى الاصل حول على وهنا نشعر بالتألية وبالبحلول . واقل ما يمكن ان يقال فى مدلول هذه النصوص - ولعل ذلك مقصد واضعها - ان عليا يشبه المسيح (ع) روح الله والامر كذلك فعلا ، وهذا سلمان الفارسى الخير فى الروحانيات والنبوات يروى لنا لمناسبة تفسير الآية : « ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون » (٣٤) بينا رسول الله جالس فى اصحابه اذ قال : يدخل عليكم الساعة شبيه عيسى بن مريم فدخل على بن ابى طالب « (٣٥) ، وقد تبتّه آدم متر الى هذه الحقيقة فقال : وكثيرا ما نجد فى العراق عام ٩١٣/٣٠٠ من يقول : ان الانلاهوئية اجتمعت فى على كما اجتمعت فى عيسى (ع) من قبل ، وكان احد خطباء الشيعة فى بغداد فى عام ١٠٢٩/٤٢٠ يدعو فى خطبة الجمعة بعد الصلاة على النبى (ص) فيقول : « وعلى اخيه امير المؤمنين على بن ابى طالب مكلم الجمجمة ومحى الاموات ، البشرى الآلهى مكلم فتيه اهل الكهف وغير ذلك من الغلو » (٣٦) . وسنرى بعد قليل ان الصوفية قالوا فيه مقالة الشيعة ايضا ، بل ان الشيعة يوردون لعل ما ورد للمسيح فى الزانية . فان على بن ابراهيم يروى بصريح العبارة انه « اقام على (ع) الحد على رجل اعترف بزناه وقال مقالة عيسى : ايها الناس هذه حقوق الله لا يطلبها الا من كان

(٣٣) طرائق الحقائق ١/٢١١ .

(٣٤) الزخرف : ٥٧ .

(٣٥) تفسير على بن ابراهيم ٦١١ .

(٣٦) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع لآدم منز وترجمة محمد

عبدالمهادى ابو ريده ١/٨٢ .

عنده لله حق مثله فانه لا يقيم الحد من كان لله عليه الحد فانصرف الناس ، (٣٧) نم رماه على والحسن والحسين (ع) . وقد ادت هذه المثل فيما بعد الى نشوء الفرق المؤلّهة لعلّ بحيث قال قائلهم :

اذا قيل المسيح هو الاله وأحمد مبتداه ومنتهاه
فمولانا على روح احمد احق من المسيح ومن سواه (٣٨)

فاذا ما اغفلنا كلّ ما ذكرناه وافرغنا منه ذهننا وتوجهنا الى نقطة جديدة فاننا سنجد ان اشيعة قد حاولوا ان يسندوا الامامة والائمة بسند من آيات القرآن نفسه . فان تفسير الآية : الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى اكلها كل حين باذن ربها (٣٩) ، كما ورد عن الامام محمد الباقر : « الشجرة رسول الله ، ونسبه ثابت في بنى هاشم وفرع الشجرة على بن ابي طالب . وغصن الشجرة فاطمة عليها السلام . وثمرتها الائمة من ولد على وفاطمة عليهم السلام وشيعتهم سلام الله عليهم ورقها . . . » (٤٠) ، يضاف الى ذلك ان على بن ابراهيم روى كذلك ان آل محمد هم النجوم (٤١) ،

(٣٧) تفسير على بن ابراهيم ٤٥١ .

(٣٨) من مخطوط عند الاستاذ توفيق وهبي .

(٣٩) سورة ابراهيم ٢٤ .

(٤٠) تفسير على بن ابراهيم ٣٤٥ .

• مما يذكر هنا ان المجوس كانوا يرون مثل هذا الرأى في زرادشت ويحسن أن تثبت النص الذي اورده الشهرستاني دفعا للبس . قال : « وزعموا ان الله - عز وجل - خلق ، من وقت ما في الصحف الاولى والكتاب الاعلى من ملكوته ، خلقا روحانيا . فلما مضت ثلاثة آلاف سنة انفذ مشيئة في صورة من نور يتلأأ على تركيب صورة الانسان وأحف به سبعين من الملائكة المكرمين . وخلق الشمس والقمر والكواكب : أنشأها في أعلى عليين وغرسها في قلعة جبل من جبال اذربيجان يعرف بأسمو يزخر ، ثم مازج شبح زرادشت بقرة فشربه ابو زرادشت فصار نطفة ثم مضغه في رحم امه ، ثم لما ولد ضحك ضحكة تبينها من حضر ، ونشأ بعد ذلك الى ان بلغ ثلاثين سنة فبعثه الله نبيا ورسولا الى الخلق . . . » الملل والنحل ٦٨/٢ .

التي تتضمنها الآية : وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر (٤٢) . ويفسر على بن ابراهيم التين بانه رسول الله والزيتون على بن ابي طالب وطور سينين الحسن والحسين وهذا البلد الامين الائمة عليهم السلام (٤٣) ، وكذلك يفسر جعفر الصادق (ع) الامة الوسط الواردة في الآية « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » (٤٤) ، فيقول نحن الامة الوسط ونحن شهداء الله على الناس (٤٤) ، والرجال المذكورون في الآية : وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ، هم الائمة والاعراف كئبان بين الجنة والنار (٤٥) .

هذا قليل من كثير مما يراه انشيعة دالا على الائمة من آيات القرآن ، أما على بن ابي طالب ابو الائمة فله قسمه من الآيات ، فعلى هو النبأ العظيم في رأى الرضا - الامام الثامن - (٤٦) وعلى هو النور (٤٧) ، الذى تشير اليه الآية : فامضوا بالله ورسوله واتور انزلنا (٤٨) ، وهو المؤذن الذى تعنيه الآية : فأذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الكافرين (٤٩) ، وهو الغمام الذى تدور حوله الآية : يوم تشقق السماء بالغمام (٥٠) وكذلك الامام الذى تعنيه الآية : اجعلنا للمتقين اماما (٥١) ويشير ابن حجر الى ان عليا سئل وهو على المنبر عن قوله تعالى : من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا فقال : اللهم غفرا هذه الآية

-
- (٤١) تفسير على بن ابراهيم ١٩٩ .
 (٤٢) الانعام ٩٧ .
 (٤٣) تفسير على بن ابراهيم ٧٣٠ .
 (٤٤) اصول الكافي ٤٣ ، والآية في سورة البقرة : ١٣٧ .
 (٤٥) تفسير على بن ابراهيم ٢١٦ .
 (٤٦) تفسير على بن ابراهيم ٧١ .
 (٤٧) تفسير على بن ابراهيم ٦٨٣ .
 (٤٨) التغابن ٨ .
 (٤٩) تفسير على بن ابراهيم ٢١٦ ، والآية في الاعراف : ٤٣ .
 (٥٠) تفسير على بن ابراهيم ٤٦٥ ، الفرقان : ٢٥ .
 (٥١) تفسير على بن ابراهيم ٤٦٧ ، الفرقان : ٧٤ .

نزلت في وفي عمى حمزة وفي ابن عمى عبدة بن الحارث بن عبدالمطلب . . .
 واما انا فانتظر اشقاها يخضب هذه من هذه و اشار بيده الى لحيته ورأسه ،
 وقال في ذلك انه عهد عهده الى حبيبي ابو القاسم ^(٥٢) ، وسنرى ان المتصوفة
 يرون بعض ذلك دالا على علي ويرون البعض الآخر مما يدل على الائمة عموما
 دالا عليهم ، وذلك مجال كبير للمناقشة . واذا عرضنا للنصوص التي تروى
 عن علي نفسه وجدناه يقول : « لا يكمل للمؤمن ايمانه حتى يعرفني
 بالنورانية ، فاذا عرفني بذلك فهو مؤمن ممتحن امتحن الله قلبه بالايمان
 وشرح صدره للاسلام . . . » ^(٥٣) ، وهو اندي يقول : « بل اندمجت على
 مكنون علم لو بحث به لاضطربتم اضطراب الارشية في الطوى البعيدة » ^(٥٤) ،
 وترد عن علي احاديث غنوصية مليئة بالمصطلحات الصوفية كهذا الحديث الذي
 يدور بين كميل بن زياد الزاهد الشيعي المشهور المقتول سنة ٨٣ وعلى بن
 ابي طالب قال علي : « الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير اشارة ، قال كميل
 زدني بيانا قال : محو الموهوم وصحو المعلوم . فقال : زدني بيانا قال : هتك
 الستر لغلبة السر . فقال : زدني بيانا ، قال : نور يشرق من صبح الازل
 فيلوح على هياكل التوحيد بآثاره فقال : زدني بيانا ، فقال : اطفئوا السراج
 فقد طلع الصبح » ^(٥٥) . ويتضح منهج الامام علي في المعرفة بقوله : « العقل
 لمراسم العبودية لا لادراك سر الربوبية » ^(٥٦) ، وذلك يعنى ان عليا - كما
 يوحى هذا النص - يرى ان الذوق هو المنهج الذي يصل به الانسان - ولم
 لا نقول السالك هنا - في الوصول الى الحقيقة الالهية ، اما العقل فهو الذي
 يستعمل في ادراك الحلال والحرام وفهم العبادات وما جرى مجراها . وقد

(٥٢) الصواعق المحرقة ١٣٣ ، الاحزاب : ٢٣ .

(٥٣) طرائق الحقائق ٢١٧/١ .

(٥٤) نهج البلاغة ٣٦/١ .

(٥٥) روضات الجنات ٥٣٧ .

(٥٦) طرائق الحقائق .

اشتهر عن علي قوله : « ان هاهنا لعلمنا جما - وأشار بيده الى صدره - لو اصبحت له حملة • بل اصبحت لقنا غير مأمون عليه مستعملا الة الدين للدنيا ••••» (٥٧) ، وكان يقول « سلونى قبل ان تفقدونى ، فلأنا بطرق السماء اعلم منى بطرق الارض» (٥٨) • وورد عنه ما يجعل مركزه مغرقا فى السرية ومن جنس المعرفة التى لا يمكن الاطلاع عليها ، وذلك انه يقول : ان امرنا صعب مستصعب لا يحمله الا عبد امتحن الله قلبه للايمان ، ولا يعى حديثنا الا صدور امينة واحلام رزينة» (٥٩) •

واذا ما اتجهنا بالنصوص الواردة عن علي وجهة اخرى لمحننا فى سهولة ويسر تتلمذه على النبى واخذه عنه وتشبعه بشخصيته وصدوره عن العلم الذى اخذه منه • فان عليا فى حياته التى عاصرت انقلاب الاسلام من فكرة مثالية الى صراع عملى سياسى قد اعاد الى اذهاننا الاسلام الاول الذى كانت ترد فيه الآيات المخوفة من النار المحذرة من العذاب المنذرة الناس بقرب القيامة وقد مست الحاجة الى هذه التحذيرات من علي لان من واجبه ان يسدد الخطا وان يدل على الحق ويخوف من المرائق فها هو يقول : « الا وان بليتكم قد عادت قبل هيئتها يوم بعث الله نبيكم (ص)» (٦٠) ، ووضح قصده قائلا : « فالله عباد الله ، فان الدنيا ماضية بكم على سنن ، واتم والساعة فى قرن ، وكأنها قد جاءت بأسراطها وأزفت بأفراطها ووقفت بكم على صراطها ، وكأنها قد اشرفت بزلازلها واناخت بكلاكلها وانصرفت الدنيا بآهلها ••» (٦١) •

وكان علي يتنبأ للمحيطين به كما كان الرسول يفعل ، وتلك صفة لصقت به من تشربه بخلق النبوة ولهذا لم يكن من العبث ولا من التلاعب بالانفاظ قول

(٥٧) نهج البلاغة ١٨٧/٢ ، رسائل ابن عربى : كتاب الفناء ص ٣ •

(٥٨) نهج البلاغة ١٥٢/٢ •

(٥٩) النهج ١٥٣/٣ •

(٦٠) النهج ٤٣/١ •

(٦١) النهج ١٥٣/٣ •

ضرار الليل وهو يصف علياً في مجلس معاوية « يتفجر العلم من جوانبه ، تنظف الحكمة من نواحيه » (٦٢) ، ولقد كان على يقول : « سلونى قبل أن تفقدونى فوالذى نفسى بيده لاسألوننى عن شىء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة الا انباتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رجالها ومن يقتل من اهلها قتلاً ويسوت منها موتاً » (٦٣) ، وقد تنبأ لعثمان بالقتل ، وتنبأ لمروان بن الحكم يوم وقع اسيراً يوم النجم فاطلقه بشفاعة الحسن والحسين بأنه « ستلقى الامة منه يوماً أحمر » (٦٤) ، وتنبأ للاسلام بما سيحل به بقوله « ايها الناس سيأتى عليكم زمان يكفأ فيه الاسلام كما يكفأ الاناء بما فيه » (٦٥) وتنبأ بأنه سيطلب الى شيعة سبه والبراءة منه فقال : « اما النسب فسيبونى فانه لى زكاة ولكم نجاة ، واما البراءة فلا تبرؤا منى فانى ولدت على الفطرة وسبقت الى الايمان والهجرة » (٦٦) ، بل لقد عرف يوم مقتله ان الموت ينتظره ، ويروى لنا المسعودى انه « لم ينم تلك الليلة وأنه لم يزل يمشى بين الباب والحجرة وهو يقول : والله ما كذبت ولا كذبت وانها الليلة التى وعدت ... » (٦٧) . بل يروى ابو الفرج الاصفهاني انه كان يقول : « ما يحبس اشقاها ؟ فوالذى نفسى بيده لتخضبى هذه من هذه » (٦٨) . ولقد كان من اثر ذلك ان كان لعلى ما كان للنبي من اصحاب يلتفون حوله ويأخذون عنه ويدعون الى امامته . بل كان لعلى رجال يحملون سره فكما كان حذيفة بن اليمان صاحب سر رسول الله (ص) كان رشيد الهجرى « قد اتقى عليه علم البلايا والمنايا فكان يلقي الرجل ويقول له :

-
- (٦٢) حلية الاولياء ١/ ٨٤
 - (٦٣) نهج البلاغة ١/ ١٨٣
 - (٦٤) نهج البلاغة ١/ ١٢٠
 - (٦٥) نهج البلاغة ١/ ١٨٨
 - (٦٦) نهج البلاغة ١/ ١٠١
 - (٦٧) مروج الذهب ٢/ ٤٢
 - (٦٨) مقاتل الطالبين ٣١

يا فلان بن فلان تموت ميتة كذا . . . الخ» (٦٩) وذلك ان حذيفة كان ايام النفاق يعرف المنافقين ويدل عليهم ، اما رشيد فقد كان في أيام الاضطهاد يعرف الشهداء في سبيل المبدأ الشيعي .

وقد كان من تشرب على بخلق النبي وعلمه ان كلام علي بن ابي طالب تداخل مع كلام النبي ، كما رأينا من قوله : ان امرنا صعب مستصعب لمن كرهه ، ميسر لمن تبعه» (٧٠) ، والتداخل واضح في اللفظ والمعنى ، غير ان القرآن والحديث قد اختصرا في مقالة علي في كلمة واحدة هي : امرنا .

وهذا حديث نبوي يرد باكماله منسوباً الى علي (٧١) ، فقد روى عن النبي (ص) - برواية عبدالله بن عمر - انه كان يقول : «عبدالله كأنك تراه» فان لم تكن تراه فانه يراك» (٧٢) ، وقد ردد على هذا القول ايضا حين سئل : «هل نرى ربنا فقال : وكيف نعبد من لم نره» (٧٣) . والرؤية هنا قلبية بالطبع كما يورد السراج « وقد روى عن النبي (ص) انه قال : من عرف نفسه فقد عرف ربه ، وينسب هذا القول الى الامام علي كذلك ، (٧٤) . ويرى دي بوران هذا النص انما هو تصرف في عبارة سقراط : اعرف نفسك ، وقد وردت في ثوب من المذهب الافلاطوني الجديد» (٧٥) ، ويرد عن النبي (ص) انه قال : من اصبح وهو على الدنيا حزين ، اصبح على الله ساخطا ، ومن شكك مصيبة نزلت به فانما يشكو ربه ، ومن اتى ذا ميسرة وخشع له لينال من دنياه ذهب ثلثا دينه (٧٦) ، وهذا النص الى عبارة (يشكو ربه) يرد مسندا الى علي

-
- | | |
|------|------------------------------|
| (٦٩) | تاريخ الكوفة ٢٩١ . |
| (٧٠) | صون المنطق والكلام ٤٧ . |
| (٧١) | نهج البلاغة ١٠/٢٠ . |
| (٧٢) | نهج البلاغة ١/١٨٣ . |
| (٧٣) | اللمع ١١٧ . |
| (٧٤) | اللمع ٣٥٠ . |
| (٧٥) | تاريخ الفلسفة الاسلامية ٢٧ . |
| (٧٦) | تاريخ اليعقوبي ٧٨/٢ . |

باجمعه ، (٧٧) • والغريب ان هذا النص الذى يشارك فى قوله النبى (ص) وعلى (ع) يورده فرقد بن يعقوب السبخى المتوفى سنة ١٣١ منقولا عن التوراة ، والحديث الذى يورده فرقد هو نص حديث النبى كله (٧٨) • واذا ما التفتنا الى زهد على الذى كان اكبر نصير للضعفاء والفقراء والذى التف حوله المساكين كما مر بنا فاننا نجد نصوصا كثيرة تعبر عن روح الاسلام الزهدية التى اريد بها مقاومة التيار المكى الارستقراطى الذى كان النبى يقاومه وكان المكيون يحاولون انقضاء عليه باموالهم وارستقراطيتهم • لقد كان على يقول ردا على سؤال من قال له : كيف تجددك يا أمير المؤمنين ؟ قال : كيف يكون حال من يفنى بقاءه ويسقم بصحته ويوتى من أمته؟ ، (٧٩) ، وكان يقول : المال مادة الشهوات (٨٠) وافضل الزهد اخفاء الزهد (٨١) ، وكان يقول : نوم على يقين خير من صلاة فى شك (٨٢) ، وكان يقول : اهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام (٨٣) • وقد اورد ابو نعيم مجموعة من النصوص الزهدية عن على تبين الى اى حد كان يصدر عن نفس تعاف الراحة والشبع والنوم ، قال : احفظوا عنى خمسا ، فلو ركبتهم الابل فى طلبهن لانضيتموهن قبل ان تدركوهن : لا يرج عبد الارب ، ولا يخف الا ذنبه ولا يستحى جاهل ان يسأل عما لا يعلم والصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا ايمان لمن لا صبر له (٨٤) • وكان على يرسم للزهاد مستقبل الزهد حين قال : « ان الزاهدين فى الدنيا تبكى قلوبهم وان ضحكوا ويشند حزنهم

-
- (٧٧) نهج البلاغة ٢٠٣/١ •
 - (٧٨) صفة الصفوة ١٩٦/٥ •
 - (٧٩) نهج البلاغة ١٧٨/٣ •
 - (٨٠) نهج البلاغة ١٦٤/٣ •
 - (٨١) نهج البلاغة ١٥٦/٣ •
 - (٨٢) نهج البلاغة ١٧٢/٣ •
 - (٨٣) نهج البلاغة ١٦٤/٣ •
 - (٨٤) حلية الاولياء ٧٦/١ •

وان فرحوا ، ويكثر مقتهم انفسهم وان اغتبطوا بما رزقوا» (٨٥) . وروى عنه انه قال «واعلموا انه ليس من شيء الا ويكاد صاحبه يشبع منه ويمله الا الحياة» (٨٦) ، وتلك حكمة بالغة تندمج على حقيقة رائعة حاول الزهاد والمتصوفة ان يطبقوها بتعذيبهم انفسهم واهانتها واتخاذ سلاح المجاهدة . ويروى عن الامام نص زهدى هو الى التصوف اقرب لانه يتضمن مصطلحات صوفية مرصوفة في خبر يروى عن الامام قال : « اللهم من على بالتوكل عليك والتفويض اليك والرضا بقدرك ، والتسليم لامرك ، حتى لا احب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت يارب العالمين» (٨٧) . وهذا دعاء في ظاهره ولكنه مجموعة من المصطلحات الصوفية . فالتوكل والتفويض والرضا والتسليم كلها مصطلحات ليس من المعقول ان تتوالى في نص واحد على سبيل الصدفة . بل وصل على بالتصوف حتى انطقه الحاج معصوم على بتشقيق لفظ التصوف وتعريفه ، فانه يروى انه « سئل على عليه السلام عن معنى التصوف فقال : التصوف مشتق من الصوف وهو ثلاثة احرف : صاد وواو وفاء الصاد صبر وصدق وصفاء والواو ود وورد ووفاء والفاء فقر وفرد وفناء» (٨٨) ومن نافلة القول ان تنفى ورود هذا القول عن على بن ابي طالب لانه ظاهر بين ، ولكننا سنجعله مدخلا الى تعرض الصوفية لعلى بن ابي طالب واتخاذهم شيخا لهم وبخاصة اصحاب الفتوة الذين سنتطرق اليهم في فصل خاص من هذه الرسالة .

وأول ما نلاحظه في صلة التصوف بعلى ان كلامه يتداخل مع كلام اسلاف المتصوفة من الزهاد ، وسنجده يتداخل مع كلام الصوفية انفسهم . وأول نص نوردته في هذا المقام ما ذكر عن عامر بن عبدالله بن عبد قيس

-
- (٨٥) نهج البلاغة ١/ ٢٣٠ .
 - (٨٦) نهج البلاغة ٢/ ٢٣ .
 - (٨٧) اصول الكافي ٢٧ .
 - (٨٨) نهج البلاغة ٢/ ٢٣ .

الزاهد البصرى القديم (المتوفى فى خلافة معاوية) أنه قال : « لو كشف الغطاء ما ازددت الا يقينا » (٨٩) ، وتلك عبارة وردت مسندة الى على بن ابي طالب (٩٠) ، وهى مأخوذة من الآية : « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (سورة ق آية ٢١) .

٢ - وورد عن عون بن عبدالله بن عتبة الهذلى الزاهد الكوفى (المتوفى قريب سنة ١١٠/٧٢٨-٩) انه قال : ويحى من خطيئة ذهبت شهوتها وبقيت تبعثها عندى ، (٩١) ، وذلك مدار قول على بن ابي طالب : « شتان ما بين عمليين : عمل تذهب لذته وتبقى تبعته ، وعمل تذهب مؤوته ويبقى أجره » (٩٢) .

٣ - أما الحسن البصرى (المتوفى سنة ١١٠/٧٢٨-٩) فقد قال فيه الشريف الرضى (المتوفى سنة ٤٣٦/١٠٤٤) : « وجميع كلامه من الوعظ وذم الدنيا او جلّه مأخوذ لفظا ومعنى او معنى دون لفظ من كلام أمير المؤمنين على بن ابي طالب ، (٩٣) وضرب لذلك امثلة عديدة (٩٤) .

٤ - وقد روى عن سفیان الثورى (المتوفى سنة ١٦١/٧٧٧-٨) ، والذى سيكون شيخا للزهاد الكوفيين ، انه قال : « الزهد فى الدنيا قصر الامل : ليس بأكل الغليظ ولا بلبس العباء » (٩٥) وذلك متصل بقول

-
- (٨٩) اللمع ٧١ ، فتح الرحمن : ورقة ٦ .
(٩٠) رسائل اخوان الصفا ٣/٣١٨ ، الفتوحات المكية ٣/١٧٤ ، وقد نسب البونى هذه العبارة الى أبى بكر الصديق (شمس المعارف الكبرى ، مصر ١٣١٨ ، ٢/١٠) .
(٩١) صفة الصفوة ٣/٥٦ .
(٩٢) نهج البلاغة ٣/١٧٩ .
(٩٣) أمالى المرتضى ١/١٠٦ .
(٩٤) المصدر نفسه ١/١٠٦-١٠٨ .
(٩٥) الرسالة القشيرية ص ٧٣ .

على بن ابي طالب : « ان أخوف ما أخاف اتباع الهوى وطول الامل » (٩٦) .
 وقد عبر معروف الكرخي (المتوفى سنة ٢٠٠/٨١٥) عن هذا المعنى ايضا بقوله:
 «نعوذ بالله من طول الامل فانه يمنع خير العمل» (٩٧) . وقد سمع سفيان يقول :
 « سلوني عن التفاسير والمناسك فاني بهما عالم » (٩٨) ، وذلك مدار عبارة على
 المشهورة : « سلوني قبل ان تفقدوني » (٩٩) .

٥ - وروى عن عبدالواحد بن زيد (المتوفى سنة ١٧٧/٧٩٣) انه قال:
 « مثل المؤمن كالولد في الرحم لا يجب الخروج ، فاذا خرج لا يجب ان يرجع ،
 فكذا المؤمن في الدنيا » (١٠٠) ، وذلك تعبير ضعيف عن المعنى الذى أدّاه
 على بن ابي طالب فى عبارته : « واعلموا انه مامن شىء الا ويكاد صاحبه ان
 يشبع منه ويمله الا الحياة » (١٠١)

٦ - وترد لرابعة العدوية الزاهدة البصرية المشهورة (المتوفاة سنة
 ١٨٠/٧٩٦) اقوال متعددة فيها هذا التداخل ، ومن ذلك ما اخذه عون النهدي -الماز
 الذكر - عن على فى قوله : « شتان ما بين عمليين » فقد روى عن رابعة أنها
 قالت : « كم من شهوة ذهبت لذتها وبقيت تبعثها عندي » (١٠٢) ، والتطابق
 بين العبارتين ظاهر . وروى عن رابعة انها قالت ايضا : « ما عبدته خوفا من ناره
 ولا طمعا فى جنته - فأكون كالاجير السوء - عبدته جباله وشوقا اليه » (١٠٣) .
 وقد وردت هذه المعانى فى عبارة على بن ابي طالب المشهورة - التى تنسب

(٩٦) حلية الاولياء ١/٧٦ ، كذلك يرد نص مضطرب فى هذا المعنى لعلى

فى « الرعاية لحقوق الله » للحاسبى ص ٧٥ .

(٩٧) المصدر نفسه ٨/٣٦١ .

(٩٨) المصدر نفسه ٧/٥٨ .

(٩٩) نهج البلاغة ١/١٨٣ .

(١٠٠) الكواكب الدرية ١/٧٦ .

(١٠١) نهج البلاغة ٢/٢٣ .

(١٠٢ ، ١٠٣) الكواكب الدرية ١/١٠٩ ، قوت القلوب ، مصر ١٣٤٠ ،

٥٧/٢ بنص مقارب .

ايضا الى حفيده على بن الحسين زين العابدين (المتوفى سنة ٧١٢/٩٤-٣) - :
« ان قوما عبدوا الله رغبة ، فثلك عبادة التجار • وان قوما عبدوا الله رهبة ،
فثلك عبادة العبيد • وان قوما عبدوا الله شكرا فثلك عبادة الاحرار ، » (١٠٤) •

٧ - أما مالك بن دينار الواعظ الزاهد البصرى (المتوفى سنة
٧٩٧/١٨١) فان بين كلامه وكلام على بن ابي طالب تداخلا ملحوظا ولعل ذلك
وارد من طبيعة الوعظ والتذكير للذين كان مالك يأخذ نفسه بهما ويلتزمهما
فى المجتمع المتفسخ الذى كان يعيش فيه • فمن ذلك ما جابه به الى البصرة
فى أبته بقوله : « من أعرف بك منى : أما اولك فنظفة مذرة ، واما آخرك
فجيفة قدرة ••••• » (١٠٥) • وهو معنى يتصل بما قاله على بن ابي طالب :
« مالابن آدم والفخر وأوله نظفة وآخره جيفة !؟ » (١٠٦) • وقال مالك بن
دينار أيضا : « اتقوا السحارة ، اتقوا السحارة ، فانها تسحر قلوب العلماء » (١٠٧) ،
(يعنى الدنيا) ، وذلك بنفسه ما عبّر عنه على فى قوله - مخاطبا الدنيا -
« يا دنيا ، يادنيا ••• هيهات هيهات ، غرتى غيرى » (١٠٨) ، وقال : يا صفراء
ويا بيضاء غرتى غيرى » (١٠٩) •

٨ - وكان عتبة الغلام - المعاصر لابن دينار - ينظر الى قول على
المشهور للدنيا : « قد بتتک ثلاثا لا رجعة لى فيك » (١١٠) فى خطابه لبحورية
تخيّلها : « طلقت الدنيا ثلاثا ، لا رجعة لى فيها حتى القاك » (١١١) •

-
- (١٠٤) نهج البلاغة ٢/٢٠٦ ، شذرات الذهب ١/١١٥ •
(١٠٥) صفة الصفوة ٣/١٩٩ •
(١٠٦) الكواكب الدرية ١/٤٠ •
(١٠٧) حلية الاولياء ٦/٢٨٧ •
(١٠٨) صفة الصفوة ١/١٢٢ •
(١٠٩) اللمع ص ١٣١ •
(١١٠) صفة الصفوة ١/١٢٢ •
(١١١) الكواكب الدرية ١/١٣٧ •

٩ - وقال شقيق البلخي (المتوفى سنة ١٩٤/٨١٠) : «اذا كان العالم طامعا وللمال جامعا فبمن يقتدى الجاهل ؟ واذا كان الفقير المشهور بالفقر راغبا في الدنيا والتنعم بملابسها ومناكحها فبمن يقتدى الراغب حتى يخرج عن رغبته؟ واذا كان الراعى هو الذئب فمن يرعى الغنم» (١١٢) وتلك عبارة طويلة تدخل في ضرب الامثال على جدوى الزهد ، ليقضى به المريدون والسالكون في هذا السبيل . وقد جاء هذا المعنى في عبارة بسيطة اسندت الى على بن ابي طالب في قوله : «ان الله أخذ على أئمة الهدى ان يكونوا في مثل أدنى الناس ليقضى بهم الغنى ولا يزرى بالفقير فقره» (١١٣) .

١٠ - ولم يقتصر التداخل في البيان عن الزهد بين أقوال على والزهاد فقط وانما تعداه الى بناء التصوف ومؤسسيه ايضا : فقد مرّ ما قاله معروف الكرخي : نعوذ بالله من طول الامل فانه يمنع خير العمل وها هو ذو النون المصري (المتوفى سنة ٢٤٥/٨٥٩) يعبر عن معان سبقت نسبتها الى على كقوله : « من اراد التواضع فليوجه نفسه الى عظمة الله فانها تذوب وتصفو ، ومن نظر الى سلطان الله ذهب سلطان نفسه ، لان النفوس كلها فقيرة عند هيئته» (١١٤) . وذلك هو هو ما أشار به على بن ابي طالب على الاشتهر النخعي حين ولّاه مصر وتضمنه عهده المشهور اليه ، ومنه : «... واذا احدث لك ما انت فيه من سلطانت ابهة او مخيلة ، فانظر الى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك ، فان ذلك يطامن من طماحك ويكفّ عنك غربك ويفي اليك بما عزب عنك من عقلك» (١١٥) . وقال ذو النون : «ان الله تعالى انطق اللسان بالبيان وامتنحه بالكلام وجعل القلوب أوعية

(١١٢) طبقات الشعراى ٦٥/١

(١١٣) احياء العلوم ٢٣٢/٤ ويرد نص مقارب فى تلبيس ابليس لابن

الجوزى ، مصر ١٩٢٨ ، ص ٢٠١ .

(١١٤) طبقات الصوفية ص ٢٠ .

(١١٥) نهج البلاغة ٩٤/٣

للعلم،^(١١٦)، وهو فى ذلك ينظر الى قول على بن ابي طالب : « القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها،^(١١٧) وقد أخذ منصور بن عمار - من وعاظ الزهاد السابقين - هذا التشبيه ايضا فى قوله : « سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر ، وقلوب الزاهدين أوعية التوكل ، وقلوب المتوكلين أوعية الرضى ، وقلوب الفقراء أوعية القناعة ، وقلوب أهل الدنيا أوعية الطمع،^(١١٨) .

ولذى النون قول آخر يطابق كلاما لعلى سنجمه خاتمة لهذه المجموعة ومدخلا الى مكانة على فى التصوف .

١١ - وقد أخذ ابو يزيد البسطامى (المتوفى سنة ٢٦١/٥-٨٧٤) بنصيه من معانى الامام على ايضا ونظر اليها فى البيان عن مشاعره الروحية ، ومن ذلك قوله : « طلقت الدنيا ثلاثا لا رجعة لى فيها وصرت الى ربى وحدى،^(١١٩) وذلك هو قول على السابق للدنيا .

١٢ - وروى ابو عبدالرحمن السلمى (المتوفى سنة ٤١٢/٢-١٠٢١) عن السبلى (المتوفى سنة ٣٣٤/٦-٩٤٥) انه وقف رجل على حلقة « فسأله هل تظهر آثار صحة الوجود على الواجدين ؟ فقال : نعم ، نور يزهر مقارنا النيران فتلوح على الهياكل آثارها،^(١٢٠) وتلك صورة أخرى من عبارة لعلى وردت فى محاورته الماضية لكميل وهى تقول : « نور يشرق من صبح الازل فيلوح على هياكل التوحيد بآثاره ، » .

ثم يرد قول ظاهر النحل على على ، فقد روى عنه انه قال : « الصوفى

(١١٦) طبقات الشعرائى ٦٠/١ .

(١١٧) حلية الاولياء ١/٧٩-٨٠ ، صفة الصفوة ١/١٢٧ ، قوت القلوب ، مصر ١٣١٠ ، ١٣٤/١ ، الكواكب الدرية ١/٤٣ .

(١١٨) كشف المحجوب للهجوبرى ص ١٥٨ .

(١١٩) صفة الصفوة ٤/٩٢ .

(١٢٠) الرسالة القشيرية ٣٥ .

من لبس الصوف على الصفا واطعم الهوى طعم الجفا ، وكانت الدنيا منه على القفا ، واستوى عنده الذهب والحجر والفضة والمدر ، والا فالكلب انكوفى خير من ألف صوفى » (١٢١) وهو قول يعترف ناقله بنسبته الى الجنيد البغدادي (المتوفى سنة ٢٩٨/٩١٠) مع تغيير طفيف ، وان كان الكلاباذى يورده مسندا الى علي الروذبارى ، ونصه : « الصوفى من لبس الصوف على الصفا ، واطعم الهوى طعم الجفا وكانت الدنيا منه على القفا ، وسلك طريق المصطفى » (١٢٢) . ولعل مما لا يحتاج الى دليل نسبة هذه العبارة الى غير علي بن ابي طالب .

ونعود فى الختام الى ذى النون فنورد قوله الذى أجتناه الى هذا الموضوع ، وهو متصل بالفكرة الصوفية الدائرة حول درجات العارفين واختلاف معرفتهم ، فورد عنه تقسيم المعرفة الى ثلاثة اقسام : « الاول حظ مشترك بين عامة المسلمين ، والثانى معرفة خاصة بالحكماء والعلماء ، والثالث خاص بالاولياء الذين يرون الله بقلوبهم » (١٢٣) ، ويقابله قول الامام على فى تقسيم الناس - من حيث علمهم - الى ثلاثة بقوله : « الناس ثلاثة ، فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع اتباع كل ناعق » (١٢٤) ، وتطابق هذين التقسيمين ظاهر بين ، وكل ما بينهما من اختلاف يقوم فى الاصطلاح لا اكثر ولا اقل (١٢٥) ، ولعل هذا التداخل يعكس روح الامام الزهدية

(١٢١) روضات الجنات ٢٣١ .

(١٢٢) التعرف ٩ .

(١٢٣) تذكرة الاولياء ١٣١/١ ترجمة .

(١٢٤) حلية الاولياء ٧٩/١ وقوت القلوب (مصر ١٣١٠) ١٣٤/١ .

(١٢٥) ذكر التسترى هذا التقسيم على صورة أخرى أوصلها بالفتن فقسماها الى «فتنة العامة من اضاءة العلم وفتنة الخاصة من الرخص والتاويلات وفتنة أهل المعرفة من أن ملزمهم حق فى وقت فيؤخروه الى وقت ثان» وذلك يعنى قسمة الناس الى اهل المعرفة (فعال ربانى) والخاصة (متعلم على سبيل نجاة) والعامة (همج رعاع) (طبقات الصوفية ٢١٠) .

ونظرته العميقة الى الامور بحيث يعبر عنها باعمق مما يقوى عليه الانسان العادى ، او لعلها روح المتصوفة التى تبحث عن اساس لطريقتهم فوجدت فى اقوال ازهد الصحابة وافصحهم واورعهم ذخيرة يعتمد عليها فى توثيق اساس الطريقة فوضعت على لسانه اقوالا لم ينطق بها على امل ان تجوز على الناس لما اشتهر به الامام من زهد عملى وبيان بليغ يعبر به عن احداث حياته ومثل الاسلام التى صدر عنها . وهذا الذى قلناه مدخل الى تناول المتصوفة لشخص الامام على مما سنعرض له فى الصفحات التالية . ولا بد ان نتد فى ايراد مقام الامام على عند المتصوفة لثلا يجرفنا سيل هذا البحث الى استطراد مكانه فى التصوف لا فى التشيع .

ولا بد لنا ان نفتتح هذا الفصل بادارة صوفية تصف الامام عليا ، فهذا ابو نعيم يمرض له فى الحلية بقوله : «سيد القوم ، مجد المشهود ومحجوب المعبود باب مدينة العلم والعلوم ورأس المخاطبات ومستنبط الاشارات ، راية المهتدين ونور المطيعين وولى المتقين وامام العادلين ، اقدمهم اجابة وايمانا واقومهم قضية واتقانا واعظمهم حلما واوفرهم علما : على بن ابي طالب كرم الله وجهه قدوة المتقين وزينة العارفين ، النبىء عن حقائق التوحيد المشير الى لوازم علم التفريد ، صاحب القلب العقول واللسان السؤول والاذن الواعى ، والمهدى الوافى ، فقاء عيون الفتن ، ووقى من فنون المحن» (١٢٦) . ونستطيع ان نستخلص من رأى ابي نعيم فى على انه مؤمن يحبه الله وعالم بعلم الرسول مطلع على سائر العلوم متصف بصفة الزهاد وخلقهم وعلومهم ، عالم بالظاهر والباطن . وستكون هذه الاشارة الى علمه بالظاهر والباطن امتن صلة تصل الشيعة - ممثلين فى تبنيهم لعلم على - بالمتصوفة . وقد كان على هو الوحيد من بين الصحابة - اذا استثنينا علم حذيفة الجزئى - الذى اخص بحمل هذا العلم ، فلم يقل فى احد غير على : انا مدينة العلم وعلى بابها . وقد تبسه

(١٢٦) حلية الاولياء ١/٦١ .

السراج المتوفى سنة ٣٧٨ الى هذه الصفة وعرفها لعلى وذكر ان « لأمير المؤمنين على رضى الله عنه خصوصية من بين جميع اصحاب رسول الله (ص) بمعاني جليلة واشارات لطيفة والفاظ مفردة وعبارة وبيان للتوحيد والايمان والعلم وغير ذلك» (١٢٧) ، وبين الكلاباذى ذلك فى قصة ينقلها عن ابى بكر محمد بن على الكنانى قال : « رأيت رسول الله فى عادتي - وكانت العادة قد جرت له انه كان يرى النبى كل ليلة اثنين وخميس فى الحلم فيسأله مسائل فيجيبه (ص) عنها - قال : « فرأيتة قد اقبل ومعه اربعة نفر ، فقال : يا ابا بكر ، اتعرف من هذا ؟ قلت نعم ، هو ابو بكر . ثم قال لى : اتعرف هذا ؟ قلت نعم ، هذا عمر . ثم قال : اتعرف هذا ؟ قلت : نعم ، هو عثمان . ثم قال لى : اتعرف هذا الرابع ؟ فتوقفت ولم اجب . فاعاد على ثانيا ، فتوقفت . واعد على ثالثا فتوقفت - وكان فى قلبى منه غيرة - قال : فجمع كفه و اشار بها الى ثم بسطها وضرب بها صدرى وقال لى : يا ابا بكر ، قل : هذا على بن ابى طالب ، فقلت : يا رسول الله ، هذا على بن ابى طالب . قال : فأخى - عليه السلام - بينى وبين على رضى الله عنه (١٢٨) . وتشير القصة الى اخوة على للنبي وقربه منه الى حد ان الكنانى قد ثارت غيرته حتى توقف عن الكلام ، ثم رأينا النبي (ص) - كما يقول الكنانى - قد ازال عن قلبه الحزن والحسد بمساواته بعلى وبمؤاخاته له ، وفى ذلك الدليل التاسع على مكانة على عند المتصوفة .

ويجب الا نغفل جوهر وصل على بالتصوف ، وذلك ان له علما خاصا اشار اليه ابو طالب المكى بقوله : « وكان عند اهل العلم ان علمهم مخصوص لا يصلح الا للخصوص » (١٢٩) ويستشهد بقول على بن ابى طالب : « . . . حتى يودعوه امثالهم ويزرعوه فى قلوب اشكالهم » (١٢٩) ، وقد تبني

(١٢٧) الملح ١٢٩ .
(١٢٨) التعرف ١١٩ .
(١٢٩) قوت القلوب ٣١/١ ، ١٣٤/١ .

السراج التقسيم الثلاثي للعلم الذي رويناه عن الامام على ، فقد رأى السراج ان « الاول علم بين للخاصة والعامه وهو علم الحدود والامر والنهي ، وعلم خص به قوم من الصحابة دون غيرهم هو العلم الذي كان يعلم به حذيفة ابن اليمان وعلم خص به رسول الله لم يشاركه فيه احده » (١٣٠) ، وقد وضع عليا في المنزلة التي كانت لحذيفة وروى عنه انه قال : « علمني رسول الله (ص) سبعين بابا من العلم لم يعلم ذلك احدا غيري » (١٣١) . وهكذا يفصل السراج بين علم على وعلم الرسول وذلك لانه ليس شيعيا ، ولكنه - مع ذلك - جعل علم على في مقام لايدانيه فيه علم معاصريه ولا حذيفة بن اليمان نفسه وهذا العلم بالباطن قد نسب الى الامام على حتى ان السلمى (المتوفى سنة ٤١٠/١٠١٩-٢٠) افتتح كتابه في التفسير بايراد تقسيم رباعي لدلالات الايات يسنده الى على ويروى عنه انه قال : « ما من آية الا ولها اربعة معان : ظاهر وباطن وحد ومطلع . فالظاهر التلاوة والباطن الفهم والحد احكام الحلال والحرام والمطلع هو مراد الله تعالى من العبد بها » (١٣٢) . ويجدر بنا ان نذكر ان هذا التقسيم نفسه قد ورد في تفسير التستري المتوفى سنة ٢٧٥/٨٨٨ ولكنه لم يسنده الى الامام على (١٣٣) . ويصحح الجنيدهذه النقطة ويضيف الى الامام على انه قد اعطى العلم اللدني ، وقد كان الجنيده المتوفى سنة ٢٩٨/٩١٠-١١ يقول برواية ابي على الروذباري المتوفى سنة ٣٢٢/٩٤٣ : « رضوان الله على أمير المؤمنين ، لولا انه اشتغل بالحروب لافادنا من علمنا هذا معاني كثيرة ، ثم يقارن بين على والخضر ويجعلهما بمنزلة واحدة ويبين ان هذا العلم اللدني . كان الخضر حظى به بقول الله : وعلمناه من لدنا علما » (١٣٤) فكان الجنيده يرى ان علم على لم يأته تلمنا وانما هو توفيق آلهي حظى به ، وقد

-
- (١٣٠ - ١٣١) اللمع ٣٧٨
 - (١٣٢) حقائق التفسير ٣
 - (١٣٣) تفسير التستري ٣
 - (١٣٤) اللمع ١٢٩

رأينا الجنيد يعترف بان عنيا كان يمكن ان يفيد معاني كثيرة فى علم
التصوف ، فعلم على من جنس علم الصوفية وعلى - بذلك - رأس من رؤوس
التصوف باعتراف الجنيد ولكن انشغاله بالحروب لم يجعل رئاسته كاملة فهى
رئاسة مقترنة بالقدم الزمنى على كل حال • وينبها نيكلسون الى ان التصوف
ليس فى الحقيقة الا العلم الباطن الذى ورثه على بن ابي طالب عن النبي (١٣٥) ،
ويرد فى تذكرة الاولياء ترقية اخرى لصوفية على ومشيخته لهم وصدوره عن
مشر بهم ، فان الجنيد قد خاطب احد العلويين بقوله : «لقد حارب ابوك (على
ابن ابي طالب) بسيفين : حارب الكفار بالاول ونفسه بالثاني» (١٣٦) • واذا
تبينا ان ابا طالب المكى قال : «على ازهد الصحابة» (١٣٧) ، وان النزالى جعله
زاهدا مثاليا وقدوة للزهاد بنقله عنه انه قال : «ان الله اخذ على ائمة الهدى
ان يكونوا فى مثل ادنى الناس ليقضى بهم الغنى ولا يزرى بالفقر فقرو» (١٣٨) ،
وانه جعل الزهد بتكليف من الله عرفنا الى اى حد كان اعلى يد على التصوف
واسسه العملية والمعنوية • وبعد ان دخل على فى التصوف اخذ المتصوفة فى
ايراد اخباره وكأنه واحد منهم كما روى رويم البغدادي المتوفى سنة ٣٠٣
انه (ع) «سمع صوت ناقوس فقال لاصحابه : اتدرون ما يقول هذا ؟ قالوا :
لا ، قال انه يقول : سبحان الله حقا حقا ان انولى صمد يبقى» (١٣٩) ، بل اتنا
نجد عند الحلاج حين كبست اوراقه «صورة فيها اسم الله مكتوب على تعويج
وفى داخل التعويج مكتوب : «على عليه السلام» كتابة لا يقف عليها الا من
تأملها» (١٤٠) ، ووجدنا ابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ يعود بنا الى العلم
الباطن والتأويل فيقول فى تائيته الكبرى :

-
- (١٣٥) فى التصوف الاسلامى ٧٦ •
(١٣٦) تذكرة الاولياء ١٩/٢ (ترجمة) •
(١٣٧) قوت القلوب ١٩٥/٢ •
(١٣٨) احياء العلوم ٢٢٢/٤ •
(١٣٩) الرسالة القشيرية ٢٠٤ •
(١٤٠) اربعة نصوص غير منشورة تتعلق بالحلاج ٦ •

واوضح بالتأويل ما كان مشكلا على بعلم ناله بالوصية (١٤١)

ونجد ابن عربى يفسر النبأ العظيم فى آية : عم يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم • بأن «النبأ العظيم هو القيامة الكبرى ولذلك قيل فى أمير المؤمنين على : هو النبأ العظيم وفلك نوح ، اى الجمع والتفصيل - باعتبار الحقيقة والشريعة - لكونه جامعا لهما» (١٤٢) •

ولم يقتصر ابن عربى على ذلك بل أخذ حديث « انت منى بمنزلة هرون من موسى » الوارد فى على ورجع به القهقرى الى هرون - وصلا له بعلى وتأكيدا لهذا الصدور - فسمى هرون بالسيد (١٤٣) كما يفعل المسلمون مع العلويين • واذا تعرض لهرون « فى نقش الفصوص » سماه بالامام كتسمية على وسمى الفصل الخاص بمقام هرون «حكمة امامية فى كلمة هرونية» (١٤٤) ، ثم يقول : «هرون لموسى بمنزلة نواب محمد بعد انفصاله الى ربه ، فلينظر الوارث من ورث وفيما استتب» (١٤٥) وتلك اشارة صريحة الى هذا الاتصال وان كانت مبطنة بتكثير النواب • ويتأكد هذا الوصل لعلى بهرون فى «رسالة الاسراء الى مقام الاسرى» حين يسمى سماه هرون - فى اسراء ابن عربى - بسماه الشرطة (١٤٦) وصلا بشرطة الخميس (١٤٧) وهم جماعة على الذين عاهدوه يوم الجمل على الموت فى سبيل ما يروونه حقا له • ويوضح

(١٤١) ديوان ابن الفارض ٦٠ •

(١٤٢) تفسير ابن عربى ١٨٤/٢ •

(١٤٣) الفتوحات المكية ، الباب ٣٦٩ ، رسائل ابن عربى : رسالة الاسراء الى مقام الاسرى ٢٣ •

(١٤٤) ، (١٤٥) رسائل ابن عربى : كتاب نقش الفصوص ١١٠ •

(١٤٦) المصدر نفسه كتاب الاسراء الى مقام الاسرى ٢٣ •

(١٤٧) الفهرست لابن النديم ٢٤٩ ، معرفة أخبار الرجال للكشى ، طبع

بمبى ٦٨ ، بحار الانوار للمجلسى ، ، ايران ١٣٠٧ ، ٦٣٦/٩ ، ٦٤٣ ، ٧٢٧ ، ٧٢٥/٨ •

ابن عربى ذلك باشارته الى هرون بأنه « الخليفة العلى المنيع » ثم اشارته الى النور المحمدى وكون محمد وعلى من نور واحد بقوله : « فسوى بينهما فى النور والضياء » (١٤٨) . ثم لم يكتف بذلك وانما نص فى عرضه للمؤاخذة ذلك : « وقد آخى رسول الله (ص) بين اصحابه بدار الخيزران وأخذ بيد

على وقال : هذا أخى » . ثم ربط ابن عربى هذا الحادث بما كان بين موسى وهرون فذكر أن موسى قال لربه حين بعثه الى فرعون : « رب اشرح لى صدرى ، الآية ، واشركه فى أمرى فاتاه الله سؤاله » (١٤٩) وهذا كله يقطع الشك باليقين ويبين الى اى عمق غاص ابن عربى مع الشيعة والى اى مدى استفاد منهم .

ونجد جلال الدين الرومى المتوفى سنة ٦٧٢/١٢٣٤-٣٥ يقول فى على :

منذ كانت صورة تركيب العالم كان على
منذ تقشمت الارض وكان الزمان كان على
ذلك الفاتح الذى انتزع باب خيبر
بحملة واحدة .
كلما تأملت فى الآفاق ونظرت فيها
ايقتت بانه فى الموجودات كان على
ان من كان هو الوجود ، ولولاه لسرى
العدم فى العالم الموجود .
كانه على

(١٤٨) رسائل ابن عربى : كتاب الاسرا الى مقام الاسرى ٢٣ .

(١٤٩) الفتوحات المكية ٣/١٧٤ .

ان سر العالمين الظاهر والباطن

كانه على (١٤٩-)

الذى بدا فى شمس تبريز

ولعلنا لاحظنا اننا كلما اوغلنا فى الزمان وتقدمنا فيه ، تطورت افكار

الصوفية فى على واقتربت مما رآه العلاء فى الائمة ، فالبكتاشية يمتقدون بان الحق ومحمدا وعليا اوجه لحقيقة واحدة هى «حق محمد على» (١٥٠) .

ثم نجد الشعرانى يروى عن الولي على وفا انه كان يقول : « ان على بن ابي طالب رضى الله عنه رفع كما رفع عيسى عليه السلام وسينزل كما نزل عيسى» (١٥١) واورد الشعرانى كذلك ان عليا الخواص كان يقول : « ان

نوحا عليه السلام ابقى من السفينة لوحا على اسم على بن ابي طالب يرفع الى السماء . فلم يزل محفوظا فى صيانة القدرة حتى رفع على بن ابي طالب رضى الله عنه (١٥١) ، بل لقد وجدنا بعد القرن السادس والسابع متصوفة

يزيد من مقامهم انهم علويون كعبدالقادر الجيلى المتوفى سنة ١١٦٤/٥٦٠-٦٢ (١٥٢) والسيد احمد الرفاعى المتوفى سنة

١١٧٤/٥٧٠-٧٥ (١٥٣) والسيد احمد البدوى المتوفى سنة

١٢٤٠/٦٣٨-٤١ (١٥٤) وأبى الحسن الشاذلى المتوفى سنة

١٢٥٨/٦٥٦ (١٥٥) وابراهيم الدسوقى المتوفى سنة ١٢٧٦/١٢٧٧ (١٥٦)

وعبدالوهاب الشعرانى المتوفى سنة ١٥٦٥/٩٧٣ (١٥٧) والشيخ على الخواص

(١٤٩) غزليات شمس تبريزى ، طهران ١٣٣٨/١٩٤٩ ، ابيات مختارة

٢٥٩ - ٢٦٣ (ترجمة) .

(١٥٠) بحث الاستاذ توفيق وهبى .

(١٥١) طبقات الشعرانى ٥٩/٢ .

(١٥٢) طبقات الشعرانى ١٠٨/١ .

(١٥٤ ، ١٥٣) طبقات الشعرانى ١٥٧/١ .

(١٥٥) كتاب القصد للشاذلى (مخطوط) ورقة ٩٤ ب .

(١٥٦) طبقات الشعرانى ١٥٨/١ .

(١٥٧) الشعرانى للدكتور توفيق الطويل ١٦٦ . ويقول عبدالرؤوف

المنابى فى الكواكب الدرية (المخطوط) : الشعرانى من ذرية الامام محمد

بن الحنفية (ورقة ٣٣٦ ب) .

- استاذ الشعراني - (١٥٨) وابن قضيب البان الموصلى (المتوفى سنة ١٠٤٠/١٦٢٨) (١٥٥) وغيرهم كثير ، ومن المعروف ان عبدالكريم الجيلي من نسل الشيخ عبدالقادر فهو علوى مثله •

بل لقد جعل عبدالقادر الجيلي المشيخة وراثية كالامامة فورث شأنه وطريقته ابناؤه : عبدالوهاب وعبدالعزيز وعبدالجبّار (١٦٠) ، وان كان القفطى يورد له نسباً فزسيا حين يعرض لابنه عبدالسلام فيقول : عبدالسلام بن عبدالقادر بن ابي صالح بن جنكى دوست بن ابي عبدالله الجيلي ، فيقح - بذلك - جده جنكى دوست - فى رأى القفطى - فى نسبه العلوى (١٦١) •

وهكذا دخل على التصوف حتى صار اساسا من اسسه لايمارى فيه احد وقد رسخ ذلك حتى وجدنا ابن خلدون - فى معرض تناوله موضوع تأثير الشيعة فى التصوف - يقول : « حتى جعلوا مستند طريقتهم فى لبس الخرقة ان عليا رضى الله عنه البسها الحسن البصرى وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة ، واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم » (١٦٢) • ويقول شيعى متأخر اسلم بعد يهودية : « وقد عرفت ان ارباب هذا الفن فى جميع بلاء الاسلام اليه (يعنى عليا) ينتهون وعليه يقفون • وقد خرج بذلك الشبلى والجنيد والسرى

(١٥٨) خلاصة الاثر فى أعيان القرن الحادى عشر ٤١٦/٢ •

(١٥٩) المصدر نفسه ٤٦٥/٢ •

(١٦٠) روضات الجنات ٤٤٢ •

(١٦١) ورد فى المخطوط فى مكتبة المتحف البريطانى بلندن

• هذه القطعة منسوبة الى الشيخ عبدالقادر (الورقة ١٧٧ ب) •

شربتى أعلى المشارب
لم أزل قطبا مكرم
قد سموا بالجود عندى
أشرف الخلق المعظم

رتبتى أعلى المراتب
كنيتى أعلى المناسب
خطوتى الدنيا ، وجندى
وانتهامى صار جدى

(١٦٢) مقدمة ابن خلدون ٣٢٣ •

وابو يزيد البسطامي وابو محفوظ الكرخي وغيرهم • ويكفيك دلالة على ذلك الخرقه التي هي شعارهم يسندونها باسناد يفيض اليه» (١٦٣) • وينتهي الحاج معصوم على - وهو نفسه متصوف - الى الغاية حين يقول : «لابد لكل سلسله من سلاسل التصوف من الازل الى الابد ، ومن آدم الى انقراض الدنيا ان تكون متصله بسيد العالمين وامير المؤمنين او بواحد من ائمة الانام عليه وعليهم السلام» (١٦٤) • ونحن ندخل في هذه التفاصيل لان لها موقعا في التصوف سيأتي اوانه ومكانه ، ولكن يجب ان نذكر ايضا ان عليا - وهو الفارس الزاهد العالم - قد كان مثلا اعلى للفتوة والفتيان الذين هم في جوهرهم نوع من المتصوفة لهم مشرب آخر • وقد جاء في المنشور الذي اصدره الخليفة العباسي الناصر لدين الله - حين اهدر الفتوة وجعل نفسه رأسها في سنة ١٢٠٧/٦٠٤ - : « بسم الله الرحمن الرحيم : من المعلوم الذي لا يتبارى في صحته ولا يرتاب في براهينه ان امير المؤمنين (ك) هو اصل الفتوة ومنبعها ومنجم اوصافها الشريفة ومطلعها ، وعنه تروى محاسنها وآدابها ، ومنه تشعبت قبائلها وأحزابها ، واليه دون غيره تنتسب الفتيان ، وعلى منوال مؤاخذاته النبوية الشريفة نسج الرقاء والاخوان» (١٦٥) •

اما بعد فهذا مقام على بن ابي طالب (ع) من التصوف والصوفية ، وكان مرده الى زهده الظاهر التابع من ارادة له وفهم للحياة على انها معنى يجب ان يعبر عنه على هذا النحو • ويرجع مقام على في التصوف الى علمه الواسع والروايات الكثيرة الدائرة حول اشتماله على العلم اللدني الباطن • وكان لمؤاخذاته النبوية اثر فعال في تأثر التصوف بشخص الامام فانهم قد ارتفعوا بهذه الاخوة المادية الى اخوة روحية اسبقوا عليها مثلهم العليا •

(١٦٣) رسالة يوحنا بن اسراييل ٨ •

(١٦٤) طرائق الحقائق ١/٢٥١ •

(١٦٥) الجامع المختصر ٩/٢٣٤ •

ولم يدخل على التصوف وحده وانما كان لاولاده ادوارهم فيه مما سيتبين حين نعرض لكل واحد منهم • ويجب الانسى - ونحن فى ختام بحثنا عن على - انه كان كأصحابه الشيعة الاوائل فى حرصه على صب الاسلام فى القالب الذى اراده الله له والنبي ، وانه نذر نفسه للاسلام والمسلمين وضحي بالدنيا وبالجهاد وبالمال ، بل لقد ضحي بزعامته الظاهرة للمسلمين وقدرته على الوصول الى كرسى الحكم - ان شاء - فى سبيل ان يرى الاسلام على حقيقته فاتجه بالنصيحة للخلفاء والمسلمين لادراك بغيته السامية • والسيد امير على يحدثنا بأنه « فيما كان الاسلام ينتشر وتحقق رايته على ربوع تلك الامصار كان على بن ابي طالب يصرف جهوده فى المدينة لتوجيه النشاط فى العنصر الناشئ الى الناحية العلمية ، فشرع - مع ابن عمه عبدالله بن عباس - فى القاء محاضرات اسبوعية فى المسجد الجامع (يقصد مسجد الكوفة) » (١٦٦) ، « وهكذا تألفت نواة الحركة العلمية التى ترعرعت وزهت بعد حين فى بغداد عاصمة العباسيين » (١٦٧) وقد ورث هذه المهمة ولده فيما بعد كما سنرى •

وكان على بن ابي طالب محبا للناس محبا لزملائه من الخلفاء على عكس ما آل الامر بالشيعة من بعده حين تسلحوا بسلاح الكره والحقد حفاظا على حياتهم • واسبط دليل على ذلك ان عليا سمي ابناؤه بعد الحسن والحسين بأحب الاسماء اليه : محمد ، ثم رأينا الاسماء تترى : العباس ، ابا بكر ، عمر ، عثمان وهكذا » (١٦٨) •

وقتل على فى النهاية سنة • ٤٠ فى سبيل عقيدته ، فصار موته كحياته موتين : موتا طبيعيا عاما وموتا اسطوريا خاصا ، فقيل فى موته الاسطورى الذى يتسق مع حياته التى تناولها بحثنا انه « حمل فى تابوت على جمل وان

(١٦٦ ، ١٦٧) مختصر تاريخ الاسلام ٤٣ •

(١٦٨) مقاتل الطالبين ٨٣ •

الجمل تاه ووقع الى وادى طيء» (١٦٩) ، ويذكر ابن حجر عن ابن عساكر انه « لما قتل حملوه ليدفنوه مع رسول الله • فينما هم فى مسيرهم ليلا اذ ند الجمل الذى هو عليه ، فلم يدر اين ذهب ، ولم يقدر عليه • فلذلك يقول اهل اهل العراق : هو فى السحاب ، وقال غيرهم : ان البعير وقع فى بلاد طيء فأخذوه ودفنوه» (١٧٠) • ثم تلقف البكتاشية - وهم متصوفة شيعة - هذه الاسطورة وصاغوها صياغة جديدة تناسب مقام على فى التصوف فقالوا : « انه نشر من جديد وظهر ملثما على جمل وقاد جنازته بنفسه الى مدفنها» (١٧١) •

-
- (١٦٩) مروج الذهب ٢/٢ •
 (١٧٠) الصواعق المحرقة ١٣٢ •
 (١٧١) خطط الكوفة ٣٣ (هامش) •

الفصل الثاني

تميز التشيع وتطوره

الشيعة بعد علي

بدأ بقتل علي دور جديد صب التشيع في قلبه ، فبعد ان كان التشيع ايجابيا لم ينكر احد صلته الوثقى بانثل الاسلامية التي كان الشيعة الاوائل قدوة الناس فيها ، دخل التشيع في دور الخوف والانكماش والفرع والسلبية بعد ان انتصر معاوية : ممثل التيار المقابل علي علي في صفين ثم ساعدته الظروف فقتل علي واستتب له الامر • لقد لمس علي قبل قتله انحذار المثل الاسلامية الى المصلحية والامر الواقع فقال في مرارة قاتلة : « الا ان بليتكم قد عادت قبل هيتها يوم بعث الله نبيكم » (١) وهذا المعنى قاس حقا ومثير وداع الى التأمل • فان عليا يعني انه قد تبدد كل ما بناه المسلمون الاولون وذهب كل ما سعى الاسلام لاقراره في العرب وغيرهم وعاد الاسلام وقد صار قناعا ممزقا لم يبق منه الا رسومه اما الجوهر فقد دفن مع من مات من المسلمين الاولين • وزاد الشيعة شقاء تنازل الحسن لمعاوية سنة ٤١/٦٦١-٦٢ ، فصاروا في حاجة الى الشفاعة والضراعة لانهم وقعوا في قبضة عدوهم ، وكانت حجة الحسن في تنازله قوله : « ... كرهت ان اقتلكم على الملك » (٢) واراد من ذلك في الواقع ان يبقى اهل البيت - بعد قلة ناصرهم - قدوة للاسلام ومثابة ومرجعا وفي مكان مستقل عن الطمع والمادة وكان يرى ان هذا هو السبيل الوحيد الى اعادة الامور الى نصابها : بالحسنى والموعظة الحسنة • ولكن معاوية قد

(١) نهج البلاغة ١/٤٢-٤٣ •

(٢) الصواعق المحرقة ١٣٥ •

احتط خطة اخرى اراد بها ان يعنى على آثار على واولاده الذين هم بقية النبي خصمه القديم وخصم ابيه وخصم الارستقراطية المكية القديمة ، فأمر عماله الا يجيزوا لاحد من شيعة على واهل بيته شهادة» (٣) و امر بحرمان كل من عرف منه موالة على من العطاء واسقاطه من الديوان والتكليف به وهدم داره» (٤) ، وكان المغيرة « يأتي ذم على والوقوف فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم» وقد تعاطم الناس هذا اللعن حتى سألوا معاوية ان يكف عنه وكانوا يظنون الامر مجرد غيظ يريد اطفاءه وفاتهم انه كان يرى عليا امتدادا لشخص محمد وكان يريد من سب على سب مثل محمد - التي لا يستطيع التعرض لها - فسار في الشوط الى نهايته مستهدفا من هذه الحال ان « يربو عليها الصغير ويهرم الكبير ولا يذكر له ذاكر فضلا» (٦) وقد نجح معاوية في ذلك نجاحا باهرا ولكن في محيطه الشامي فقط. حتى لقد رفض اهل حران ان يكفوا عن لعن على حين منعهم عمر بن عبدالعزيز وقالوا : « لا صلاة الا بلعن ابي تراب» (٧) وكان من اهل الشام قوم يرون ان ابا تراب هذا « لص من لصوص الفتن» (٨) . ولم يقتصر الامر على هذا بل تعداه الى الحرب بالتأويل الذي احس خطره عمار بن ياسر في صفين وحارب معاوية ليرده عن ذلك وقد رأينا ابا ذر يلاحظ ذلك ايضا ايام عثمان فجعل معاوية يبذل الاموال في هذا السبيل الى حد انه اعطى سمرة بن جندب نائب زياد على البصرة اربعمائة الف درهم ليروي ان عليا هو المقصود بالاية : ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على مافي قلبه وهو الد الخصام ،

(٣) الطبرى ١٤٢/٦

(٤) ابن ابي الحديد ١٦/٣

(٥) الطبرى ١٤٢/٦

(٦) نهج البلاغة (لابن ابي الحديد) ٣٥٦/١

(٧) المصدر نفسه ٢٠٢/٢

(٧) المصدر نفسه ٢٠٢/٢ ، في كتاب المناقب من صحيح البخارى ان النبي هو الذى نعت عليا بابي تراب .

واذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل» (٩) ، وان قاتل على هو المقصود بالاية : ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله (١٠) ، وكان من اعوان معاوية على تحقيق هذا الهدف ابو هريرة وعمرو بن العاص وعروة بن الزبير (١١) . وقد ظهر اتجاه معاوية المضاد حين اختار القدس (التى كان يتجه اليها المسلمون فى صلاتهم قبل مكة) مكانا لاخذ البيعة له «فصعد الى الجلجلة (حيث صلب المسيح) وقعد فيها وصلى ثم تقدم الى الجسمانية ثم انحدر الى قبر القديسة مريم حيث صلى ايضا» (١٢) وهكذا التنقل فى المقامات المسيحية بين ان معاوية قد جعل القدس مقابل مكة التى خرج منها ابوه وخرج سلطانها من يد قومه الى محمد . فلما عاد اليه السلطان ورأى انه لايستطيع العودة اليها من جديد اختار مكانا آخر يوازى مكة فى القدسية والحرمة تديلا على ان كفاحه قد اثمر وانه قد استعاد السلطان القديم واعاد النظام القديم ، ولعل من اطرف ما يقال فى هذا المجال ان الشاعر المسيحي الاخطل هو الذى يعلمنا ناحية خافية من اعمال معاوية بقوله :

وطدت لنا دين النبي محمد بحلمك اذ هرت سفاها كلابها» (١٣)

ومن عجب ان ابن خلدون قد غض النظر عن كل ذلك وقال فى استخلاف معاوية ليزيد « . . . فلم يكن ليمهد اليه وهو يعتقد ما كان عليه من

(٩) البقرة : ٢٠٤ .

(١٠) نهج البلاغة (لابن ابى الحديد) ١/ ٣٦١ ، والاية فى سورة البقرة : ٢٠٧ ويروى فى كتب الفرق ان الخوارج هم الذين قالوا بذلك ، ويذكر الاشعري أنهم اتباع حفص بن ابى المقدم من الاباضية (مقالات الاسلاميين ١/ ١٠٢) .

(١١) المصدر نفسه ١/ ٣٥٨ .

(١٢) الدولة العربية وسقوطها ٨٥ .

(١٣) وعاظ السلاطين ٣٤١ نقل عن « معاوية بن ابى سفيان » لانييس النصولى ٦١ (اقتباسا من كتاب الاغانى ١٣-٤٥ ، ٣) ولم نجد البيت المذكور فى ديوان الاخطل .

الفسق حاشا لمعاوية من ذلك « ٠٠٠ » (١٤) •

وبدأ الاضطهاد في العراق بقتل حجر بن عدى الكندي صنو الاشعث بن قيس (١٥) وعمر بن الحمق الخزاعي اللذين اشتركا في التوقيع على صك التحكيم بوصفهما من عظماء اصحاب علي (١٦) وقتل معهما ستة من اعوان حجر وكان من حظ احدهم ان يدفن حيا وهو عبدالرحمن بن حسان (١٧)

وقد اثار هذا الارهاب الهلع والفرع وطير الشائعات وركب في النفوس الخوف من القدر وجعلت الخرافات والتطيرات تملآن الجو في الكوفة ، وغدا من في الكوفة وقد ذهبت منهم وخارت قوتهم وسالت نفوسهم ، وكان لم يكن منهم ذلك الجهاد والجلاد وصارت مقاومتهم لزيادة عامل معاوية عليهم امانى يتمنونها واحلاما تدور في اذهانهم الى حد ان موت زياد صار مصداقا لاسطورة رسمها الهلع واحلام اليقظة من ان شيئا طويلا يسمى بالنقاد ذى الرقبة دخل على زياد في قصره « فما كان مقدار ساعة حتى خرج خارج من القصر فقال : انصرفوا فان الامير عنكم مشغول ، واذا به قد اصابه ما ذكرنا من البلاء (الفاليج)» (١٧) • واستمر القتل واتخذ بالنسبة للضححايا شكلا روحيا معنويا فرأينا ميثما التمار وهو عبد اعتقه علي يقول قبل قتله : ان عليا قال له « تؤخذ بعدى فتصلب وتطعن بحربة ٠٠٠ وتصلب عاشر عشرة ٠٠٠ » (١٨) فيكون الامام قد تنبأ للتسعة المقتولين قبله بمصائرهم ايضا • وكان الشهيد الاخر من

(١٤) مقدمة ابن خلدون ٣٠٦ • من العجيب حقا ان الغزالي كان يرى ان عليا « هو الذي جر العساكر والجنود في زمان معاوية حتى قتل من أبطال الاسلام في تلك المعارك ألوف ولم يكثرث بقتلهم ٠٠٠ » كل ذلك أرضاء للعباسيين خصوم معاصريهم ومنافسيهم الفاطميين (فضائح الباطنية ، تحقيق جولد تسيهر ، ليدن ١٩١٦ ، ص ٦٣) •

(١٥) مروج الذهب ٦٧/٢ •

(١٦) الاخبار الطوال ١٨٢ •

(١٧) مروج الذهب ٦٩/٢ •

(١٨) الاصابة ٢١٧ •

طراز حذيفة بن اليمان صاحب السر ، فهذا صاحب سر النبي ورشيد الهجري صاحب سر على وتلك ناحية تعكس الصلة بين التشيع الاول والاسلام الاول . لقد كان رشيد يسمى « رشيد البلايا . . . » وكان قد القى عليه علم البلايا والمنايا ، فكان يلقى الرجل ويقول له : يا فلان بن فلان تموت ميتة كذا ، وانت يا فلان تقتل قتلة كذا فيكون الامر كما قاله راشد رحمه الله» (١٩) وقد قال له على : « يا رشيد انت معى فى الدنيا والاخرة » . ونعود الى أمر حجر واصحابه المقتولين ، وهذه الجماعة مهمة جدا فى تاريخ التشيع وتاريخ الاسلام كما سنرى الان .

تقد كانت هذه الانتفاضة اول حركة يصاد بها الشيعة الامويين بعد قمعهم وقتل زعيمهم بعشر سنين وقد جاء فى كتاب الاتهام الذى ارسله زياد الى معاوية عند توجيههم الى الشام : « . . . ان طواغيت من هذه الترابية (نسبة الى ابي تراب : على) السبئية رأسهم حجر بن عدى خالفوا امير المؤمنين وارقوا جماعة المسلمين ونصبوا لنا الحرب » (٢٠) ، ومن تسمية زياد لحجر بن عدى واصحابه بالترابية السبئية نبدأ الكلام على هذه الفرقة التى خلفت صدى كبيرا فى العالم الاسلامى واعتبرها الباحثون اساسا للتشيع كما اعتبروا ابن سبأ اول من وضع لبنة الافكار الشيعة الخاصة بالامامة . وقد رأينا فيما سبق ان ابن سبأ هو عمار بن ياسر بنفسه وبيننا السبب فى ذلك . والسبئية على هذا الاساس فرقة قادها عمار الذى اطلقت عليه قريش ذلك اللقب الرمزي وازافت الى ارائه فى على مبالغات واضاليل لتضيف الى افكار عمار ما يخرج بها عن المعقول ويسلبها قوة الاقتناع ويقنعها بقناع الشك والبطلان فيصرف الناس عنه وعن ارائه وعن مبدئه فى احقية على وفضله على سائر المسلمين من معاصريه

(١٩) تاريخ الكوفة ٢٩١ .

(٢٠) الطبرى ١٥٢/٦ .

زمن عثمان • وقد رأينا عمارا صريحا في صفين ثم وجدنا الافكار السبئية أو
العمارية على الصحيح حية لم تمت بموته وانما ظهرت بعد صفين وبعد مقتل
على •

لقد اصاب السبئية وابن سبأ خلط كبير صار من الصير معه ان نحدد
العقائد والافكار التي نادوا بها •

فقد روى الطبرى عن سيف ان ابن السوداء اسلم فى السنة السابعة من
خلافة عثمان بعد ان اتخذ « رجال من قريش أموالا فى الامصار وانقطع
الناس اليهم » • (٢١) ووقت ابن خلدون ظهور ابن سبأ بايام عثمان « لما فشى
التكبر على عثمان والطنن فى الآفاق » (٢٢) وحدد مكانه بالبصرة •

والنوبختى - من رجال نهاية القرن الثالث - يرى فى السبئية جماعة
كانت تظهر الطنن على ابي بكر وعمر وعثمان والصحابة وتبرأ منهم (٢٣) •
ويكون ابن سبأ داعية شيعيا على صورة مبائع فيها بحيث تعدى غضبه على
عثمان الى سابقه • ويرى ماسينيون ان ابن سبأ هو عبدالله بن وهب الهمداني
وانه نفى بأمر على الى المدائن (٢٤) فهو هنا عربى مسلم وعند النوبختى
والطبرى يهودى اسلم (٢٥) • اما ولها وزن فيرى انه من قبائل عربية سكنت
الكوفة وخالطت الموالى فيها ويرى ان السبئية - كما قال سيف بن عمر -
« هم قتل عثمان فتحوا باب الحرب الاهلية واسسوا فرقة الخوارج الثورية
وتولد عنهم انهيار الاسلام » (٢٦) • فهو من رأى الطبرى والنوبختى • وذكر
السيوطى انه اظهر الرفض فى ايام على (٢٧) • ويرى ابن الحديد ان ابن

-
- (٢١) الطبرى - اوربا ١/٣٠٢٧ •
(٢٢) العبر ٣/١٧٠ •
(٢٣) فرق الشيعة ٢٢ •
(٢٤) شخصيات قلقة فى الاسلام (٢٤) •
(٢٥) فرق الشيعة ٢٢ •
(٢٦) الدولة العربية وسقوطها ٣٩٦ •
(٢٧) الوسائل الى مسامرة الاوائل ١٣٥ •

سبأ قد ظهر بعد ان احرق على جماعة كانت تعبده ووقت ظهور عقيدته بمد قتل على ويكون بذلك قد اظهر السبئية قبل ابن سبأ ويرى الاسفراينى هذا الرأى ايضا (٢٨) وقد اضيف الى السبئية ايضا القول بمهدية على وانه يجيء فى السحاب وان صوته الرعد وسوطه البرق (٢٩) .

ومن ادل هذه الاجتهادات على الاختراع وألصقتها بالمعنى الذى قصد من ورائها ما اورده الشعراينى الصوفى (المتوفى سنة ٩٧٣) من أنه «عبدالله ابن سبأ العجلى» (٣٠) وهو يعنى بذلك انه من قبيلة عجل الغالية التى سيمر بنا دورها المهم من اقرار الغلو فى الكوفة وغيرها . وهكذا تعدد الاسباب والنتيجة واحدة هى تهافت تاريخية ابن سبأ على هذه الصورة الاسطورية المهزوزة .

اما قضية احراق على المزعوم للسبئية (٣١) فانه خير مخلق من أساسه ولم يرد على صورة فيها ثقة فى كتاب معتبر من كتب التاريخ . ولعل أصل هذا الحادث يتصل باحراق خالد بن عبدالله القسرى بيانا وخمسة عشر من اتباعه الغلاة (٣٢) ، ثم لما تقدم بها الزمن زحزحت الحادثة الى الامام قليلا حتى اتصلت بعلى .

وبعد كل هذا قيل : ان ابن سبأ هو عبدالله بن وهب الهمداني (٣٣) ، من زملاء حجر بن عدى وعمر بن الحمق الخزاعى ايام على (٣٤) . والمضحك

(٢٨) شرح نهج البلاغة ٣٠٩/٢ ، التبصير فى الدين ١٣ .

(٢٩) الفرق بين الفرق ١٤٣ .

(٣٠) مقدمة نافعة لمن يخوض فى العقائد (مخطوط) ورقة ٢

(٣١) الفرق بين الفرق ١٤٣ ، الفصل لابن حزم ١٥٥/٢ ، ١٨٦/٤ .

(٣٢) فرق الشيعة ٢٤ .

(٣٣ ، ٣٤) المرجع السابق ، وانظر مجلة الدراسات الشرقية (الايطالية) ، السنة السادسة المجلد السادس ص ٤٩٥ وهو مقال عن الجزء الثانى من أنساب الاشراف للبلاذرى .

ان عبدالله هذا قد قتله المختار سنة ٦٧ مع من قتل من قتلة الحسين (٣٥) ، فكان مؤسس التشيع كان أول من ارتد عنه • ولو كان الامر كذلك لما بقيت للتشيع باقية ولاشار الى ذلك خصومهم على الأقل • وتحقيق كل هذا الخلط يؤدي بنا الى ان نقرر بان السبئية انما هي اضافات اتقى بها اصحاب الاهواء كل حسب ما يريد ان يضيفه الى التشيع • ويهمننا بعد ان نقرر ان السبئية هم اصحاب حجر بن عدى الذين كانوا يسبون عثمان مقابلة لسب معاوية لعلى وقد روى المقرئ والدينورى صراحة ان حجر بن عدى وعمرو بن الحمق كانا يظهران شتم معاوية وان عليا كان يقول لهما : « كرهت لكم ان تكونوا شتامين » (٣٦) فيحتمل ان تكون السبئية عقيدة سياسية تزعمها حجر بن عدى الذى قتله معاوية لتشييعه الظاهر ولاصراره على ان قتل عثمان كان حقا وان سب على باطل - وقد مر بنا انه حضر وقعة صفين مع عمار بن ياسر - ولقاومته اتجاه الدولة الجديدة فى التعفية على آثار على • وقد كان اكثر زملاء حجر يمانين (٣٧) اى سبئيين ، وقد سماهم ابن زياد بانتراية اى العلوية • وبهذا تكون السبئية هى الحجرية وتكون افكارها اقطار ابن سبأ الذى هو عمار بن ياسر • وبذلك نعود الى ان السبئية هى آراء اليمانين الذين والوا عليا فى الكوفة وكانوا اغلبية سكانها • وهكذا لايقى من نخيل السبئية الا انها جماعة متعصبة لعلى متعصبة على عثمان واوليائه وانهم اعوان عمار بن ياسر الذى قتل قبلهم فى وقعة صفين ، وينتهى بنا المطاف الى فائدة عظيمة هى ان السبئية ركام من التهم القيت على جماعة - ان عن قصد او عن غير قصد - اريد بها الاتهام مرة كما يبدو من اشاعات الاعداء ، والبراءة مرة اخرى كما يبدو ذلك من الاخبار التى ينقلها الشيعة انفسهم عن خروج السبئية عن التشيع بعبادتهم الباطلة لعلى ويجب ان نذكر هنا ان توقيت ظهور السبئية يتحدد بالوقت الذى سبق خروج

(٣٥) انساب الاشراف ٥/٢٤٠ ، وراجع ٢٣٠-٢٤٠ .

(٣٦) وقعة صفين ١١ ، الاخبار الطوال ١٥٥ .

(٣٧) الطبرى ٦/١٥٢ .

الحسين لان ما اضيف اليها من عقائد باطلة لم تتضمن اى اشارة الى الحسين ولم تجعل له مكانا فيها مع انه قام باجراً عمل وادعاء الى فخرهم والاشادة به منهم وبذلك يضاف دليل جديد الى ان اصحاب حجرهم السبئية لانهم قد قتلوا قبل خروج الحسين بن علي ويدل توقيع حجر بن عدى وعمرو بن الحمق الخزاعى على التحكيم بوصفهما من اشراف اتباع على بن علي ان السبئية قد نشأت فى ذلك الوقت وانها تعبر عن رأى من يوافق عمارة على رأيه فى احقية على .

وأهمية السبئية - على هذه الصورة - تنحصر فى انها مهدت السبيل للفرق الشيعية الاخرى لان تبدأ مما انتهت اليه عقيدتها او - على الصحيح - اتجاهها المتضمن للغلو فى كره الغاصبين - فى رأيهم - والحب للعالميين اصحاب الحق الشرعى . وقد انبت السبئية نباتا لم يزل ينمو حتى كاد يصنع التشيع بصبغة قاتمة من الكره والحقد والمرارة جعلته يطرق سبلا لم يعرفها فى سبيل انفاذ امره وتنفيذ مشيئته ، وصارت السبئية بداية للغلو وسبرى ان للغلو اثرا كبيرا فى مبادئ التصوف .

الحسين وحركته

خرج الحسين استجابة لدعوة الكوفيين ولم يستمع الى نصيح ابى بكر ابن الحارث بن هاشم (٣٨) ولا نصيحة محمد بن الحنفية بالبقاء فى مكة (٣٩) ، ولا اشارة عبدالله بن عباس بالخروج الى اليمن وبث الدعاة منها (٤٠) ، بل لم يستمع الحسين الى نصيحة ابن عباس فى ابقاء نسائه وولده فى المدينة (٤١) . وكان خروج الحسين ، تعديلا لخطة على بن ابى طالب نفسه حين رضى

(٣٨) مروج الذهب ١٧/٢ .

(٣٩) الطبرى ١٩٠/٦ .

(٤٠) مروج الذهب ١٦/٢ .

(٤١) مروج الذهب ١٦/٢ .

بالتحكيم في صفين محافظة على نسل النبي (٤٢) * وقتل الحسين ، وقتل معه ولده علي بن الحسين الأكبر وثلاثة من ابناء الحسن وخمسة من اخوته واثنان من ولد جعفر بن ابي طالب واثنان من اولاد عقيل بن ابي طالب (٤٣) ، وقتل مسلم بن عقيل داعيته الى الكوفة وقتل معه هاني بن عروة الزعيم الكوفي دون ان يجد من انصاره واتباعه الا « شللا وخذلانا » (٤٤) * واهم مافي حركة الحسين ان كل من حاربه وتولى قتله كان من اهل الكوفة « لم يحضره شامي واحد » (٤٥) ، وقد اثر ذلك في النفوس تأثيرا بالغا وصار من اسباب زهد الناس وانصرافهم عن الدنيا ، غير ان قتله وقتل ابنائه واخوانه وابناء عمومه قد اوشك ان يقطع نسل رسول الله الذي حرص على ان يحفظه ولا يفرط فيه ، ولولا الظروف المواتية ما بقي على بن الحسين الذي شفّع له مرضه بعد ان كاد عبيدالله بن زياد ان يقتله .

نقد كان الحسين محاطا بهالة من الاحاديث النبوية ، وقد اورد الاستاذ أحمد امين مجموعة منها في ضحى الاسلام منها : « قال رسول الله - برواية ابن عمر - : هما ريحانتاي من الدنيا (يعني الحسن والحسين) ، وعن ابي سعيد : الحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة ، وقد ايد الترمذي صحته » (٤٦) . ويرد في اخبار الدول عن الترمذي ايضا : ان الرسول (ص) قال : حسين مني وانا من حسين احب الله من احب حسيناً » (٤٧) * ويورد الكليني عن ابي عبدالله (جعفر الصادق) ان قوله تعالى : فنظر نظرة في النجوم فقال : اني سقيم ، ينصرف الى الحسين ، فرأى ما يحل بالحسين فقال : اني

-
- (٤٢) الطبرى ٤٤/٣ .
 (٤٣) مروج الذهب ٩١/٢ .
 (٤٤) مروج الذهب ٨٨/٢ .
 (٤٥) مروج الذهب ٩١/٢ .
 (٤٦) ضحى الاسلام ٣٢١/١ .
 (٤٧) اخبار الدول ١٠٧ .

سقيم^(٤٨) . وعنه ايضا : « لما كان من امر الحسين ما كان ضجت الملائكة الى الله بالبكاء وقالت : يفعل هذا بالحسين : صفيك وابن نبيك ؟ قال : فاقام الله لهم ظل القائم (المهدي) وقال : بهذا انتقم لهذا»^(٤٩) . ومن ذلك يتبين ان الحسين قد كان - في رأى الشيعة انسانا روحانيا قدر له الله منذ الازل ان يفتدى الاسلام بدمه ويحفظه بتضحية نفسه ، فقرن الشيعة دوره بدور المسيح المخلص وجاء ذكر المسيح موصولا بالحسين بمناسبة ولادته الشاذة لسته اشهر فروى الكليني عن جعفر الصادق قوله : « ولم يولد لسته اشهر الا عيسى بن مريم والحسين بن علي»^(٥٠) . وتأكد هذه النظرة من الروايات الشيعة التي تقول : « لما حملت فاطمة بالحسين جاء جبريل الى رسول الله فقال : ان فاطمة ستلد غلاما تقتله امك من بعدك . فلما حملت فاطمة بالحسين كرهت حمله ، وحين وضعته كرهت وضعه ، ثم قال ابو عبدالله (جعفر الصادق) : لم تر فى الدنيا ام تلد غلاما تكرهه ، ولكنها كرهته لما علمت انه سيقتل . قال : وفيه نزلت هذه الآية : ووصينا الانسان بوالديه حسنا ، حملته امه كرها ووضعته كرها وفصاله ثلاثون شهرا»^(٥١) . بل لقد زعم الشيعة ان الحسين لم يقتل وانما شبه للناس كعيسى بن مريم»^(٥٢) . ويروى الشيعة انه لم يرضع كسائر الاطفال وانما كان «يؤتى النبي فيلقمه لسانه فيمصه فيجتزىء به ، ولم يرضع من انثى»^(٥٣) ، وهذا هو الغذاء الروحى ومثله العلم الموروث وهو روح النبوة التي هى من عند الله كما ارادها الشيعة لائمتهم .

-
- (٤٨) اصول الكافي ١٢٤ والآية فى سورة الصافات : ٨٨
(٤٩) اصول الكافي ١٢٤ .
(٥٠) اصول الكافي ١٢٣-١٢٤ ، الاعلاق النفيسة ٢٢٧ .
(٥١) اصول الكافي ١٢٣ العنكبوت ٨ .
(٥٢) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٨٢ .
عن مخطوطة العلل لابن بابويه ٩٩ .
(٥٣) اصول الكافي ١٢٤ .

وقد صار الحسين المثل الاعلى للبطولة الاسلامية فى سبيل الحق ودفعت بطولته واباؤه وامتناعه عن التسليم مصعب بن الزبير - الذى قتل الاخذين بشأ الحسين - الى ان يصبر للموت وهو يقول :

فان الالى بالطف من آل هاشم تأسوا فسنوا للكرام التأسيا (٥٤)

وصار قتل الحسين سببا فى ذل المسلمين وهذا سليمان بن قته يقول :
فان قتيل الطف من آل ل هاشم اذل رقاب المسلمين فذلت (٥٥)

(٥٤) الاخبار الطوال ٢٧١ •

(٥٥) مقاتل الطالبين ١٢١

وفى مقالات الاسلاميين ينسب الاشعري القطعة الى ابن ابى ربح الخزاعى مع تغيير « اذل رقاب المسلمين » بعبارة « اذل رقابا من قريش » ص ٧٦ • وراجع تعليق رتر فى الهامش • وكذلك ذكر السيوطى فى الوسائل الى مسامرة الاوائل أن « اول ذل دخل على العرب قتل الحسين وادعاء يزيد » ٥١ •

وبقطع النظر عن ذلك قد يرى البعض ان قتل الحسين لم يكن له اثر فى العالم الاسلامي والا دخل له فى ذل المسلمين وربما دلل على ذلك بان الدولة الاموية قد نمت بعد قتل الحسين حتى اتسعت شرقا وغربا وان عز الاسلام الحقيقى انما كان من ثمرات الفتوح الاموية • الحق اننا نرمى الى اعماق من مجرد الظاهر السطحي : أن الاسلام الحقيقى كان فكرة تنبع من اشاعة العدالة الاجتماعية مقترنة بالاصلاح الروحي واعتبار المجتمع الانسانى عالما يؤكد الاسلام الاخوة فيه • وقد كان قتل الحسين استهتارا بأعز ما فى قلب المسلمين من عاطفة تمتد وشائجها الى النبى • وكان قتل الحسين - وهو ابن بنت النبى وافضل المسلمين فى النصف الثانى من القرن الاول الهجرى - المدى الذى يهون دونه كل عمل اخر • ورأينا - لذلك - ان الكعبة نفسها قد ضربت بالمنجنيق وان القتل استمر فى العالم الاسلامى وان الاسلام غدا شيئا ثانويا الى الحد الذى لم يبال معه الحجاج فى تخيير المهزمين من جيش ابن الاشعث بين القتل والبراءة من الاسلام والايمان • وكان قتل الحسين الكبيرة التى هونت على عمال الامويين أن يقاوموا اندفاع الايرانيين الى الدخول فى الاسلام وزينت لهم جبايتهم الجزية مع اسلامهم • هذا هو الذل الذى اورثه قتل الحسين • اما الفتوح وأما الاتساع واما امتلاء الخزائن بالذهب واما التسلط وامتلاك الرقاب والاستهتار بالمشعل وبالناس فأمور لم يهدف اليها الاسلام وانما جاء لمحقتها •

ودفعهم هذا الذل الى الهرب من الدنيا وتكذب طريق الجهاد والعمل الايجابي فروى لنا عمر بن زياد الهذلي عن رجل من خراسان كتب الى محمد ابن الحنفية فقرن المصائب التي نزلت بالناس بالزهد والياس من رجوع الامر الى آل محمد : « فما زال بنا الشين في حبكم حتى ضربت عليه الاعناق وابطلت الشهادات وشردنا في البلاد واوذينا ، حتى لقد هممت ان اذهب في الارض فقرا فاعبد الله حتى اتقاء » (٥٦) ، وقال عبدالرحمن بن ابي نعيم من زهاد البصرة : « يا اهل العراق سألوئني عن المحرم : يقتل ؟ وقد قتلتم ابن بنت رسول الله ، وقد قال رسول الله فيه : هما ريحائتاى من الدنيا » (٥٧) وترك ابو عثمان النهدي الكوفة الى البصرة وقال : « لا اسكن بلدا قتل فيه ابن بنت رسول الله » (٥٨) .

وقد صار مقتل الحسين ملحمة كبرى تذكر الشيعة بذلك البطل الذي انقذ الاسلام وحماه ، وجعل الشيعة يكررون في كل عام تذكير الناس بكل تفاصيل الواقعة واعتبروا ذلك نذيرا ينبه الى الخطر المحدق وصار البكاء - بعد اشهار السيف - الرابطة بين الشيعة وآمالهم في اعادة الحق الى اصحابه حتى لقد قيل في الامثال :

ارق من دمة شيعة تبكى على بن ابي طالب (٥٩)

وصارت مجالس العزاء تعقد في ايام الواقعة وفي غيرها لان الشيعة يقتنصون كل مناسبة ليشهدوا هذه المجالس ، ويجمع شملهم ويوحد صفوفهم الحب الزائد لال البيت والبكاء المحرق عليهم . وقد تنبه جولد تسيهر الى

(٥٦) طبقات ابن سعد ٢٩/٥ - ٧٠ .

(٥٧) حلية الاولياء ٦٨/٥ .

(٥٨) صفة الصفوة ١٢٤/٤ .

(٥٩) امثال الميداني ٣٢٩ .

هذه الحقيقة فقال : « ونجد ان تاريخهم (الشيعة) منذ كارثة كربلاء عبارة عن سلسلة لاتقطع من التعذيب والاضطهاد . وروى الشيعة اخبارهم شعرا ونثرا فى مؤلفات كثيرة زاخرة بتراجم هؤلاء الشهداء ، وكتب المقاتل هذه احدى خصائص الشيعة ، وقد جعلوا من رواياتها واسطة عقد اجتماعاتهم فى الثلث الاول من شهر المحرم » (٦٠) . وقد عقد جولد تسيهر مقارنة جديدة بين المسيح والحسين فى هذه المناسبة فروى انه « سرى كثير مما كان يقال لاثارة العواطف فى يوم جمعة الالام عند المسيحيين الى يوم عاشوراء » (٦١) . ونقل عن بادشاه حسين فى كتابه : الحسين فى فلسفة التاريخ انه اورد « ان الحزن على الحسين لهو العلامة الصحيحة الدالة على الاسلام . ومن المحال الا يذرف الشيعى الدموع لانه جعل من قلبه قبرا حيا ومثوى حقيقيا للامام الشهيد الذى احتر رأسه » (٦٢) ويؤكد ذلك الاستاذ محمد جواد مغنية - من الشيعة المعاصرين - بقوله : « ليس يوم عاشوراء للشيعة فحسب ولا للسنة ، وانما هو للناس اجمعين لانه جهاد وتضحية وحق وصراحة ونور وحكمة . وليس لهذه الفضائل دين خاص ولا مذهب خاص ولا وطن خاص ولا لغة خاصة » (٦٣) . ولهذا فانه ليس من البعيد ان تكون فكرة الذكر الصوفية قد اتصلت بمجالس العزاء الحسينية التى يرتفع فيها البكاء وتذرف الدموع وبخاصة ان صح ان هذه المجالس كانت تقام علنا ايام المأمون فى نهاية القرن الثانى وبداية الثالث (٦٤) اى فى بداية ظهور الذكر الصوفى بل فى بداية تحول الزهد الى التصوف . وليس من البعيد كذلك ان تكون فكرة الحب الصوفية متصلة بالحب الشيعى للائمة ثم تطور بها الزهاد وجردوا هذه

-
- ٦٠) العقيدة والشريعة ١٧٨ .
 - ٦١) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٨٢ .
 - ٦٢) نفس المصدر ١٦٩ .
 - ٦٣) الشيعة فى التاريخ ١٦٦ .
 - ٦٤) الشيعة فى التاريخ ٦٨ .

ال عاطفة من ارتباطها بانسان معين وارتفعوا بها الى الله والمثل الاعلى . وقد كان هذا التبادل بين الانسان والمثل الاعلى الذى اتصل حب الصوفية به موجودا فى منتصف القرن الثانى الهجرى حين اخذ المنصور على طريقه الشاعر قوله للوليد بن يزيد :

لوقلت للسيل دع طريقك والمو ج على الهضب يعتلج
لساخ وارتد او لكان له فى سائر الارض عنك منصرف

فقال طريق : قد علم الله عز وجل انى قلت ذلك ويدي ممدودة اليه عزوجل واياه تبارك وتعالى عنيت^(٦٥) وسيمر بنا ان تأليه الائمة بدأ فى نهاية القرن الاول ، فليس من البعيد اذن ان يكون مقام الحب شيعى الاصل مادام الزهد - فى جوهره - كان حركة اعتزال للعمل الايجابى القائم على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد كان العالم الاسلامى - يومئذ - نهبا بين المعروف والمنكر ، وكان كل فريق يرى انه مع المعروف . وقد تنبه الامويون الى خطر هذه الذكرى فحاولوا ان يقابلوها بالفرح بها فاجعلوا منها عيدا سنة الحجاج لاهل الشام فى ايام عبدالملك واسته صلاح الدين وملوك بنى ايوب بعد سقوط الدولة الفاطمية الشيعية فى مصر^(٦٦) ، بل لقد كان قبر الحسين منابة للناس ومقصدا لزيارتهم تأكيدا لهذه الصلة حتى لقد سماه بعض الجهلاء حجا وكان من ذلك ان هدم المتوكل قبر الحسين^(٦٧) سنة ٢٣٦/٨٥٠-٥١ لمنع الناس من زيارته كما سيأتى ذكره . وهذه صلة اخرى تجمع بين التشيع والتصوف : فان زيارة قبور الاولياء عرف مشترك بينهما ، وزيارة قبر الحسين اقدم وصلتها بالتشيع واضحة والهدف منها صريح ، وقد اخذها المتصوفة من

(٦٥) الاغانى ١٧/٤ (دار الثقافة بيروت ١٩٥٥) .

(٦٦) خطط المقرئى ٣٨٥/٢ .

(٦٧) مقاتل الطالبين ٥٩٧ .

الشيعة ليؤكدوا ترابطهم وتعاضدهم كما فعل اولئك ويفعلون • ومما له دلالاته الكبرى مقارنة قتل الحلاج بقتل الحسين (٦٨) •

أما كون الحسين زاهدا فلا يرد فيه إلا اخبار طفيفة منها ما روى عنه انه ناقش قول ابي ذر : الفقير احب الى من الغنى فقال : رحم الله ابا ذر ، اما انا فاقول : من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن غير ما اختاره الله» (٦٩) •
ويبدو التوكل فى انصح مظهره فى هذا الخبر ، والتوكل - بتحليل حركة الحسين تحليلا زهديا - هو الذى دفعه الى المقاومة • فامر الحسين فى الزهد والتصوف آت من تضحيته بنفسه من اجل المثل الاعلى وقد كان هو مثالا اعلى للتضحية والفداء • وسنجد الحركات الشيعة الانية تعتمد اعتمادا كبيرا وجزئيا على حركة الحسين وتوجه دعوتها الى الانتصاف من قتله • بل لقد ارتبطت فكرة المهدي الشيعة بالانتصاف من بنى امية مع انهم قد ذهبوا ولم يعد لهم دولة ولا سلطان • وسنجد ان الشيعة قد تغلبوا على هذه الفكرة ايضا فربطوها بالرجعة التى تقول بان الشهداء منهم والمظلومين سيعودون مع المهدي كما يعود المظلومون لهم فيدين المظلومون الظالمين ، وليس ذلك موضوع هذا الفصل • فكل ما يعيننا من الحسين وصلته بالتشيع انه قد سلح الشيعة بفكرة الانتقام وهيا لهم حادثا محددا لاريب فى مشروعية التوجه اليه • وقد تشعبت من الحركة افكار جانبية اتصلت بها افكار الزهاد والمتصوفة حتى صارت عرفا عرضيا كما هى عند الشيعة ، ولكن لهذا العرف تأثيرا عاطفيا يوجب الحركة ويزيد من الحماس والترابط. •

(٦٨) ماسينيون : نصوصه تتعلق بتاريخ التصوف ٦٠ (عن طبقات المناوى)

(٦٩) الرسالة القشيرية ٢٢٩ •

خلف قتل الحسين هزة عنيفة في الكوفة ولاسيما لدى المخلصين الذين دعوه اليها وتمهدوا بنصرته : وكان من زعمائهم خمسة : سليمان بن سرد الخزازي والمسيب بن نجب الفزاري وعبدالله بن سعيد بن نفيسل الازدي وعبدالله بن وال التميمي ورفاعة بن شداد البجلي (٧٠) . وكان سليمان بن سرد صحابيا (٧١) وعلى رجاله الميمنة في جيش علي في صفين (٧٢) ، اما الآخرون فكانوا من خيرة اصحاب علي (٧٣) . وكان التوابون يستندون - في حركتهم - الى نص من القرآن هو الآية : فتوبوا الى بارئكم ، فاقتلوا انفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم . فتاب عليكم انه التواب الرحيم (٧٤) . وكان مع التوابين الكوفيين اخوان لهم من اهل البصرة والمدائن وكانوا يقولون : « أقلنا - ربنا - تفريطنا فقد تبنا » (٧٥) . وتبين حركة التوابين مدى ما اثر قتل الحسين في نفوس المسلمين حتى وجدنا هذه الطائفة تخرج - دون قيادة ودون طمع في ملك ودون تنظيم - لمجرد الانتحار والتكفير بذل النفس . وقد كان الناس ينظرون اليهم نظرة اكرام واجلال ، فان اهل الشام تركوهم يرتحلون بعد انهزامهم وصبرهم على قتلهم ، فلحق اهل الكوفة بمصرهم واهل المدائن والبصرة ببلادهم (٧٦) وقد حدث كل ذلك في اثناء محاولة المختار تكوين جيش له يخرج به على الامويين ، وقد حاول ان يضم التوابين اليه فلم يستطع لانهم لم يكونوا يطلبون شيئا الا شفاء الغل والموت تكفيرا عن سماحهم بقتل ابن بنت رسول الله .

-
- (٧٠) تاريخ الكوفة ٢٩٣ .
 (٧١) الشيعة في التاريخ ٤٧ هامش .
 (٧٢) الاخبار الطوال ١٦٠ .
 (٧٣) تاريخ الكوفة ٢٩٤ .
 (٧٤) تاريخ اليعقوبي ٤/٣ ، البقرة : ٥١ .
 (٧٥) مروج الذهب ١١٠/٢ .
 (٧٦) مروج الذهب ١١٠/٢ .

لقد دخل المختار حياة الكوفة بعد ان اسحب على بن الحسين مسن الحياة العامة واحتط محمد بن الحنفية : الابن الثالث لعلي بن ابي طالب البعد عن الدعوة لنفسه والامتناع عن مبايعة احد الا اذا اجمع العالم الاسلامي على بيعته . وكان عبدالله بن الزبير قد اخذ البيعة لنفسه من مكة والمدينة وكان عبدالملك بن مروان يجمع حوله الانصار بعد ان ترك معاوية بن يزيد امر الخلافة للمسلمين يولون عليهم من يشاؤون . وتأتى اهمية حركة المختار من كونه اول شيعي يجعل من نفسه منتصفا للشيعه وآخذا بثار الحسين وهذا يعنى - على الصحيح ان المختار أول رجل اتخذ من التشيع وسيلة لغايته وهو اول من تجرأ على ذلك فكان قدوة سيئة للغلاة الذين ساروا في طريقه الذى شقه لهم وادخلوا في التشيع امورا لم تكن فيه - والغريب ان كل عقائد الغلاة قد انصبت في التصوف فيما بعد وذلك امر سيأتى بيانه .

لقد بدأت المهديّة في الاسلام ايام المختار وبدأ في التشيع اتجاه جديد هو في الحقيقة تفريط في العقيدة الشيعية وذلك ان المختار دعا الى امامة محمد ابن الحنفية وهو ابن علي من غير فاطمة ، فكان اتجاهها ادى الى اجتراء غير العلويين على المطالبة بالامامة فرأينا الكيسانية - وهم فرقة المختار او فرقة خليفته كما سنرى - يتجهون بعد ابن الحنفية الى ابنه مرة والى عمه عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر مرة اخرى والى محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بعد ذلك . ثم اذا بها تخرج الى ابي مسلم الخراساني وبيان بن سماعيل ، وكانت البداية خروجها من بيت علي الفاطمي .

لقد التفت السبئية - خلفاء جماعة حجر بن عدى المغالين في حب علي وكره اعدائه - الى حركة المختار وظن الناس ان المختار هو مبتدع افكارهم . والواقع انه كان يقوم بدور المشجع فقط واراد من ذلك ان يتزعم اتجاهها محمدا من التشيع له طابع يميزه من غيره فيستطيع ان يسيطر ويحكم . وقد بعثت

عقيدة العلم السرى و اضيفت الى الائمة فاندفع ابن الحنفية يقول : « انا والله ما ورتنا من رسول الله الا ما بين هذين اللوحين (يعنى القرآن) ، » (٧٧) ، وكتب يحذر شيعة الكوفة من الغلاة : « اما بعد فاخرجوا الى المجالس والمساجد فاذكروا الله علانية وسرا ولا تتخذوا من دون المؤمنين بطانة • فان خشيتم على انفسكم فاحذروا على دينكم الكذابين واكثروا الصلاة والصيام والدعاء فانه ليس احد من الخلق يملك لاحد ضرا ولا نفعا الا ما شاء الله ، » (٧٨) ، وقد اضيف الى المختار انه ادعى النبوة (٧٩) ، والواقع ان ذلك بعيد لانه كان يدعو الى امامة محمد بن الحنفية بل لقد كان يدعو بالمهدى (٨٠) وذلك يناقض ادعاء النبوة كما لا يخفى • وقد استعان المختار بالموالى لاول مرة فى تاريخ التشيع وكان ذلك من اسباب فشل حركته وانفضاض العرب عنه (٨١) ويجب ان نلاحظ هنا ان دور الفرس فى التشيع المبكر كان موقتا ، فقد انصرفوا من بعد المختار الى موالاته العباسيين وعادوا الى التشيع من جديد بعد ان نزلت بهم ضربة السفاح اولا ثم المنصور ثم الرشيد بل لقد وجدناهم يمنعون العلويين من تسلط السلطان حين تسلم البويهيون ازمة الحكم من العباسيين وبهذا يتبين لنا ان دور الفرس فى التشيع بل فى الاسلام كان مجرد وسيلة لاستعادة المجد القديم واثاء التسلط العربى عن كواهلهم ، وسرى ذلك فيما يأتى وسنجد ان التصوف نفسه محاولة اخرى من طراز مختلف لتحقيق هذا الغرض •

لقد رافقت حركة المختار افكار اسطورية تعكس ما كان يمانيه المجتمع العراقى من قلق فى عقيدته ومن ذلك ان انصار المختار كانوا يشيعون ان

(٧٧) طبقات ابن سعد ٧٧/٥ •

(٧٨) الطبرى ١٥٣/٧ •

(٧٩) مختصر الفرق بين الفرق ٤٤ •

(٨٠) طبقات ابن سعد ٨٦/٥ •

(٨١) الطبرى ١٤٧/٧ •

الملائكة تنزل على صورة الحمامات البيض لتصرهم^(٨٢) ، وقد رأينا ان هذه الفكرة نفسها قد دخلت مجتمع الزهاد فروى - بمناسبة موت عمر بن قيس الملائى - « ان البرية كلها امتلأت من طير لم ير على خلقها وحسنها • فجعل الناس يعجبون من حسنها وكثرتها ، فقال ابو حيان (اليمى) : من اى شىء تعجبون؟ هذه الملائكة جاءت فشهدت عمراء^(٨٣) .

ويضيف المؤرخون البداء الى المختار ايضا وهو عقيدة مهمة دخلت التشيع وما زالت معمولا بها حتى الان • وقبل ان ندخل فى التفصيل علينا ان نلاحظ ان البداء - فى لفظه - قد يكون مؤسسا على مدلول الآية « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون »^(٨٤) وقد قرن البغدادى^(٨٥) والشهرستانى^(٨٦) والاسفراينى^(٨٧) هذه الفكرة بعقائد جماعة المختار ومجمل ما ذكر اصحاب كتب الفرق فى ذلك ان المختار كان يعد اصحابه بالنصر ، فاذا اتصروا كان ذلك دليلا على صدق دعواه وان غلبوا قال لهم : « ان الله تعالى قد وعدنى بذلك ولكنه بداه له ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب »^(٨٨) • ومما يضيف هذا الزعم اظهار من تبناه للمختار بمظهر النبى مما رأينا تهافته فيما مضى • وقد حدثنا الطبرى فى حوادث سنة ٦٧ وهى فى ايام المختار - ان عبدالله بن نوف قد قال بهذه الفكرة واستشهد بنفس الآية عند هزيمة اصحابه فى قتال مصعب بن

(٨٢) الملل والنحل ٢/٢٤٠ •

(٨٣) صفة الصفوة ٣/٧٠ •

(٨٤) الزمر : ٤٨ •

(٨٥) مختصر الفرق بين الفرق ٣٥ •

(٨٦) الملل والنحل ١/٢٣٧ •

(٨٧) التبصير فى الدين ١٨ •

(٨٨) مختصر الفرق بين الفرق ٤٧ الرد : ٣٩ •

الزبير^(٨٩) . ثم يرد رأى آخر يسند به الدكتور محمد جابر عبدالعال نظرية
البداء الى ابي الخطاب الذى قتل سنة ١٣٨/٧٥٥-٥٦ فى الكوفة^(٩٠) . اما
النوبختى فيرى نفس الرأى ويسمى جماعة ابي الخطاب بالاسماعيلية^(٩١)
وبذلك يتبين ان البداء محمول على المختار خطأ وانه ظهر من فرقة غالبية
متأخرة . وجليه أمر البداء الشيعى فى اسماعيل ان جعفر الصادق كان قد
اعد ولده اسماعيل لتولى الامامة من بعده ولكنه مات فى حياته فقال جعفر
الصادق - كما يروى الشيعة - : « ان الله عزوجل قد بدا له فى امامة
اسماعيل^(٩٢) » . وجليه معنى البداء - بعد هذا الذى ذكرناه هو - اطلاع الامام
على امر لم يكن ظاهرا له وان كانت ظواهره تدل على غير ذلك من نحو نشأة
ولد للامام على انه خليفته من بعده ثم يتضح للامام على صورة ما ان الله لم يختار
هذا الولد للامامة وانما اختار اخاه ، فيموت المرشح الاول فى حياة الامام
ليقوم المرشح المختار مكانه . وقد وسع الشيخ المفيد هذا المعنى فى النسخ
وامثاله من الافقار بعد الاغتاء والامراض بعد الاعفاء والاماتة بعد الاحياء^(٩٣) ثم قال:
« وانما خالف من خالفهم فى اللفظ دون سواه^(٩٤) » ويختم الشيخ كاشف
الغطاء هذه الراء بقوله : « ولولا البداء لم يكن وجه للصدقة ولا للدعاء ولا
للسفاعة ولا لبكاء الانبياء والاولياء وشدة خوفهم وحذرهم من الله مع انهم لم
يخالفوه طرفه عين . انما خوفهم من ذلك العلم المصون المخزون الذى لم يطلع
عليه احد ومنه يكون البداء^(٩٥) » . على أنه يحسن بنا ان نجلو هذا كله

-
- (٨٩) الطبرى ١٥٣/٧ .
(٩٠) حركات الشيعة المتطرفين ٧٨-٧٩ .
(٩١) فرق الشيعة ٦٩ .
(٩٢) فرق الشيعة ٦٥ .
(٩٣) اوائل المقالات ٤٥ .
(٩٤) اوائل المقالات ٤٥ .
(٩٥) أصل الشيعة واصولها ١٩٢ .

بانخير الذى يورده الاوزاعى عن محمد الباقر بن على بن الحسين بن ابى طالب انه سأله عن قوله عز وجل «يمحو الله ويثبت وعنده ام الكتاب» - وهو محمول البداء - فقال ، رواية عن النبي ص : « الصدقة على وجهها واصطناع المعروف وبر الوالدين وصلة الرحم تحول الشقاء سعادة وتزيد فى العمر وتقى مصارع السوء ، » (٩٦) . ويتضح بذلك ان عقيدة البداء امر اسلامى عادى لا يدخل فى الغلو ولا فى ادعاء النبوة وليس خاصا بالشيعة ، ولكننا لو القينا نظرة شاملة على مقدماته لرأينا صلته ببداء ابى نوف الذى نسب الى المختار . وبداء ابى نوف ينصب على وعد من الله بالنصر اى امر مقرر معروف ثم امتنع حدوثه لامر اراده الله ، وصلة هذا البداء بالنسخ واضحة وكذلك باختيار خلف الامام . وبهذا نستطيع ان نجعل اصل البداء على الصورة التى شرحها الشيخ المفيد المتوفى سنة ٤١٣ / ١٠٢٢-٢٣ والشيخ كاشف الغطاء آتيا من عقائد الغلاة الاولى كغيرها من عقائد اخرى كانت فى اصلها من عقائد الغلاة ايضا واذخها الشيعة المعتدلون وهذبوا حواشيتها قووها بالمنطق والكلام ، وبذلك يتبين ان الغلاة - وان كانوا مفضوبا عليهم من الشيعة المعتدلين وأئمتهم - قد اسسوا العقائد الاصلية للتشيع من بداء ورجعة وعصمة وعلم لدنى بحيث صارت مبادئ رسمية للتشيع فيما بعد ولكن على صورة ملطفة . وسرى فيما نعرض له من فصول كيف صار الغلو الشيعى اصلا من اصول العقائد الصوفية الاساسية ايضا .

وهكذا نعود من صحبتنا للمختار فنقرر انه شجع الاراء الاسطورية عند غلاة الشيعة - وهم الان السبئية - وسمح بتكوين عقيدة جديدة تقوم على محاولة اسباغ علم سرى الى الامام واحاطة المثل الاسلامية بهالة من القدسية تنبعث من مقام الامام . وقد مات المختار ولكن الاراء التى شجعها لم

(٩٦) محاسن المساعى ١٣٩-١٤٠ .

نمت بل عاشت في المجتمع الكوفي حتى تنبه الائمة الى خطر السكوت عليها
فغامر محمد الباقر وابوه على زين العابدين باستنكارها ولعن معتقيها ولكنها
كانت قد مدت جذورها في التشيع المعتدل نفسه بحيث صارت من اصوله كما
سنرى في الفصول الآتية .

محمد بن الحنفية :

قتل الحسين فانجهد الانظار كلها الى اخيه محمد ، ولم يحاول على بن
الحسين ان ينازعه الامامة واتخذ لنفسه منهجا في الزهد لا يحد عنه وترك
الدنيا لاهل الدنيا . اما محمد بن الحنفية فقد كان يقول : « لو اجتمع الناس
على كلهم الا انسانا واحدا لما قاتلته » (٩٧) ، وكان عبدالله بن الزبير قد حصره
في الشعب الذي حوصر فيه بنو هاشم في اول الاسلام خشية ان يدعو الى
نفسه فكان محمد بن الحنفية يقول : « لو ان ابي عليا ادرك هذا الامر لكان هذا
موضع رحله » (٩٨) ، وذلك يعني انه رأى ان يسالم ولا يخاصم حتى تنجلي
الامور كما فعل ابوه على بعد التفاف القرشيين والامة حول ابي بكر وعمر .
ويبدو ان رأى محمد بن الحنفية كان ينصرف الى ان للعلويين رسالة اوسع
من مجرد الحكم والسلطان ولذلك كان - على كونه صاحب راية ابيه في
الجمال - يقول : « هذه والله الفتنة المظلمة العمياء » (٩٩) فكان رد على :
« اتكون فتنة ابوك قائدها وسائقها !؟ » (٩٩) .

ومحمد ، بعد ، ابن خولة بنت جعفر بن قيس كما يخبرنا ابن
ومحمد (بعد) ابن خولة بنت جعفر بن قيس كما يخبرنا ابن
الجوزي (١٠٠) وكذلك الطبري (١٠١) وقد رويت اخبار تنبئ بان امه امة

(٩٧) طبقات ابن سعد ٧٨/٥ .

(٩٨) طبقات ابن سعد ٦٨/٥ .

(٩٩) قوت القلوب ٣/٢ .

(١٠٠) صفة الصفوة ٤٢/٢ .

(١٠١) الطبري ٨٩/٦ .

حنفية سوداء وليست حرة وكلها تنتهي الى اسماء بنت ابي بكرام عبدالله بن الزبير منافس محمد ابن الحنفية على زعامة المسلمين وقيادتهم ، ومن ذلك يتضح تهافت هذا الادعاء •

وقد عاصر ابن الحنفية اتجاه الشيعة الكوفيين الى الخروج بالائمة من حد الانسانية الى القداسة والالوهية فكان ان هبط ابن الحنفية بيت النبي الى مرتبة الناس هبوطا كان الناس يعجبون له ، فقد كان يقول : « ما اشهد على احد بالنجاة ولا انه من اهل الجنة بعد رسول الله ولا على ابي الذي ولدني » (١٠٢) ، وقد عجب ابو طالب المكي ايضا (١٠٣) • ولكن ابن الحنفية اوضح علة اتجاهه هذا بقوله : « اهل بيتين يتخذهما العرب اندادا من دون الله : نحن وبنو عمنا هؤلاء ، يعنى بنى امية » (١٠٤) فظهر لنا انه انما فعل ذلك ليخفف من اندفاع الناس الى اسباغ القداسة على اهل البيت فى المحيط الشيعى وغيرهم فى البيئات الاخرى • ولكنه مع ذلك لم يستطع ان يخفى قوله : « من احبنا نفعه الله وان كان فى الديلم » (١٠٥) •

وتأتى اهمية دور محمد بن الحنفية فى العقائد الشيعية من كونه المهدي الرسمى الاول فى الاسلام وان لم يكن الاول على الاطلاق ، وتلك ناحية اخرى تعود بنا الى ان المبادئ الشيعية التى جددت على الاسلام انما كانت - فى جوهرها - رد فعل واصلاحا لاتجاهات كانت من غير الشيعة كما مر بنا من امر التقية والتأويل وغيرها ، وهذا يعنى ان المهديّة كانت اتجاها غير شيعى تلقاه الشيعة بالاصلاح وافرغوه فى قالب يناسب مشربهم • وحقيقة الامر ان

-
- (١٠١) الطبرى ٨٩/٦ •
 - (١٠٢) طبقات ابن سعد ٦٨/٥ •
 - (١٠٣) قوت القلوب ٣٩/٢ •
 - (١٠٤) طبقات ابن سعد ٦٨/٥ •
 - (١٠٥) طبقات ابن سعد ٧/٥ •

النبي محمدا (ص) كان اول مهدي في الاسلام ، دعا الى مهديته عمر بن الخطاب (ر) وروى يعقوبى هذا الخبر بقوله : «ولما توفى (ص) قال الناس : ما كنا نظن ان رسول الله يموت حتى يظهر على الارض • وخرج عمر فقال : والله ما مات ولا يموت وانما تغيب كما غاب موسى بن عمران اربعين ليلة ثم يعود • والله ليقطن ايدى قوم وارجلهم » (١٠٦) • ويروى الشهرستاني ان عمر كان يرى ان محمدا رفع الى السماء كما رفع عيسى (١٠٧) • وقد اقتنع عمر بموت النبي بعد ان انهى اليه ابو بكر (ر) بان الله قد نعى النبي في القرآن بقوله : انك ميت وانهم ميتون ، فصحا عمر من ذهوله وقال : والله لكأني ما قرأتها قط • وعلل ابو بكر لعمر علة ذلك الظن فقال : ••• ولكن الذى ابدى الذى قلته الجزع (٨) • وروى يعقوبى انه قد حيك حول على مثل هذا الظن لنفس السبب الذى بينه ابو بكر لعمر • فمهدي محمد وعلى او رجعتهما او قيامهما انما ارتبطت بهما بعد موتهما ، اما مهدي ابن الحنفية فقد ارتبطت به فى حياته وقد كان مهديا لان اسمه محمد وكنيته ابو القاسم وقد رخص النبي لعلى فى هذه التسمية والكنية ومنع غيره من تقلدهما (١٠٩) • وقبل ان نعرض للمعنى المهديّة وتفاصيلها يحسن بنا ان نلاحظ انها قد اقترنت بالسيف او القوة على الاقل منذ يومها الاول ، ونحن بهذا نشير الى خبر مهديّة النبي التي قال بها عمر وشفعها بتوله : ثم يعود فليقطن ايدى قوم وارجلهم •

(١٠٦) تاريخ يعقوبى ٩٥/٢ •

(١٠٧) الملل والنحل ١٥/١

(١٠٨) تاريخ يعقوبى ٩٥/٢ •

وقد قال عمرو الضبى يصف بالنبي بالمهديّة يوم الجمل ويرتجز :

يا امنا يا زوجة النبي يا زوجة المبارك المهدي

(الطبرى - ريدن - ٣١٩٨/١ « حوادث سنة ٣٦ ») •

(١٠٩) طبقات ابن سعد ٦٦/٥ •

اما اصل كلمة « مهدى » فان الدكتور على الوردى يكفينا مؤوتها بقوله :
• اما كلمة المهدي فهي في الواقع تعريب للفظه المسيح الموجودة في التوراة .
فالمسيح معناه المسوح اي انه ذلك البطل المنقذ الذي يمسخه الاله ، والمسح
في التوراة معناه الهداية والارسال والتأييد الرباني •

يقول اشعيا : الرب مسحني لابشر المساكين ، ارسلني لاعصب منكسبري
انقلب لانادي للمسيين بالعتق وللمأسورين بالاطلاق ، لانادي بسنة مقبولة
للرب وبيوم انتقام لالهنا ، لاغزي كل النائحين (اصحاح ٦١ سفر اشعيا) •
وتصف التوراة هذا المسوح الذي يرسله الرب ليشير المساكين فتقول :
ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم وروح المشورة والقوة روح
المعرفة ومخافة الرب • ولذته تكون في مخافة الرب ، فلا يقضى بحسب نظر
عينيه ولا يحكم بحسب سمع اذنيه ، بل يقضى للمساكين ويحكم لبائسى
الارض فيسكن الذئب مع الخروف ويربض الثمر مع الجدى (اصحاح ١١
اشعيا) •

ومن يقرأ شعر اشعيا في التوراة يجد تشابها غريبا بينه وبين مايؤمن به
الشيعة في شأن الامام والمهدي (١١٠) •

فالمهدي اذن - وهو اسم مفعول من هدى يهدى - يعنى المسيح الذى
هو صفة مشبهة بمعنى اسم المفعول : المسوح • وقد رأينا المسح يعنى الهداية
في النص السابق ويجب ان نلاحظ هنا ان المسيح نفسه قائم بالسيف بدليل
ان يومه هو يوم انتقام للرب •

وهذا الذى تعب في تتبعه الدكتور الوردى قد تنبه اليه احد الغلاة ممن
دعوا الى فكرة المهديّة وهو ابو منصور العجلي (المقتول سنة ١٢١) الذى زعم

(١١٠) وعاط السلطين ٣٨٧ •

انه عرج به الى السماء وان الله «مسح» رأسه بيده وقال له : «بلغ عنى» (١١١) .
ويؤيد هذا ان المسيح كان يحتل مكانة مرموقة من عقيدته بحيث ان ابا منصور
كان يرى ان «عيسى اول من خلق الله من خلقه» (١١٢) وان اصحابه كانوا
يقولون فى حلفهم «الا والكلمة» (١١٣) . فالمسح الذى يعنى الهداية واضح من
هذه المظاهر ولعل ذلك كله يظب الرأى الذى يرجح كون المصدر القريب
للمذاهب الجديدة انما كان التوراة وما يتصل بها . ويلاحظ دونالدسون ان
لفظ المهدي لم يرد فى القرآن وليس فيه ما يؤيد هذه الفكرة ويلاحظ ايضا ان
معتقياها قد اسندوها بالحديث بدل القرآن ويرى ان لقب
المهدي اطلق على محمد بن الحنفية سنة ٦٦/٦٨٥-٨٦ وسمى :
المهدي بن الوصى» (١١٤) . والواقع ان الشيعة قد استندوا فى فكرة المهدي
الى كثير من الايات تأويلا ، فيورد على بن ابراهيم القمى فى تفسيره الشيعى
القديم ان الاية : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى
الصالحون» (١١٥) تنصرف الى القائم اى المهدي (١١٦) وكذلك الاية : «ولئن
اخرنا عنهم العذاب الى امة معدودة ليقولن : ما يجسه؟» (١١٧) والاية : ان
نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت اعناقهم لها خاضعين (١١٨) وقد
فسرها جعفر الصادق بالصيحة من السماء باسم صاحب الامر وان الخاضعين

(١١١) مقالات الاسلاميين ٩/١ ، الملل والنحل ١/٢٩٩ ، فرق الشيعة

٣٨ ، الفرق بين الفرق ٢٣٤ ، التبصير فى الدين ٧٣ .

(١١٢) مقالات الاسلاميين ٧/١ .

(١١٣) المصدر نفسه ٩/١ .

(١١٤) عقيدة الشيعة ٢٣١ .

(١١٥) الانبياء : ١٠٥ .

(١١٦) تفسير على بن ابراهيم ٤٣٤ .

(١١٧) هود : ٨ .

(١١٨) الشعراء : ٤

هم بنوا امية (١١٩) ، والآية « سأل سائل بعذاب واقع » (١٢٠) . ويورد الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ بان علي بن ابي طالب يفسر الآية : « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين » (١٢١) . بان الوارثين هم آل محمد يعث الله مهديهم بعد جهدهم (١٢٢) . ومع هذا الوضوح في الصلة بين الاسلام والمسيحية في عقيدة المهدي حاول ماسينيون - ومن قبله ابن حزم - ان يصل هذه الفكرة بالمانوية استنادا الى ان اول من قال بها هم الموالي من انصار المختار (١٢٣) . اما الاحاديث فكثيرة يروى منها الطوسي عن عبدالله بن عمرو بن العاص وهو احد الزهاد المشهورين ان النبي قال : « انا اول هذه الامة والمهدي اوسطها وعيسى اخرها وبين ذلك شيخ اعوج » (١٢٤) ويرد في « الكنى والاسماء » ان رسول الله قال : « لاتقضى الدنيا حتى يخرج رجل من امتي يواطىء اسمه اسمي واسم ابيه اسم ابي فيملا الارض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا » (١٢٥) . وينصرف رأى الاستاذ أحمد أمين الى ان الاحاديث في المهدي موضوعة بدليل اغفال البخارى ومسلم لها و « انما ذكرها الترمذى وابو داود وابن ماجه وغيرهم » ١٢٦ . وهذا الذى يقوله الاستاذ احمد امين يرد من ان كل فرقة من الشيعة وغيرهم تحاول المطابقة بين مهديها والحديث الوارد . ففى هذا الحديث الاخير تعكس

-
- (١١٩) تفسير على بن ابراهيم ٢٩٨ .
(١٢٠) تفسير على بن ابراهيم ٦٩٥ .
(١٢١) الفصص : ٥ ، (المعارج : ١) .
(١٢٢) الغيبة للطوسى ١١٩ .
(١٢٣) الانسان الكامل فى الاسلام ٨٨ . الفصل ١١٥/٢ . ولم يعين ابن حزم فرقة قالت بها اولاً .
(١٢٤) الغيبة للطوسى ١٢٢-١٢٣ . فرقة قالت بها اولاً .
(١٢٥) الكنى والاسماء ١٠٧ .
(١٢٦) ضحى الاسلام ٢٣٧/٣ .

دعوى الزيدية فى مهديّة محمد بن عبدالله بن الحسن ودعوى المنصور فى معارضة مهديّة بن الحسن بمهديّة ابنه الذى ولى الخلافة بعده • اما ابن الحنفية الذى لقب فى حياته بالمهدى فان التطابق بين اسم النبى واسمه يقتصر على الاسم واللقب وكذلك بالنسبة لمهدى الاثنا عشرية محمد بن الحسن وحاول الشيعة الاثنا عشرية توجيه الاحاديث المروية عن النبى فى فكرة المهدي وجهة تخدم عدد أئمتهم كالحديث الذى اورده مسلم : « لا ينقض هذا الامر حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش » (١٢٧) • ويؤول الشيخ سليمان الحنفى القشبندي ذلك بانه يحمل على الائمة الاثني عشر وبه يستشهد الشيخ محمد حسين الزين ليسند عقيدته برأى سنى حنفى (١٢٨) والواقع ان السنة لا دخل لها فى هذا التوثيق وانما هى الصوفية التى ينتمى اليها القشبندي ، وقد اخذت المهديّة عن التشيع ومضت بها الى غايتها كما سنرى • وقد نقل الكنجي فى الغيبة ان ابا نعيم قد روى كون المهديّة من نسل الحسن والحسين (١٢٩) وذلك يدل على ارتباط واضح بين التصوف والتشيع فى مسألة المهدي •

فاذا لم يصرح النبى بفكرة المهديّ بدليل خلو صحيحى البخارى ومسلم - كما لاحظ الاستاذ احمد امين - من الاشارة اليها فكيف ساع للمسلمين ان يهضموا فكرة المهديّ فى القرن الاول الهجرى وبعد وفاة النبى بثلاث واربعين سنة فقط حين دارت حول محمد بن الحنفية ؟

الرأى عندنا ان الاصل فى فكرة المهديّ اتصالها بالمسيحية واليهودية ، واشارة عمر الى ان محمدا (ص) قد رفع الى السماء كما رفع عيسى تؤيد ذلك •

(١٢٧) صحيح مسلم ٧٩/٢ •

(١٢٨) الشيعة فى التاريخ ٩٢ •

(١٢٩) البيان فى اخبار صاحب الزمان ٣٠٥ •

ثم يرد الحديث الذى يرويه البغدادي فى مختصر « الفرق بين الفرق » ، ويسنده الى انس بن مالك وابى هريرة وابى الدرداء وجابر وابى سعيد الخدرى وابى بن كعب وعبدالله بن عمرو بن العاص وابى امامة ووائله بن الاسقع وغيرهم ، ونص الحديث كما يرويه عبدالله بن عمرو بن العاص : « ليأتين على امتى ما اتى على بنى اسرائيل : تفرق بنو اسرائيل على اثنتين وسبعين ملة ، وستفترق امتى على ثلاث وسبعين ملة تزيد عليهم ملة واحدة . كلهم فى النار الاملة واحدة » (١٣٠) . والذى يهمنى من هذا الحديث هو المقدمة التى تجعل الاسلام موازيا للاديان السابقة اى ان فيه ما فى اليهودية والمسيحية ومنها فكرة المسيح المنتظر . ويرد فى تفسير على بن ابراهيم مصداق لهذه الفكرة على صورة حديث نصه : « لم يكن فى بنى اسرائيل شىء الا وفى امتى مثله » (١٣١) ، واورد ابن بابويه القمى حديث اخر فيه هذا المعنى : « يكون فى هذه الامة ما يكون فى الامم السابقة حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة » (١٣٢) . ويجب ان نلتفت الى الخبرين اللذين نقلناهما عن ايمان عمر بن الخطاب بمهدية النبى فقد وجدنا خبرا منهما يشير الى صلة رجعة محمد برجعة موسى والاخر يشير الى صلة موت محمد برفع عيسى الى السماء ، وأنه سيعود عيسى الى الارض من جديد وسيعود موسى مهديا بنفسه . وقد حاول الاسلام ان يجعل من محمد (ص) مهديا كما رأينا ولكن التيار التطورى جرف هذه العقيدة وحقها فى مهدها ، ومن هنا اتجهت هذه العقيدة الى محمد آخر لىتم التناسق بينها وبين الفكرة المسيحية واليهودية . وهكذا نشأت هذه الاحاديث التى تعين اسم المهدي وتجعله مطابقا لاسم النبى اسما وكنية مرة واسما واسم اب مرة اخرى . ولو كان الاصل فى الاحاديث

(١٣٠) مختصر الفرق بين الفرق ١٤ ، ينكر الغزالي مثل هذه الاحاديث

على اساس انها من اخبار الاحاد (فضائح الباطنية ص ٣٤) .

(١٣١) تفسير على بن ابراهيم ٢٢ .

(١٣٢) اعتقادات الصدوق ٢٠ .

التي تذكر المهدي الاسم نفسه ما رأينا مهديين من كل صنف ليس لاسمهم صلة بالنبي ، بل لقد وجدنا كثيرا من المهديين لايهتتم اتباعهم بالشبه بين اسمائهم واسم النبي . وهذا يعود بنا من جديد الى ان فكرة المهدي الاسلامية آتية من ذلك الحديث الذي يجعل الاسلام دينا موازيا لليهودية والمسيحية وان الاحاديث التي تعين الاسم بانه مطابق لاسم النبي قد كانت موضوعة على اساس الاستنتاج الذي ذكرناه من مهديّة موسى بنفسه وعودة عيسى بشخصه وان محمدا لم تثبت مهديته في عقائد الاسلام فانقل بها المحدثون الى محمد آخر يكون شخصا غير النبي ولكنه يتصف باوصافه . ومع ذلك فان وجود المهديّة عند المانوية لا يمنع ان يعتقدوا الفرس ويتسلحوا بها في اقناع الناس ، من امتهم وغيرها ، بشرعية حركتهم اذا اتخذوا المهديّة ذريعة لها .

الرجعة :

اقرنت الرجعة - من حيث هي عقيدة - بمحمد بن الحنفية كما اقرنت به المهديّة ولكنها اتصلت به ميتا وقد رأينا من قبل اتصال المهديّة به حيا ، وجليّة الامر ان الناس كانوا ينتظرون منه ان يظهر بالسيف ويدعو العالم الاسلامي الى بيعته دون عبدالله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ولكنه لم يفعل وظل يتنقل من بلد الى آخر متفاديا قتال منافسيه حتى نزل المدينة فمات بها سنة ٧٠٠/٨١ (١٣٣) وروى انه مات في ايلة (١٣٤) وهكذا بدأت الرجعة ، ولكن اصحاب ابن الحنفية لم يروا انه مات وانما اعتقدوا انه مازال يتحين الفرص لظهوره بالسيف باعتباره مهديا وقد ذكر ذلك سائر اصحاب كتب الفرق ويكفي ان نورد قول السيد الحميري الشاعر الكيسانى المتوفى سنة ٧٨٩/١٧٣ - ٩٠ .

(١٣٣) طبقات ابن سعد ٨٠/٥ .

(١٣٤) الاخبار الطوال ٢٦٨ .

ثم تطورت هذه الرجعة من دورانها حول عودة شخص معين كما رأينا في فكرة رجعة ابن الحنفية - الان - والنبي (ص) وعلى (ع) وموسى (ع) ، ويخبرنا جولد تسيهر ان ايليا هو « النموذج الاول لائمة الشيعة المختفين الغائبين للذين يحيون لايراهم احد والذين سيعودون يوما كمهديين منقذين للعالم » (١٣٦) تطورت الرجعة من ذلك فدارت حول جماعة بأكملها هم اربعون شخصا من اصحاب محمد بن الحنفية يرجعون معه في قيامه (١٣٧) ولعل لهذه الفكرة صلة بالفكرة الاسرائيلية التي تدور حول عودة دولة حمير من بطن الصحراء كما يروى ذلك الدكتور اسرائيل ولفسون (١٣٨) . وكان اصحاب كرب وصائد النهدي واصحاب بيان وهم رؤساء فرق متطورة عن الكيسانية ينتظرون رجوعهم ورجوع اصحاب محمد بن الحنفية ويزعمون انه «يظهر بنفسه بعد الاستار عن خلقه ، ينزل الى المدينة ويكون امير المؤمنين» (١٣٩) . ولم يكف الكيسانية برجعة رؤسائهم وانصارهم بل روى عنهم انهم «يعتقدون برجعة على بن ابي طالب» ليقتل معاوين بن ابي سفيان وآل ابي سفيان ويهدم دمشق ويفرق البصرة » (١٤٠) . ثم دخلت هذه الفكرة في الشيعة الامامية الاثني عشرية فرأينا المجلسي يقول : « ان الله يحشر في زمن القائم او قبله جماعة من المؤمنين لتقر عينهم برؤية أئمتهم ودولتهم ، وجماعة من الكافرين والمخالفين للانتقام عاجلا في الدنيا » .

-
- (١٣٥) فرق الشيعة ٢٩ .
 (١٣٦) العقيدة والشريعة في الاسلام ١٩٢ .
 (١٣٧) المهديّة في الاسلام ١٠٥ .
 (١٣٨) تاريخ اليهود في بلاد العرب ٤٩ .
 (١٣٩) فرق الشيعة ٢٩ .
 (١٤٠) فرق الشيعة ٤٢ .

ولزم امر دخول الرجعة فى التشيع ان تسند بالقرآن وبالادلة العقلية فانبرى الصدوق القمى من اوائل علماء الاثنا عشرية يقول « اعتقادنا فى الرجعة انها حق ، وقد قال الله تعالى : لم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت فقال لهم : موتوا ، ثم احياهم (١٤١) أو : كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها فقال : انى يحيى هذه الله بعد موتها فاماته الله مائة عام ثم بعثه (١٤٢) ويشير الى احياء عيسى للموتى فيقول : « فجميع الذين احياهم عيسى باذن الله رجعوا الى الدنيا وبقوا فيها ثم ماتوا باجلهم » (١٤٣) . واورد على بن ابراهيم فى تفسيره ان تأويل الآية : ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد (١٤٤) يؤدى الى معنى الرجعة وان محمدا الباقر (الامام الخامس) « قد اخبر ان جابرا قد كان يعرف تأويل هذه الآية » (١٤٥) ، واورد ايضا ان الآية : ربنا امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين (١٤٦) تنصرف الى الرجعة على قول جعفر الصادق (١٤٧) ، وهذا كله يستدعى ان يكون للناس قيامتان : صغرى وهى الرجعة وكبرى وهى القيامة النهائية وذلك هو معنى الرجعة المتطور وسرى ان بعض الصوفية يوافقون عليه كلية .

ثم ينقل على بن ابراهيم عن جعفر الصادق انه فسر الآية : ويوم نحشر من كل امة فوجا ، انها نزلت فى الرجعة ودلل على ذلك بقوله : « ايحشر الله فى القيامة من كل امة فوجا ويدع الباقيين ؟ انما آية القيامة قوله : وحشرناهم

-
- (١٤١) البقرة : ٢٤٣ .
 - (١٤٢) البقرة : ٢٦١ .
 - (١٤٣) اعتقادات الصدوق ٢٠ .
 - (١٤٤) القصص ٨٥ .
 - (١٤٥) تفسير على بن ابراهيم ٤٩٣ .
 - (١٤٦) هود : ١١ .
 - (١٤٧) تفسير على بن ابراهيم ٥٨٣ .

فلم تغادر منهم احدا» (١٤٨) وقال الصادق « فهذا مما يكون اذا رجعوا الى الدنيا » (١٤٩) فى مدلول الآية : وعدا الله الذين آمنوا منكم وعمسوا الصالحات ليستخلفنكم فى الارض كما استخلف من قبلكم وليمكن لهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا (١٥٠) .

ثم يضيف الشيعة الى الرجعة قيدا اخر ، وذلك ان كل قرية عذبها الله لاترجع فى الرجعة وأما فى القيامة فيرجعون» (١٥١) مصداقا للآية : وحرام على قرية اهلكتها انهم لا يرجعون (١٥٢) . بل انا نستطيع ان نجسد فكرة الرجعة على هيئتها المتطورة فى كلام على فى صورة عميقة قد تكون هى سبب نحله وذلك انه ورد فى نهج البلاغة ان عليا « لما اظفره الله باصحاب الجمل - وقد قال له بعض اصحابه : وددت ان اخى فلانا كان شاهدا ليرى ما نصرك الله به على اعدائك - قال عليه السلام : أهوى اخيك معنا؟ فقال نعم قال : فقد شهدنا» (١٥٣) ولعل الامام يشير الى الآية : ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون (١٤٤) ، ولكن الخبر يتسوجه الى الرجعة بكل ما فيها من عبرة وعمق ، بل ان بقية الخبر تفذ الى اغوار بعيدة من فلسفة الرجعة وحكمتها ، فان الامام يقول : « ولقد شهدنا فى عسكرنا هذا اقوام فى اصلاب الرجال وارجام النساء سيرعف بهم الزمن ويقوى بهم الايمان » (١٥٤) . ومن ذلك يبدو ان عليا لا يكتفى بتقرير عودة الماضين فى الجهاد ليقطفوا ثمرة جهادهم بل يقرر ان المجاهدين الاتين يحضرون هذا

(١٤٨) الكهف ٤٥ .

(١٤٩) تفسير على بن ابراهيم ٢٢ .

(١٥٠) النور ٥٥ .

(١٥١) تفسير على بن ابراهيم ٢٢ .

(١٥٢) الانبياء ٩٥ .

(١٥٣) نهج البلاغة ١/٣٩ .

(١٥٤) ال عمران : ١٦٩ .

النصر ليزيد ذلك من ايدهم ويربط على قلوبهم وتلك امور فيها من الافلاطونية القديمة والحديثة مدخل كبير .

هذه نظرة بسيطة تدور حول المهديّة والرجعة سقناها لمناسبة عرضنا لمحمد بن الحنفية المهديّ الشيعي الاول ، وسرى المهديين يترون واحدا بعد الاخر حتى يغدو اسم المهدي شيئا عاديا يتسمى به الملوك والتائرون وان لم يدعوا انهم كذلك ، فقد دعى به سليمان بن عبدالمك في شعر الفرزدق وجريير واطلقه سليمان بن صرد على الحسين بن علي واطلقه حسان بن ثابت على النبي وكذلك الفرزدق ، بل اطلقه جريير على النبي ابراهيم (١٥٥) ، ودعى به زيد بن علي بن الحسين حين قال شاعرا الامويين بدمه :

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة ولم نر مهديا على الجذع يصلب (١٥٦)
وكان التائر الزيدي محمد بن عبدالله بن الحسن يلقب نفسه ، في كتبه ، بالمهدي ايضا (١٥٧) .

بل لقد تلقب به احد الخوارج وهو علي بن مهدي الذي استولى على اليمن سنة ٥٥٤ (١٥٨) .

لقد صدرت المهديّة والزهد عن جوهر واحد هو فساد المجتمع الاسلامي فقوم اعترلوا وانزروا وقوم تعلقوا بالامل واتجهوا بارواحهم الى فكرة الاصلاح عن طريق علوى يأخذ بالتأثر ويعيد الامور الى نصابها ، وقد نصح محمد بن الحنفية نفسه الخراساني الذي هدد بالزهد ان لم يخرج الامام داعيا الى نفسه بقوله : فلا تفعل ، فان تلك البدعة الرهبانية ، ولعمري لامر آل محمدا أبين من طلوع هذه الشمس» (١٥٩) ، ومن هنا ايضا نجد ان فكرة المهدي قد

(١٥٥) العقيدة والشريعة في الاسلام ٣٤١ .

(١٥٦) مروج الذهب ٢/١٨٣ .

(١٥٧) الطبري ، ليدين ، ٢٠٨/٣ .

(١٥٨) تاريخ اليمن ١١٨ .

(١٥٩) ابن سعد ٧٠/٥ .

دخلت التصوف بوصفها مكملة للزهد اذى يبعث عليه ثقل احتمال المسلم
 للامور الدنيوية التى اخذت فى الابتعاد عن طرازها الاسلامى واتجهت الاتجاه
 المادى • ولعله ليس من الغريب - بعد - ان تسبغ المهديّة على الحلاج الصوفى
 المقتول فى سبيل عقيدته وبخاصة انه كان معاصرا لاحد وكلاء المهدي الشيعى
 وانه كان يدعى بابيته كما سنرى فيما بعد • اما الرجعة فقد دخلت التصوف
 بكل تفاصيلها حتى مايتصل منها بالقيامة الصغرى والقيامة الكبرى وقد وجدنا
 ابن عربى يقول فى تفسير الحاقه : « هى الساعة الواجبة الوقوع التى لاريب
 فيها ان اريد بها القيامة الصغرى » (١٦٠) ويسمى النبأ العظيم القيامة
 الكبرى « (١٦١) • وقد وضع الترمذى المتوفى سنة
 نفسه ، فى كتبه ، بالمهدى ايضا (١٦١) • وقد وضع الترمذى المتوفى سنة
 ٨٠٣/٢٨٩ مائة وخمسة وخمسين سؤالاً يشتم منها وصل التشيع بالتصوف
 ومنها ما يتعلق بختم الاولياء (١٦٢) ، اى مهدى الصوفية ، والكلام فى ذلك
 كثير ونكتفى بهذه الاشارة الان ولكننا نقتصر هذه الفرصة فقرر فى غير
 تردد بان معظم آراء الشيعة فى المهدي قد انتقلت الى الصوفية فصاغوها صياغة
 ثلاثم مشربهم مع ما عرف عنهم من ميل الى التعقيد ولكنهم لم يخرجوا بالفكرة
 عن جوهرها •

الكيسانية

تنسب الكيسانية - كما يبدو من لفظها - الى كيسان ، وقد اختلف
 اصحاب كتب الفرق فى : من يكون ، والنظرة الفاحصة تنهى الى انه كيسان
 مولى بجيلة : القبيلة التى ستعرف فيما بعد بتبنيها الظاهر لحرارة الغلو الشيعى ،

(١٦٠) تفسير ابن عربى ١٦٩/٢ •

(١٦١) تفسير ابن عربى ١٨٤/٢ •

(١٦٢) الفتوحات المكية ٦٣/٢ •

وقد اخبرنا ابن سعد بانه كان من اعوان المختار وممن شهدوا بان محمد بن الحنفية قد بعث بكتاب الى ابراهيم بن الاشرع يأمره فيه بنصرة المختار (١٦٣) وقد اخذ على المختار انه استعان بابي عمرة الذي هو كيسان وقالوا : « قد جاوره ابو عمرة » (١٦٤) . واستقراء الاخبار الواردة في كيسان يبين انه كان ذا صلة بعلي بن ابي طالب وانه غضب لقتل الحسين واغرى المختار بالطلب بدمه وانه دله على قتلته (١٦٥) . وبهذا لا يكون المختار مؤسسا للكيسانية وانما كان معاصرا لبدايتها لانها نضجت - في الواقع - بعد موت محمد بن الحنفية . ومما يدل على ذلك انه قد نسب الى ابي هاشم بن محمد بن الحنفية ما نسب لكيسان من ان كليهما كان له بصر بالاسرار بجملتها من علم التأويل والباطن وعلم الافاق والانفس (١٦٦) اخذا عن محمد بن الحنفية عن علي ابن ابي طالب . ولذلك فان الاساس الاول للكيسانية لا بد ان يكون مهدية محمد بن الحنفية او رجعته على الصحيح . وقد كانت الكيسانية اصلا لكل الافكار الغالية فيما بعد وبخاصة انها تشترك مع دعاة الغلو في كونها من قبيلة واحدة هي بجيلة او عجل - في بعض الاحيان - ولذلك وجدنا كتب الفرق طافحة بالاخبار التي تلقي افكار الغلو حتى المتأخرة منها على عاتق الكيسانية فقد نسب الى الكيسانية قولها بان الدين طاعة رجل وبان الاركان الشرعية كالصلاة والصيام والزكاة والحج انما هي في الواقع كنايات عن رجال معينين وانها قالت بالتناسخ والحلول (١٦٦) . والواقع ان هذه الافكار متأخرة كما يبدو ذلك مما يرويه التوبختي (١٦٧) وسيمر بنا تفصيله في فصل الغلاة .

وعلينا ان نذكر ايضا ان الكيسانية موصولة بالسبئية ايضا ويبدو ذلك من

(١٦٣) طبقات ابن سعد ٧٢/٥ .

(١٦٤) الاخبار الطوال ٢٦٠ .

(١٦٥) فرق الشيعة ٢٣ .

(١٦٦) الملل والنحل ١/٢٣٦ ، ٢٤٣ .

(١٦٧) فرق الشيعة ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٣ .

اتفاق الفرقتين على تبنى فكرة الحقد على اعداء على (١٦٨) . وقد بدأت
الكيسانية عرفا صار اساسا للشيعة الغلاة فيما بعد وذلك انها قد جعلت الامامة
مقاما ساميا يكاد يكون منفصلا عن الحياة الواقعية اما الدعوة والعقيدة والتأويل
والفقه فكلها متصلة بصاحب الفرقة الذي هو في الاغلب من الموالى وهذا تفسير ما
يورده النوبختي من ان : « الكيسانية كلها لا امام لها وانما ينتظرون
الموتى » (١٦٩) . وهذا يعنى ان الامام كان قائدا فخريا في حياته لا يستطيع
ان يعترض على ما ينسبونه اليه واذا فعل فان صوته لا يصل اسماع المريدين
لبعد عنهم ، فتبقى القيادة في حياته في يد اصحاب الدعوة وتبقى كذلك
بعد موته حين توصل المهديّة والرجعة به بل ربما اعتبرها كما يروى لنا
النوبختي (١٧٠) وتلك خطة ظاهرة الجوهر لاتخفى على اللبيب . اما بعد
فاننا لم ندخل في مناقشات كان في امكاننا اثارها حول اصل الكيسانية وجوهرها
وما اضيف اليها ، غير اننا في مجال تعريف وتجميع مثل الشيعة ، ولهذا فان
علينا ان نسلك سبيل الاختصار المركز . وقد كانت العقيدة الاساس للكيسانية
دائرة حول مهديّة محمد بن الحنفية ورجعته يضاف الى ذلك تبنيتها للافكار
السبئية الدائرة حول الحقد على سابقى على وغاصبى حقه . وقد كان لابي
هاشم بن محمد بن الحنفية مكان ومقام في مباشرة الامامة الفعلية كما يريدنا
الناس الموالون للائمة وكان ذا اثر فعال في غرس العقائد الشيعة الجديدة
ولذلك يحسن بنا ان نفرّد له فصلا ولو صغيرا في هذا البحث .

ورث ابو هاشم مقام ابيه وياشر الامامة مباشرة لم نجدنا عند الائمة
السابقين ، ويحدثنا ابو الفرج الاصفهاني انه « كان لسنا خصما عالما وكان
وصى ابيه » (١٧١) ويبدو انه كان يدعى الاطلاع على علم الباطن الذي نفاه

-
- (١٦٨) فرق الشيعة ٢٣
 - (١٦٩) فرق الشيعة ٣٦
 - (١٧٠) فرق الشيعة ٢٨
 - (١٧١) مقاتل الطالبين ١٢٦

أبوه عن نفسه ويبدو ذلك من اخبار السفاح اصحابه انه سيموت بعد ثلاثة ايام لمجرد علمه ان ابا هاشم حدد تاريخ وفاته بقدم وافدين احدهما من السنن والاخر من افريقيا (١٧١) وهكذا تعود نبؤات على ومن قبله النبي (ص) بعد ان اخفت ايام الحسن والحسين . ثم تبدو من ابي هاشم ظاهرة اخرى هي انه قد اتفت الى خطورة الاعداد والتفت الى سريتها فاشار على محمد بن علي بن عبدالله بن العباس زميله في جهاد الامويين ان يختار دعائه « فليكونوا اثني عشر نقيبا فان الله عزوجل لم يصلح بني اسرائيل الا بهم وسبعين نفرا يتلونهم . فان النبي انما اتخذ اثني عشر نقيبا من الانصار اتباعا لذلك، (١٧٢) . يضاف الى ذلك انه اول من أثار الانتباه الى فكرة تجديد الدين على رأس كل مائة سنة بقوله : « لم يمض مائة سنة من نبوة قط الا انقضت امورها لقول الله عز وجل : او كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها فقال : اني يحيي هذه الله بعد موتها ، فاماته الله مائة عام ثم بعثه (١٧٣) ، فاذا دخلت سنة مائة فابعث رسلك ودعاتك فان الله متمم امرك، (١٧٤) . وقد فعل ذلك محمد فعلا (١٧٥) . وقد صارت هذه الملاحظة سببا في ميلاد فكرة جديدة هي فكرة الاسماعيلية الباطنية التي سارت في الشوط الى نهايته فوقت انتهاء النبوة نفسها في مائة سنة وكان الاصل فكرة ابي هاشم . ويجب ان نلتفت الى ما يعكسه هذا النص من اتصال بفكرة الرجعة التي قال بها الكيسانية

(١٧٢) تاريخ اليعقوبي ٩٨/٣ .

(١٧٣) البقرة ٢٥٩ .

(١٧٤) ذكر ابن سعد النقباء بروايته عن النبي انه « قال للنفر الذين لقوه

بالعقبة : اخرجوا الى اثني عشر منكم » يكونوا (كذا) كفلاء على

قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى بن مريم ، فأخرجوا اثني عشر

رجلا » وأنه قال للنقباء : « انتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين

لعيسى بن مريم وانا كفيل قومي ، قالوا : نعم » (طبقات ابن

سعد ٣ : ٢ / ١٣٤) .

(١٧٥) العبر ١٠٠/٣ .

الاولون ثم يسير ابو هاشم بالامامة الشيعية خطوة اخرى باضافة اتباعه اليه ان
اباه « افضى اليه اسرار العلوم واطلعه على مناهج تطبيق الافاق على الانفس
وتقدير التنزيل على التاويل وتصوير الظاهر على الباطن » (١٧٦) وفي ذلك
اشارة الى الاية : سريهم آياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه
الحق (١٧٧) ، والى الاية : وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في
العلم (١٧٨) . وينقل لنا الشهرستاني تفسير ذلك بقوله نقلنا عن اصحاب ابي
هاشم : « ان لكل ظاهر باطنا ولكل شخص روحا ولكل تنزيل تأويلا ولكل
مثال في العالم حقيقة ، والمنتشر في الافاق من الحكم والاسرار مجتمع في
الشخص الانساني وهو العلم الذي استأثر به على عليه السلام ثم ابنه محمد بن
الحنفية ، وهو افضى ذلك السر الى ابنه ابي هاشم - وكل من اجتمع فيه هذا
العلم فهو الامام حقا » (١٧٩) وهذه نقطة مهمة تبينها الى حقيقة اجلنا جلاها الى هذه
الفرصة فلقد كانت امامة محمد بن الحنفية ثورة على المبدأ الشيعي الذي حصرها
في أهل البيت اى اهل بيت النبي في الدرجة الاولى الذين هم ابناء على مسن
فاطمة التي تسبغ عليهم هذا الوصف . اما ان الحنفية فقد كان علويا فقط لان
امه حنفية يمانية وليست فاطمة بنت محمد ، وقد جر ذلك الى القول بان
الامامة انما تتقيد بالعلم الالهى الاتى من على عن النبي لا من صلة الدم والنسب
المتصلة بالنبي وهكذا رأينا ابن الحنفية وابنه ابا هاشم يوصفان بالاطلاع على
العلم السرى الذى اخذه على عن النبي . والمهم ان نلاحظ هنا ان هذا التفريط
في حد الامامة قد جر الى اسباغها على العباسيين الذين حالفهم ابو هاشم ثم
رأيناها - كما سيتضح لنا - تنتقل الى نسل عبدالله بن جعفر ابن عم على بن ابي
طالب ثم تخرج على صورة نبوة تتجه الى الهية الائمة يدعيها قوم ليسوا علويين

(١٧٦) الملل والنحل ١/ ٢٤٣ .

(١٧٧) فصلت : ٥٤ .

(١٧٨) آل عمران ٧١ .

(١٧٩) الملل والنحل ١/ ٢٤٣ .

على الاطلاق ولا قرشين بل كثيرا ما كانوا من غير المررب . وقد دخلت الافكار التي اضيفت الى ابى هاشم فى التصوف بعد ذلك وصار الظاهر والباطن والتنزيل والتأويل من الاسس التي اقام التصوف عليها عقيدته ، ومن ذلك يتبين ما بين التشيع والتصوف من علاقة وثيقة فى اعرق الاصول . ومات ابو هاشم سنة ١٦٠٩٧/٧١٥-١٦ فعاد مهديا منتظرا عند جماعة من انصاره فاستأثر حلفاؤه العباسيون بالدعوة وجنوا ثمارها وسرى كيف عالج الشيعة هذه النقطة .

الفصل الثالث

الغلو والغلاة

مر بنا فيما مضى طرف من بدايات الافكار الغالية ، وهذا الفصل خاص بالغلو واصوله وما يتصل به . فاما الغلو لغة فهو - فى رأى الشيخ المفيد - « التجاوز عن الحد والخروج عن القصد »^(١) ، واما اصطلاحا فينصرف الى « الذين غلوا فى حق أئمتهم حتى اخرجوهم من حدود الخلقية وحكموا فيهم باحكام الالهية فرميا شبهوا واحدا من الائمة بالاله وربما شبهوا الاله بالخلق »^(٢) ، هذا رأى الشهرستاني ، والشيخ المفيد يوافقه ايضا . واما علة الغلو فتصرف الى العامل النفسى انذى انعكس من تفریط اهل الكوفة فى حق على حتى ذهب ضحية عصيانهم ، فكان ان اسرف الكوفيون فى حبه وفى كره اعدائه حتى غلوا فى كليهما . وقد وافق الدكتور طه حسين على ذلك وعلل الغلو بانه « عزاء عما قدموا اليه من الاساعة ايام حياته »^(٣) واطاف الى هذا سببا آخر هو الاضطهاد الذى فتح عيون الكوفيين على البون الشاسع بين سياسة على وسياسة اعدائه الامويين لهم . اما احمد امين فانه يسرع فى القول بان للموالى ضلعا فى الغلو لانضمامهم الى حركة التشيع^(٤) . اما الدكتور الوردى فيعضد رأى الدكتور طه حسين ويلاحظ ان العراقيين « لم يغالوا فى حب محمد كما غالوا فى حب على ، ومرد ذلك ان حب محمد لم يكن محرما

(١) تصحيح الاعتقاد ٢١٧ .

(٢) الملل والنحل ١/٢٨٨ .

(٣) على وبنوه ١٨٨ .

(٤) ضحى الاسلام ٣/١٧٧ .

عليهم فقد كان حکامهم يشتركون معهم فيه»^(٥) ولاحظ امرا آخر هو :
 وان النفس البشرية تهوى الايمان بدين ، فاذا فقدت دينا جاءها من السماء
 التمسست لها دينا يأتيها من الارض»^(٦) ، فعاد ملاك الغلو الى الندم والحب
 ومقاساة الاضطهاد . وقد التفت - قبل هؤلاء جميعا - خصم من خصوم
 الشيعة هو هشام بن عبد الملك الى جوهر الغلو وصدوره عن الحب الزائد فكتب
 الى يوسف بن عمر واليه على العراق : « أما بعد فقد علمت بحال اهل
 الكوفة في حبه اهل هذا البيت ووضعهم اياهم في غير مواضعهم لانهم افترضوا
 على انفسهم طاعتهم ووظفوا عليهم شرائع دينهم ونحلوهم علم ما هو كائن»^(٧) .

اما بداية الغلو فيلزم ان تكون من السبئية انصار حجر بن عدى الذين
 قتلوا جزاء تكفيرهم الخليفة وسبهم عثمان وحبهم لعلى وامتناعهم عن البراءة
 منه ، ولم يغير قتل هؤلاء من طبيعة الكوفيين بل زادهم اندفاعا الى هذه الفكرة
 وعكوبا عليها . ثم جاء المختار فشجع افكار السبئية وكانوا في جيشه على
 التحقيق فظهرت هذه المثل من جديد وساعد محمد بن الحنفية في بعده عن
 المعتزك السياسى وحصر ابن الزبير وعبد الملك ابن مروان له وحيلولتهم دون
 اتصاله بانصار ابيه فزاد ذلك من اندفاع الكوفيين الى اضافة الامتياز الروحى
 والعلم اللدنى والصفات الالهية الى الائمة الذين زادهم بعدهم عن انصارهم
 وجور منافسيهم سموا على سمو ، ثم جاء ابو هاشم فسار سيرة على في تنبؤ
 وتعلقه بالعلم السرى وقوله بان لكل ظاهر باطنا . وقد رأينا ان كون محمد بن
 الحنفية وابنه ابى هاشم من نسل على من غير فاطمة قد جراً العباسيين ابناء عم
 النبى على ادعاء الحق الالهى ثم عاد الامر - قبل انتصار العباسيين - الى دوران
 هذا الحق حول نسل عبدالله بن جعفر بن ابى طالب ثم خرج الامر من

-
- (٥) مهزلة العقل البشرى ٨٧ .
 (٦) وعاظ السلاطين ٤٠٠ .
 (٧) الطبرى ٢٦٥/٨ .

العلويين والطالبيين والهاشميين وعاد بالاسم الى العلويين ولكنه كان فى الواقع قد تحول الى اقوام ليس بينهم وبين قریش لحمة ولاسدى • والواقع ان بداية الغلو المنظم كانت بعد وفاة ابي هاشم سنة ٩٧/٧١٥-١٦ ووصيته لمحمد بن على بن عبدالله بن العباس ان يظهر دعوته سنة ١٠٠/٧١٨-١٩ اى بمقد انقضاء قرن كامل على الاسلام مما يدعو الى تجديده كما مر بنا :

بيان بن سميعان النهدي (المقتول سنة ١١٩/٧٣٧) :

أحدث موت ابي هاشم انقساماً فى التشيع ، فادعى محمد بن على بن عبدالله بن العباسى انه الامام ^(٨) وادعى عبدالله بن الحارث — وهو من اهل المدائن — ان الامامة قد انتقلت الى عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر (المتوفى سنة ١٣٠/٧٤٧-٤٨) ^(٩) ، وادعى كلا الفريقين ان ابا هاشم نفسه قد اوصى بما ادعياه • اما بيان فقد انكر كلتا الدعويين وزعم ان ابا هاشم مهدى كبيه وانه لم يوص لاحد وجعل من نفسه رئيساً لهذا الفريق من الثابتين على امامة ابي هاشم ، ولكنه من ناحية اخرى نصب نفسه وصياً على امامة ابي هاشم بنص الهى هو الآية : « هذا بيان للناس وهدى » ^(١٠) فبدأت بذلك اولى الحركات الغالية فى الكوفة لان كلتا الحركتين المستنديتين الى وصية ابي هاشم متأخرة عن حركة بيان • وقد خلط الشهرستاني بين عقيدة بيان والسبئية المتقدمة والحارثية المتأخرة ونسب اليه القول بالتناسخ مع انه قد تسلمح بآية من القرآن مرت بنا

(٨) فرق الشيعة ٣٣ •

(٩) فرق الشيعة ٣٢ ، مقالات الاسلاميين ٧/١ •

(١٠) فرق الشيعة ٣٤ والاية فى سورة آل عمران ١٣٨ •

وسيقول ابراهيم الدسوقي بنحو ذلك • فقد قال للشرنوبى : « من كراماتنا يا احمد ان الله قال : قل يا ابراهيم : انا الله ، ولا تخف (عن كتاب الغيوب للشرنوبى مخطوط رقم Or. 3684 بالمتحف البريطانى فى لندن ، هامش الورقة ٧٨ ب) » •

فلم يحتج الى التناسخ الذى سيرد بعدئذ (١١) . وقد التفت الدكتور جابر عبدالعال الى ذلك ولاحظ ان بيانا قد رسم للغلاة من بعده «الموسيلة التى يخدعون بها الناس ويعتمدون عليها فى تنصيب انفسهم دعاة وقادة وجبت طاعتهم» (١٢) .

اما عقيدة بيان الرئيسة فهى التجسيم الذى سيكون مبدأ مشتركاً بين جميع فرق الغلاة وذلك انه اعتمد فى التجسيم على آية اخرى من القرآن هى «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام» (١٣) . ويجب ان نبين ان العلة فى اجتماع الغلاة على التجسيم هو انهم قد ركزوا همهم فى الارتفاع بالانسان مرة حتى يصير الها والنزول بالاله حتى يصير انساناً . فعقيدتهم فى جدلهم النساعد وانازل تعتمد على اله وانسان وكلها تدور حول الارتفاع بهذا الانسان ، فحاجتهم الى التجسيم اشد من حاجتهم الى التجريد ، فهم لا يستطيعون تجريد المادة الحية السائرة الاكلة الشاربة وانما يستطيعون ان يجسموا المجرد لتقريب فكرة تأليه الانسان ، وذلك ما صنعه المتصوفة فى صعودهم الى الالهية واحلال الالهية فى محل الانسان . فكأن بيانا اصل واضح من اصول الحلول الذى اتضح فى التصوف ابتداء من القرن الرابع .

وقد استند بيان الى آراء ابى هاشم حول انقضاء النبوة بعد قرن من الزمان فورد عنه « انه نسخ بعض شريعة محمد » (١٤) وهذه استمرارية لتلك الفكرة لن تلبث ان تكون اساساً يقيم عليه اصحاب المذهب الاسماعيلية عقيدتهم بعد ثلاثين سنة . وقد كان من اصرار بيان على عقيدته انه دعا الامام

(١١) ويروى السمعاني (الانساب ورقة ١٧٣ ب) وابن الاثير (اللباب ٣١٢/١) ان اصحاب بيان بن سمان من الحلوليين وان روح

الاله انتقلت من آل هاشم الى بيان بن سمان .

(١٢) حركات الشيعة المتطرفين ٣٣٦ .

(١٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٥٧ . والاية فى سورة الرحمن ٢٧ .

(١٤) مختصر الفرق بين الفرق ١٤٥ .

محمد الباقر الى الدخول في دعوته وخطبه بعبارة : «وقد اعذر من انذر» (١٥) وذلك بين الى اى مدى كان محمد بن الحنفية وابنه ابو هاشم متمكنين من قلوب فريق من الكوفيين • وقد انتهت حركة بيان بقتله سنة ١١٩/٧٣٧ احراقا ايام خالد بن عبدالله القسرى وشاركه مصيره صائد النهدي واتباعه •

المغيرة بن سعيد البجلي المقتول سنة ١١٩/٧٣٧ (١٦) :

ودخل المغيرة ميدان الغلو بمظهر جديد هو الاعتراف بامامة محمد الباقر مع تبرؤ الامام منه (١٧) ولما توفى صرف دعوته الى امامة محمد بن الحسن وزعم انه الامام الى ان يظهر المهدي (١٨) ويعنى به محمد بن عبدالله بن الحسن ، فيكون المغيرة بذلك قد جعل نفسه اماما وان يكن موقتا وتلك سابقة خطيرة جدا لم يجرؤ احد غير المغيرة على ان يصرح بها ولصل الولاية الصوفية التي هى فى موازاة الامامة الشيعية موصولة - ولو جزئيا - بهذا الادعاء • وقد ظهر المهدي وقتل غير ان انصار المغيرة لم يعترفوا بقتله وزعموا ان «الذى قتل فى صورة محمد انما كان شيطانا» (١٩) • ولعلنا ندرك ان الاصرار على مهدية الائمة يقصد به ابقاء الحركة فى يد اصحابها واطلاق يدهم فى سياسة اتباعهم السياسة التي يرتضونها • وكان المغيرة مجسما شأن الغلاة ولكنه سار بالتجسس الى هدف واضح وذلك انه جعل لله اعضاء على عدد حروف الهجاء وهيئتها (٢٠) فكانه يريد ان يقول ان الوحي انما هو نزول الله نفسه الى النبي او الامام وان كل كلمة يتلقاها انما هى حلول يستمر باستمرار الوحي • وتبدأ فكرة تطبيق اسم الله الاعظم فى المغيرية ايضا وذلك

-
- (١٥) فرق الشيعة ٣٤ ، الملل والنحل ١/٢٤٦ •
 (١٦) يرى ابن الاثير انه قتل سنة ١٥٤ •
 (١٧) لسان الميزان ٦/٧٥ •
 (١٨) فرق الشيعة ٦٣ •
 (١٩) المصدر نفسه ٥٤ •
 (٢٠) مختصر الفرق بين الفرق ٢٥ •

ان المغيرة يرى « ان الله لما اراد ان يخلق تكلم باسمه الاعظم » (٢١) فكان اسم الله الاعظم هو مفتاح الخلق وكان معرفته تتيح لعارفه القدرة الالهية ، وتلك فكرة دخلت التصوف وقد رأينا كثيرين من الصوفية مطلعين على اسم الله الاعظم وقادرين على اتيان الكرامات وذلك امر واضح الصلة بالتشيع الغالى . وقد ظهر من المغيرة امر سيكون له شأن كبير عند الشيعة وذلك انهم ساروا فى التأويل سيرا جديدا بالفتاهم الى دعم الامامة بايات من القرآن ، فاولوها بالامانة الواردة فى الآية : ان الله يأمركم ان تردوا الامانات الى اهلها (٢٢) والآية : انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا (٢٣) واولوا الظلوم الجهول بانه غاصب حق الامام (٢٤) وقد وافق على ذلك الشيعة المعتدلون ايضا كما فى تفسير على بن ابراهيم (٢٥) وهكذا يبدأ التأويل الموجه يندخل التصوف من التشيع بعد ذلك .

وعاد بعقيدة المغيرة دور سلمان الفارسى من جديد وذلك ان الاعمش «قد سمع المغيرة يفضل عليا على آدم وسائر الانبياء وساواه بمحمد (ص)» (٢٦) فقد كان سلمان يعرف لعلى حقه وللنبي نبوته وهذا المغيرة يعبر عن نفس المعنى الذى اوردناه عن سلمان ومن ذلك يتضح ان الالهية لم تدر حتى الان حول امام من الائمة وانما هى روحانية وتقديس على عكس ما يورده اصحاب كتب الفرق . وكان المغيرة الى ذلك فد التفت لاول مرة الى خطر الاعضاء:

-
- (٢١) حركات الشيعة المتطرفين ٣٧ .
 - (٢٢) النساء ٥٨ .
 - (٢٣) الاحزاب ٧٢ .
 - (٢٤) مختصر الفرق بين الفرق ١٤٧-٨ .
 - (٢٥) تفسير على بن ابراهيم ٥٣٥ .
 - (٢٦) حركات الشيعة المتطرفين ٣٧ .

«فخرج داعيا الى عقيدته فى سبعة نفر وكانوا يدعون الوصفاء وكان خروجهم بظهر الكوفة» (٢٧) ، وسيقول ابو منصور - وهو غال آخر : « يتولى سبعة انبياء من قريش وسبعة من بنى عجل » (٢٨) ثم سيستند الاسماعيلية الى ساعات الانبياء الظاهرين والمستورين .

ويستتبع هذا كله ان يكون للمغيرة بصر بالسحر والثيرنجات ، فقد روى عنه الاعمش انه علم بان خادمه قد ذهب يشتري سمكا بدرهمين وكان يقول : « لو اردت ان احببى عادا او ثمود او قرونا بين ذلك كثيرا لاحتيتهم » (٢٩) ، ويروى ابن رسته ان ذلك قول على (٣٠) . وكان يخرج الى المقبرة فيتكلم فيرى مثل الجراد على القبور (٣١) . وقد ذكر الكشى - رواية عن الامام الصادق - انه تعلم ذلك من يهودية كان يختلف اليها (٣٢) . وكل هذه الكلمات والصفات تذكرنا بالحلاج فى بصره بالسحر وفى الحلول الذى كان يدعيه وفى شطحاته وكراماته ، ولكن المغيرة لم يكن سالكا ولم تأت قدرته تلك من المجاهدة بل من العلم والتبحر حتى توصل الى معرفة اسم الله الاعظم الذى كان بداية الطريق بالنسبة للمتصوفة . كما كانت الكيمياء وسيلة اخرى للتوصل الى السمو الروحى وقد رأينا ذلك فى جابر بن حيان وصلته بذى النون المصرى والان نجد اسم الله الاعظم مقترنا بابراهيم ابن ادهم المتوفى سنة ٧٧٨/٧٩ - ١٦٢ . وقد جاء فى طبقات الصوفية ان الخضر قد علمه سره (٣٣) وتلك صلة من الصوفية بالمغيرة . والاعجب من ذلك ان ابا نعيم

-
- (٢٧) الطبرى ٨/ ٢٤١ .
(٢٨) البلدان للهمدانى ١٨٥ «طبع ليدن» .
(٢٩) الطبرى ٨/ ٢٤٠-٤١ .
(٣٠) الاعلاق النفيسة ٢١٨ .
(٣١) الطبرى ٨/ ٢٤٠-١ .
(٣٢) معرفة اخبار الرجال ١٤٧ .
(٣٣) طبقات الصوفية ٣٠ .

يصل نسب ابراهيم بن ادهم بنى عجل (٣٤) الذين احترفوا تأسيس فرق الشيعة الغالية في الكوفة . ونحن مسوقون الان الى ان نقرر - ونحن في لب الصلة بين التشيع الغالى والتصوف - ان هدف الدعويين واحد ، فقد استغل رؤساء مدرسة الغلو حركتهم للسمو بانفسهم عن طريق الوصية والعلم الباطن حتى ارتفعوا الى مرتبة النبوة والالهية وارتفع المتصوفة بانفسهم بالمجاهدة واحيانا بالعلم السرى الى نفس المقام . والحقيقة ان للغلو والتصوف هدفا مشتركا هو ان يكون للانسان موضع قدم في الالهية وتصريف شؤون الدين والدنيا بقدرة غيبية ، وهذا هو السبب الذى من اجله رفع الائمة اولا الى الالهية وارتفع رؤساء مدارس الغلو الى النبوة ثم استقلوا فارفعوا الى الالهية بانفسهم ، والتصوف يهدف الى هذه النتيجة وقد ادعاها بعضهم فعلا ، وكانت القدوة او السابقة على الاقل من غلاة الشيعة . ويجب ان نشير الى ان اصحاب الغلو طبقة جديدة في الاسلام مادتها الناس ممن سلبتهم الدولة اراضيهم او صادرت حوائثهم او ابتزت اموالهم سدادا للضرائب او عقوبة لهم على مناصرتهم لاهل بيت النبى وكان اغلبهم من الموالى كما رأينا فى جيش المختار واتباع الغلاة من بعده وسنرى فى باب التصوف ان معتقيه من الزهاد والمتصوفة فيما بعد يشكلون طبقة تطابق الى حد بعيد مادة معتقى الغلو من الناس .

اما بعد فقد تعرض فريد لندر لاصول مذهب المغيرة فرأى انه يصور مزيجا من الديانات الشرقية القديمة ويدل فى جلاء على انه تأثر بالقنوصية وخاصة الماندية والمانوية . وقد لاحظ. فريد لندر أن العراق كان مقرا لكثير من المانديين (٣٥) ، وسواء اصح ذلك ام لم يصح فان المغيرة ومعاصره وزميله

(٣٤) حلبة الاولياء ٣٧٣/٧ .
وكان اول من اورد ذلك ابن قتيبة (المتوفى سنة ٢٧٦/٨٨٩) فى عيون

الاخبار ٣٣٠/٢ .

(٣٥) حركات الشيعة المتطرفين ٣٩ .

فى الغلو والمصير بياناً قد ربطا عقيدتهما ربطاً محكماً بما تأولاه من القرآن
سنداً لدعوتيهما فبدتاً وكأنهما فكرتان ذاتا اصالة وطابع خاص •

ابو منصور العجلي (المقتول سنة ١٢١/٧٣٨) :

وظهر ابو منصور بعد المغيرة وهو من ذات القبيلة ولكنه عربى ليس
مولى ، وقد اخبرنا النوبختى انه كان « من اهل الكوفة فى بنى عبد القيس » (٣٦)
وقد مر بنا انهم حالفوا الحمراء وكانوا يرون معا احقية على بن ابي
طالب (٣٧) ، وهذا يعنى انه تثقف بثقافة القبيلتين الشيعيتين وبخاصة الحمراء
على ما يبدو • وقد بدأ من ابي منصور اتجاه جديد هو قوله بمهدية
الباقر (٣٨) وادعى انه « فوض امره اليه وجعله وصيه من بعده » (٣٩) ،
وبذلك سار ابو منصور على نهج الغلاة من التعلق بمهدية امام يستطيعون بها
ان يجمعوا حولهم الانصار من جهة ويتصرفوا كما يحلو لهم دون خوف من
راقبة من جهة ثانية • وقد صرح ابو منصور بما كان يعتلج فى صدور سابقيه
من رغبة فى التصريح بالنبوة فقال بفكرة جديدة هى فى الاصل وثيقة الاتصال
بفكرة تجديد الدين جعلت تكرر مع كل فرقة غالبية فقد الغى اصطلاح الامامة
وجعلها نبوة وقال : « كان على بن ابي طالب (ع) نبيا ورسولا وكذا الحسن
والحسين وعلى بن الحسين ومحمد بن على » (٤٠) • ويلاحظ ان هؤلاء خمسة
من الانبياء - فى رأى ابي منصور - وقد سبقهم محمد (ص) وولاهم ابو
منصور نفسه وهو القائل : « وانا نبى والنبوة فى ستة من ولدى ويكونون بعدى
انبياء ، اخرها القائم » (٤٠) ، وهكذا نعود الى العدد : ١٢ الذى اشار اليه ابو

(٣٦) فرق الشيعة ٦٣ •

(٣٧) شخصيات قلقة فى الاسلام ٢٩ عن تاريخ بغداد ٧/٥٣ •

(٣٨) تلييس ابليس ١٠٣ •

(٣٩) فرق الشيعة ٣٨ •

(٤٠) نفس المصدر السابق ٣٨ •

هاشم ، ويلاحظ هنا ان المهدي مستقل عن هذا العدد . وقد عادت هذه النظرية الاثنا عشرية الى الشيعة الامامية فيما بعد وبذلك يرد دليل جديد على ان التشيع في صورته المتأخرة قد اعتمد على آراء الغلاة بعد تهذيبها وترتيبها . وتصلح فكرة ابي منصور ان تكون اساسا للاسماعيلية السبعية بوصفه سابع سبعة وبوصف ولده السادس سابع سبعة من العجلين . والملاحظ ان ابا منصور لم يعتمد على وصية من الباقر وانما سلك الى ذلك سيلا اقصر وذلك انه عرج الى السماء وجاء بالنبوة من الله وزعم ان الله مسح يده على رأسه وقال له : « يا بني بلغ عنى » (٤١) ، وتلك السابقة في اسقاط الواسطة التي نادى بها الصوفية فيما بعد وهى مسألة لتجسيم فيها دخل كبير وقد مر بنا انه امر جوهرى فى الغلو . وقد اوضح لنا ابو منصور نبوته بقوله : ان الله قال له : « يا بني بلغ عنى آية الكسف الساقط من السماء » (٤٢) ، وقد قال لاصحابه : « فى نزلت » ، وقد نقب بالكسف فعلا (٤٣) . وآية الكسف هى : وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا : سحاب مر كوم (٤٤) ، وقد فسر لنا ابو منصور هذه النبوة بزعمه ان « جبريل ياتيه بالوحى من عند الله وان الله بعث محمدا بالتنزيل وبعثه هو بالتأويل » (٤٥) ، وهذه ظاهرة جديدة هى مقدمة لخطوة غالية سترد فى المستقبل وهى الى ذلك اساس خطير من اساس التصوف الذى تبنى ازدواج دلالة آيات القرآن . ويجب ان نذكر هنا بان معروفا الكرخى سينسب اليه ما نسب الى ابي منصور من انفراده بالتأويل واختصاص الجواد الامام التاسع المتوفى سنة ٢٢٠/٨٣٤ بالظاهر والشريعة بعد ان توفى الرضا الذى كان جامعا للطريقة والشريعة . وعلمنا ان تتوقف هنا لنشير الى ظاهرة

(٤١) مختصر الفرق ١٥٢ ، ١٣٤ .

(٤٢) خطط المقرئى ٢/٢٥٣ ، مختصر الفرق ١٥٢ .

(٤٣) الاعلان النفيسة ٢١٨ .

(٤٤) الطور : ٤٤ .

(٤٥) فرق الشيعة ٣٨ .

جديدة دخلت التصوف من الغلو ونعنى بها المعراج ، فان كثيرا من المتصوفة المتأخرين قد عرجوا الى السماء - يزعمهم - وقالوا بالتشبيه حتى ان ابن قضيبة البان المتوفى سنة ١٠٤٠/١٦٣٠ يصف الله بانه على صورة محمد ولكنه من مادة باردة (٤٦) ، ومعراج النبي مشهور طبعا ولكن التجرؤ عليه بدأ من الغلاة فصاروا قدوة للمتصوفة . ولا بد من الاشارة الى ان الغلو لم ينصب في بدايته على اشخاص الائمة وانما استغرق اشخاص زعماء الغلو انفسهم نقلًا للإمامة اليهم عن امام شيعي ولا عبرة بنسبه ، اما الغلو الدائر حول تأليه الائمة فقد تأخر ودار اولا حول ابناء علي وانتهى اخيرا الى التوجه الى علي نفسه . وانتهت حركة ابي منصور بقتله سنة ١٢١/٧٣٩ في امارة يوسف بن عمر بعد ان سن لاتباعه استحلال خنق مخالفهم وكان ذلك عندهم الجهاد الخفي (٤٧) ولكن الحركة لم تمت بل استمرت في الكوفة بقيادة ابنه الحسين واخذت شكلا جديدا منعكسا من دعوة غالية جديدة نضجت في المشرق وكان اصلها كوفيا وسنرى ذلك فيما يلي .

عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر المتوفى سنة ١٣٠/٧٤٧-٤٨(٤٨)

مر بنا ان ابا هاشم قد اوصى بالامامة من بعده لعبدالله بن معاوية كما رأى جماعة من أهل الكوفة وقد ثار عبدالله في الكوفة سنة ١٢٦/٧٤٣-٤٤

(٤٦) الانسان الكامل في الاسلام ١٣٥ .

(٤٧) فرق الشيعة ٣٨ .

(٤٨) يثير «معاوية» اسم ابي عبدالله الدهشة لكونه الوحيد من العلويين والعباسيين المسمى بهذا الاسم الاموى . وقد اثار ذلك دهشة عامل ابي مسلم الخراساني على هراة حين لجأ اليه عبدالله في ختام حياته السياسية ، فكان جوابه : «ان جدى كان عند معاوية حين ولد ابنى ، فبعث اليه مائة الف (درهم) على ان يسمي ابنه باسمه » (العبر ٣/١٢٢) . ويبدو ان هذه القصة ملفقة بدليل انه كان لعبدالله اخ اسمه يزيد (الموضع نفسه) . ومما ينفي هذا التفسير انه كان لزيد الثائر بالكوفة سنة ١٢٦/٧٣٨ ولد سماه معاوية ايضا (العبر ٣/٩٨) .

أيام انقسام الامويين على انفسهم ولكنه لم يستطع الانتصار وانما سمح له بالانسحاب الى المكان الذى يختاره فنصحته اعوانه بالاتجاه الى فارس وبلاد المشرق (٤٩) فاختار المدائن (٥٠) . وقد استطاع عبدالله ان يؤسس ملكا عريضا انضوى تحت لوائه خصوم الامويين كلهم من العباسيين الى الخوارج بل لقد كان معه الامراء الامويون الغاضبون على مروان بن محمد (٥١) وكذلك الزيدية (٥٢) ونصره وحماء الموالي بكل قواهم (٥٣) . وكان الشيعة المواليون للعلويين يرون فى عبدالله بن معاوية رجلا قد كلف جمع الامر وتسليمه لاصحابه الشرعيين من نسل على وفاطمة (٥٤) . ويبدو ان عبدالله بن معاوية كان متساهلا فى امر العقيدة لايهمه الا توطيد امره والاكتار من انصاره ، وقد روى عنه انه استكتب عمارة بن حمزة استاذ بيان وصائد الغالين (٥٥) . وكان عمارة « احل جميع المحارم وقال : من عرف الامام فليصنع ما يشاء » (٥٥) ويروى ان عمارة هذا كان يأخذ البيعة لعبدالله بن معاوية ويقول للناس : بايعوا « على ما احببتم وكرهتم » (٥٥) ، وذلك - لو صح - دليل عجيب على تساهل عبدالله الذى يمكن ان يقوم تفسيرا لما دار حول دعوته من افكار غالية عجيبة . ويزيد الامر وضوحا ان المدائن التى نزلها اولاً واصطخر التى صارت عاصمة ملكه كانتا مهجرا لقبيلة عبدالقيس الشيعية (٥٧) التى خرج الغلو من بطونها وتلك امارة على ان الغلو لم يكن فارسيا فى جوهره وانما كان

-
- (٤٩) مقاتل الطالبين ص ١٦٥ .
 (٥٠) الفخرى ص ٩٩ .
 (٥١) الطبرى ٩/٩٤ .
 (٥٢) العبر ٣/١١٥ .
 (٥٣) مقاتل الطالبين ص ١٦٥ .
 (٥٤) فرق الشيعة ص ٣٥ .
 (٥٥) المصدر نفسه ص ٢٧-٨ .
 (٥٦) الطبرى ٩/٩٣ .
 (٥٧) شخصيات قلقة فى الاسلام ص ٢٩ .

للعرب من الشيعة المتعصبين لعلى الممثلين بالغيظ والحقد على الامويين دورهم الاساسى فى تبنيه عقيدة •

وقد ادى اشتهاار عبدالله بن معاوية بالتساهل الدينى الى اتهامه بمعارضة القرآن فى بيانه ونظمه (٥٨) كما نسب اليه ادعاؤه انه «يوحى اليه» (٥٩) اما ما عدا ذلك فقد نسب الى دعائه وحاشيته • واول ما ابتدعه اصحاب عبدالله ابن معاوية فكرة النور التى غطوا بها على ضعف حججهم فى الدعوة لامامته التى ينقصها النسب العلوى والنبوى وجعلوها امامة تقوم على الوراثة الروحية لا الطبيعية • وكانت الفكرة من ابتداع عبدالله بن الحارث - من اهل المدائن - وكان يرى « ان الله نور وهو فى عبدالله بن معاوية» (٦٠) • وتلقف انصاره الفكرة ونظموها وقالوا : « ان روح الاله دارت فى آدم ثم فى شيث ثم دارت فى الانبياء والائمة الى ان انتهت الى على • ثم دارت فى اولاده الثلاثة (ثالثهم محمد بن الحنفية) ثم صارت الى عبدالله بن معاوية» (٦١) • ولعلنا فى غنى عن الاشارة الى مافى هذه الفكرة من اتصال ظاهر بمبدأ الوراثة الروحية فى التصوف ، وسنبحث ذلك فى موضعه • وقد استندت فكرة النور بآى من القرآن وذلك واضح فى الآية : الله نور السموات والارض ، وآية : يهدى الله لنوره من يشاء اى يجعل نوره فى من يشاء ، وهذه الهداية نوع من الحلول مادام الله هو النور • وقد استغل غلاة الكوفة هذه الفكرة فيما بعد وساروا بها الى نهاية الشوط •

وقد خرج عبدالله بن الحارث ايضا بفكرة التناسخ والاطلة والدور

-
- (٥٨) حركات الشيعة المتطرفين ٦٩ •
 - (٥٩) الاغانى (نشر ساسى) ٧٥/١١ •
 - (٦٠) فرق الشيعة ٣٤ •
 - (٦١) مختصر الفرق بين الفرق ١٥٤ •

واسسها على مدلول الآية : فى أى صورة ما شاء ركبت (٦٢) وآية : وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم (٦٣) وقد ورد ذلك فى فرق الشيعة (٦٤) . واستندت هذه الفكرة الى الحديث : الارواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف (٦٥) . وتدور الفكرة حول انتقال الروح فى اجسام عديدة بحسب قربها وبعدها عن الخير ، فالكفار يطول تجسدهم فى اجساد الحيوانات المشوهة والمؤمنون يمتحنون بتركيبهم فى ابدان الدواب النزهة لكيلا يدخلهم العجب فتزول طاعتهم (٦٦) ، وفسروا الآية : حتى يلج الجمل فى سم الخياط (٦٧) بان الجمل الذى ولج سم الخياط يقصد به بقعة صغيرة لانها هى الجمل بنفسه متقمصا الروح التى حلت فى البقعة . ولايعنى التناسخ بقاء الروح فى بدن انسانى او حيوانى وانما هو الدور والتناوب ، ويقول التوبختى : فهذه حالهم ابد الابدن ودهر الداهرين : هذه قيامتهم وبعثهم وهذه جنتهم وناهم وهذه الرجعة عندهم : لا رجوع بعد الموت (لانه لاموت وانما هو تنقل للروح بين الابدان) والقوالب تفتنى وتتلانى ولا تعود ولا ترد ابدا « (٦٨) . هذا هو التناسخ والدور وهذا هو قلبه فى الاديان القديمة وان كان مسندا بالقرآن والحديث . وهكذا عاد التأويل الشيعى هادما عند الغلاة وكانت رسالة الشيعة الاولى حماية الاسلام من التأويل المصلحى الاموى . وقد اضيف الى هذه الفرقة القول بالاباحة على اعتبار انهم لا يعتقدون الثواب والعقاب ولا يؤمنون بالحساب ، والواقع ان ذلك

(٦٢) الانفطار : ٨ .

(٦٣) الانعام : ٣٨ .

(٦٤) فرق الشيعة ٣٧ .

(٦٥) نفس المصدر السابق ٣٩ .

(٦٦) نفس المصدر السابق ٤٠ .

(٦٧) الاعراف ٤٠ .

(٦٨) فرق الشيعة ٤١ .

غير وارد لان حلول الروح فى الجسد المشوه سواء اكان انسانيا ام حيوانيا هو فى نفسه عقاب وحلولها فى بدن انسان فاضل ثواب وانصاف • ويؤخذ من استقراء مثل هذه الفرقة انهم يقيدون الزهد ولا يؤمنون به لان الغنى - حسب عقيدتهم - ثواب من الله فلا داعى لرفض نعمة انعم الله بها على عبده المؤمن المخلص ، وقد استندوا فى ذلك الى الاية : ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا (٦٩) ، ولكن اصحاب كتب الفرق نسبوا اليهم الاباحية ولعل ذلك كان آتيا من اشخاص معتقى هذه العقيدة الذين يروى الشهرستاني عنهم انهم «بيحون المحرمات ويعيشون عيشة من لا تكليف عليه» (٧٠) لا من العقيدة نفسها • ونحن - الى ذلك - نرى ان اسم «الجناحية» الذى اطلق على هذه الفرقة قد جاء من هذه الاية لامن شىء آخر كما اورد اصحاب كتب الفرق فالنسبة الى « لا جناح » •

بقى امر اخير ينسب الى هذه الفرقة هو قولهم : « من وصل الى الامام وعرفه ارتفع عنه الحرج فى جميع ما يطعم ووصل الى الكمال والبلاغ» (٧١) وان « المعرفة اذا حصلت لم يبق شىء من الطاعات واجبا» (٧٢) اى ان الدين طاعة رجل ، وتلك عقيدة اريد بها ضمان طاعة الاتباع وتفادى ما حدث من خيانة الكوفيين للحسين وزيد وغيرهما ، ولاشك فى ان هذه الطاعة العمياء هى اساس الصلة بين المريد الصوفى وشيخه ، ويكفى ان نورد هنا ان ذا النون المصرى كان يقول : « طاعة المريد لشيخه فوق طاعته لربه» (٧٣) وان ابا على الدقاق كان يقول فى شيخه : ابى القاسم النصراباذى : « وكنت افكر فى

-
- (٦٩) مقالات الاسلاميين ٦/١ ، المائدة : ٩٣ •
 - (٧٠) الملل والنحل ١/٢٤٥ •
 - (٧١) نفس المصدر السابق ١/٢٤٥ •
 - (٧٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٥٧ •
 - (٧٣) تذكرة الاولياء ١/١١١ •

نفسى كثيرا انه لو بمت الله عز وجل فى وقتى رسولا الى الخلق هل يمكننى ان ازيد فى حشمته على قلبى فوق ما كان منه رحمه الله تعالى، (٧٤) .

ومات عبدالله بن معاوية فى سجن ابى مسلم الخراسانى كما يروى بعد انكساره فى حربه مع الامويين فسرعان ما دارت حوله المهديّة (٧٥) . وقد تناول ابن حزم الرد على هذه الفكرة فوصلها باليهودية التى تقول : « ان ملكصديق بن عامر بن ارفخشذ بن سام بن نوح والجد الذى وجهه ابراهيم عليه السلام ليخطب ريقا بنت بنوال بن ناخور بن تارخ على اسحق ابنه والياس عليه السلام وفتحاس بن العاذار بن هارون عليه السلام احياء الى اليوم » (٧٦) . وقد ذكر ابن حزم بعد هذا مباشرة ان المتصوفة قد اخذوا هذه الفكرة من الشيعة « وسلك فى هذا السبيل بعض نوكمى الصوفية فزعموا ان الخضر والياس عليهما السلام حيان الى اليوم » (٧٦) والغريب ان هذا البقاء ليس له دخل بالمهديّة ومع ذلك وجدنا ابن حزم يقرنه بها والظاهر ان هذه الفكرة اصل للمهديّة التى دخلت التصوف فيما بعد .

ابو الخطاب محمد بن ابى زينب الاسدى المقتول سنة ١٣٨/٧٥٥-٥٦ :

ولم يسلم الغلاة المحيطون بعبدالله بن معاوية بعد وفاته وانما عادوا الى الكوفة كما خرجوا منها فولدت فرقة جديدة فيها وان كان الغلو قد غرس جذوره فى فارس ولم يبرحها .

كان ابو الخطاب مولى بنى اسد وارتحركات الغلو السابقة كلها ومنظمها وكان معاصرا لجعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨/٧٦٥ ، وقد أحيا لنا شخصية سلمان الفارسى الخير بالاديان واسرارها وتسلسلها والانبيا و اوصيائهم ، وجاء

(٧٤) الرسالة القشيرية ١٧٥ .

(٧٥) مختصر الفرق بين الفرق ١٢٤ .

(٧٦) الفصل ٤/١٨٠ .

ذكر ابي الخطاب مقرونا بسلمان في نص يتقله لنا ماسينيون عن « نفس الرحمن للطبرسي النوري » يرويه الخصيبي النصيري (والنصيرية فرقة من مؤلهاة على تشأت في النصف الثاني من القرن الثالث) ومضمونه : « قال جعفر (الصادق) لابي الخطاب : يا محمد اخاطبك بما خاطب به جدى رسول الله (صلم) سلمان - وقد دخل عليه عند ام ايمن فرحب به وقربه - وقال : اصبحت يا سلمان عيبة علمنا ومعدن سرنا ومجمع امرنا ونهينا ومؤدب المؤمنين بادابنا • انت والله الباب الذى يوه (كذا) علمنا وفيك ينبأ علم التأويل والتزيل وباطن السر وسر السر ، فبوركت اولاً واخراً وظاهراً وباطناً وحياً وميتاً • فقال رسول الله هذا القول لسلمان وقتله انا لك يا محمد» (٧٧) والمهم هنا ان ابا الخطاب قد اله جعفرا الصادق • وينقل ماسينيون نصاً آخر عن الكشي يؤيد فيه الامتياز الروحي الذى ادعاه ابو الخطاب ، وقد روى هذا ان الصادق قد وضع يده على صدره وقال له : عه ولا تنس او قال فيه ايضا : هو عيبة علمنا وموضع سرنا امين على احيائنا وامواتنا (٧٨) ، يرد هذا الخبر فى الكشي ويذكر انه عرض على الصادق فكذبه وانكره ، وقال : « ما مس شىء من جسدى جسده الايده » (٧٩) وذلك ينبىء بلقاء ابي الخطاب للصادق • وجاء فى الكشي ان الصادق قد اعلم فى سنة ١٣٨ بقتل ابي الخطاب (٨٠) ، وذلك يؤيد صحة هذا التاريخ والواقعة ، وذلك يذكرنا بما خاطب به النبي علياً بوصفه وصياً له حيث قال : « عليك بالصدق فلا تخرجن من فيك كذبة ابداً ، والورع فلا تجترىء على خيانة ابداً والخوف من الله كأنك تراه والبكاء من خشية الله بين لك بكل دمعة بيتا فى الجنة ، والاخذ

-
- (٧٧) شخصيات قلقة فى الاسلام ٤٨ •
(٧٨) شخصيات قلقة فى الاسلام ٤٧ •
(٧٩) معرفة الرجال للكشي ١٨٨ •
(٨٠) المصدر نفسه ١٩١ •

بسنّتي» (٨١) وبذلك يتضح مالا يبي الخطاب من خطر في تطوير الغلو
 واسناده بالنصوص والاحاديث. وقد ادعى ابو الخطاب وصية جعفر الصادق وتعلمه
 اسم الله الاعظم منه (٨٢) وزعم ان الائمة انبياء ثم آلهة وقال بالهية جعفر
 الصادق وابائه ورأى انهم ابناء الله واحباؤه (٨٣) وتلك اول الهية صريحة
 في دنيا الغلاة. ويجب ان نبين هنا ان هذا التأليه جزئي قصد به نوع مبالغ
 فيه من الحق الالهي ومن ربط نصرة الامام بنصرة الله. وقد التفت ماسينيون
 الى ذلك وقال: « فعند جميع الغلاة ان الله لا يمكن معرفته في ذاته وهو فوق
 كل وصف وحده، انما هنا امر تأليه بالمشاركة ونوع هذه المشاركة يختلف
 وفقا للنموذج الذي تفضله الفرقة» (٨٤). ولعل في هذه الالتفاتة ما يلقي
 ضوء على دعوات المتصوفة التي ستؤسس اصولها على هذه الافكار فيما بعد.

وقد تبنى ابو الخطاب الفكرة التي نادى بها الاسلام من ان المسيح لم
 يقتل وانما شبه للناس ذلك وطبقها على جعفر الصادق بعد ان تبرأ منه فقال
 بان « جعفر هو الاله في زمانه وليس المحسوس الذي يرونه ولكنه لما نزل
 الى هذا العالم لبس تلك الصورة فرآه الناس فيها» (٨٥) والغريب اننا نجد
 هذا المعنى بذاته عند الحلّاج في قوله:

سبحان من اظهر ناسوته	سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا لخلقه ظاهرا	في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه	كلحظة الحاجب بالحاجب (٨٦)

-
- (٨١) تاريخ اليعقوبي ٧٦/٢ .
 (٨٢) فرق الشيعة ٤٢ .
 (٨٣) الملل والنحل ١/٣٠٠ .
 (٨٤) شخصيات قلقة في الاسلام ٣٨ .
 (٨٥) الملل والنحل ١/٣٠٠ .
 (٨٦) في التصوف الاسلامي ١٣٣ . وانظر ديوان الحلّاج ، تحقيق
 ماسينيون ، باريس ١٩٥٥ ، ٤١ .

واى الارض تخلو منك حتى تعانوا يطلبونك فى السماء
نراهم ينظرون اليك جهرا وهم لا يبصرون من العماء (٨٧)

والمهم بعد ذلك ان اتباع ابى الخطاب قالوا : « ان جعفرنا الاله غير ان ابا الخطاب افضل منه وافضل من على » (٨٨) بل لقد زعم ابو الخطاب ان « الله تعالى قد انفصل عن جعفر وحل فيه وانه هو اكمل من الله تعالى » (٨٩) وبذلك يتبين لنا الخطر الذى تجسم الان من اسباغ الروحانية الزائدة عن الحد الى اناس وقد بدأ ذلك بابى هاشم ثم سيمر بنا ان الزيدية قد انزلوا الامامة من عليائها وساووا بين سائر الناس فى فرص السمو الروحى ولم يقصروا ذلك على الامام ثم اخرج انصار عبدالله بن معاوية الامامة من بيت على بعد ان اخرجها الكيسانية من بيت النبى فتجراً الناس على ادعائها مادامت قد خرجت من مجالها النبوى العلوى الضيق ، وادعاء ابى الخطاب افضل على الصادق وعلى بل وعلى الله امر أوله من هناك • ولعله قد ظهر الان ما بين الخطابية والنوالية الصوفية من صلة وثيقة • واذا اضفنا الى هذا ما يورده ابن الاثير عن اتباع الحسين بن ابى منصور العجلي احد زملاء ابى الخطاب « انهم تعلموا الشعبذة وانا زنجيات والنجوم والكيمياء ، فهم يحتاتون على كل قوم بما ينفق عليهم وعلى العامة باظهار الزهد » (٩٠) وقرنا به ملازمة ذى النون للكيمياء واطلاع الحلاج على السحر واليرنجيات - مما سيرد بعد - ادركنا الى أى حد كان الغلاة مؤصلين لمبادئ التصوف • يضاف الى هذا ان ابن الاثير قد ذكر بان كل حركة غالية كان دعائها يظهر الزهد والعبادة (٩١)

(٨٧) ديوان الحلاج ٣٧ •

(٨٨) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٥٧ •

(٨٩-٩١) الكامل لابن الاثير ٢١/٨ •

وان الشيخ المفيد لم يتردد في اضافة العلاج الى هذه الفرق الغالية وقال :
 «والحلاجية ضرب من اصحاب التصوف وهم اصحاب الاباحة والقول
 بالحلول» (٩٢) و اضاف « وكان الحلاج يتخصص باظهار التشيع وان كان
 ظاهر امرهم التصوف ، وهم قوم ملحدة وزنادقة يموهون بمظاهرة كل فرقة
 بدينهم» (٩٢) ، وبذلك يبدو الشبه بله التطابق بين اصحاب الحلول من
 المتصوفة واصحاب الحلول من الشيعة الغلاة .

وقد كان عند ابي الخطاب نوع من السلوك توصل به الى ادعاء الالوهية
 بعد الوصية والامامة فالنبوة وهذا هو السبيل الذي سلكه الحلاج فيما بعد اذا
 تساهلنا في التقيد بالمصطلحات . وقد كان الخطابية شيوخ المتصوفة في
 التساهل في اظهار التدين وترك الظاهر والتمسك بالباطن فقالوا : « خفف
 الله عنا بابي الخطاب ووضع عنا الاغلال والاصار يعنون الصلاة والزكاة
 والصيام والحج ، فمن عرف الرسول النبي الامام (يعنون ابا الخطاب) فليصنع
 ما احب » (٩٣) . فبلوغ مقام معرفة الامام الذي هو نبي ورسول وامام واله
 في آن واحد لا بد ان يكون دونه درجات ترقى ومنازل تتجاز وهو في النهاية
 وقوف على لب الدين وجوهره مما يعادل مقام الاتحاد وقطع العلائق عند
 الصوفية ، فالمنزلة الواحدة والمقام واحد وهذا هو اصله ومنبته . وقد ادى
 مذهب ابي الخطاب باحد تلاميذه : يزيغ بن موسى الحائك الى ان يقول : ان
 كل مؤمن يوحى اليه وتأول قوله تعالى : وما كان لنفس ان يموت الا باذن
 الله» (٩٤) اى بوحي من الله وكذلك تأول قوله تعالى : واوحى ربك الى
 النحل» (٩٥) . وهكذا ارتفعت الفوارق بين الناس وصاروا جميعا ذوى استعداد للنبوة.

(٩٢) تصحيح الاعتقاد ٣١٨ .

(٩٣) فرق الشيعة ٤٢ .

(٩٤) المنل والنحل ١/٣٠١-٢ والاية فى سورة ال عمران : ١٤٥ .

(٩٥) المصدر نفسه ١/٣٠٢ .

وتلقى الوحي ، وتلك طفرة انتقلت الى التصوف ولكنها لم تبلغ هذه الدرجة من التطرف بل خفف المتصوفة من مسألة الوحي واستبدلوا به الاستعداد للرقى بالسلوك عن طريق المجاهدة •

اما بعد فان البحث في الغلو مشعب اقتصرنا منه على ما ذكرنا واخترنا من الغالين وعقائدهم ابرزهما وادخلهما في الجوهري • وقد غادر الغلاة الكوفة بعد ان اباد المهدي الخليفة الخطايبية في السواد والبحرين وعمان (٩٦) ، وكانت تلك نهاية الغلو في الكوفة فانشغلت من جديد بحركات ثورية جديدة هي الزندقة التي اتجهت الى التشكيك في الاسلام نفسه بالعقل والمنطق • ولكن حركة ابي الخطاب لم تمت بهذه السهولة وانما وجدنا محمد بن عبدالله بن مهران يكتب في القرن الثالث كتاب « مناقب ابي الخطاب » (٩٧) ووجدنا كتابا في الرد على الخطايبية بقلم رجل من أنصار الامام الحسن العسكري المتوفى سنة ٢٦٠ (٩٨) • ومهما يكن من أمر الخطايبية ، فقد عاصر نهاية الغلو الكوفي طراز آخر من الغلو انبعث من حاشية جعفر الصادق وطلابه بعد موته ولكنه لم يكن متطرفا عنيفا وانما كان مسالما عقليا وسنرى ذلك في الفصل التالي •

هشام بن الحكم المتوفى سنة ١٩٩/٨١٥ - ٦ :

كان هشام بن الحكم من انصار الصادق وتلاميذه فخرج بنظرية جديدة في التجسيم مدعمة بالدليل العقلي ، فقال في الزامه لابي الهذيل المسلاف - برواية الشهرستاني - : « انك تقول : الباري عالم بعلم وعلمه ذاته ، يشارك المحداثات في انه عالم بعلمه ويباينها في ان علمه ذاته ، فيكون علما

(٩٦) حركات الشيعة المتطرفين ٨٩ •

(٩٧) معرفة الرجال للنجاشي (بومبي ١٣١٧) ص ٢٤٧ •

(٩٨) فهرست الطوسي (كلكتة) ١٠ •

لا كالعالمين فلم لا تقول : هو جسم لا كالأجسام وصورة لا كالصور وله قدر لا كالأقدار الى غير ذلك ؟ » (٩٩) والشهرستاني - بعد - قد وصف هشامًا بأنه «صاحب غور في الأصول» (٩٩) فلم يكن بسيطًا ساذجًا يجمع حوله الانصاف ليحكم كما فعل سائر القلاة • وقد كان هشام متكلمًا احتل بعقيدته مكانًا وسطًا بين الشيعة المعتدلين والغالين فأخذ من التشيع المعتدل أصوله ومن التجسيم الغالي دون تأليه للائمة ظاهر عقيدته ورأى - بعد ايمانه بالامامة وكونها وارثة النبوة - ان الامام احوج الى العناية الالهية من النبي بحكم اتصال الانبياء بالله عن طريق الوحي وامتناع ذلك على الامام ، فتبنى هشام العصمة و اضافها الى الائمة فجعلهم في مقام يستطيعون فيه الصدور عن الحق والصواب دون حاجة الى الوحي • وهكذا بدأت فكرة العصمة من هشام بعد وفاة الصادق • وقد نقل لنا الشهرستاني والبغدادي انه كان «يجيز على الانبياء العصيان مع قوله بعصمة الائمة» (١٠٠) ، وعلل الشهرستاني ذلك - بناء على مذهب هشام « بان النبي يوحى اليه فينبه على وجه الخطأ فيتوب منه ، والامام لا يوحى اليه فتجب عصمته» (١٠٠) ، وعلل الشهرستاني ذلك - بناء على مذهب هشام « بان النبي يوحى اليه فينبه على وجه الخطأ فيتوب منه ، والامام لا يوحى اليه فتجب عصمته» (١٠٠) • وقد اورد الكليني مناقشات هشام للمعتزلة واهل الشام في حضور جعفر الصادق وغيابه وكلها تدور حول « ان الجوارح اذا شككت في شيء لمسته او رآته او ذاقته او سمعته ردت الى القلب والا لم يستيقن بالجوارح ••• فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك (الخطاب لعمر بن عبيد المعتزلي البصري) حتى جعل لك اماما يصح لها الصحيح ويتيقن ما شككت فيه ، ويترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافهم لا يقيم لهم اماما يردون اليه شكهم وحيرتهم

(٩٩) الملل والنحل ١/٣١١ •

(١٠٠) مختصر الفرق بين الفرق ٦١ ، الملل والنحل ١/٣١١ •

ويقيم لك اماما لجوارحك ترد اليه حيرتك وشكك» (١٠١) . وقد خاصم هشام بن الحكم شاميا في الامامة واتفقا على ان الله قد اقام للناس حجة ودليلا هو النبي واختلفا في الدليل بعد النبي فرأى الشامي انه الكتاب والسنة فاجابه هشام : « فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة في مخالفتنا اياك » ثم انتهى الى ان الامام هو الحجة والدليل وهو جعفر بن محمد الصادق (١٠٢) . وهكذا يتبين خطر الامامة وضرورة احاطتها بالتوفيق الالهى الذى يحول دون تعرضها للخطأ فاحاطها بسياج من العصمة ، ومن هنا بدأت هذه الفكرة فى التشيع ولزمته ولم تنفصل عنه ، ومن هنا ايضا جاءت العصمة الى التصوف فوجدنا القشيري يرى انها ليست واجبة للولى كما فى الانبياء (وكان الاخرى ان يقول الائمة لان هذا منبعها) ثم يقول : « واما ان يكون محفوظا حتى لا يصر على الذنوب ان حصلت هنات او آفات او زلات فلا يمتنع ذلك فى وصفهم» (١٠٣) . وقد عزز القشيري ذلك بسؤال وجه الى الجنيد : « العارف يزنى يا ابا القاسم ؟ فاطرق مليا ثم رفع رأسه وقال : وكان امر الله قدرا مقدرا» (١٠٣) اى ان العصمة قد حصلت للاولياء ولكن قدر الله او بداهه اشيعي قد يغير هذا الامر ولكن العصمة موجودة على كل حال . ويؤيدنا نيكلسون فى هذا بقوله : «ولكن الصوفية - من ناحية اخرى - رأوا انهم - ببلوغهم غاية الطريق بعد اجتياز عقباته وتحمل آلامه وبعد وصولهم الى نهاية المعراج الصوفى بتحققهم بالمعرفة الالهية - قد وصلوا الى مقام الولاية وان جميع ما يصدر منهم من قول او عمل متفق تمام الاتفاق مع روح الشرع مهما ظهر من التعارض بين اقوالهم وافعالهم من جهة وبين ظاهر الشرع من جهة اخرى . ومن هنا قالوا : ان رياء العارفين افضل من اخلاص المريدين » (١٠٤) . هذا هو رأى

(١٠١) اصول الكافي ٣٨ .

(١٠٢) المصدر نفسه ٣٩ .

(١٠٣) الرسالة القشيرية ٢٠٨ .

(١٠٤) فى التصوف الاسلامى ٢٦ .

نيكلسون ويتضح منه انه يعنى العصمة وسرى انها متحققة مقصودة عند الصوفية فى الموضوع المناسب • ويجب ان نذكر هنا انه « ليست العصمة مانعة من القدرة على القبيح ولا مضطرة للمعصوم الى الحسن ولا ملجئة اليه » (١٠٥) هذا قول الشيخ المفيد مجتهد الشيعة الاثنا عشرية الكبير ، ويحتمل هذا القول الى التأمل حقا فتخرج منه بان هذه العصمة المسبغة على الامام تشبه الى حد بعيد القدرة التى يراها المعتزلة لله من انه يستطيع فعل القبيح ولكنه لا يأتى الا الاحسن ، ولسنا فى معرض مناقشة ، ولكن يحسن بنا ان نذكر ان دونالدسون قد انتهى الى ان فكرة العصمة لم تأت عن طريق الاسفار الدينية اليهودية ، وان القرآن نفسه لم يذكر عصمة الانبياء وان المسلمين الاوائل لم يتطرقوا فى جدالهم ضد المسيحية الى ذكر هذه العقيدة وانها لم ترد فى الصحاح ، ويقطع بان العصمة فكرة شيعية اصيلة (١٠٦) • اما التجسيم الذى قال به هشام فلا داعى للافاضة فيه ولكن نكتفى بانه قد بنى على فكرة منطقية تقول : « ان بين معبوده (اى هشام) وبين الاجسام تشابها ما بوجه من الوجوه ونولا ذلك لما دلت عليه » (١٠٧) وينتهى الى انه « لا يشبه شيئا من المخلوقات ولا يشبهه شىء » (١٠٧) • وعلينا فى ختام عرضنا لافكار هشام ان نقرر بانه لا يمكن ان يقول بالهية الامام وانما اخطأ الشهرستاني فى ايراد ذلك وبخاصة ان احدا من اصحاب كتب الفرق لم يؤيده فى دعواه • وقد نسب التجسيم الى كثير من اصحاب الصادق ونفى الشيعة المتأخرون امكان ذلك ويهمننا من اراء تلاميذ الصادق رأى واحد منهم هو محمد بن على بن النعمان الذى يسميه الشيعة « مؤمن الطاق » ويسميه غيرهم « شيطان الطاق » فقد كان يقول : « ان الله تعالى نور على صور انسان ويأبى ان يكون

(١٠٥) شرح عقائد الصدوق ٦١

(١٠٦) عقيدة الشيعة ٣٢٤-٢٦ ملخصا •

(١٠٧) الملل والنحل ٣٠٨/١

جسما لكنه اضاف» قد ورد في الخبر : « ان الله خلق آدم على صورته وعلى صورة الرحمن ، فلا بد من تصديق الخبر» (١٠٨) . واهمية هذه المقالة تأتي من ان هذا الحديث قد دخل التصوف وصار من اسسه وعليه اعتمد الصوفية في التدليل على الروح الالهية الموجودة في الانسان وصارت المجاهدة - على هذا الاساس - طريقا يسلكونه لتجريد النفس من مادياتها والرجوع بالروح الى صورتها الالهية الاصلية التي صنعت على هيئة روح الله . وبذلك تنتهى من بحث الغلو القديم ولا يبقى الا التعرض للغلو الذى ولى ذلك وأدار الالهية حول على بن ابي طالب ابي الائمة وقد ثبت هذا الاتجاه الغالى ولم يتغير عند معتقيه حتى الان .

النصيرية :

اختلف اصحاب كتب الفرق في محمد بن نصير مؤسس هذه الفرقة التى اتفقوا على انها تؤله عليا وقال معتقو هذه العقيدة : « وانما اثبتنا هذا الاختصاص (ظهور الروحاني بالجسد الجسداني) يعلى دون غيره لانه كان مخصوصا بتأييد من عند الله تعالى مما يتعلق باطن الاسرار » (١٠٩) وكانت حجتهم فى ذلك ظهور جبريل ببعض الاشخاص كما هو معسوف فى الاسلام . وقال النصيرية ايضا فى على : « كان هو موجودا قبل خلق السموات والارض . . . وعلى هذا فال على : انا من احمد كالضوء من الضوء ، يعنى لافرق بين التورين الا ان احدهما اسبق والثانى لاحق تال له » (١٠٩) ومن هنا نلمح لأول مرة الجمع بين النبي (ص) وعلى الذى تطور الى المفاضلة بينهما والى اشراك الاخير فى الرسالة . وقد اسند النصيرية هذه الفكرة بحديث يروونه ونصه : فيكم من يقاتل على تأويله كما قاتلت على تنزيهه ، الا وهو خاصف النعل» (١٠٩) ، ونحن نعرف اصل هذا النص الذى نطق به عمار بن ياسر

(١٠٨) الملل والنحل ١/٣١٣ .

(١٠٩) المصدر نفسه ١/٣١٧ .

في صفتين ولكن الجديد هنا ان هذا الخبر قد وجه الى تخصيص النبي بالظاهر او العموميات وتخصيص على بالباطن والشرح والتأويل الصحيح ثم تطورت الامور في المدائن حين وجدنا احد الغلاة يفضل عليا على النبي ويزعم انه هو الذي بعث محمدا (١١٠) تلك هي الذمية وهي عينية نسبة الى حرف العين الذي يبدأ به اسم علي ، وظهر بعد ذلك المفوضة الذين روى الرازي انهم « قوم يزعمون ان الباري خلق روح علي واولاده وفوض العالم اليهم فخلقوا هم الارضين والسموات . قالوا : ومن هنا قلنا في الركوع : سبحان ربي العظيم ، وفي السجود : سبحان ربي الاعلى لان الاله الاعلى على واولاده واما الاله الاعظم فهو الذي فوض اليهم العالم » (١١١) . وقد تطورت هذه العقيدة بعد غياب مهدي الشيعة وتنظيم عقائدها وتحديد رجالها من الاركان فرأينا تدبير العالم مضافا الى الاركان ومعهم الصحابي القديم عمرو بن امية الضمري ويسمى هذا بالتخميس الذي كان موجودا في بداية القرن الرابع وكان الكرخيون في بغداد يعتقدونه (١١٢) .

(١١٠) الملل والنحل ٢٩٣/١ .

(١١١) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٥٧ .

(١١٢) الغيبة للطوسي ٢٧١ .

الفكرة في اشراك عمرو بن امية الضمري في تدبير العالم انه كان وكيل النبي (ص) في زواجه من ام حبيبة بنت ابي سفيان : ارسله النبي الى الحبشة بعد ان علم بوفاة زوجها عبدالله بن جحش لاتمام ذلك الزواج (طبقات ابن سعد ٤ : ١٨٣/١ ، شذرات الذهب ٥٤/١) فاعتبر اصحاب التخميس هذه الوكالة امانة على وكالة اخرى باطنية اوسع واعم - علي عادة الغلاة في التأويل - ومن هنا جاءت هذه الفكرة . ويروي ابن الاثير ان امية كان رسول النبي الى النجاشي وداعيته الى الاسلام (ابن الاثير «اوربا» ١٦١/٢) . وكذلك يروي ان النبي (ص) ارسله لاغتيال ابي سفيان في مكة سنة ٤ (ابن الاثير «اوربا» ١٢٩/٢-٣١) فكأنه عمرا كان ثقة النبي ويده في المهمات والملمات .

اما بعد فلايد ان نختم هذا الفصل بموقف الشيعة المعتدلين من الصلاة
لترى مقامهم فى التشيع ولا يذهب بالحق بهرج الباطل ، فقد كان الصدوق
القمى - استاذ الشيخ المفيد - يقول : « اعتقادنا فى الغلاة والمفوضة انهم كفار
بالله - جل اسمه - وانهم شر من اليهود والنصارى والمجوس والقدرية
والحرورية ومن جميع اهل البدع والاهواء المضلة ، وانهم ما صغر الله جل
جلاله تصغيرهم بشيء كما قال الله : ما كان لبشر ان يؤتية الله الكتاب والحكم
والنبوة ثم يقول للناس : كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين
بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون • ولا يأمركم الله ان تتخذوا
الملائكة والنبيين اربابا ، يأمركم الله بالكفر اذ انتم مسلمون !؟ » (١١٣) •

(١١٣) اعتقادات الصدوق ٣٩ •

الفصل الرابع

عودة الى تطور التشيع

على بن الحسين

مات ابن الحنفية وانصرف من انصرف الى ابنه ابي هاشم ، ولكن اناس حاولوا ان يلتفوا حول علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، غير انه لم يمكن احدا من الدعوة اليه او استقلال اسمه لانه نفى يده من الدنيا ومن الطموح الى الحكم وانصرف الى العبادة فكانه طبق الخطة التي هدد بها الخراساني ابن الحنفية من انصرافه الى الزهد . وهكذا صار للزهد رأس علوي كما كان له رأس في العلم والشجاعة وسائر المثل التي كانت تتصل بالمجتمع الاسلامي . وقد ولد علي بن الحسين في المدينة سنة ٣٨ في حياة علي ابن ابي طالب ، وقد قتل جده وله سنتان ، وقتل ابوه في كربلاء وله ثلاث وعشرون سنة . وشهد بعينه - وكان عليلا في الموقعة - مصرع اخوانه واعمامه فاخذ رجل فاحفاه عن القائد الاموي ثم سلمه الى ابن زياد نظير ثلاثمائة درهم وكان الرجل مع ذلك يبكي^(١) . وكانت هذه الاحداث التي مرت به قد حملته على ان يعتزل الجاه والمال والرجال وكل ما له علاقة بالطموح والامارة . وعاصر علي بن الحسين احداثا واهوالا في المجتمع الاسلامي ورأى بعينه الناس يبائعون لعبد الملك بن مروان على العبودية له بعد الحرية ، وعاصر ضرب الكعبة بالمجانق وعاصر الحجاج في حكمه الجائر للعراق وعاصر الحركات الكيسانية والمختان والقتال الذي اغرق العالم الاسلامي

(١) طبقات ابن سعد ١٥٧/٥ .

فى بحر من الدماء ، فاندفع بعد كل هذا الى اعتزال الدنيا والانقطاع الى
البكاء على ارحامه واخوانه والمثل التى ضاعت وعلى الافكار الغريبة التى جدت
على الاسلام . وكان على زين العابدين يكره اهل العراق - كما يبدو - وكان
يحمل عليهم كثيرا ، وقد اثنى عليه نفر من اهل العراق فقال لهم : « ما اكذبكم
وما أجزأكم على الله ، نحن من صالحى قومنا وبحسبنا ان نكون من صالحى
قومنا» (٢) وكان كذلك حربا على السبابة من الشيعة السبئية والكيسانية وكان
يقول لهم : « اشهد انكم لستم من الذين قال الله عزوجل فيهم : والذين جاؤا
من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل
فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم» (٣) . وكان يكره الغلو
ولا يحب ان يرفعه احد فوق منزلة احد من المسلمين وكان يقول : « ايها الناس
احبونا حب الاسلام ، فما برح بنا جبكم حتى صار علينا عارا» (٤) . وكان
يعتبر نفسه رجلا من اناس يتلقى عن القراء والفقهاء وكان يسأل عن سعيد
بن جبير الذى قتله الحجاج سنة ٧٠١/٩٤ ويعترف بانه قد تلمذ عليه ، وكان
يردف كل قول بنفى السمو عن نفسه وقد قال فى هذه المناسبة : « انه ليس
عندنا ما يرمينا به هؤلاء ، و اشار بيده الى العراق» (٥) وقد اشتهر عن على بن
الحسين مسالته الحقيقية وكان يغضى عن المسىء حتى صارت هذه الطريقة
قانونا للزهاد فقد كان عبدالله بن عون بن اربطان من زهاد البصرة - اذا اغضب
رجل - قال : بارك الله فيك (٦) .

وتأتى أهمية على بن الحسين فى التشيع من أنه الامام الرابع من ائمة

(٢) طبقات ابن سعد ١٥٨/٥ .

(٣) مع الشيعة الامامية ٤٢-٤٣ ، الحشر : ١٠ .

(٤) حلية الاولياء ، ١٣٦/٣ .

(٥) طبقات ابن سعد ١٦٠/٥ .

(٦) صفة الصفوة ٢٤٠/٣ .

الامامية والاسماعيلية ، وتزداد اهميته بانه اول امام يتخذ الزهد المطلق منهجا لحياته فلا يشارك في حرب او نقاش ولا يتدخل في امر من الامور ، وقد شق للزهاد طريقا ، لم يكن ، بادعيته ومناجياته التي تقطر رقة وعاطفة ويانا . ولكن هذا كله يتضاءل في الاهمية امام الحدث العظيم الذي انطوى في علي بن الحسين الا وهو انه كان ابن اميرة فارسية من اميرات آل ساسان ، وقد اتاح له ذلك - في رأى بعض الباحثين - ان تلتف الدعوة الفارسية حوله وتجعله صاحب الحق في حمل التاج الساساني ، فيكون له ان يحكم العرب والعجم وعليهم ان يدينوا له بالطاعة والولاء . ويعرض الاستاذ احمد امين لهذه الفكرة بقوله : « ومما يتصل بعقائد الفرس الدينية - وكان لها اثر في بعض المسلمين - انهم كانوا ينظرون الى ملوكهم كأنهم كائنات الهية اصطفاهم الله للحكم وخصهم بالسيادة وايدهم بروح منه ، فهم ظل الله في ارضه ... فنظرة الشيعة في علي وابنائهم هي نظرة ابائهم الاولين من الملوك الساسانيين وثنوية الفرس كانوا منبعا يستقى منه الرفض في الاسلام» (٧) ، وهذا الرأى زبدة رأى جوينو في كتابه (الدين والفلسفة في آسيا الوسطى) وينقله الدكتور حسن ابراهيم حسن فيقول : « كانت هذه النظرية عقيدة سياسية غير متنازع فيها عند الفرس ، وهي ان العلويين وحدهم يملكون حق حمل التاج ، وذلك بصفتهم المزدوجة لكونهم وارثي آل ساسان من جهة امهم شهربانو ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس ، (يسميا ابن ساعد غزاة ، الطبقات ١٥٦/٥) والائمة رؤساء هذا الدين حقا» (٨) وقد وافق براون على هذا الرأى ايضا (٩) . والظاهر ان ما حمل اصحاب هذا الرأى على رأيه هو قول ابي الاسود الديلمي في زين العابدين :

(٧) فجر الاسلام ١٣٧ .

(٨) الفاطميون في مصر ٦٧ .

(٩) تاريخ الادب في ايران ٢٤٠ .

وان غلاما بين كسرى وهاشم لاكرم من نيطت عليه التمام (١٠)

والواقع ان ليس لهذا الرأى اساس صحيح ، فلم تقم دعوة نملى بن الحسين تدل على الاتجاه الفارسى ايه ، بل لقد قامت فى حياته ثورة المختار التى شارك فيها الموالى اول مشاركة فلم تنصرف اليه الدعوة ولم يذكره ذاكر . ثم قامت ثورة عبدالرحمن بن الاشعث وكانت مادتها من الموالى ايضا ، ولم يرفع احد منهم صوتا فى الدعوة لعلى بن الحسين مع انه كان ذا صلة علمية بأحد فقهاء الموالى الكوفيين وهو سعيد بن جبير كما مر بنا . ولم يكن على بن الحسين متصلا بالموالى خاصة ولا بحزب معين سواء اكان دينيا ام سياسيا . وحقبة الامر ان جوبينو ويراون قد ربطا بين نظرية النور الذى ينتقل من الانبياء الى الائمة واحدا بعد الاخر - وظهرت هذه النظرية فى خراسان - وظنا انها دارت حول على بن الحسين على اساس النظرية الفارسية التى تنقل النور الملكى من ملك الى آخر . وقد قال بفكرة النور عبدالله بن الحارث وهو مدائنى من انصار عبدالله بن معاوية وكان يرى ان عبدالله هو الامام « وهو العالم بكل شىء حتى غلوفيه وقال : ان الله عز وجل نور وهو فى عبدالله بن معاوية » (١١) ، وقد توفى على بن الحسين سنة ٧١٢/٩٤-١٣ وتوفى عبدالله بن معاوية سنة ٧٤٧/١٣٠-٤٨ . وكان من عقيدة عبدالله بن الحارث « الغلو واقول بالتناسخ والاظلة والدور » (١٢) ، وكان من عقائد الجناحية : اتباع عبدالله بن معاوية « ان روح الاله دارت فى آدم ثم فى شيت ثم دارت فى الانبياء والائمة الى ان انتهت الى على ثم دارت فى اولاده الثلاثة ثم صارت الى عبدالله بن معاوية » (١٣) . وبذلك يكون النور الذى

(١٠) اصول الكافى ١٢٤ .

(١١) (١٢) فرق الشيعة ٣٤ .

(١٣) مختصر الفرق بين الفرق ١٥٣-٤ .

هو الله قد حل في عبدالله بن معاوية بن جعفر بن ابي طالب بعد حلوله في الانبياء والائمة السابقين وهذه هي اصل هذه الفكرة التي لاحظها جوينو وزعم انها ترتبط بعلي بن الحسين فاذا صح ارتباطها به فلا بد ان يكون ذلك متأخرا جدا . يضاف الى ذلك ان كتب الفرق جميعا لاتعرض لهذه الفكرة ولا تلمح اليها ، وكتب التاريخ تسكت عنها ، ولعل جوينو وبراون ثم احمد امين ارادوا ان يعقدوا بين الفرس والشيعنة صلة فتنهبوا الى هذا النسب الفارسي من ناحية الام ولم يلتفتوا الى ان القاسم بن محمد بن ابي بكر وسالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب يشاركان على بن الحسين هذه الصفة ايضا (١٤) . والغريب ان هذه الاميرة التي دارت حولها هذه الضجة قد تزوجت بعد الحسين (ع) مولى له اسمه زيد (ولعله زيد) فولدت له عبدالله بن زيد فهو اخو علي الاصغر (زين العابدين) بن الحسين (١٥) .

ونعود بعد جلاء هذه النقطة الهامة الى ان الصفة الغالبة على علي بن الحسين كونه زاهدا من الطراز الاول ينبع زهده من حزن مادي دفين ارتفع شيئا فشيئا الى حزن معنوي روحى ملأ نفسه واستغرق حياته كلها . وقد اورد لنا ابو نعيم نصا بين فيه جوهر زهد علي بن الحسين ، وذلك انه سئل عن كثرة بكائه فقال : « لائلوموني فان يعقوب فقد سبطا من ولده فبكي حتى ابيضت عيناه ولم يعلم انه مات ، وقد نظرت الى اربعة عشر رجلا من اهل بيتي يقتلون في غزاة واحدة . افترون حزنهم يذهب من قلبي؟ » (١٦) ، وقد عبر عن هذا البكاء وذلك الحزن تعبيراً صوفياً جميلاً يشبه تلك العبارات المركزة المليئة بالمعنى مما نراه عند المتصوفة الكبار بقوله : « فقد الاجبة غربة » (١٧)

(١٤) وفيات الاعيان ، مصر ١٩٤٨ ، ١/٤٢٩-٣٠

(١٥) طبقات ابن سعد ١٥٦/٥ .

(١٦) حلية الاولياء ٣/١٣٨ .

(١٧) صفة الصفوة ٢/٥٣ .

وإنظرة الى سيرة على بن الحسين - مما توردته كتب التصوف - تصوره لنا صوفيا كاملا ، فان فيه طبيعة الملامية الخالص ، فقد كان يقول : « انى اعوذ بك ان تحسن فى لوائح العيون علانيتى وتقبح فى خفيات العيون سريرتى • اللهم كما اسأت واحسنت الى ، فاذا عدت فعد على » (١٨) • بل لقد كان فى زين العابدين طبيعة الفتى ممزوجة بالملامة ، فان ابا نعيم يروى ان على بن الحسين « كان يبخل • فلما مات وجدوه يقوت مائة اهل بيت بالمدينة ، قال جرير فى الحديث - او من قبله - : انه حين مات وجدوا بظهره آثارا مما كان يحمل بالليل الجرب الى المساكين » (١٩) ، ويروى انه كان يتصدق سرا ويقول : « صدقة السر تطفى غضب الرب » (٢٠) • ولم يقتصر الامر على ذلك بل جعل اصحاب كتب التاريخ على بن الحسين يسبق المتصوفة الى رقى المقامات ، فاننا نلمح حال المحو من القصة التى يوردها صاحب اخبار الدول من انه « سقط ابن له فى البئر ، ففزع اهل المدينة لذلك حتى اخرجوه فكان قائما يصلى فى المحراب فمازال عن مكانه • فقيل له فى ذلك فقال : ما شعرت لانى كنت اناجى ربي » (٢١) ، وتلك قصة نحلها واطرح •

وهذه الاخبار تبين الى اى مدى اتخذ على بن الحسين الزهد منهجيا لحياته ، فانصرف الى المثل الاعلى يفرق روحه فيه ولا يلتفت الا اليه ، وكان ذلك كله متجسما فى صلواته ودعائه فكان اول من بدأ الذكر الذى يؤدى الى التطهير الصوفى • ويروى ابو نعيم وابن الجوزى ان على بن الحسين كان اذا فرغ من وضوئه للصلاة وصار بين وضوئه وصلواته اخذته رعدة ونفضة ، فقيل له فى ذلك فقال : ويحكم اندرون الى من اقوم ومن اريد ان اناجى؟ (٢٢)

(١٨) حلية الاولياء ١٣٤/٣ •

(١٩) نفس المصدر السابق ١٣٦/٣ •

(٢٠) ، (٢١) اخبار الدول ١١٠ •

(٢٢) حلية الاولياء ١٣٣/٢ ، صفة الصفوة ٥١/٢ •

وقد يبدو هذا الحزن نابعا عن شعور بالانتم او خوف من الموت او شك فى العقيدة ، ولكن على بن الحسين - بعد ان بين انه انما يبكى اخوانه الذين قتلوا امامه عيانا ، وبعد ان ركز همه فى الانقطاع الى الله - ارسل قولاً يعد فيه اول من اشار الى فكرة الحب الالهى ، وذلك انه نادى : « ان قوما عبدوا الله رهبة ، فتلک عبادة العبيد وآخريں عبوده رهبة ، فتلک عبادة التجار ، وقوما عبدوا الله شكرا فتلک عبادة الاحرار » • وتلك عبارة مرادفة لما ينسب الى رابعة العدوية انها قالت : ما عبدهت خوفا من ناره (الذين عبدوا الله رهبة) ، ولا حبا لجنه (الذين عبدوا الله رغبة) فاكون كالاجير السوء (عبادة التجار) • عبدهت حبا وشوقا اليه « (٢٣) (عبادة الاحرار انشكر) • ومما يذكر ان حديث رابعة هذا ينسب الى على فى نهج البلاغة ، ومهما يكن من شىء فان كلا الامامين سبق رابعة • ولا يقتصر التداخل فى المعانى بين زين العابدين ورابعة وحدها بل نجده يقول : « ان الجسد اذا لم يمرض اشرف ، ولا خير فى جسد يأشر » (٢٤) • وهو قول عبر عنه جعفر بن سليمان الضبيعى : احد زهاد البصرة من معاصرى مالك بن دينار بقوله : « ان القلب اذا لم يحزن حزبا كما ان البيت اذا لم يسكن خراب » (٢٥) • وقد كان على بن الحسين الى شبه كلامه بكلام الزهاد يصدر عن نفس زاهدة ففتح للزهاد باب السماحة والتواضع ، وكان اول عظيم يرفع من مقام الزهد ويجعل له مكانة سامية فان سفيان الثورى المتوفى سنة ١٦١/٧٧٧-٧٨ - وهو شيخ الزهاد فى القرن الثانى - يروى عنه انه : « جاء رجل الى على بن الحسين فقال له : ان فلانا قد اذاك ووقع فيك قال : فانطلق بنا اليه ، فانطلقنا معه وهو يرى انه سينتصر لنفسه • فلما اتاه قال : يا هذا ان كان ما قلت حقا فغفر الله لى ، وان كان ما قلت

-
- (٢٣) الكواكب الدرية ١/١٠٩ ، وقوت القلوب « مصر ١٣١٠ بنص مقارب ٥٧/٢ •
(٢٤) حلية الاولياء ٣/١٣٤ •
(٢٥) نفس المصدر السابق ٦/٢٨٧ •

فى باطلا فغفر الله لك» (٢٦) ، وقد رأينا عبدالله بن عون ابن اربطان - اذا اغضبه رجل - قال له بارك الله فيك • وكثيرا مانجد فى حلية الاولياء وصفة الصفة زهادا كانوا يستغرقون فى صلاتهم حتى ليحسبهم الناس فى الظلام جنودا (٢٧) ، وكان على ابن الحسين يصلى فى كل يوم وليلة الف ركعة ، وتهيج الريح فيسقط مغشيا عليه (٢٨) • وقد هز المتصوفة ان يكون امام من اوائل الائمة مغرقا فى الزهد فاضافوا اليه هم وكذلك الشيعة مايزيد زهده عمقا • وقد كان على بن الحسين زاهدا فى وقت كان يمكنه فيه ان يعيش فى رفاهية ودعة ولكنه آثر هذه الحياة فحمد الناس له هذا المشرب وزادوا عليه اخبارا واقوالا حتى جعلوا منه شاعرا صوفيا ، ورووا عنه انه لقي الحسن البصرى فى الكعبة وكان على زين العابدين مثلما يبكى ويتضرع بهذه الابيات :

الا ايها المأمول فى كل حاجة	شكوت اليك الضر فارحم شكائى
الا يا رجائى انت كاشف كربى	فهب لى ذنوبى كلها واقض حاجتى
وان اليك القصد فى كل مطلب	وانت غياث الطالبين وغايتى
ايت بافعال قباح ردية	فما فى الورى خلق جنى كجنايتى
فزادى قليل لا اراه مبلى	أ للزاد ابكى ام لبعده مسافى
اتجمعنى والظالمين موافقا	فأين طوافى ثم اين زيارتى
اتحرقنى بانار يا غاية المنى	فأين رجائى ثم اين مخافتى
فيا سيدى فامن على بتوبة	فانك رب عالم بمقاتى

-
- (٢٦) صفة الصفة ٥٢/٢
 - (٢٧) حلية الاولياء ٤٠/٥
 - (٢٨) صفة الصفة ٥٦/٢

قال الحسن : فدنوت منه فاذا هو الامام بن الامام زين العابدين على بن الحسين ، فقبلت رجله وقلت : يا سلالة النبوة ، ما هذه المناجاة والبكاء وانت في أهل البيت ؟ وقال الله عزوجل : ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا ، قال : دع يا ابن ابي الحسن ، خلقت الجنة لمن اطاعه ولو كان عبدا حبشيا ، وخلقت النار لمن عصاه ولو كان حرا قرشيا ، وقال (ص) : ايتوني باعمالكم لا بانسابكم « (٢٩) ونظرة واحدة الى هذا الخبر تفضح نهافت نسبة الايات الى على بن الحسين ، فان اسلوبها الركيك ينبيء بانها وضعت في وقت متأخر ، ثم ان تقبيل الرجلين لم يكن يرضى به على بن الحسين ولا يأتيه الحسن البصرى ، ولكن الخبر على كل حال جمع بين الحسن البصرى زاهد البصرة وبكائها وبين زاهد المدينة وبكائها الهاشمى ، ورواية ابن الجوزى للخبر يراد بها عقد صلة بين الزهد البصرى والامام على بن الحسين اولا - وذلك يخدم موضوعنا - ويبين ان الصلة - حتى على فرض امتناعها - قد ارادها مؤلفو كتب التصوف واخباريوه . ثم ان رواية الخوانسارى وممصوم على في طرائق الحقائق (٣٠) لهذا الخبر بالذات تعنى موافقتهما على مضمونه من ان الحسن كان يحس بانه ادنى من على بن الحسين الى حد انه قبل قدميه وان له - لذلك - صلة بالتشيع . ولكهما لم يلتفتا الى انهما هدا - بموافقتهما على هذا الخبر - ركنا ركينا من التشيع دون ان يشعرا بذلك ، فانهما قد نفا العصمة عن على بن الحسين باعترافه وهكذا تحالف الظروف على اضعاف هذا الخبر وتقطع به الاسباب .

ثم يأتي تيار مقابل من ابن عربى ، وذلك انه قد روى عن السجاد :
على بن الحسين : « انه قال او تمثل بالايات التالية :

- (٢٩) روضات الجنات ٢٠٨ . عن المنتظم لابن الجوزى «المطبوع منه يبدأ بعد سنة ٢٥٧ ، .
(٣٠) طرائق الحقائق ٣٤/١ .

انى لاكتم من علمى جواهره كى لايرى الحق ذو جهل فيفتنا
 وقد تقدم فى هذا ابو حسن الى الحسين ووصى قبله الحسن
 يارب جوهر علم لو ابوح به لقل لى : انت ممن يعبد الوثنا
 ولاستحل رجال مسلمون دمي يرون اقبح ما يأتونه حسنا (٣١)

وفسرها ابن عربى بقوله : « ونبه - بقوله : يعبد الوثنا - على مقصوده ،
 ينظر اليه تأويل قوله (ص) ان الله خلق آدم على صورته - باعادة الضمير
 على الله تعالى - وهو من بعض احتمالاته » (٣٢) .

والظاهر على هذه الايات التأخر ايضا وان كان اسلوبها آتق وانعم
 من الايات السابقة وايرادها ينقض الايات السابقة .

ومن أهم ما يرد فى هذا المجال - وهو ظاهر التهافت ايضا - ما اورده الجنيد
 البغدادى الصوفى المتأخر المتوفى فى أواخر القرن الثامن الهجرى - وهو
 غير الجنيد شيخ الطائفة المتوفى سنة ٢٩٨ - عن على بن الحسين رواية عن
 محمد بن كعب القرظى الذى قال :

« كنت فى مسجد الكوفة بعض الليالى ، فأتى على بن الحسين زين
 العابدين - رضى الله عنه - فى نصف من الليل حتى بلغ باب المسجد وهو
 يقول فى بعض مناجاته :

(٣١) الفتوحات المكية ١/٢٦٠ ، كتاب الامام المبين لمحيى الدين بن عربى ورقة
 ٤ب-٥ ، التدبيرات الالهية لابن عربى ايضا ١١٣ .

نسب ابن عربى البيتين الاخيرين الى على بن الحسين نفسه
 وتمثلا منه بهما - كما مر . وتخلصا من الشك نسبها ابن عربى كلها
 الى « الشريف الرضى حفيد على بن ابي طالب رضى الله عنه » . وليست
 الايات للشريف الرضى الذى نعرفه ولكن ابن عربى قدم عبارة
 « الشريف الرضى » للوصف لا لتحديد الشخصية ، ولا بد انه اخذها
 من مصادر شيعية . وقد اوردها الحاج معصوم على ونسبها الى الامام
 السجاد المذكور (طرائق الحقائق ١/٣٤) .

(٣٢) الفتوحات المكية ١/٢٦٠ ، الكواكب الدرية ١/١٤٠ .

يا حبيبي وقرّة عيني ، غلقت الملوك ابوابها وطافت عليها حرّاسها
وبابك مفتوح • ثم دخل المسجد وصلى ركعتين ، ثم أنشد :

ليك يا من انت مولاه فارحم عبيدا اليك ملجاء
طوبى لمن كان خائفا أرقا يشكو الى ذى الجلال بلواه
وما به علة ولا سقم اكثر من حبه لمولاه

فاذا بهاتف من السماء يقول :

ليك عبدى وانت فى كنفى وكل ما قلته علمناه
دعاؤك، عبدى، يجول فى حجبي فذنبك اليوم قد غفرناه
صوتك تشاقه ملائكتى فحسبك ، الصوت قد سمعناه
سلنى بلا حشمة ولا رهب ولا تخف ، انى انا الله
هذا يرى ربّه فيؤنسه سبحان من السلام حيّاه
لو هبتّ الريح من جوانبها خرّ صريعا لما تغشّاه (٣٣)

وليس من الصعب دحض التفاصيل ونسبة الايات الى زين العابدين
والملائكة ، فلم ينزل الامام الكوفة ولا زار مسجدها وانما كانت اقامته كلها فى
المدينة ، الا فترة اسره لما جاء مع ابيه الى كربلاء ثم أعيد الى الحجاز • ثم
ان هذه الايات من الركة وهذا الهاتف من الضعف بحيث لا يمكن ان
يقاوما عوامل التهافت والدحض وان كان الجنيد نفسه اثبتها فى رسالته •

ولكن المسألة كلها تنحصر فى ارادة اضافة الزهد الصوفى الى على بن
الحسين وهو حفيد على بن ابي طالب الذى اجمع اصحاب كتب التصوف ان

(٣٣) القصد الى الله ٢٢ •

له صلة وثقى بأصولهم • وقد كان من مقام على زين العابدين فى المجتمع العربى ان قال فيه رجل كان واضح العثمانية وهو الجاحظ : « لم ار الخارجى فى أمره الا كالتسعى ، ولا العامى الا كالخاصى » (٣٤) وعلى بن الحسين هو الذى يدور حوله شعر الفرزدق فى قصيدته الشهيرة ومنها :

يفضى حياء ويفضى من مهابته ولا يكلم الا حين يتسم (٣٥)

فابرز لنا جانباً من خلقه عبر عنه ضرار حين وصف علياً فى مجلس معاوية بقوله : « وكان - مع تقريبه ايانا وقربه منا - لانكاد نكلمه لهيئته ولا نبتدئه لعظمته » ولعل رأى من يرى خطأ نسبة القصيدة الى الفرزدق قد وجه الى هذا التوافق • وقد نسب الكلينى الى على بن الحسين انه كان له رأى فى الزهد واقسامه ، وانه كان يقول « الزهد عشرة اجزاء : اعلى درجة الزهد ادنى درجة الورع واعلى درجة الورع ادنى درجة اليقين ، واعلى درجة اليقين ادنى درجة الرضى » (٣٦) ، وعزز الكلاباذى هذا الاتجاه بان جعل على بن الحسين « ممن نطق بعلومهم (يعنى المتصوفة) ونشر مقاماتهم ووصف احوالهم قولاً وفعلاً بعد الصحابة رضوان الله عليهم » (٣٧) • ويعود الكلينى فينسب الى على بن الحسين رأياً فى التوكل بقوله « رأيت الخير كله قد اجتمع فى قطع الطمع عما فى ايدى الناس • ومن لم يرج الناس فى شىء ورد امره الى الله عز وجل فى كل اموره استجاب الله له فى كل شىء » (٣٨) ، وذلك قول فيه مسحة زهدية ويعنى الاستغناء عن الناس كما فى قول معروف الكرخى : « التصوف الاخذ بالحقائق والياس مما فى ايدى الخلائق » (٣٩) • والتوكل

(٣٤) العلم الشامخ ١٠ •

(٣٥) اخبار الدول ١٠ •

(٣٦) اصول الكافى ١٦٩ •

(٣٧) التعرف ١١

(٣٨) اصول الكافى ١٨٩ •

(٣٩) الرسالة القشيرية ١٤٩ •

باد في قول السجاد المذكور • وادخل منه في التوكل ما يرويه الكليني ايضا من ان علي بن الحسين كان يتخوف من فتنة ابن الزبير ، فلقبه رجل عليه ثوبان ابيضان فقال له : « يا علي بن الحسين هل رأيت احدا دعا الله فلم يجبه ؟ قلت : لا • فقال : فهل رأيت احدا توكل على الله فلم يكفه ؟ قلت : لا ، قال : فهل رأيت احدا سأل الله فلم يعطه ؟ قال : لا • ثم غاب عني » (٤٠) ، وهذا الرجل الذي غاب لا بد ان يقرب بالامام فلعله الخضر او جبريل ، والكليني يريد ان يرتفع بالامام زين العابدين عن مستوى الزهاد فاضاف اليه هذا الاتصال بهذا الملك - علي الارجح - لان البياض يدل على ذلك •

يبقى امر مهم هو الصحيفة التي تنسب الى علي بن الحسين ، وتتضمن ادعية ومناجيات حفظها الشيعة ونشروها ، وجاء فيها - في المقدمة - انها بخط الامام زيد بن علي وباملاء ابيه زين العابدين ، وكانت نسخة منها عند متوكل بن هرون وكان من الشيعة الامامية • ويجرى بين هرون هذا ويحيى بن زيد حديث يهدف الى أن يكون العلم عند الصادق وابيه اعلم منه عند الائمة الزيديين ، لان يحيى بن زيد يقول : « كلنا له علم غير انهم يعلمون كل ما نعلم ولا نعلم كل ما يعلمون » (٤١) • وفيها ان سبب التقاف الناس حول محمد الباقر وجعفر الصادق هو « انهما دعوا الناس الى الحياة ونحن (الزيدية) دعوناهم الى الموت » وفيها مقدمات غيبية واسرار وتنبؤات • وتتضمن الصحيفة ادعية ، لكل دعاء منها مناسبة كدعاء التحميد لله ودعاء الصلاة على محمد وآله والادعية في الاوقات المختلفة والمهمات والاعتراف وطلب التوبة والظلمات ، ودعاء يقرأ عند ختم القرآن ، وادعية للمناسبات كشهر رمضان والاعياد والجمعة وهكذا ، ثم ادعية في دفع كيد الاعداء والرهبة •••

(٤٠) اصول الكافي ١٦٩ •

(٤١) الصحيفة السجادية ٢ •

ولا شك في نسبة كثير من اجزاء الادعية المذكورة الى الامام زين العابدين ، ولكن يبدو ان اضافات كثيرة قد اكتفت النصوص الاصلية وسادتها الصنعة البلاغية بحيث طالت نصوصها ، والمفروض في نص الدعاء ان يكون قصيرا ليسهل حفظه كالدعاء الذي يورده صاحب اخبار الدول : « يا موضع كل شكوى ، يا سامع كل نجوى ، يا شافي كل بلوى ، يا عالم كل خفية ويا كاشف ما تشاء من كل بلية ، ادعوك دعاء من اشتدت فاقته وضعفت قوته وقلت حيلته : دعاء الغريب الفقير الذي لا يجد لكشف ماهو فيه الا انت يا ارحم الراحمين ، لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين » (٤٢) .

ويورد ابن بابويه القمي في (من لا يحضره الفقيه) ان علي بن الحسين كان يقول في سجوده : « اللهم ان كنت عصيتك فاني قد اطعتك في احب الاشياء اليك وهو الايمان بك منا منك لامنا عليك » (٤٣) وتختتم هذه الادعية بفاصلة من فواصل القرآن ، كعبارة : يا ارحم الراحمين ، انه ولي حميم ، آمين يارب العالمين ، وانت على كل شيء قدير الخ .

وفي ادعية السجاد ذكر للصحابة والتابعين ودعاء لهم ، ومن ذلك : اللهم واصحاب محمد (ص) خاصة ، الذين احسنوا الصحابة والذين ابلوا البلاء الحسن في نصره و كنفوه واسرعوا الى وفادته وسابقوا الى دعوته واستجابوا له حيث اسمعهم حجة رسالاته وفارقوا الازواج والاولاد في اظهار كلمته ، وقاتلوا الاباء والابناء في تثبيت نبوته وانتصروا به . . . اللهم واوصل الى التابعين باحسان الذين يقولون : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان خير جزائك ، الذين قصدوا سمتهم وتحروا وجهتهم ومضوا على شاكلتهم : لم يثنهم ريب في بصيرتهم ولا خالجهم شك في قفو آثارهم . . . » (٤٤)

(٤٢) اخبار الدول ١١٠ .

(٤٣) من لا يحضره الفقيه ، طبع ايران ١٣٧٦ ، ص ٩١ .

(٤٤) الصحيفة السجادية ٣٤ .

ومن دعائه فى الاستعاذة من المكاره : « اللهم انى اعوذ بك من هيجان الحرص وسورة الغضب وغلبة الحسد وضعف البصر وقلة القناعة وشكاسة الخلق والحاح الشكوى وملكة النحمة ومتابعة الهوى ومخالفة الهدى وسنة الغفلة وتعاطى الكلفة وايتار الباطل على الحق والاصرار على المأثم واستصغار المعصية واستكبار الطاعة ومباهاة المكثرين والازراء بالمقلين وسوء الولاية لمن تحت ايدينا وترك الشكر لمن اصطنع العارفة عندنا ... صل على محمد وآل محمد واعذنى من كل ذلك برحمتك وجميع المؤمنين والمؤمنات يا ارحم الراحمين » (٤٥) . وكان من دعاء السجاد اذا اعتدى عليه أو رأى من الظالمين مالا يجب : « يا من لا يخفى عليه انباء المتظلمين ، ويامن لا يحتاج فى قصصهم الى شهادات الشاهدين ، ويامن قربت نصرته من المظلومين ، ويامن بعد عونته عن الظالمين ، قد علمت يا الهى مانائى من فلان بن فلان مما حضرت وانتهكه منى مما حجزت عليه بطرا فى نعمتك عنده واغترارا بنكيرك عليه . اللهم فصل على محمد وآله وخذ ظالمى وعدوى عن ظلمى بقوتك وافل حد عنى بقدرتك واجعل له شغلا فيما يليه وعجزا عما يناديه ... » (٤٦) ، ولعلنا لاحظنا ان كلمة : قصص تعنى الاوراق التى تكتب فيها المظالم مما كان مصطلحا عليه ايام الدولة العباسية ولم يستعمل هذا اللفظ لاداء المعنى قبل ذلك فيما نعلم . ويرد فى دعائه عند : الشدة والجهد وتعسر الامور ، عاطفة صوفية وبيان جميل كقوله : اللهم انك كلفتنى من نفسى ما انت املك به منى وقدرتك عليه وعلى اغلب من قدرتى . فاعطنى من نفسى ما يرضيك عنى وخذ لنفسك رضاها من نفسى فى عافية . اللهم لا طاقة لى بالجهد ولا صبر لى على البلاء ولا قوة لى على الفقر ، فلا تحظر على رزقى ولا تكنلى الى خلقك بل تفرد

(٤٥) ، (٤٦) المصدر نفسه ٦٥ .

بحاجتي وتول كفايتي وانظر لي في جميع اموري ، فانك ان وكتنتي الى نفسي
عجزت عنها ولم اقم مافيه مصلحتها ، وان وكتنتي الى خلقت تجهموني ، وان
الجبأنتي الى قرابتي حرموني ، وان اعطوا اعطوا قليلا نكدا ، ومنوا على طويلا
وذموا كثيرا • فبفضلك اللهم فاغتنى وبِعظمتك فاعشنى وسعتك فابسط يدي
وبما عندك فاكفنى ••» (٤٧) وفي دعائه في التذلل اسلوب جديد فيه اصالة
وتجديد وحضارة تعز على ابناء القرن الاول الهجرى فالامام زين العابدين
السجاد يقول :

مولاي مولاي انت المولى وانا العبد وهل يرحم العبد الا المولى؟!
مولاي مولاي انت العزيز وانا الذليل وهل يرحم الذليل الا العزيز؟!
مولاي مولاي انت المعطي وانا السائل وهل يرحم السائل الا المعطي؟!
مولاي مولاي انت الخالق وانا المخلوق وهل يرحم المخلوق الا الخالق؟!
مولاي مولاي انت الباقي وانا الفاني وهل يرحم الفاني الا الباقي؟!
مولاي مولاي انت الدائم وانا الزائل وهل يرحم الزائل الا الدائم؟!
مولاي مولاي انت الحي وانا الميت وهل يرحم الميت الا الحي؟!
مولاي مولاي انت القوي وانا الضعيف وهل يرحم الضعيف الا القوي؟!
مولاي مولاي انت الكبير وانا الصغير وهل يرحم الصغير الا الكبير؟!
مولاي مولاي انت المالك وانا المملوك وهل يرحم المملوك الا المالك؟! (٤٨)

وهذا الدعاء الاخير يصلح للحفظ والترنم والذكر لانه بسيط وراقي
وفيه صنعة وفيه عاطفة ورقة وذلة حقة • ومهما يكن من أمر نسبة الصحيفة
الى الامام على بن الحسين فان فيها روحا وزهدا وان فيها رقة وتواضعا وقد
كان السجاد يتصف بها كلها •

(٤٧) الصحيفة السجادية ١٠١ •

(٤٨) المصدر نفسه ٢٧١ •

اما بعد فيم يكن على بن الحسين صاحب مجاهدة ولا كان يلبس الصوف ، بل يروى ابن سعد انه كان يخضب ويلبس فاخر الثياب ويقرر انه لم يكن زاهدا الا في صلاته (٤٩) . وتلك حقيقة يجب ان تبين لان الصوف سيسود العالم الاسلامي بعد على بن الحسين وسرى ابنه وحفيده ممن يلبسونه . فزهد على بن الحسين نفسى وعقلى باطن وذلك اجدى من الزهد القائم على الجوع ولبس الصوف لان الاول يمليه الادراك وتقييمه النظرة العميقة الى الحياة ، اما اللباس فيه تظاهر . وقد رأينا على بن الحسين يساعد ويعين في الخفاء فكان للملامة والفتوة سابقة جميلة . وتوفى الامام السجاد على بن الحسين زين العابدين في المدينة سنة ٩٤ أو ٩٥ بعد أن تعهد غرسه بالرى والسقيا ونشأ ولده الامام محمد الباقر هذه النشأة وكذلك حفيده العظيم جعفر الصادق الذي سرى دوره الكبير في التصوف وبخاصة التأويل الصوفى .

محمد الباقر

وكان محمد بن على الباقر سر أبيه زهدا وانقطاعا اليه وبعدا عن السياسة ، ولكنه برز في ناحية جديدة طال عليها الزمن بعد على ، فان الاحداث التي هزت العالم الاسلامي وانشغال الائمة العلويين الثلاثة بعد على في التطورات التي اصابته العالم الاسلامي لم تمكنهم من التفرغ للعلم ولم تتح لهم حتى الجمع بين العلم والعمل الى ان جاء الباقر بعد ابيه الزاهد هادىء النفس مملوءة بالثقة بعيدا عن الاضطراب النفسى والطموح السياسى فجعل العلم قبلته ولم يعكر صفو هذا الاتجاه معكر طوال حياته . ولم يفارق الباقر الزهد لان المجتمع الاسلامي قد تلون به بحكم الاحداث التي هزته وصرفته عن طلب المال الذي كان سببا في ذبح الحسين وعن الرأى الذى كان داعيا لمذابح الخوارج وعن العقيدة التي كانت ماثارا للمآسى التي نزلت بانصار

(٤٩) ابن سعد ١٦١/٥

المختار ومحمد بن الحنفية من الشيعة وقد لقب الامام الباقر بذلك عملاً بنبوءة للنبي بولادته القاها الى جابر بن عبدالله الانصارى انصحابى الشيعى المشهور الذى كان يقول : «سمعت رسول الله يقول : « انك ستدرك رجلاً منى : اسمه اسمى وشمائله شمائلى ، يقر العلم بقرا» (٥٠) وكانت ولادته بالمدينة سنة ٧-٦٢٦/٥٧ وورث الامامة عن ابيه سنة ١٤-٧١٣/٩٥ وتوفى سنة ٧٣٧/١١٩ على الأرجح (٥١) .

وتجلى فى الباقر الصفة الاساسية فى الشيعة الاوائل من الحفاظ على الاسلام ومحاولة منع من يفعل غير ذلك بالعدل والروية والحسنى ، وقد كان الباقر معاصراً لابي هاشم الذى التف الغلاة حوله ثم عاصر حركة الغلاة وكان - مع ذلك - يؤدى الواجب الذى أخذ الشيعة الاصيلون على عاتقهم اداءه ، فكان يقول لجابر : « بلغنى ان قوما بالعراق يزعمون انهم يحبونا وينالون من ابي بكر وعمر رضى الله عنهما ويزعمون انى امرتهم بذلك . فابلغهم انى الى الله منهم برىء . والذى نفس محمد بيده ، لو وليت لتقربت الى الله بدمائهم ، لانالتى شفاعة محمد ان لم استغفر لهما » (٥٢) وكل هذا مصداق لجوهر التشيع وواجبه المقدس تجاه الاسلام ولهذا فقد كان الباقر يقول : « يا معشر الشيعة : شيعة آل محمد ، كونوا النمرقة (اي الوسادة) الوسطى يرجع اليكم الغالى ويلحق اليكم التالى » (٥٣) ، وفسر الغالى بانه من يقول فيه مالا يقول فى نفسه والتالى بانه المرتاد يريد الخير يؤجر عليه » (٥٤) ، وهذا هو السبب فى ان الائمة لم يدخلوا فى معترك الصفات والجبر والاختيار والقدر ولم

(٥٠) اصول الكافى ١٢٥ ، ابن قتيبة ١/٢١٢ .

(٥٢) حلية الاولياء ٣/١٨٥ .

(٥١) فى الطبرى (ليدن ٢/١٧٠٠) انه توفى قبل خروج زيد بالكوفة سنة ١٢١ .

(٥٣) اصول الكافى ٣٦ ، طرائق الحقائق ١/٣٩ .

(٥٤) المصدر نفسه ٣٦ .

يدلوا بدلوهم فى طريق الكلام المتشعبة الا ليجمعوا الاراء كلها فيخرجوا منها كما دخلت هى فى القرآن • ومعنى هذا ان اصحاب الجبر اختاروا ناحية من القرآن واختار اصحاب الاختيار ناحية اخرى وكذلك الامر فى الصفات، والكل يستند الى آيات من القرآن ، وكان دور الائمة ان يعودوا بهذه الاراء الى القرآن من جديد فيحملوا على التحديد والاختيار ويردوا الامر الى نصابه ، فحين سأل الباقر عن الجبر والاختيار قال : « ان الله ارحم بخلقه من ان يجبر خلقه على الذنوب ثم يعذبهم عليها والله اعز من ان يريد امرا فلا يكون • فسل : هل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة ؟ قال : نعم ، اوسع مما بين الارض والسماء » • فالباقر ينفى الجبر على الاطلاق اولا ثم ينفى الاختيار على الاطلاق ايضا ومعنى هذا انه يجمعهما ثم يجعل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة • وهكذا يعيد الباقر المياه الى مجاريها الحقيقية قيما بواجبه الذى يحتمه عليه جوهر التشيع الاساسى •

وكان الزهد نفسه - كما رأينا - يعنى اجتناب الخروج على الدولة بالسلاح وتجنب الخروج عليها بالرأى ، وتحامى الخروج عليها بالعقيدة المختارة من بين ما يضم القرآن من اشارات ، فالزهد اذن هو البعد عن الدخول فى كفاح باليد او اللسان ، وانما هو الاعتزال ، وكان الباقر ومن قبله ابوه من هذا الرأى ولهذا رأينا الزهاد والمتصوفة بعدئذ يجعلون انصاذاق واباء وجده منهم ويجمعون معهم اسلافهم كما فعل النكلاباذى حين قال فى رجال الصوفية : « ممن نطق بعلومهم وعبر عن مواجيدهم ونشر مقاماتهم ووصف احوالهم قولاً وفعلاً - بعد الصحابة رضوان الله عليهم - علي بن الحسين زين العابدين وابنه محمد بن علي الباقر وابنه جعفر بن محمد الصادق (ر) - بعد علي والحسن والحسين رضى الله عنهم - واويس القرنبي وهيرم بن حيان والحسن بن ابي الحسن وابو حازم سلمة بن دينار المدني ومالك بن دينار وعبدالواحد بن زيد وعتبة الغلام وابراهيم بن ادهم والفضيل

بن عياض . . . (٥٥) ، وكان الباقر - كالزهاد - نفورا من القتال ، وكان ذلك سبب الخلاف بينه وبين اخيه زيد بن علي ، وكان في ذلك يقول : « قلل الله في الصيد : ولاقتلوا الصيد واتم حرم ، فقتل الصيد اعظم ام قتل النفس التي حرم الله ؟ » (٥٦) ، وقد روى ابو نعيم ان هذه المسألة مؤقتة وذكر ان محمدا الباقر قد قال : « ان الله يلقى في قلوب شيعتنا الرعب ، فاذا قام قائمنا وظهر مهدينا كان الرجل اجراً من ليل » (٥٧) ، ثم يحدد الشيعي بانه من اطاع الله عزوجل (٥٧) ، وهكذا يتبين الاندماج - في المبادئ - بين الزهاد والشيعية المعتدلين . وكان الباقر يلوم زيدا على اخذه عن واصل بن عطاء المعتزلي (٦٩٩/٨٠ - ٧٩٨/١٨١) لانه كان يجوز الخطأ على جده (علي بن ابي طالب) (٥٨) ولم يكن ذلك من الباقر تعصبا لجدّه مطلقا بل احالة الى التشيع الاصيل الذي اقترب منه الزهد في تحامى الدخول في تفاصيل عقلية تحدد وتقيد بل كان مبدأ الشيعة الجوهري ان يأخذوا الاسلام كله دون ان يتركوا شيئا منه ثم صار مبدأ الزهاد ان يتركوا كل هذه الامور التفصيلية ويتجهوا الى الله وحده وتلك نقطة تلاق بين الشيعة والزهاد الى درجة ما . فاذا اضفنا الى ذلك نفور الباقر من الغلو تمت له صفة الزاهد ولكن اى زاهد ؟ الزاهد الشيعي الاصيل كابي ذر وسلمان وعمار والشيعة الاوائل . ولهذا فان النظرة الاولى الى محمد الباقر تظهره اماما شيعيا من طراز علي بن ابي طالب من حيث نطقه بالاسرار واندماجه على العلم اللدني . وقد قسم محمد الباقر العلم السري قسمين : « علما لا يعلمه الا هو تعالى وعلما علمه ملائكته ورسله . فما علمه ملائكته ورسله فنحن نعلمه » (٥٩) . وقد شرح

(٥٥) التعرف ١٠-١١ .

(٥٦) اصول الكافي ٩٢ .

(٥٧) حلية الاولياء ٣/١٨٤ .

(٥٨) هذا الخبر مشهور يرد في كتب الفرق كثيرا ، انظر مثلا الملل

والنحل ٦٥/١ .

(٥٩) اصول الكافي ٦١ .

جعفر الصادق ذلك بقوله : « ان سليمان ورث داود ، وان محمدا ورث سليمان ، وانا ورثنا محمدا . وان عندنا علم التوراة والانجيل والزبور وتبيان مافى الالواح » (٦٠) ، ثم اضاف الى ذلك « ليس هذا هو العلم . ان العلم الذى يتجدد يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة » (٦١) . فهذا العلم السرى المستمر يعود بنا الى اراء سلمان وحذيفة . والعلم المذكور لا يبدو محصولا من القراءات والثقافات فقط ، وانما هو استعداد والهيام الهيان وتمكين منه بحيث يستطيع الامام - بما لديه من استعداد روحى شخصى - ان يصدر عن الحق دائما كما وصف ضرار الامام عليا بقوله : « يتفجر العلم من جوانبه » وهذا الذى اكتسبه الائمة بالاعداد والتمكين قد طمح اليه المتصوفة بالمجاهدة وتطهير النفس حتى لقد وجدنا فريد الدين انعطار يصف الباقر كما يصف اى متصوف كبير بقوله : « وكان مخصصا بدقائق العلوم ولطائف الاشارة » (٦١) وهذا جانب فى الشيعة واضح الصلة بالتصوف وسرى تفصيله فى موضعه المناسب .

وقد صب مؤلفو كتب التصوف جوانب الامام الباقر فى قالب صوفى زهدى بحيث بدا واحدا منهم . واول ما يجب ان نلتفت اليه البكاء الذى يضاف الى الباقر المعاصر للحسن البصرى البكاء المشهور وكذلك عاصر الحسن على بن الحسين كما رأينا . وقد سمعنا عليا زين العابدين يعلل بكاءه بفقده العلويين الاربعة عشر الذين قتلوا على مذبح اطماع الامويين : رأهم يقتلون رأى العين فى كربلاء ، فلم ترقأ له دمة طول حياته ، وكانت صورهم تملأ عليه نهاره وليله (٦٢) ، ثم تطورت الفكرة تطورا زهديا عبر عنه زين العابدين بقوله : « فقد الاحبة غربة » (٦٣) ، وهذا محمد الباقر ابنه يقول : « ما اغر ورتت عين

(٦٠) المصدر نفسه ٥٢ .

(٦١) تذكرة الاولياء ٢٦٦/٢ (ترجمة) .

(٦٢) حلية الاولياء ٣/١٣٨ .

(٦٣) صفة الصفوة ٢/٥٣ .

بماثها الا حرم الله وجه صاحبها على النار » • بل ان محمدا الباقر يقسم البكاء كما قسم المعرفة (وقد فعل ابوه كذلك من قبل) (٦٤) فقال : « فان سالت على الخدين لم يرهق وجهه قطر ولا ذلة • وما من شيء الا له جزاء الا الدمعة ، فان الله يكفر بها بحور انخطايا • ولو ان باكيا بكى فى امة لحرّم الله تلك الامة على النار » (٦٥) ، وهكذا نرى جذور البكاء فى الزهد والتصوف حتى تحول الى الذكر الذى يصفى القلوب كما يصفىها بكاء الشيعة على الحسين الذى كانت مجالس البكاء عليه تعقد زمن المأمون (فى نهاية القرن الثانى) جهارا (٦٦) • وقد ربط محمد الباقر البكاء بالذكر صراحة فقال « الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ، ولا تصيب الذّاكر » وقد رأينا البكاء ومنزلته ، فلا بد ان يقترن بالذكر لتمحى الذنوب • وهكذا اسس الشيعة - كما يبدو - جذور المجاهدة فى الذكر بكائهم على شهيدهم •

وقد زكى ابن حجر الباقر صوفيا بقوله فيه : « وانه من الرسوم فى مقامات العارفين ماتكل عنه أسنة الواصفين ، وله كلمات فى السلوك والمعارف لا تحتملها هذه العجالة » (٦٧) ومن تلك الكلمات ما يدخل فى سلسلة السند فى روايته ابو على الروذبارى وسفيان الثورى وذلك فى نقل قول الباقر فى التوكل « الغنى والعز يجولان فى قلب المؤمن ، فاذا وصلا الى مكان فيه التوكل او طناه » (٦٨) ، وقد رأينا التوكل عند الحسين ثم عند على بن الحسين وهذا محمد بن على الباقر • ثم نجد الحب عنده ايضا كما وجدناه عند ابيه من قوله لجابر بن عبد الله الانصارى : « اعلم يا جابر ان اهل التقوى ايسر اهل الدنيا مؤونة ... قطعوا محبتهم لمحبة ربهم ووحشوا الدنيا لطاعة

(٦٥) صفة الصفوة ٦١/٢ •

(٦٤) تفسير على بن ابراهيم ٤١٦ •

(٦٦) الشيعة فى التاريخ ١٨ •

(٦٧) الصواعق المحرقة ١٩٩ •

(٦٨) حلية الاولياء ١٨١/٣ •

مليكنهم» (٦٩) • وهذا النص يرد في اصول الكافي للكليني وهو اهم مرجع لاحاديث الائمة واخبارهم وثبت لاصول الشيعة • ولهذا فان هذا النص يعتبر شهادة شيعية بزهد الباقر المنبني على الظروف الاسلامية الجديدة ، وهذه المحبة التي يعبر عنها الباقر المتوفى بين سنة ١١٧-١٢٦ / ٧٣٥-٧٤٤ سبقت الحب الالهى الذى ظهر فى البصرة وركز فى رابعة العدوية المتوفاة بعد ذلك بحوالى سبعين سنة •

وقد كان التواضع الذى صار من اهم صفات الزهاد - لا المتصوفة - من ابرز صفات محمد بن الباقر وكذلك كان من صفات ابيه ، وقد كان تواضعه مبنيا على نظر ورأى يتصلان بقدر المعرفة الذى يتناسب عكسيا مع الكبر والعجب ، فقد كان يقول : « مادخل قلب ابن آدم شىء من الكبر الا نقص من عقله مثل مادخله من ذلك : قل او كثر» (٧٠) ، واذا صدر من مثل الباقر مثل هذا القول فلا بد ان يكون مثلا اعلى يطمح اليه ومبدأ يطبق • وهكذا اختط للزهد اساسا من اسسه • ولكن فريد الدين العطار لايفلت هذه الفرصة بل رفع من تواضع الباقر حتى جعل منه مقاما ساميا لا يصل اليه اصحاب الكبر والجبروت ، فقد نقل انه سئل احد خواص الباقر : كيف يقضى الامام ليله؟ فقال : « اذا جاء الليل وفرغ من ترديد الاوراد ، قال فى صوت عال : الهى وسيدى ، حل الليل وآنت ولاية تصرف الملوك وظهرت النجوم ونام الخلائق» (٧١) ، وهكذا ارتفع التواضع فى نظر المتصوفة حتى صار جلالا بعده جلال السلطان المادى • وروى عبدالله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١/٧٩٧ حكاية تجعل الباقر كالخضر ، وتجعل له كرامة الصوفية المتأخرين وتنطقه باسلوبهم ، حدث عبدالله بن المبارك قال : « كنت بين مكة والمدينة ، فاذا انا

(٦٩) اصول الكافي ١٨٥ •

(٧٠) صفة الصفة ٢/٦٠

(٧١) تذكرة الاولياء ٢/٢٦٦ ترجمة ، وانظر اول صفحة ١٦٣ من هذا الكتاب •

بشبح يلوح فى البرية ، يصهر تارة ويعيب اخرى حتى قرب منى ، فتأملته فاذا هو غلام سباعى او ثمانى ، فسلم على فرددت عليه السلام فقلت : من اين ؟ قال : من الله ، فقلت والى اين ؟ فقال : الى الله ، فقلت : علام؟ قال : على الله . فقلت : فما زادك ؟ قال : التقوى ، فقلت : ممن انت ؟ قال : انا رجل عربى ، قلت : ابن لى قال : انا رجل قرشى ، فقلت : ابن لى قال : انا رجل هاشمى فقلت : ابن لى ، قال انا رجل علوى ، ثم انشد :

فحن على الحوض رواده نذود ونسعد ورآده
فما فاز من فاز الابنا وما خاب من حينا زاده
ومن سرنا نال منا السرو ر ومن ساءنا ساء ميلاده
فمن كان حقا لنا غاصبا فيوم القيامة ميعاده

ثم قال : انا محمد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب . ثم التفت فلم اره فلا اعلم هل صعد الى السماء ام نزل فى الارض « (٧٢) » ، وقد توفى عبدالله بن المبارك سنة ١٨١/٧٩٧ وهو هنا يروى عن الباقر فى طفولته مع انه توفى قبله باكثر من خمسين سنة . والمهم ان عبدالله بن المبارك كان ممن تفقهوا على سفيان الثورى ، فروايته عن الباقر تجرنا الى ان الزهاد والمتصوفة قد اعجبهم من الائمة الاوائل زهدهم فارادوا ان يجعلوا منهم قدوة يقتدون بها وجعلوا مبادئهم الخلقية والسياسية الموازية لمبادئ الزهاد شيئا يهتدون به ، وكانت اسس التصوف فى بداية وضعها فاستفاد الزهاد من الائمة استفادة ظاهرة حتى رأيناهم فى النهاية ينسبون التصوف كله الى على عن طريق اولاده هؤلاء وسرى ذلك كله فيما بعد . وقد صرح العطار بذلك فقال فى محمد الباقر الذى انهى سيرته كتابه : تذكرة الاولياء مانصه : « ذلك حجة اهل المعاملات ، ذلك برهان ارباب المشاهدات ذلك امام اولاد النبى ، ذلك كريم

(٧٢) طرائق الحقائق ٢/٨٨ عن كشف الغمة .

احفاد علي ، ذلك صاحب الظاهر والباطن : ابو جعفر محمد الباقر رضى الله عنه • والسبب الذى من اجله بدأنا هذه الطائفة بجعفر الصادق - لكونه من ابناء المصطفى عليه الصلاة والسلام - هو السبب الذى ختمنا من اجله هذه الطائفة بالباقر» (٧٣) هذا هو الباقر فى امامته وزهده وشيعته الاصيلة التى حددناها فى اول هذه الرسالة • وقد خلف الامامة لابنه جعفر الصادق الذى سار بكل هذه السبل الى نهايتها واوضح ما كان صعبا على الباحثين الانتباه اليه من شؤون العلم والاسلام والعقيدة •

اما بعد فيجب ان لاتفوتنا ملاحظة مهمة هى ان الباقر قد عاصر حركة شيعية كبيرة صارت منهجا لكثير جدا من الشيعة : حركة تعتمد على نفاذ الصبر والخروج على الظلم بالسيف تحت قيادة رأس علوى هو زيد بن علي • وقد غذى هذه الحركة مارأيناه من مسالة على زين العابدين وبكائه المستمر ومتابعة الباقر لهذه السياسة وهو وصى ابيه ووارث علمه ومقامه ، تلك هى الزيدية التى بدأت سنة ٧٢٩/١٢١ بالكوفة ومازالت باقية حتى الان فى اليمن ، وسنرى ذلك فى الفصل المقبل •

زيد والزيدية

كانت الحركات الزيدية ثورات دموية على انظلم والجور بعد ذلك الركود الذى اصاب الحركات الشيعية بعد قتل الحسين وقد كان جوهر حركات الزيدية قول امامهم الاول زيد بن علي : « ماكره قوم قط حر السيوف الا ذلوا» (٧٤) وزيد هو القائل : « والله لو ددت ان يدي معلقة (بالثريا) فاقع على الارض او حيث اقع فانقطع قطعة قطعة دون ان اصلح بين امة محمد» (٧٥)

-
- (٧٣) تذكرة الاولياء ٢/٢٦٦ (ترجمة)
 - (٧٤) خطط المقرئى ٤/٣٠٩
 - (٧٥) مقاتل الطالبين ١٢٩

وهذا الاصلاح الذى يعنيه زيد هو الخروج بالسيف ، وقد خرج زيد فقتل سنة ١٢١/٧٣٩ فى الكوفة وصلب بعد قتله خمسين شهرا عرياناً ثم احرق (٧٦) فصار مثلاً اعلى لابنائهم وابناء عمومتهم يتأسون به ويضحون بانفسهم فى سبيل تحقيق المثل العليا التى كانوا ينشدون تحقيقها ولقى ابنه يحيى المصير نفسه سنة ١٢٥/٧٤٢ (٧٧) . وكانت حركة زيد اول دعوة التف حولها انصار من المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان والرى وجرجان مع اهل الكوفة انصار العلويين المهودين . ويجب ان نضيف الى ذلك ايضا ان زيدا كان رجلاً شعبياً بكل ما فى هذه الكلمة من معنى وان امه كانت امة سندية اهداها المختار الى ابيه . وكانت حركة زيد وشخصيته تمثلان ثورة على طبيعة الامام الشيعى ، فانه عادة كان رجلاً واحداً يطبعه العلويون والشيعية ، ولكن زيدا سمح لنفسه ان يخرج على امامة اخيه محمد الباقر فاجتمع امامان فى وقت واحد وصارت هذه الخطة منهجاً للزيدية فيما بعد فلم يمنعوا ان يكون لكل ناحية امام على ان يجمع الصفات المطلوبة فيه (٧٨) . وقد سمح زيد لنفسه بامر لم يكن احد من الشيعة يجروء على الظهور به - بله الامام - وذلك انه نزل من علياء الامامة وسموها وامتيازها ورضى ان يتلقى العلم من رجل عادى للعقل عنده المقام الممتاز ، ولا تدخل العناية الالهية ولا السمو الروحى فى عقائده ذلك هو واصل بن عطاء الغزال الذى كان

(٧٦) مروج الذهب ٢/ ١٨٢ .

(٧٧) ذكر ابو الحسين الاشعري (فى مقالات الاسلاميين ١/ ٧٥-٨٥) ثمانية وعشرين ثائراً من آل البيت ابتداء من ايام الحسين الى بداية القرن الرابع الهجرى . ويلاحظ ان الاشعري قد تفادى الاشارة الى الفاطميين ورجالهم وعقائدهم بنه . ولعل لذلك مدخلا الى الحائنة السياسية آنئذ او لعله كتب الكتاب قبل ظهورهم جهاراً . وقد توفى ابو الحسن سنة ٣٢٤ .

(٧٨) الزام النواصب ٨ .

يرى احتمال كون على فاسقا (٧٩) • واتخذ المنهج العقلي المأخوذ عن المعتزلة سبيلة في العقائد الرئيسة للزيدية • وطلع زيد على العالم الاسلامى بمذهب جديد فى الخلافة حل به عقدة طالما ابعدت الناس عن العلويين وشيعتهم • ذلك ان مذهب زيد كان «جواز امامة المفضول مع قيام الافضل» (٨٠) وشرح زيد ذلك بقوله « كان على بن ابي طالب افضل الصحابة الا ان الخلافة فوضت لابي بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها من تسكين نائرة الفتنة وتطيب قلوب العامة» (٨٠) وقد اجاب من ناقشه فى الفرق بين من ظلم حق على دون ان يوسم به ، على رأى زيد ، ومن ظلم العلويين عندئذ بقوله : « ان هؤلاء ليسوا كأوثك : ان هؤلاء (يعنى الامويين) ظالمون لى ولكم ولافسهم ، وانما ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه (ص) والى السنن ان تحيى والى البدع ان تطفأ» (٨١) وقد صرح زيد بانه ما سمع احدا من أهل بيته يتبرأ من ابي بكر وعمر رضى الله عنهما ولا يقول فيهما الا خيرا (٨٢) فخرج زيد من الخلاف الشخصى الضيق وحصر مسألة الخلافة التى حرم على منها فى ظلم وقع على على شخصيا دون ان يشمل الظلم المجتمع والدين • وقد اضاف زيد شرطا شعبيا آخر الى الامام هو ان يكون قائدا حربيا يشترط فيه الخروج (٨٣) (بالسيف) فصار الائمة الزيديون مجموعة من المهديين ولم يحتاجوا - لذلك - فى مذهبهم الى التعلق بفكرة المهدي المنتظر كغيرهم من الشيعة الذين ركبوا الى السكون فى انتظار الخروج مع مهديهم الذى سيخرج بالسيف فى يوم من الايام • وهكذا تميزت الدعوة الزيدية بالمذهب العقلي اخذا عن المعتزلة وقرنت به الرأى فى الفقه الذى اخذته عن ابي حنيفة

(٧٩) الملل والنحل ١/٦٥ •

(٨٠) الملل والنحل ١/٢٥٠ •

(٨١ ، ٨٢) الطبرى ٨/٢٧٢ •

(٨٣) الملل والنحل ١/٢٥٢ •

المتوفى سنة ٧٦٧/١٥٠ وقد قيل: انه كان تلميذا لزيد سنتين^(٨٤) ومهما يكن من شيء فان المنهج العقلي واضح في اخص خصائص مذهب زيد الذي جعل الامام اسانا كالناس يتعلم ويسمع ويتناقش • وقد كان زيد زاهدا شأن المتدينين المخلصين في ذلك الوقت الذي انتشر فيه لبس الصوف تعبيرا عن معارضة صامته ازاء ما فرضه سليمان بن عبد الملك المتوفى سنة ٩٩ وكذلك هشام المتوفى سنة ٧٤٣/١٢٥ من لبس الخبز كما سنرى فيما بعد • وكان زيد « يذكر الله عنده فيغشى عليه حتى يقول القائل : ما يرجع على الدنيا »^(٨٥) ، واخبرنا محمد بن ايوب : « ان اهل النسك كانوا لا يعدلون بزيد احدا »^(٨٥) . وقد اتاح هذا الاتجاه الزيدي - من النزول بالامام من عليائه بالاضافة الى ظهوره بمظهر الزهاد - للمتصوفة فيما بعد ان يطمحوا الى السمو مادامت الامامة قد خرجت من حد النص الالهى وصارت مجموعة من المثل الخلقية تتمثل في رجل « فاطمى عالم زاهد شجاع سخى خرج بالامامة »^(٨٦) « باختيار أهل النحل والعقد لا بالنص »^(٨٧) ، فرأينا مجموعة من الزهاد تلتف حول زيد كمنصور بن المعتز الذي كان يدعو الى الخروج مع زيد^(٨٨) وسفيان الثوري الزاهد المشهور الذي كان الزيديون يعتبرونه واحدا منهم^(٨٩) • ولم يقتصر الامر على التفاف الزهاد حول زيد بل رأينا قوما من شيعة اخيه محمد الباقر يلتحقون بدعوة زيد ويضيفون الى المذهب الجديد ما يسبغ عليه القداسة التي حاول زيد ان يخفف منها ، ومن ذلك ما قاله ابو الجارود المتوفى بعد سنة ٧٦٧/١٥٠ : « الحلال حلال آل

-
- (٨٤) تاريخ الكوفة ٢٢٧ عن الروض النظير ٨ (طبع بومباي ١٣١٥ هـ) •
(٨٥) مقاتل الطالبين ١٢٨ •
(٨٦) الملل والنحل ١/٢٤٩ •
(٨٧) مقدمة ابن خلدون ٢٠٠ •
(٨٨) مقاتل الطالبين ١٤٠ •
(٨٩) المصدر نفسه ١٤٦ •

محمد (ص) والحرام حرامهم والاحكام احكامهم ، وعندهم جميع ما جاء به النبي (ص) ، كله كامل عند صغيرهم وكبيرهم ، والصغير منهم والكبير فى العلم سواء ، لايفضل الكبير الصغير : من كان منهم فى الخرق والمهد الى اكبرهم سنا « (٩٠) » . وهكذا عاد النسمو والتوفيق الالهى والعلم الملدنى فانضا على آل محمد جميعا بعد ان كان متركزا فى الامام المفرد وحده ، وصار الرجل منهم « ليس يحتاج ان يتعلم من احد منهم ولا من غيرهم : العلم ينبت فى صدورهم كما ينبت الزرع المطر ، فان الله - عزوجل - قد علمهم بلطفه كيف شاء» (٩١) . ويجب الا يفوتنا هنا ان ابن عربى يوافق على هذه الفكرة الشيعة بقوله : « ولا يتبعض اهل البيت ... فمن خان اهل البيت فقد خان رسول الله ومن خان ماسنه رسول الله (ص) فقد خانه صلى الله عليه وسلم فى سنته» (٩٢) ، وموافقه ابن عربى تعكس - فى الواقع - ما احسه الصوفية قديما من الروح بالتخفيف من الصعوبة التى تحول دون بلوغ الناس العاديين منزلة الولاية بالمجاهدة والسلوك ، فان تركز الولاية فى واحد والنص عليها نصا الهيا يمنع غير المنصوص عليه بها من بلوغ منزلته ، فجاء الزيدية فازالوا هذا التحد وجعلوا القيادة وحدها للفاطميين وجعلوا العلم شائعا بين الناس يطلبه من يستطيعه ، ولم يجعلوا العلم خاصا ولا سرىا ففتحوا السبيل للجادين لبلوغ مايجدون من اجله ، وهكذا رأينا الطموح الصوفى الى الولاية يتنافس . ومما يوضح هذه الفكرة ان ابن عربى قد تبنى فكرة امامة المفضول التى نادى بها زيد وحل بها اشكال خلافة ابى بكر وعمر ، بل ان ابن عربى ليسند ذلك بخبر يرويه عن النبي ، وذلك ان رسول الله (ص) صلى خلف عبدالرحمن بن عوف بلا خلاف وقضى ما فات» (٩٣) واطاف الى

(٩٠) فرق الشيعة ٥٥ .

(٩١) فرق الشيعة ٥٦

(٩٢) الفتوحات المكية ٤/١٣٩ .

(٩٣) المصدر نفسه ١/٤٤٨ .

ذلك تعليقه « احسنتم اعتبار ذلك ، الفاضل يصلى خلف المفضول ليرقى همته ويرغبه في طلب الانفس والاعلى » (٩٣) ، وبذلك نجد الحل المنشود والتوفيق بين سمو اهل البيت وبين اتاحة الفرصة لغيرهم من المسلمين لبلوغ منزلتهم لا بالنسب والوراثة الروحية بل بالعمل والمجاهدة ، وسنجد الحلقة المفقودة التى تنقص صورة الصوفى فى رقيه المستند الى الافكار الشيعية عند الاسماعيلية بعد بحثنا لجعفر الصادق •

وقد استهوت الحركة الزيدية الغلاة من الشيعة رغم ما بينهما من تناقض فرأينا اصحاب المغيرة بن سعيد العجلي يقولون - بعد موته - بمهدية محمد بن عبدالله الحسن الزيدى الذى خرج بالمدينة سنة ١٤٥/٧٦٢-١٣» (٩٤) • وقد ناصر اصحاب الحديث والفقهاء والزهاد الحركات الزيدية لانهم وجدوا فيها الروح مما كانوا يعانونه من ضيق مادي وعقيدى ، فقد حلت العقيدة الزيدية مشكلة التشيع وصبت الناس فيه ووجدنا مالك بن انس يفتى بالخروج مع محمد بن عبدالله بن الحسن (٩٥) وخرج معه الزاهد عبدالله ابن عطاء وبنوه التسعة جميعا (٩٦) ، وكان سفيان الثورى المتوفى سنة ١٦١/٧٧٧-٨ يقول فيه : « ان يرد الله خيرا بهذه الامة يجمع امرها على هذا الرجل وهى ادركت خيار الناس الا الشيعة » (٩٧) ، وكان الزاهد ابن هرمز الذى بايع زيدا من قبل (٩٨) قد خرج مع محمد بن عبدالله بن الحسن فى محفة وقال : ما فى قتال ولكن احب ان يتأسى بى الناس (٩٩) ،

-
- (٩٤) الملل والنحل ١/٢٩٤ •
 - (٩٥) مقاتل الطالبين ٢٨٣ •
 - (٩٥) مقاتل الطالبين ٢٨٣ والطبرى ٩/٢٠٦ •
 - (٩٦) المصدر نفسه ٢٩٣ •
 - (٩٧) المصدر نفسه ٢٨٩ •
 - (٩٨) تاريخ الكوفة ٣٣٨ •
 - (٩٩) الطبرى ٩/٢٢٩ •

وقد كان ابو حنيفة الذى سمه المنصور سنة ٧٦٧/١٥٠ يرى « ان القتل مع ابراهيم بن عبدالله (اخى محمد) يعدل قتله - لوقتل - يوم بدر ، وشهادته مع ابراهيم خير له من الحياة » (١٠٠) ، ويروى ابو الفرج ان اصحاب الحديث جميعا خرجوا مع ابراهيم بالبصرة (١٠١) مع انها كانت معقل العثمانية .

وأشار ابو الحسن الاشعري الى خروج المعتزلة فى البصرة مع ابراهيم وأنهم قتلوا بين يديه (مقالات الاسلاميين ١/٧٩) . وقد بقى الرأى المعتزلى فى الزيدية منذ نشأته وما زال فيها . وقد كانت حركات الزيدية تلعب بقلوب الناس وتعال اعجابهم لما فيها من اخلاص وتجرد حتى لقد وجدنا العامة من اهل بغداد يتولون الناثر يحيى بن عمر بن الحسن بن زيد (١٠٢) الذى ظهر سنة ٢٥٠/٨٦٤ (١٠٣) .

وكان الائمة الزيديون - كزيد - مجموعة من الزهاد المتقشفين ، بل كان منهم من يسمى بالصوفى كمحمد بن يحيى بن عبدالله بن محمد بن عمر بن على بن ابى طاب الذى قتله الرشيد مجبوسا (١٠٤) ، وكان محمد ابن جعفر الصادق يخرج الى الصلاة بمكة فى سنة ٢٠٠/٨١٥-١٦ بمائتى رجل من الجارودية وعليهم ثياب الصوف وسيماء الخير ظاهر (١٠٥) ، وكان ناثر زيدى آخر يوصف بالصوفى وهو محمد بن القاسم لانه كان يدمن لبس الثياب من الصوف الابيض (١٠٦) .

-
- ٠ مقاتل الطالبين ٣٦٩ (١٠٠)
 - ٠ المصدر نفسه ٣٧٧ (١٠١)
 - ٠ تاريخ الكوفة ٣٦٤ (١٠٢)
 - ٠ مروج الذهب ٢/٤١٠ (١٠٣)
 - ٠ مقاتل الطالبين ٤٠٨ (١٠٤)
 - ٠ المصدر نفسه ٥٤٠ (١٠٥)
 - ٠ المصدر نفسه ٥٤٠ (١٠٦)

وقد يبدو هذا الزهد العام فى أئمة الزيدية عاملا صار له اثر فى الزهد والتصوف ، غير ان الواقع يحكم بخلاف ذلك لان اتجاه الزيدية المعتزلى فى الاصول واتخاذهم الرأى فى الفقه قد طبع عقيدتهم بالطابع العقلى الذى ينفر منه التصوف ، بل كانت الحركات الزيدية تلقى هوى من الناس لانها كانت تشبع روح التذمر فيهم ، والخروج على الدولة ليس من طابع الزهد والتصوف بل العكس هو الصحيح . ذلك لان الخروج يستلزم التجمع ، والزهد والتصوف فرديان ، وقد قال روبم البغدادي فى ذلك : « ما تزال الصوفية بخير ماتافروا » (١٠٧) . وكان عبدالواحد بن زيد يقول فى وصف الزهاد : « القائمون بقولهم على همومهم ، والعاكفون عليها بقلوبهم » (١٠٨) ، وقال السرى السقطى : « من اراد ان يسلم دينه ويستريح قلبه وبدنه ويقل غمه فليعتزل الناس » (١٠٩) . بل لقد ذهب الكلاباذى الى ابعد من ذلك فصرح فى جلاء ان الصوفية : « لا يرون الخروج على الولاية بالنسيف وان كانوا ظلمة » (١١٠) وليس هذا بدعا فى التصوف فان سفيان الثورى نفسه - على تأييده حركة محمد بن عبدالله بن الحسن - الناصر الزيدى - يعيب على ابن خالد الاحمر الزاهد المتوفى سنة ٨٠٥/١٨٥ خروجه مع ابراهيم » (١١١) وكان من الغريب فى الزيدية - وهم شيعة يعتمدون فى الاصل على القيم الروحية - ان تتجرد عقيدتهم هذا التجرد الواضح من الروحانيات - ولم يكن ذلك بالامر الطبيعى - ولهذا فان الزيدية مالت قليلا قليلا عن هذا الجفاف فدخلها - اول مادخلها - رأى الجارودية (وهم فرقة من الزيدية) التسوية فى العلم بين صغير آل محمد وكبيرهم وهو العلم

-
- (١٠٧) الرسالة القشيرية ١١٦ .
 (١٠٨) اللمع ٢٥ .
 (١٠٩) طبقات الصوفية ٤٨ .
 (١١٠) التعرف ٣٣ .
 (١١١) مقاتل الطالبين ٣٥٦ .

النبي» (١١٢) ثم ادخل ابو الجارود النص على امامة على على صورة مخففة هي النص بالوصف لا بالاسم . وقد كان ابو الجارود من انصار محمد الباقر من قبل . وكان السليمانية - وهي فرقة زيدية - اتباع سليمان بن جرير يكفرون عثمان وطلحة والزبير وعائشة ، (١١٣) وتلك من سمات الشيعة بعد على وان تكن فيها سمات التقاليد المعتزلية . ومن الطريف انهم لم يستطيعوا الاستمرار على تطبيق مانادوا به من امامة المفضول وذلك ان الشهرستاني يخبرنا انهم « مالوا بعد ذلك عن القول بامامة المفضول وطعن في الصحابة طعن الرافضة » (١١٤) .

وكان اصل كتاب الجفر الذي حوى علم ماسيق لاهل البيت على العموم ولبعض الاشخاص منهم على الخصوص مرويا عن جعفر الصادق عن طريق راوية زيدى هو هرون بن سعيد العجلي وكان من رؤوس الزيدية القدامى (١١٥) ونحن نعلم ان المعجزات والكرامات والنبوءات امور تنكرها المعتزلة والزيدية التي اتصلت بها واخذت عنها ، غير ان الكرامات بدأت تقترن بالائمة الزيديين ابتداء من المنصور بالله القاسم بن على العياني الذي ظهر في الشام وانفذ رسله الى اليمن سنة ٣٨٨/٩٩٨ « وكانت كراماته لاتحصى » (١١٦) وكانت للحسين بن قاسم (٣٨٤-٤٠٤/٩٩٤-١١٤) كرامات ايضا (١١٦) ، ويصف الشيخ الواسعي الامام الهادي الحقينى المتوفى سنة ٤٩٠ بانه « كان معه من العلم مايكفى اثني عشر اماما » (١١٧) ، وكان الامام الكيسمى الحسينى مستجاب الدعوة (١١٧) ، وكان الامام المتوكل على

-
- (١١٢) فرق الشيعة ٥٥ .
 - (١١٣) الملل والنحل ١/٢٥٩ .
 - (١١٤) المصدر نفسه ١/٢٥٤ .
 - (١١٥) مقدمة ابن خلدون ٣٣٤ .
 - (١١٦) تاريخ اليمن ٢٥ .
 - (١١٧) المصدر نفسه ٢٨ .

الله (٥٠٠-٥٦٦/١١٠٦-١١٧١) يقول الشهر الفصيح في حال الطفولية (١١٨) ، وكان الامام المنصور بالله (٥٦١-٦١٣/١١٦٥-١٢١٧) فرغ من قراءة القرآن وهو في الرابعة من عمره وفي هذا التاريخ كان يتأسف على تفريطه بالعلم (١١٨) ، وهكذا غلبت على تطبع الزيدية طبيعة الشيعة الاصلية . ويقرر الشيخ صالح المقبلي ان ثلب بعض الصحابة قد عاد الى الزيدية شأن الشيعة الاقدمين مع ان الامام المنصور بالله الزيدى كان يقول « لا اسأل عن عدالة ثلاثة قرون » (١١٩) . بل ان الزيدية يقولون بالتقليد (١٢٠) وهو من اهم مميزات الشيعة في الفقه . والتقليد هو ان ينتخب الشيعي فقيها يجعله شيخا له ومعتمدا في معرفة الحلال والحرام ويسلم اليه زكاته وخمسه ويستشيريه في امور دينه بعد ثقته في صدقه وعدالته ونزاهته وصدق تدينه . وصار الاجتهاد عنصرا مهما عند الزيدية كما هو كذلك عند الشيعة الامامية ، وقد اقتضت طبيعة الزيدية التي تجعل الامامة في من يجمع الناس على عدالته ونزاهته وشجاعته ان تختار القول بالاجتهاد ، وهو اتجاه شيعي امامي . بل لقد اختاروا في الفقه ان يكونوا مصوبة يرون ان كل مجتهد مصيب وتلك فكرة دخلت الزيدية من ايام المهدي ابي عبدالله الداعي (١٢١) . ولقد دخل الحذر الذي يقرب من التقية التي حاربها الزيديون في عقيدتهم لانهم يحرمون صلاة الجمعة في بلد السلطان ليس على شرطهم (١٢٢) ولعل ذلك يعني تجنب الفتنة وهو داخل في التقية كما يبدو . بل لقد عاد الزيديون الحائون الى ما تجنبوه من صدام مع الفرق الاخرى من اقامة الحداد على الحسين وما كان يتبع ذلك من اثمارة للاحقاد

-
- (١١٨) تاريخ اليمن ٢٩ .
(١١٩) العلم الشامخ ٣٠٧ .
(١٢٠) المصدر نفسه ٣٦١ .
(١٢١) المصدر نفسه ٣٧٧ .
(١٢٢) المصدر نفسه ٣٥٢ .

وهم الان يفعلون ، (١٢٣) واخيرا يخبرنا امين الزيحاني ان العصمة لحقت ائمتهم فى القرن العشرين ، ولعلها كانت كذلك من قبل (١٢٤) . وهكذا نفرغ من الزيدية التى تميزت باستغنائها عن المهديّة باستمرار الامامة عندهم على ان يكون الامام رجلا عادلا ورعا نزيها ينتخبه الناس ويشترط فيه ان يكون من نسل الحسن او الحسين ، ويخبرنا الشيخ المَقْبَلَى ان العوام فى اليمن يكادون يلحقون الامام بالنبي ويحاربون معه بلا جعل كسائر الملوك (١٢٥) . ونعود من هذه الجولة - التى رأينا فيها الزيدية قد حررت الصوفية من القيد الذى تقيد به الشيعة من جعل الامام فى مقام لا يمكن لانسان اخر ان يرتقى اليه - نعود الى التشيع من جديد لنرى ماجد عليه حين رجعت الامامة من محمد الباقر اخى زيد الى جعفر بن محمد الصادق الذى عرف بانه اشهر واظهر امام عند الشيعة .

جعفر بن محمد الصادق

وجاء الصادق جعفر بن محمد بن على بن الحسين فأرسى للتشيع أسسه وأقام بناءه ، فقد تفرغ هو كما تفرغ ابوه من قبل - للعلم وخدمته ، وترك السياسة والملك لظالبيهما وما كان اكثرهم . فقد عاصر الصادق حركة الغلوفى اعنف مراحلها وحركة ابى مسلم الخراسانى وحركة عبدالله بن معاوية وحروب مروان بن محمد وحركات الخوارج وحركة الزهد ثم حركات الزيديين ، حتى استقر الامر واستوت الامور لابي جعفر المنصور . وظل الصادق فى كل هذا بمنأى عن التيارات واصر على ماهو فيه من انقطاع للعلم . وقد خدم الصادق وابوه الباقر العلم نصف قرن من الزمان فى وقت كان المجتمع العربى فيه طافحا بالنشاط العقلى والحربى . وقد كان الصادق

(١٢٣) ملوك العرب ١/٩٠ .

(١٢٤) المصدر نفسه ١/١٠٢ .

(١٢٥) العلم الشامخ ٣١٨ .

وابوه ابرز ائمة الشيعة بلا منازع ، وقد اجمع الباحثون على فضل الصادق لهذا التجرد للعلم فقال فيه الشهرستاني : « وهو ذو علم غزير في الدين وأدب كامل في الحكمة وزهد في الدنيا وورع تام عن الشهوات . وقد اقام بالمدينة يفيد الشيعة المنتمين اليه ويفيض على الموالين له اسرار الحكمة . ثم دخل العراق و اقام بها مدة ما تعرض للإمامة قط ولا نازع احدا في الخلافة ، ومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شط ومن تملّى الى ذروة الحقيقة لم يخف من حط» (١٢٦) . وقد نقل ابو نعيم عن عمرو بن المقدم قوله : « كنت اذا نظرت الى جعفر بن محمد علمت انه سلالة النبيين» (١٢٧) . ويجب ان نذكر - قبل ان يستغرقنا البحث ان المنصور هو الذي اطلق عليه لقب الصادق (١٢٨) لانه تنبأ له بان امر الخلافة سيكون للعباسيين بعد الامويين، وتنبأ بالقتل للتوار العلويين (١٢٩) ، ولعل هذا هو سر استطاعة الصادق نزول الكوفة دون ان يتعرض له السلطان بالمطاردة والحرب ، ولعل المنصور قد شجعه على ايثار العلم ليخفف من اندفاع الشيعة للتورة عليه مع الزيديين .

وقد كان الصادق استاذا لجيله المعاصر ، ويرى دونالدسون انه « قد كانت له شبه مدرسة سقراطية» (١٣٠) ويجعل جرجي زيدان من تلامذته ابا حنيفة المتوفى سنة ٧٦٧/١٥٠ ، ومالك بن انس المتوفى سنة ٧٩٥/١٧٩ وكذلك واصل بن عطاء شيخ المعتزلة المتوفى سنة ٧٩٧/١٨١ (١٣١) ، ويضيف اليهم ابن حجر : يحيى سعيد وابن جريج وشعبه وايوب

-
- (١٢٦) الملل والنحل ١/٢٧٣
 - (١٢٧) حلية الاولياء ١/١٩٣
 - (١٢٨) مقاتن الطالبين ٢٥٦
 - (١٢٩) المصدر نفسه ٢٠٦
 - (١٣٠) عقيدة الشيعة ١٤٨
 - (١٣١) الامويون والعباسيون ١٥٣

السختياني (١٣٢) ، ويورد ابو نعيم قائمة طويلة من تلامذته والرواة عنه منهم :
 مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح المشهور (١٣٣) . وروى النجاشي انه
 كان في مسجد الكوفة وحده تسعمائة شيخ من تلاميذه (١٣٤) . ويرى السيد
 أمير على ان « مدرسة الصادق في المدينة كانت استمرارا لمدرسة علي بن ابي
 طالب من قبل » (١٣٥) ، وقد نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان
 وانتشر صيته في جميع البلدان (١٣٦) . وكان هذا المقام داعيا لكثرة النسبة
 اليه حتى عاد هذا الاجماع على فضله والاخذ عنه مورثا للضد منه الى حد دفع
 البخاري الا يروى عنه شيئا من حديثه (١٣٧) .

وقد علل الكشي - وهو من اوائل مصنفى الشيعة - ذلك بخبر نقله عن
 شريك حين سأله رجل عن علة تضعيف حديث الصادق ، فرأى أنه « كان
 ابن محمد رجلا صالحا مسلما ورعا ، فاكتفه قوم جهال يدخلون عليه
 ويخرجون من عنده ويقولون : حدثنا جعفر بن محمد ويحدثون باحاديث
 كلها منكرات كذب موضوعة على جعفر يستأكلون الناس بذلك ويأخذون
 منهم الدراهم » (١٣٨) . وقد استمر الصادق محافظا على رسالة الشيعة
 من الاستقلال في العقيدة وتجنب اختيار وجه منها وتفضيله على آخر كما
 كان المجتمع الاسلامي يفعل وقد كانت سورة الآراء المتناحرة في الصفات
 والخلق والجبر والقدر وغيرها على اشدها يومئذ . ولهذا فقد كان الصادق
 يقول في الارادة : « ان الله تعالى اراد بنا شيئا واراد منا شيئا ، فما اراده بنا

(١٣٢) الصواعق المحرقة ١٩٩ .

(١٣٣) حنية الاولياء ١٩٨/٣ .

(١٣٤) كتاب الرجال ، بومبي ١٣١٧ ، ٢٩ .

(١٣٥) مختصر تاريخ الاسلام ٧٦ .

(١٣٦) الصواعق المحرقة ١٩٩ .

(١٣٧) ضحى الاسلام ٢٦٥/٣ .

(١٣٨) معرفة اخبار الرجال ٢٠٨ .

طواه عنا ، وما اراده منا اظهره لنا . فما باننا نشتغل بما اراده بنا عما اراده منا ، (١٣٩) ، ويضيف الشهرستاني الى ذلك معلقا بقوله : « وهذا قول في القدر هو امر بين امرين : لاجبر ولا تفويض » (١٣٩) .

وقد تبني المتصوفة نحووا من هذا الاتجاه وحاولوا الاستقلال عن خصومات الفرق ومتكلميها ، فقال ابن عربي :

فان قلت بالتنزيه كنت مقيدا وان قلت بالتشبيه كنت محمدا
وان قلت بالامرين كنت مسودا وكنت اماما بالمعارف سيدا (١٤٠)

ويروي الكيني ان الصادق كفر المرجئة والقدرية والحسوية (١٤١) ويضيف اليه قوله : « فان الكلام في الله لايزداد صاحبه الا تحيرا » (١٤٢) . ولكن الفرق الاسلامية - على اختلافها - ادعت الصادق لنفسها ، فقد نفى عنه الشهرستاني القول بالغية والرجعة والبدأ والتناسخ والحلول والتشبيه (١٤٣) ، مع ان امامة موسى بن جعفر ولده قد وصلت به البدء الذي رأيناه عند اصحاب المختار اولا ، وكذلك انتقلت الامامة الى الحسن بن علي الامام الحادي عشر من اخيه بالبدء ايضا . اما الحلول والتشبيه

(١٣٩) الملل والنحل ١/٢٧٣ .

(١٤٠) ورقة ٧٨ب في المخطوط المرقم 3684 O. في المتحف البريطاني بلندن الذي يتضمن رسائل ومقالات صوفية .

(١٤١) اصول الكافي ٢٣٤ .

(١٤٢) المصدر نفسه ٢٠ .

ويورد ما سينيون عن تفسير البقلي عبارة تبين اتحاد نور محمد بالائمة وكونهما من عنصر واحد اذلي ، فروى عن الصادق انه قال : « اول ما خلق الله نور محمد (ص) قبل كل شيء واول ما اوجد الله - عز وجل - من خلقه ذرة محمد - صلعم - واول ما جرى القلم : لا اله الا الله ومحمد رسول الله » (الطواسين ١٥٩ «التعليقات» عن تفسير البقلي) .

(١٤٣) الملل والنحل ١/٢٧٣ .

والرجعة والغيبة فان الشيعة قد اضافوها اليه فعلا كما اضافوها الى سابقه وكانت تلك العقائد ضرورة ماسة لهم • وقد تعلق الغلاة بالصادق ايضا حتى الهوه (١٤٤) ، ومنهم من جعل منه مهديا منتظرا (١٤٥) ، وسنرى منزلته في الزهد والتصوف في موضعها • وعلينا الآن ان نتدر فنقول : ان من كتب عنه من سائر الباحثين انما جعله اماما للشيعة كما رأينا ذلك عند الشهرستاني • فالامامة الشيعية تغطي عليه وتغلب على احاديثه وافكاره ، ولكنها امامة علمية وروحية ليس من جوهرها السياسة والمادة • وقد روى لنا الكليني ان الصادق يرى للائمة منزلة روحية سامية تقرب من منزلة النبوة الا انهم ليسوا بانبياء ولا يحل لهم من النساء ما يحل للنبي ، اما ماعدا ذلك فهم بمنزلة النبي (١٤٦) ، وهو بذلك يجعل لهم مقام الابلاغ عن النبي وكأن تعاليمهم هي تعاليم النبي نفسها • وذلك ان الامامة وراثه روحية وهي من صلب تعاليم الاسلام وردت - كما يرى الشيعة - في القرآن ، ومن ذلك ما رواه ابو بصير عن جعفر الصادق قال : « سالت ابا عبدالله (يعني الامام الصادق) عن قوله عز وجل : اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم (١٤٧) فقال : نزلت في علي ابن ابي طالب (ع) والحسن والحسين (١٤٨) ، بل ان الكليني يروي لنا ان الامامة حلقة في سلسلة النبوات في العالم كله بنقله عن ابي عبدالله ايضا انه « اوصى موسى الى يوشع بن نون ، واوصى يوشع الى ولد هارون ولم يوص الى ولده ولا الى ولد موسى ، ان الله له الخيرة يختار من يشاء ممن يشاء ، وبشر موسى ويوشع بالمسيح فلما بعثه الله عز وجل قال المسيح : انه سوف يأتي من بعدى نبي اسمه احمد من ولد اسماعيل : يجيء بتصديقي وتصديقكم

-
- (١٤٤) فرق الشيعة ٤٢
 - (١٤٥) الملل والنحل ١/٢٧٣
 - (١٤٦) اصول الكافي ٦٥
 - (١٤٧) النساء : ٥٩
 - (١٤٨) اصول الكافي ٧٠

وعذرى وعذرکم» (١٤٩) وهكذا تصل الامامة بالنبوة فى رأى الصادق وسندها القرآن دائما • ولكن الكلينى يورد لنا خبرا لا يتسق هو وهذه الاخبار ، وذلك انه جعل النص على الامامة واردا فى وصية مستقلة عن القرآن كما يروى لنا معاذ بن كثير بن ابى عبدالله ان « الوصية نزلت من السماء على محمد كتابا لم ينزل على محمد كتاب مخوم الا الوصية » (١٥٠) • وهو بذلك يفتح بابا لم يعلق من خصوصية الائمة واستقلالهم الروحى عن البشر • ويستتبع هذا طبعاً ان يكون الائمة من طينة غير طينة البشر فروى عن ابى عبدالله قوله : « ان الله خلقنا من طينة مكنونة تحت العرش فاسكن ذلك النور فينا فكننا نحن ، خلقنا بشرا نورانيين » (١٥١) ، ولولا هذه الطينة لصار الائمة مخلوقين من نور ، والنور والنار عنصر واحد وبذلك تقوم الصلة بين التشيع والثنوية ، ولكن هذه الطينة قد عزلت هذا الرأى وجعلته شيئاً قائماً بذاته • ويعود ذلك بنا الى النور الذى اسبغه عبدالله بن الحارث على عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن ابى طالب واخذ به الغلاة واسبغوه من جديد على جعفر بن محمد الصادق ومقاتلهم فى ذلك انه : « كان النور الذى هو الله فى عبدالمطلب ثم صار فى ابى طالب ثم صار فى محمد ثم فى على ابن ابى طالب : فهم ائمة كلهم » (١٥٢) ، وكانت تلك العقيدة مبدأ بزيع ومعمار (المعاصرين لابي عبدالله) • وتؤدى بنا هذه الافكار الغنوصية الى روحانية الامام وشمول الله له بالعناية والرعاية بحيث كان لدى الصادق والائمة كتابان سريان هما الجعفر والجماعة فيهما اسرار العلم واسماء الانبياء

-
- (١٤٩) اصول الكافى ٧٣ •
(١٥٠) المصدر نفسه ٦٧
(١٥١) المصدر نفسه ١٠٢ •
(١٥٢) فرق الشيعة ٤٣ •

والملوك (١٥٣) وكان لديه مخلفات الرسول وغيره من الانبياء ، لان الامام وارث علومهم ومخلفاتهم كألواح موسى وعصاه وخاتم سليمان بن داود بالاضافة الى سيف رسول الله ورايته ودرعه الخ (١٥٤) وكان سلاح رسول الله (ص) هو علامة الامامة فان الامام الشرعى هو الذى يحتفظ به عنده ويسلمه الى الامام التالى كما كان التابوت فى بنى اسرائيل ينتقل من نبي الى نبي (١٥٥) . وهكذا تتعد بساطة الاسلام فى الامامة الشيعية بحيث يحتاج لباحث الى بذل الجهد الشديد فى الفهم والربط . ويؤدى بنا امتياز الائمة فى الخلق والخلق الى البحث فى جوهر علمهم ، بينما يروى الكلينى حديثا ينفى فيه الصادق علم الغيب عن الائمة يقابلنا حديث آخر يقرر فيه الصادق نفسه « ان الامام اذا اراد ان يعلم علم » (١٥٦) ويذكر « ان سليمان ورث داود وان محمدا ورث سليمان وانا ورثنا محمدا . وان عندنا علم التوراة والانجيل والزبور وتبيان مافى الالواح » (١٥٧) وهذا الذى ذكرناه يعود بنا الى وحدة العلم لدى الانبياء كما وجدنا عندهم وحدة من نور النبوة الالهى وهذا يدفعنا دفعا الى عقد صلة بين هذه الافكار السابقة كلها ومبادئ المتصوفة فى كل خصيصة من خصائص الشيعة غلاة ومعتدلين . ثم يسأل الصادق سائل عن حدود العلم وهل هو العلم الذى ذكره ممتدا من التوراة والكتب السماوية السابقة الى القرآن ومعرفة اسرارها كلها فاجاب الصادق : « ليس هذا هو العلم ، ان العلم الذى يحدث يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة » (١٥٨) . وذلك يستتبع العناية والتوفيق الالهيين وان لدى الامام استعدادا وموهبة لتلقى ذلك العلم ونفع الناس به فى حياتهم . وقد رأينا أسرار العلم وخطر البوح بها

(١٥٣) اصول الكافي ٥٧ .

(١٥٤) المصدر نفسه ٥٤ .

(١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦) المصدر نفسه ٥٤ .

(١٥٧ ، ١٥٨) المصدر نفسه ٥٢ .

كما هي لما قد يحدث من اعراض بعض الناس عن التصديق بها ولذلك روى عن الصادق عن الرسول انه (ص) قال : « انا معاشر الانبياء نكلم الناس على قدر عقولهم » (١٥٩) وتلك مقالة اخرى دخلت التصوف من التشيع مما رأيناه من أقوال الحلّاج الذي دفع حياته ثمنا لبوحه باسرار ما كان له ان يوح بها ، وكان ذلك نفسه دافعا للصادق الى الاجابة على سؤال رجل واحد اجابته مختلفين بحسب عقلية السائل مرة ومحافظة على التقيّة مرة اخرى كما حدث لعمر بن الرياح الذي انكر امامة الصادق لانه اجاب على سؤال واحد اجابته متخالفين (١٦٠) ، وكان الصادق يقول « وددت والله اني افتديت خصلتين في الشيعة لنا ببعض لحم ساعدي : النزق وقلة الكتمان » (١٦١) ، ولعل هذا الخبر يفسر السبب في اختلاف اجابات الصادق . والظاهر من هذه انكلمات ان التشيع قد دخل في الطور السري خوف السلطان وخشية ان يقرن بالثورة ، فأثر الصادق ان يحصر تعاليمه في اضيق الحدود ، وكان مقامه العلمي في العالم الاسلامي يسبب له ان يروى عنه ما قال ومالم يقل ولاسيما من شيعة ولهذا وجدناه يقول : « ليس من احتمال امرنا التصديق له والقبول فقط . من احتمال امرنا ستره وصيائته من غير اهله . . . » (١٦٢) وذلك يفيد انه قد صار على الائمة ان يكافحوا في جبهتين - كما فعل ابن الحنفية من قبل - عليهم اولا ان يبصروا الناس بحقيقة الاسلام وثانيا ان يكبحوا جماح انصارهم ويرقبوا روايتهم الاحاديث الكثيرة عنهم مستغلين بذلك قريتهم منهم وثقة الائمة بهم . وكانت سياسة الصادق للغلاة هي نفس سياسة ابن الحنفية - وهي مصداق هذا الذي رأيناه - فقد قال الصادق : « لاتقاعدوهم ولا تؤاكلوهم ولا تشاربوهم ولا تصافحوهم ولا تتناكحوهم ولا توارثوهم » (١٦٣)

(١٥٩) اصول الكافي ٥٢ .

(١٦٠) فرق الشيعة ٦٠

(١٦١ ، ١٦٢) اصول الكافي ٢٠٦ .

(١٦٣) معرفة أخبار الرجال ١٩١ .

ويبدو ان الصادق - بحكم علمه الغزير وانقطاع كثير من الناس اليه ونسبه العلوى - قد اضيف اليه علم كل ما كان فى عصره من معرفة • وليس ذلك غريبا فقد رأينا العلوم الاسلامية كلها تضاف الى جده على بن ابي طالب ، ولهذا فقد اضيف الى الصادق فيما اضيف كلام فى الكيمياء والزجر والفأل وازافوا اليه كتاب الجفر الذى يخبرنا ابن خلدون ان « هارون بن سعيد العجلي - وهو رأس الزيدية - كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق وفيه علم ما سيقع لاهل البيت على العموم ولبعض الاشخاص منهم على الخصوص : وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالهم على طريق الكرامة والكشف الذى يقع لثلاثهم من الاولياء ، وكان مكتوبا عند جعفر فى جلد ثور صغير ، فرواه عنه هارون بن سعيد العجلي وكتبه وسماه باسم الجلد الذى كتب فيه » (١٦٤) ومع هذا فان ابن قتيبة يروى ان هارون هذا قد تسرأ من الجفر ومن تجفر (١٦٥) • وقد دخلت هذه الكتب السرية فى التصوف وقد نقل لنا الاستاذ سعد محمد حسن انه « كان تناول هذه الكتب وشرحها موضع اهتمام المشتغلين بالسحر والطلاسم • وكثيرا ما اسهم الصوفى الكبير محبى الدين بن عربى وحجة الاسلام الغزالى بنصيب كبير فى الاشتغال بهذه الكتب » (١٦٦) •

وقد نشر بول كراوس مجموعة من رسائل جابر بن حيان نجد فيها تعاليم جعفر الصادق فى الكيمياء تختلط فيها الفلسفة اليونانية بالاسرار والغنوص وتبدو عليها مسحة متأخرة • وفى كتاب اخراج مافى القوة الى الفعل يقرر الصادق ان معنى الطلسم مقلوبة (اى مسلط) « من جهة الغلبة والتسليط » (١٦٧) والواقع ان الكلمة يونانية معربة (١٦٨) من (Talisma)

-
- (١٦٤) مقدمة ابن خلدون ٣٣٤ •
(١٦٥) عيون الاخبار ١٤٥/٢ •
(١٦٦) المهديّة فى الاسلام ٨٣ •
(١٦٧) مختار رسائل جابر بن حيان ٧٨ •
(١٦٨) انظر شفاء الغليل لاحمد الخفاجى «مصر ١٣٢٥» ، ١٣٢ •

ويروى جابر « فخررت ساجدا فقال : لو كان سجودك لى - وحدك - لكنت من الفائزين • قد سجد لى آباؤك الاولون وسجودك لى يا جابر سجودك لنفسك...» (١٦٩) • ونجد فى موضع آخر تعرضا للحدود وذكرنا للهولى والمادة ونجد حد العلم النورانى : انه العلم بحقيقة النور الفاض على الكل ، وحد العلم الظلمانى : انه العلم بالضد للنور وكيفية مضادته له ولميته (من أداة الاستفهام لم) وانما لم نذكر الهلية والمائة (من : هل و ما) فى هذا العلم لان العلم باحد الضدين علم بالاخر فى الجملة ••• وحد العلم الباطن انه العلم بعلل السنن واغراضها الخاصة الملائقة بالعقول الالهية» (١٧٠) وتعرض الرسائل للاكسير وتعرف العلم به بانه « العلم بالشيء المدبر الصابغ الثقال لاعيان الجواهر الذائبة الخسيسة الى اعيان الجواهر الذائبة الشريفة •• وحد العلم بلحجر الذى هو المادة للاكسير : هو العلم بالذات التى تحتاج الى تبديل اغراضها لتصير اكسيرا •••» (١٧١) ، وتبدو الكيمياء هنا نوعا من السلوك المادى ينصب على العناصر كما ينصب السلوك الانسانى على الانسان حتى يجعل منه مخلوقا ساميا شريفا • ويذكر جابر بن حيان فى موضع آخر : « ان جميع ما يمر بك فى هذه الكتب مما ذكرناه لسيدنا (ع) فيه اغراض لايمكن كشفها لك • ولو كشفت لك ما هو فيها حتى تكون مثل جابر بن حيان ، فاذا كنت مثله لم تحتج الى ان يكشف لك عنها كما لم يحتج هو الى ذلك» (١٧٢) • وهكذا تبدو هذه الرسائل على صورة محاورات

(١٦٩) مختار ٧٨ •

(١٧٠) المصدر نفسه ١٠٤ •

وينبغى ان ننبه هنا الى ان ابا يعقوب السجستاني ، من اسماعيلية القرن الرابع ، يروى ان «الحكماء يرون ان معرفة الاشياء تتم باربعة أدوات : هل وما وكيف و لم ، (كشف المحجوب للسجستاني ، طهران ١٩٤٩) •

(١٧١) مختار ١٠٦-١٠٧ •

(١٧٢) المصدر نفسه ١١٦ •

افلاطون التي يرويها عن استاذة سقراط • وقد كان هذا العلم الكيمياوى من الاسرار ايضا ، وقد قال فيه الصادق : « والله يا جابر ، لولا انى اعلم ان هذا العلم لا يأخذه الا من يستأهله ، واعلم علما يقينا انه مثلك لامرتك بابطال هذا الكتاب من العالم » (١٧٣) •

ويصطبغ ميل جابر بن حيان بالصبغة الاسماعيلية المتأخرة التى تنحو منحى غنوصيا حين يعرض للاشخاص الذين يكونون سلم علم الباطن وهم خمسة وخمسون اولهم النبى ثم الامام فالحجاب بالبسيط فالسابق فالتالى فالاساس ••• وهكذا حتى تنتهى السلسلة بالناسك فالحياة فالناهى فذى الامر الذى اذا ظهر فلا بد له منهم ، اذ كان كل واحد منهم مندوبا لامر لا يخالطه فيه غيره» (١٧٤) ، وتؤكد اسماعيلية جابر فى المقالة السابعة والثلاثين التى يذكر فيها « اذا استقامت الامامة والافنوة جديدة والقوم قد نصبوا لكل دور ستة اشخاص » (١٧٥) وتفاصيل الاسماعيلية سترد فى فصل مستقل • ويجب ان نذكر بان جابر بن حيان يجمع بين الغلاة والصوفية - فى رسائله المزعومة - فى الاعتقاد بان الشخص الواحد يجمع الظاهر والباطن وينص على ان ذلك هو المفوض عند الغلاة والصوفية» (١٧٦) ومهما يكن من أمر صحة نسبة هذه الرسائل الى جابر بن حيان فان فيليب حتى يذكر « ان البحث العلمى الحديث قد انكرها » (١٧٧) ، ولكن ما يعيننا من ذلك ان جابر بن حيان الذى كان يسمى صوفيا وان ابا هاشم الكوفى الذى يسميه صاحب طرائق الحقائق مخترع الصوفية كان معاصرا لجابر وكان كلاهما معاصرا للامام الصادق (١٧٨)

-
- (١٧٣) مختار رسائل جابر بن حيان ٣١١ •
(١٧٤) المصدر نفسه ٤٨٩ •
(١٧٥) المصدر نفسه ٤٩٣ •
(١ ٦) المصدر نفسه ٤٩٩ •
(١٧٧) تاريخ العرب ٣/٣٢٥ •
(١٧٨) طرائق الحقائق ١/١٠١

والملاحظ ان الكيمياء قد اقترنت بالتصوف عند اول ظهوره وكان الصادق
استاذ اول رجل اطلق عليه هذا الاسم • والظاهر ان الكيمياء اليونانية التي
تعتمد على الاكسير وتطمح الى تحويل المعادن الخسيسة الى شريفة هي الجسر
المادى الذى استعان به الزهاد لتحويل النفس الارضية الى نفس سماوية ثم
انفصل • ويجب ان نذكر ان ذا النون المصرى الذى يقرب اسمه دائما باسم
جابر بن حيان « كان منتجلا لصناعة الكيمياء وتقلد علم الباطن والاشراف
على كثير من علوم الفلسفة » (١٧٩) ويورد ابو نعيم اهتمام ذى النون بالعقل
كما اهتم جابر تلميذ الصادق بالعقل ايضا ، ويلاحظ نيكلسون ان « الكيمياء
والسحر قد اتصلا منذ عهد بعيد بصلات وثيقة بعلم الطلسمات
والثوسوفيا » (١٨٠) وقد كان خالد بن يزيد بن معاوية - وكنيته ابو هاشم -
اول من اهتم بالكيمياء كما يخبرنا بذلك الطبرى « (١٨١) فدعا جماعة من
اليونانيين المقيمين فى مصر وطلب اليهم ان ينقلوا له كثيرا من اكتب اليونانية
والقبطية التى تناولت البحث فى صناعة الكيمياء العملية » (١٨٢) ، ويرى
الدكتور حسن ابراهيم حسن ان اولئك اليونانيين « لعلهم ترجموا لنا شيئا لم
يصلنا خبره » (١٨٣) •

وينسب اليه ابن النديم كتاب « قصيدة خالد بن يزيد فى الاحداث
والمملك » (١٨٤) مما يدخل فى هذه العلوم السرية التى راجت فيما بعد
رواجا كبيرا ولم يكن العرب فى القرن الاول يعرفونها اللهم الا اذا اعتبرنا علم
ابى هاشم السرى وتبوءاته بالحوادث • والصلة واضحة - على كل حال -

-
- (١٧٩) اخبار الحكماء ١٢٧ •
(١٨٠) فى الفلسفة الاسلامية ١١ •
(١٨١) الطبرى ١٦/٧ •
(١٨٢) تاريخ الاسلام السياسى ٥٥٢/١ •
(١٨٣) المصدر نفسه ٥٥٣/١ •
(١٨٤) الفهرست ، ليبزج ١٠٤ •

بين هذا التبخر في الكيمياء وبين زهد خاند في الامارة وانصرافه الى العلم والعمل وتلك سابقة قد تكون مقدمة اشتغال الصادق او طلابه - على الأقل - بهذه العلوم ايضا ، واتصال هذه البداية بالامام الصادق جائزة ان صدقا او انتحالا وذلك يدل على وجود صلة على كل حال • ولعله قد بدأ الاشتغال بالكيمياء لدى نزوله الكوفة التي عرفت بالاهتمام بالسحر منذ القديم ولعلنا نعلم انها قد بنيت بالقرب من بابل المشهورة بهذه العلوم ولعل الامير خالد هو ابو هاشم الصوفى الذى لقب بالكوفى نتيجة لاتصال هذه العلوم بهذا المصر منذ القديم • والرأى عندنا - بالنسبة الى الامام الصادق - ان ملاك الامر يكمن فى ربط العلوم به ، وقد قال فيه اتباعه من الناوسية انه « كان عالما بجميع معالم الدين فى العقليات والشرعيات » (١٨٥) واعتبروه شبه استاذ روجى للجيل كله كما كان جده على بن ابي طالب أبا للعلوم كلها • ويستتبع انقطاع رجل كالصادق للعلم ان يكون زاهدا ، وقد كان الامام كذلك فعلا ، بل ان الكلىنى يجعله بقاء من طراز جده على بن الحسين زين العابدين • ويجعل الصادق للبقاء صفة معنوية سامية فانه يقول : « ما من شىء الا وله كىل ووزن الا الدموع ، فان القطرة تطفئ بحارا من النار فاذا اغرورقت العين بمائها لم يرهق وجهها قتر ولا ذلة ، فاذا فاضت حرمة الله على النار ولو ان باكيا بكى فى امة لرحموا » (١٨٦) • وكان الصوف قد صار لباسا رسميا للزهاد ايام الصادق وقد عجب سفيان الثورى - الذى روى عن الصادق كثيرا من الاخبار الزهدية - كيف يلبس الصادق الخز ولا يلبس الصوف فقال له : « يا ابن رسول الله ، ليس هذا من لباسك ولباس آباءك » ، فاتضح له ان الصادق كان يلبس الصوف لصق جسده لثلا يحمل الناس ذلك عليه محمل التظاهر والشهرة (١٨٧) ويصطبغ زهد الصادق بصبغة علمه واتصاله بالنبوات السابقة ، فانه كان

(١٨٥) اصول الكافى ٢٤٨ •

(١٨٦) مختصر الفرق بين الفرق ٥٧ •

(١٨٧) حلية الاولياء ١٩٣/٣ •

يدعو بدعاء الياس النبي في سجوده ويقول : « اترك معذبي وقد اظمأت لك هواجرى ؟ اترك معذبي وقد عفرت لك في التراب وجهي ؟ اترك معذبي وقد اجتنبت لك المعاصي ؟ اترك معذبي وقد اسهرت لك ليلي ؟ قال : فاوحى اليه الله : ان ارفع رأسك فاني غير معذبك» (١٨٨) ، ويروى له يعقوبى نصا ناجى به الله موسى : « يا موسى لاتسنى على حال ولا تفرح بكثرة المال ، فان نسيانى يميم القلب ، وعند كثرة ائمال تكثر الذنوب • يا موسى كل زمان يأتى بالشدة بعد الشدة وبالرخاء بعد الرخاء والملك بعد الملك ، وملكى قائم لايزول» (١٨٩) ، وكان الصادق يقول : « كان فى وصية لقمان الاعاجيب ، وكان اعجب ما فيها انه قال لابنه : خف الله خيفة لو جثته ببر الثقلين لعذبك ، ورج الله رجاء لو جثته بذنوب الثقلين لرحمك» (١٩٠) •

وكان الصادق كجده على بن الحسين فى فتوته بقوله : « لا يتم المعروف الا بثلاث : تعجيله وتصغيره وستره» (١٩١) ، وذلك امر صادر عن الرضى الذى اورد لنا الكيىنى نصا صريحا فيه وذلك ان الصادق سئل : « باى شىء يعلم المؤمن بأنه مؤمن ؟ قال : بالتسليم له والرضى فيما ورد عليه من سرور او سخط» (١٩٢) ، ويضيف اليه العطار ما كان يتصف به الزهاد من خوف من الآخرة ويروى عنه « انه كان يوما جالسا مع مواليه فقال : تعالوا نتعاهد على ان يشفع من يكون له قدم صدق يوم القيامة لبقية المتعاهدين • فقالوا : يا ابن رسول الله ، ما حاجتك الى شفاعتنا وجدك شفيع جملة الخلائق؟ فقال الصادق : انى لاجبل من افعالى الى حد اننى استحى من مواجهة جدى

(١٨٨) اصول الكافى ١٧٠ •

(١٨٩) يعقوبى ١١٦/٤ •

(١٩٠) اصول الكافى ١٧٠ •

(١٩١) اخبار الدول ١١٢

(١٩٢) اصول الكافى ١٦٩ •

يوم القيامة» (١٩٣) • ويفلسف لنا سفيان الثوري الزهد في روايته عن جعفر الصادق وبين جوهره في ذلك العصر الذي اتصف بالاضطراب والقلق وقال: «سمعت جعفر بن محمد الصادق يقول: عزت السلامة حتى لقد خفي مطلبها • فان تكن في شيء فيوشك ان تكون في الخمول • وان طلبت في الخمول ولم توجد فيوشك ان تكون في التخلي، وليس كالخمول • فان طلبت في التخلي ولم توجد فيوشك ان تكون في الصمت وليس كالتخلي • فان طلبت في الصمت ولم توجد فيوشك ان تكون في كلام السلف الصالح، والسعيد من وجد نفسه في خلوة يشتغل بها» (١٩٤) • وهكذا يضع الصادق اسس المقامات والاحوال ويعمل لنا سر الزهد الذي تطور الى التصوف ويعزز كل ذلك بالنتيجة: «من خاف الله اخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله اخافه الله من كل شيء» (١٩٥)، وهذا هو جوهر التوكل في عصر مضطرب لا يأمن الانسان فيه على نفسه من الفوائل والدسائس • وقال: «من أعطى ثلاثا لم يمنع ثلاثا: من اعطى الدعاء اعطى الاجابة، ومن اعطى الشكر اعطى الزيادة، ومن اعطى التوكل اعطى الكفاية» (١٩٦)، وقال - وكأنه يؤسس للصوفية عقائدهم - : «اذا تخلى المؤمن من الدنيا سما ووجد حلاوة حب الله وكان عند اهل الدنيا كانه خولط، وانما خالط القوم حلاوة حب الله فلم يشتغلوا بغيره» (١٩٧)، ولهذا فان القشيري يروي عنه انه سئل: «ما باننا ندعو الله فلا يستجاب لنا؟ فقال: لانكم تدعون من لاتعرفونه» (١٩٨)، وسيقول ابراهيم بن ادهم قياسا على هذه المقالة وجوابا على السؤال نفسه:

-
- (١٩٣) تذكرة الاولياء ٩/١ (ترجمة) •
(١٩٤) صفة الصفة ٩٦/٢ •
(١٩٥) اصول الكافي ١٧٠ •
(١٩٦) المصدر نفسه ١٦٨ •
(١٩٧) روضات الجنات ٢٣٢ •
(١٩٨) الرسالة القشيرية ١٥٦ •

«لأنكم تعرفون الله ولا تطيعونه»، (١٩٩) ، ويورد ابو طالب المكي نصا يفهم منه ان الصادق قد بلغ مقاما عاليا في التصوف على صورته الناضجة المتأخرة وهو يرتبط بالنص الذي ذكرناه : فقد قال الصادق : « والله لقد تجلى الله - عز وجل - لخلقه في كلامه ولكن لا يبصرون » ، وقال ايضا - وقد لحقه شيء في الصلاة حتى خر مغشيا عليه ٠٠٠ - : « ما زلت اردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمي لمعاني قدرته تعالى » (٢٠٠) ، ويضيف ابو طالب الى هذا النص تعليقا منه : ان الخصوص كذلك • وهذا بداية للذكر الذي صار بعدئذ مجلبة للوجد وسبيلا الى المحو وواسطة للاتحاد صدرت عن الصادق - اذا صدقت هذه الروايات - ومرد كل ذلك الى علمه وفضله وصدقه وارادة كل ذوى طريقة من العلم ان يصلوه بهم ليكون رئيسا لمدرستهم يفخرون به ويسعدهم ان يصدروا عنه ويتصلوا به •

وقد جعل السلمى أكبر مفسرى المتصوفة لجعفر الصادق مقاما محمودا في التأويل الباطن بحيث اعتمد عليه اعتمادا كليا ولكنه لم يورد من تأويلاته ما يفهم منه انه امام للشيعة وانما انصبت تأويلاته على اظهاره بمظهر صوفى كامل ليس له شأن بمشرب آخر ، ومن ذلك ان الصادق يفسر آية : لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا وملتت منهم رعبا بقوله « لو اطلعت عليهم - من حيث انت - لوليت منهم فرارا ، ولو اطلعت عليهم - من حيث الحق - لشاهدت فيهم معاني الوحدانية والربانية » (٢٠١) ، ويفسر الصادق ذلك بقوله : « أى يا سيد - مخاطبا لنبيه عليه السلام - بقوله (ص) : انا سيد ولد آدم ولا فخر ، ولم يمدح بذلت نفسه ولكنه اخبر عن معنى مخاطبة الحق اياه

-
- (١٩٩) تذكرة الاولياء ١/٨٦ «ترجمة» •
 (٢٠٠) قوت القلوب ١/٧٢ •
 (٢٠١) حقائق التفسير ٣٢٥ ، الكهف ١٨ •

بقوله تعالى : يس» (٢٠٢) ، ويفسر : والنجم اذا هوى ، بان النجم « هو محمد (صلم) اذا هوى انشرح منه الانوار اذا انقطع عن جميع ما سوى الله تعالى» (٢٠٣) ويفسر : ماضل صاحبكم وما غوى ، بقوله : ماضل عن قربه ويفسر الكوثر بانه « نور قلبك ذلك على وقطعت عما سوانا» (٢٠٤) وقد ذكر السلمى فى المقدمة انه يعتمد فى التأويل على اقوال لجعفر الصادق وآيات متفرقة نسب تأويلها الى ابى العباس بن عطاء (٢٠٥) وهو فى تأويله يستند الى منهج جعفر الصادق القائل بان « كتاب الله على اربعة اشياء : العبادة والاشارة واللطائف والحقائق : فالاشارة للخواص والعبادة للمعوم واللطائف للاولياء والحقائق للانبياء » وذلك مؤسس على قول على ابن ابى طالب : مامن آية الا ولها اربعة معان : ظاهر وباطن وحد ومطلع ، فالظاهر التلاوة والباطن الفهم والحد هو احكام الحلال والحرام والمطلع هو مراد الله تعالى من العبد بها » (٢٠٦) ، وهكذا تبين صلة مهمة جدا بين التشيع والتصوف فى التأويل . وقد كان من مقام جعفر الصادق ومنزلته فى الزهد والتصوف ان مؤلفى كتب التصوف يروون عنه ويعقدون - فى صفحات كتبهم - الندوات ويجمعون الامام بالزهد المعاصرين له لو لم يلتهم ، فانا نجد كثيرا جدا من الاخبار الصادرة عن الصادق يرويها عنه سفيان الثورى ثم اننا نجد داود الطائى المتوفى سنة ١٦٥ / ٧٨١-٢ يطلب المشورة من الصادق لان قلبه قد اسود ، فعجب الصادق كيف يطلب داود المشورة وهو زاهد زمانه فقال داود : « يا ابن رسول الله انكم افضل الخلق ، والمشورة منكم واجبة . فأجابه الصادق : انى اخاف ان يأخذ جدى بيدى يوم القيامة ويقول : لم لم تتبعنى حق الاتباع . فلا ينسب هذا القول الى الصحة والشرف وانما يعود الى عناية

-
- (٢٠٢) حقائق التفسير ٥٣٥ .
 - (٢٠٣) المصدر نفسه ٦٣٧ .
 - (٢٠٤) المصدر نفسه ٧٤٧ .
 - (٢٠٥) المصدر نفسه ١ .
 - (٢٠٦) حقائق التفسير ٥٥ .

الله ، فبكى داود وقال : الهى اذا كان من عجبت طينته بماء النبوة وركبت طبيعته من اصل حجة جده الرسول وبرهانه وامه البتول فى هذه الحيرة فما داود حتى يعجب بمعاملته» (٢٠٧) ويروى القشيري مناقشة بين الصادق وشقيق البلخي المتوفى سنة ١٩٤ فقد كان شقيق يرى الفتوة فى قوله : « ان اعطينا شكرنا وان منعنا صبرنا فقال جعفر الصادق : الكلاب عندنا فى المدينة كذلك تفعل • فقال شقيق : يا ابن بنت رسول الله ، ما الفتوة عندكم ؟ قال : ان اعطينا آثرنا وان منعنا شكرنا» (٢٠٨) ، مع ان العطار يورد هذه المحاوره بين ابراهيم بن ادهم وشقيق (٢٠٩) ، وتكن ايراد مناقشة الصادق له دلالاته الكبيرة ايضا فهل التقى شقيق بالامام حقا وقد سبقه الى الموت بستة واربعين عاما ؟ •

ويجب - فى نهاية حديثنا عن الصادق ان نتطرق الى فكرة الصوفية عنه : هل كانوا يتصلون به ويأخذون عنه باعتباره واحدا منهم ام باعتباره اماما شيعيا له مقامه فى التشيع ؟ لقد مر بنا ان السلمى فى اقتباسه من تأويلات الصادق اظهره فى مظهر زاهد ليس له بغير الزهد صلة فهل كان ذلك مجرد تظاهر ام ان للصوفية فيه نظرة اخرى ؟ الواقع ان فريد الدين العطار قد صرح بهذه النظرة فى عرضه للامام الصادق فى تذكرة الاولياء ووضح مقامه ، ويحسن بنا ان نترجم صفحة مما كتبه فيه ليتبين ما نقول •

قال فريد الدين العطار : « ذلك سلطات الملة المصطفوية ، ذلك برهان الحجة النبوية ، ذلك العامل الصديق ، ذلك عالم التحقيق ، ذلك فاكهة قلوب الانبياء ، ذلك قلب سيد الرسل ، ذلك الناقد العلى ، ذلك وارث النبي ، ذلك العارف العاشق : جعفر الصادق رضى الله عنه • وقد قلنا : اتنا - اذا

(٢٠٧) تذكرة الاولياء ١٢/١ (ترجمة) •

(٢٠٨) الرسالة القشيرية ١٣٦ •

(٢٠٩) تذكرة الاولياء ١٦٧/١ •

تطرقنا الى ذكر الانبياء والصحابة واهل البيت - ينبغي ان نصنف كتابا خاصا بهم . اما هذا الكتاب فشرح لحال الاولياء الذين جاؤا من بعدهم . والسبب في تبركنا بالبدا بالصادق انه كان بعد هؤلاء وكان من اهل البيت . ولان التعبير عن طريقته كان اوفر والرواية عنه اكثر فسنورد له بعضا من اقواله فان اهل البيت كلهم شيء واحد اذا جاء ذكر احدهم فكأنما جاء ذكرهم جميعا : الا ترى ان من يذهب مذهبه فقد ذهب مذهب الاثنى عشرية اى الواحد اثنا عشر والاثنا عشر واحد ولكنى اخشى ان اصفه بلسانى وعبارتى خوفا المعجز . لقد كان في جملة العلوم والاشارات كاملا في غير تكلف ، وكان قدوة لجميع المشايخ ، وكان موضع اعتماد الكل . كان شيخ الآلهيين وامام المحمديين . كان مقدم اهل الذوق ودليل اهل العشق كان مقدم العباد ومكرم الزهاد . كان منقطع القرين في مصنفات الحقائق ولطائف التفسير واسرار التنزيل ، وقد نقل عن الباقر اقوالا كثيرة . واني لاعجب من قوم ذوى اوهام من اهل السنة والجماعة يتساءلون عن حقيقة طريقة اهل البيت ، فان عليهم ان يرجعوا الى الحق ولست اعرف احدا من اهل الباطل الا في خيال باطل . والذي اعرفه ان من يؤمن بمحمد ولا يؤمن بأبنائه فما آمن بمحمد وقد كان الشافعى يحب اهل البيت حبا نسب معه الى الرضى وحبس من أجله ، وقد قال في هذا المعنى شعرا :

لو كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان انى رافضى (٢١٠)

اما بعد فهذا هو الصادق في شخصه وعلمه وزهده ومقامه ، وقد كان عظيما الى حد انه استطاع ان يجمع الشيعة حوله ويوحد صفوفهم في العلم والمعرفة والعقيدة دون ان يعرضهم لالاضطهاد والتشريد والقتل ، وقد بدت عظمته ناصعة بعد ان انتقل الى جوار ربه حين تشقق التشيع وتفرع وتفتت وسرى ذلك في الفصول الآتية .

(٢١٠) المصدر نفسه ١/١ «ترجمة» .

الفصل الخامس

تشعب التشيع التقليدي واستقراره

الاسماعيلية

ظهرت الاسماعيلية بعد وفاة الصادق وكانت حركة مفاجئة مستمدة من الافكار الغالية التي عاصرته وسبقته ، وقد انشق الشيعة المعتدلون - بذلك - الى طائفتين : احدهما هذه الاسماعيلية والاخرى الفرقة الرئيسة التي استمرت في طريقها تملؤها اختلافات حول شخص الامام ولا تنصرف الى طبيعة العقيدة • ولذا حق لنا ان نبحت الاسماعيلية قبل الخوض في تطور التشيع المعتدل • لقد اصاب الاسماعيلية تعقيد وخلط لكثرة تناول الباحثين لها بالدرس والتقصى دون روية وانعام نظر • ولم يحاول احد منهم ان يتناول الاسماعيلية من جذورها وانما يهجم الباحث منهم على البحث هجوما ويقرن الاسماعيلية بالباطنية مباشرة ثم ينتقل الى الخرمية والقرامطة ابتسارا • وعلينا ان نعرض لهذه الطائفة على المنهج الذى اتبعناه فى بحثنا للفرق الشيعية الاخرى بحيث نتبعها من اولها ونغوص معها الى الاعماق •

وهيكل الاسماعيلية المذهبي البسيط يقوم على فكرة الامامة بالنص ، وقد كان اسماعيل اكبر اولاد جعفر الصادق (ع) وكان ابوه «يجبه جبا شديدا» (١) وكان معدا لتولى الامامة بعد ابيه بنص منه و «بأتفاق من اولاده» (٢) ، ولكن الموت عاجل اسماعيل سنة ١٣٣/٧٥٠-٥١ فى حياة ابيه • ويبدو انه كان يتميز

-
- (١) روضات الجنات ٢٨ •
(٢) الملل والنحل ١/٢٧٨ •

بصفات وعلم ويتميز ايضا بان امه عربية كما كانت ام ابيه كذلك • ويبدو ان قوما من الشيعة كانوا يلتفون حوله فى حياته ويمنون النفس بالاتصال به والاخذ عنه بعد ابيه ، ولم يتحمل انصاره هذه الصدمة فأبوا ان يصدقوا انه مات استنادا الى ترشيح ابيه المعصوم له ، فجعلوه مهديا منتظرا كعادة الشيعة اذا مات عنهم امام لا يريدون الاعتراف بمن بعده ، وتلك هى الاسماعيلية الخالصة (٣) ، والظاهر ان انصاره اوئك كانوا من اهل المدينة •

وكان لاسماعيل مولى يسعى المبارك كوفى وهو الذى بدأ فى تثبيت الاسماعيلية بعد ان انصرف الناس بعد جعفر الصادق الى ابنه الاكبر عبدالله الذى توفى بعد سبعين يوما من وفاة ابيه فاجتمع الشيعة على امامة موسى : اخيه الاخر • وقد زعم المبارك واتباعه « ان النص لا يرجع القهقرى ، والفائدة فى النص بقاء الامامة فى اولاد المنصوص عليه دون غيره ، فالامام بعد اسماعيل محمد بن اسماعيل » (٤) (توفى سنة ١٩٨) ، و « المباركية يديرون الامامة فى ولد محمد بن اسماعيل كدعوى الباطنية فيه » (٥) وكان لمحمد جماعة ثبتت على امامته ولم تصرفها الى احد غيره بعد موته فقالوا برجعت وغيبته • وباضافة الامامة الى محمد بن اسماعيل بدأت الاسماعيلية الباطنية ، وليست هذه التسمية الا اصطلاحا جديدا وهى - فى الواقع - تنطبق على فرق الغلاة الذين شنتهم المنصور اولا ثم المهدي بعده ، فانصب انصار ابى الخطاب واتباعه فى هذه الفرقة الجديدة التى دبت فيها الحياة فقالت فرقة منهم : « ان روح جعفر بن محمد حلت فى ابى الخطاب ثم تحولت بعد غيبة ابى الخطاب فى محمد بن اسماعيل بن جعفر ، ثم ساقوا الامامة فى ولد محمد بن

(٣) فرق الشيعة ٦٨ •

(٤) الملل والنحل ١/٢٧٨ •

(٥) مختصر الفرق بين الفرق ٥٩ •

اسماعيل» (٦) ويذكر النوبختي ايضا انه « خرج من قال بمقالته (يعنى ابا الخطاب) من أهل الكوفة وغيرهم الى محمد بن اسماعيل بن جعفر» (٧) فظهرت الان فرقة مستقلة عن الزيدية الذين صار لهم مجالهم وتقاليدهم ومستقلة عن الامامية الذين التفوا حول موسى بن جعفر الصادق ، فالتزم احياء هذا الاتجاه الجديد الصادر عن الحركات الغالية جماعة جدد من الموالي الذين انضجوا هذه العقيدة الجديدة التي تمتد جذورها الى فكرة ابي منصور العجلي القائل : « كان على بن ابي طالب نبيا ورسولا وكذا الحسن والحسين وعلى بن الحسين ومحمد بن علي ... وانا نبي» (٨) فهو لاء سته ، ومحمد(ص) اولهم ، فجملتهم سبعة • وكان ابو منصور الى ذلك يقول : « يتولى سبعة انبياء من قريش وسبعة من بنى عجل» (٩) فهو اول من جعل النبوات سلاسل لها عدد ثابت كما فعل الاسماعيليون بعدئذ في الامامة فيجعلوها سلاسل سباعية بعضها ظاهر والاخر مستور • بل ان فكرة العدد (٧) تمتد الى المغيرة الذي « خرج داعيا الى عقيدته في سبعة نفر وكانوا يدعون بالوصفاء» (١٠) ويرى ماسينيون ان ابا الخطاب عدّ أبا روحيا لاسماعيل بن جعفر لكونه لقب ابا اسماعيل كما لقب سلمان ابن الاسلام على اعتبار انه « قد انكر الخطابية ان يكون آل محمد قد قدر لهم قدرا سابقا ان يكونوا أئمة بمجرد كونهم من نسله (نسل محمد ص) وقال : ان الاختيار الالهى بالنبنى الروحى هو وحده المعتبر» (١١) • والخبر الذى يستند اليه ماسينيون هو ما يورده الكشى عن ابي الخطاب انه كان يعتبر اتباعه انبياء (١٢) • وقد وصف اسماعيل باتباع رأى ابي الخطاب عن طريق

-
- (٦) فرق الشيعة ٧١ •
(٧) فرق المصدر نفسه ٦٩ •
(٨) المصدر نفسه ٣٨ •
(٩) البلدان للهمداني ١٨٥ (ليدن) •
(١٠) الطبرى ٢٤١/٨ •
(١١) شخصيات قلقة فى الاسلام ١٩ •
(١٢) معرفة أخبار الرجال ٢٠٨ •

المفضل بن عمر الجعفي^(١٣) . وقد قتل ابو الخطاب سنة ١٣٨ حين اظهر عقيدته وتوفى اسماعيل سنة ١٣٣ ، فالصلة مستبعدة وان كانت قابلة للبحث والتدقيق . وذلك يبين على الاقل الاثر الذي خلفه ابو الخطاب في الشيعة عموما واتصال الاسماعيلية بهم ووراثة عقائدهم . اما تحول الامامة الى نبوة فقد كان اسبق الى الظهور على لسان ابي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية الذي كان يقول : « لم يمض مائة عام من نبوة قط الا انتهت امورها »^(١٤) ، وبهذا يتضح التسلسل الذي نفتقده في ابحاث الباحثين في الاسماعيلية ، وتبرز - بذلك - العلاقة بين الكيسانية الاولى التي كانت اساسا لفرق الغلاة - كما رأينا - وبين الاسماعيلية وذلك ان الغلو الذي اخذ عن الكيسانية اصوله قد انصب في الاسماعيلية واورثها اسسه فقال الاسماعيليون : « ان محمد بن اسماعيل لم يمت ، وانه في بلاد الروم ، وانه القائم المهدي . ومعنى القائم عندهم انه يبعث بالرسالة وبشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد »^(١٥) وبدأت فكرة السبعات من اولى العزم ، و « اولو العزم عندهم سبعة : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وعلي ومحمد بن اسماعيل ، على معنى ان السموات سبع وان الارضين سبع وان الانسان سبع : بدنه ويده ورجلاه وظهره وبطنه وقلبه ، وان رأسه سبع : عيناه واذناه ومنخراه وفمه وفيه لسانه كصدره الذي فيه قلبه ، وان الائمة كذلك وقلبهم محمد بن اسماعيل »^(١٦) ويضيف المقریزی الى ذلك ان « الائمة سبعة قد رتبهم البارئ تعالى كما رتب الامور الجليلة ، فانه جعل الكواكب السيارة سبعة وجعل السموات سبعا وجعل الارضين سبعا ونحو ذلك مما هو سبع من الموجودات »^(١٧) ، وهكذا

(١٣) المصدر نفسه ٢٠٦ ، ويذكر ابو الحسن الاشعري ان المفضل المذكور

كان يقول بامامة موسى بن جعفر ، مقالات الاسلاميين ٢٩/١ .

(١٤) تاريخ اليعقوبى ٤٠/٣ .

(١٥ ، ١٦) فرق الشيعة ٧٢ .

(١٧) خطط المقریزی ٢٢٩/٢ .

دخلنا في بحر الباطنيات التي تتصل بالتطابق بين العالم المادى الذى خلقه الله وبين العالم الروحى الذى ربه الله ايضا متناسقا مع النظام الذى ينعكس من الخلق المادى •

بعد ان تبينا الصلة بين مذاهب الغلاة والاسماعيلية وظهر لنا التدرج فى العقيدة الشيعية حتى بلغت اوجها فى الاعتماد على الباطن عند الاسماعيلية ندخل فى هذا المذهب لنرى كيف بدأ وتطور ومدى اتصال التصوف به • وقبل ذلك كله يجب ان نقرر انه حتى الاسماعيلية الباطنية تعتمد على مهديية محمد بن اسماعيل كما يروى المقرئى الذى يقرر ان « الائمة السبعة هم : على بن ابي طالب والحسن بن على والحسين بن على وعلى بن الحسين الملقب زين العابدين ومحمد بن على وجعفر بن محمد الصادق ، والسابع هو القائم صاحب الزمان » (١٨) ثم يذكر المقرئى ان الاسماعيلية منقسمون على انفسهم فى من هو المهدي ، ففريق يرى انه اسماعيل وفريق يرى انه محمد بن اسماعيل (١٨) وبذلك تكون الحركة الاسماعيلية - ككل الحركات الشيعية المعتمدة على فكرة المهدي - معتمدة على اتباع شخص واحد لاعدد من الاشخاص الذين رتبهم دعاة الاسماعيلية فيما بعد •

وتبدأ الاسماعيلية الباطنية من اسرة جديدة تبنت هذه العقيدة هى اسرة عبدالله بن ميمون ابن ديسان القداح المتوفى سنة ٢٦١/٨٧٤-٧٥ ومن قبله ابوه ميمون الذى كان مولى لجعفر الصادق (١٩) • والواقع ان الاخبار التي تتصل بهذين الداعيتين مضطربة اشد الاضطراب والذى يستخلص منها ان ميمون بن ديسان كان ملازما لجعفر الصادق وكان فى خدمة اسماعيل ابنه المتوفى سنة ١٣٣/٧٥٠-٥١ ، فلما مات اسماعيل فى حياة ابيه وتوفى جعفر

(١٨) خطط المقرئى ٢/٢٢٩ •

(١٩) مختصر الفرق بين الفرق ١٧٣ •

الصديق كون ميمون فرقة جديدة تدعو الى مهدية اسماعيل ، ثم لما شب محمد ابن اسماعيل - ويبدو انه كان مطارداً بدليل موته في بلاد الروم كما مر - صرف ميمون الدعوة اليه ثم مات ميمون فورث دعوته ابنه عبدالله وسار بالدعوة الى نهايتها • ولكن عبدالله مات بعد وفاة محمد بن اسماعيل بثلاث وسبعين سنة فكيف يستقيم ذلك مع معاصرته له ؟ ونحن مسوقون الى ان نقرر ان عبدالله بن ميمون قال بمهدية محمد بن اسماعيل بعد موته ثم دعا سرا الى ابنه جعفر واستمرت الدعوة الى الائمة الاسماعيليين الاولين الذين دعوا بالمكتمين حتى استطاع عبيدالله المهدي ان يؤسس الدولة العبيدية في المغرب بعد قرنين من الكفاح السري الذي لا يهدأ • وكانت هذه الدولة معاصرة للعباسيين الذين حاربوهم بكل وسيلة ممكنة حتى بالظن في نسبهم العلوي • ويجب ان نقرر هنا ان الدعوة السرية دارت حول جعفر بن محمد بن اسماعيل ثم ابنه محمد الحبيب الذي كان يؤمل ظهوره في اليمن ثم استطاع ابنه عبيدالله ان يكون هذه الدولة (٢٠) • وقد عاصر هؤلاء الائمة المستورين دعاة يثون لهم الدعوة السرية فبدأت الدعوة من ميمون ثم تلقاها عبدالله ابنه ثم احمد ثم الحسين واخوه محمد (٢١) •

واول ما يقابلنا في الاسماعيلية الباطنية انها تدعى السبعة (٢٢) رمزا الى السباع التي تتحكم في العقيدة مما رأينا اصله الذي يتصل بالغلاة الكوفيين ، وقد اورد الشهرستاني ان للاسماعيلية تعلقا برقم اخر هو : ١٢ بالاضافة الى الرقم : ٧ ، وروى انهم قالوا : « انما الائمة تدور احكامهم على سبعة سبعة كأيام الاسبوع والسموات السبع والكواكب السبعة والنقباة تدور احكامهم على اثني عشر ... » (٢٣) والنقباة هم الدعاة • والواقع ان الرقم الجديد متأصل من عقيدة الكيسانية ايضا مما رأيناه عند ابي هاشم بن محمد بن الحنفية الذي

• (٢٠ ، ٢١) خطط المقرئزي ٢/٢٣٤

• (٢٢) اللباب لابن الاثير ١/٥٣١

• (٢٣) الملل والنحل ١/٣٣٠

وصى محمد بن علي العباسي ان يختار دعائه « فيكونوا اثني عشر نقيا ، فلن الله لم يصلح بنى اسرائيل الا بهم ٠٠٠٠ فان النبي انما اتخذ اثني عشر نقيا من الانصار اتباعا لذلك» (٢٤) وهذا دليل جديد على تسلسل الاسماعيلية عن الكيسانية : اصل مذاهب الغلاة • وسيكون للرقم ١٢ أهمية بالغة عند الامامية الذين سيختمون ائمتهم بالمهدى المنتظر وهو الامام الثاني عشر • وستكون لمجموع هذين الرقمين اهمية عند القرامطة الاسماعيليين الذين ساروا في الشوط الى نهايته فاستندوا - في تأصيل هذه الارقام - الى اسس اسلامية فقالوا : « ان التسمية مركبة من سبعة واثني عشر (يعنى حروف بسم الله الرحمن الرحيم) وان التهليل (يعنى الشهادتين) مركب من اربع كلمات فى احدى الشهادتين (لا اله الا الله) وثلاث كلمات فى الشهادة الثانية (محمد رسول الله) ، وسبع قطع فى الاولى وست فى الثانية واثني عشر حرفا فى الثانية (٢٥) • والامر واضح ان الرقم : ١٩ الذى هو عدد حروف التسمية جمع بين عدد الائمة وعدد نقبائهم وامناء سرهم وذلك يعنى ان لعدد النقباء اصلا الهيا قدسيا فيعود بنا الامر الى الانبياء العجلين الذين اسبغوا على انفسهم قداسة الائمة الذين دعوا اليهم • والمهم فى الامر ان قدسية العدد : ١٩ قد انتقلت الى البهائية فجعلوا له هالة قدسية واسسوا عليه ركنا من عقيدتهم بل لقد وصلوا به عدد الاشهر وايامها اذ جعلوا السنة تسعة عشر شهرا والشهر تسعة عشر يوما وبذلك تبدو الصلة بينهم وبين اسلافهم الشيعة الغلاة • ومن الغريب ان الحسن بن الصباح المتوفى سنة ١١٢٤/٥١٨ تكب هذا الاتجاه بعهد ان استطاع ان يسيطر بالقوة على قلعة الموت المشهورة ، بل ان الفاطميين انفسهم قد اهتموا الساعات التى تحدد عدد الائمة الظاهرين والمستورين بعد ان تأسس حكمهم فى المغرب ثم فى مصر فكان عدد خلفائهم - وهم ائمة ظاهرون

(٢٤) تاريخ اليعقوبى ٤٠/٣ •

(٢٥) الملل والنحل ٣٣٨/١ •

بالطبع - أكثر من سبعة ثم لما زالت الدولة ثم يلتفت احد الى الناحية التطبيقية لفلسفة الارقام التي اسسوا عليها عقيدتهم • وقد لخص لنا براون فلسفة هذه الارقام واصولها بقوله : « ومذهبهم في جملته فلسفى باطنى قد استمد كثيرا من انسسه من المذاهب الايرانية والسامية القديمة كما تطرقت اليه بعض تعاليم الافلاطونية الحديثة والفيثاغورية الحديثة • وهو مبنى - في كل تفاصيله على العدد الخفى : ٧ ، فهناك سبع فترات في فترات الانبياء والرسول : آدم ، نوح ، ابراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد ، محمد بن اسماعيل • وكل واحد من هؤلاء الانبياء السبعة اعقبه سبعة من الائمة وأول كل سبعة من هؤلاء الائمة هو الامام الصادق وهو (صامت) ولكنه ناطق ورئيس واساس واصل واس و آخر كل سبعة من هؤلاء الائمة يعقبه اثنا عشر نقيبا تنهى الفترة النبوية بالآخر منهم وتبدأ بعدها فترة نبوية اخرى • فالفترة النبوية السادسة التي بدأت بمحمد قد بلغت نهايتها على يد محمد بن اسماعيل الذى ادعى الخليفة الفاطمى الاول عبدالله بن المهدي بانه من حفدته وسلالته» (٢٦) • وهذا الذى يقرره براون من علاقة الفيثاغورية والافلاطونية الجديدة بالاسماعيلية قد رآه فليب حتى ولكن على صورة اوثق وذلك انه يعتقد بان قدسية الرقم : ٧ قد كانت موجودة في الفيثاغورية القديمة (٢٧) ويرى كذلك مع جولد تسيهر ان الاسماعيلية « يتبعون - في حدوث الكائنات فلسفة عنوصية مبنية - الى حدما - على الافلاطونية الجديدة» (٢٨) وهكذا قادتنا فكرة الاسماعيلية - فى اسباغ المعانى الدينية على الارقام - الى نظرية التجليات ، فاستعانوا بنظرية الفيض الافلاطونية - كما يرى جولد تسيهر - وجعلوها اساسا لهم كما فعلت جماعة اخوان الصفا الاسماعيلية البصرية (٢٩) ويضيف جولد تسيهر الى ذلك ان

(٢٦) تاريخ الادب فى ايران ٢٤٣ •

(٢٧) تاريخ العرب ٥٣٢/٢ •

(٢٨) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٢١٣ •

الاسماعيلية « استنبطت من هذه الفلسفة اعمق نتائجها واشدها تطرفا فوضعوا بذلك نظاما فلسفيا هو صورة تاريخية منعكسة لنظرية الفيض الكونى التى وضحتها هذه الفلسفة» (١٩) . والواقع ان رأى جولد تسيهر هذا ليس جديدا، فان الشهرستاني قد التفت الى ذلك واتبه الى ان « الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم بكلام الفلاسفة وصنفوا كتبنا على ذلك المنهاج» (٣٠) ، ووقفنا على ان الله -عندهم- « ابداع بالامر العقل الاول الذى هو تام بالفعل ، ثم - بتوسطه- ابداع النفس الذى هو غير تام ولما اشتاقت النفس الى كمال العقل احتاجت الى حركة من النقص الى الكمال ، واحتاجت الحركة الى آلة الحركة فحدثت الافلاك السماوية وتحركت حركة دورية بتدبير النفس ، وحدثت الطبائع البسيطة بعدها وتحركت حركة استقامة بتدبير النفس ايضا ، فتركبت من المعادن والنبات والحيوان والانسانية واتصلت النفوس الجزئية بالابدان . وكان نوع الانسان متميزا على سائر الموجودات بالاستعداد الخاص لفيض تلك الانوار وكان عالمه فى مقابل العالم كله» (٣١) ، وذلك كله مذكور فى تبسيط. لطيف فى جامع الحكمتين لناصر خسرو (٣٢) ، هذا عن الخلق عامة . اما ما يتصل بالنبي والامام فعلاقته بنظرية المثل كما يبدو من عبارة الشهرستاني ايضا « وفى العالم العلوى عقل ونفس هو كل فوجب ان يكون فى هذا العالم عقل مشخص هو كل ، وحكمه حكم الشخص الكامل البالغ ويسمونه الناطق وهو النبى ، ونفس مشخصة هو كل ايضا وحكمها حكم الطفل الناقص المتوجه الى الكمال» واما دور النفوس بالنسبة الى النبى فيعبر عنه الشهرستاني بانه «تحركت النفوس والاشخاص بالشرائع بتحريك النبى والوصى فى كل زمان سائرا على سبعة سبعة حتى ينتهى الى الدور الاخير ويدخل زمان القيامة وترتفع

-
- (٢٩) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٢١٣ .
 (٣٠ ، ٣١) الملل والنحل ١/٣٣٣ .
 (٣٢) جامع الحكمتين ١٤٩ .

التكاليف وتضمحل السنن والشرائع» (٢٣) • وهكذا نصل بعد لاي الى ان ارتفاع التكاليف لا يكون في الدنيا وانما يكون في آخر الزمان حين يتصل الناس بالمثل الاعلى فتسقط عنهم القائص وتتفصل عنهم الشرور فلا يحتاجون الى تبصير بالحسن والقيح لانهم يعودون الى طبيعتهم الخيرة الالهية بعد ان اتم النبي والوصي مهمتهما في تطهيرهم ، ولذلك يقول الشهرستاني : « وانما هذه الحركات الفلكية والسنن الشرعية لتبلغ النفس الى حال كمالها وكمال بلوغها الى درجة العقل واتحادها بها ووصولها الى مرتبته فعلا » (٣٤) ويبين ذلك بأنه « من وقت الحركة الى السكون هو المبدأ ، ومن وقت السكون الى مالا نهاية له هو الكمال » (٣٥) • ويلاحظ جولد تسيهر ان هذه الفكرة تعنى ان « الوحي الالهى لا ينقطع ولا ينتهى فى فترة زمنية معينة من فترات تاريخ الخليفة » (٣٦) وبذلك يحكم بان الاسماعيلية - من هذه الوجهة - تهدم ركنا من اركان الاسلام وهى « ان محمدا قد ختم الى الابد سلسلة الانبياء » (٣٧) والواقع ان بداية الاسماعيلية لم تكن مؤسسة على هذه الفكرة الازلية كما يبدو منها لاننا وجدنا محمد بن اسماعيل مهديا كما كان محمد بن الحنفية ومحمد بن عبدالله بن الحسن والائمة من بعد على بن الحسين من قبل ، ولكن استمرار العقيدة الاسماعيلية واستهواها للدعاة والناس معا حمل القائمين على تنظيم العقيدة على تطويرها وتطويرها للاستمرار • ويلاحظ جولد تسيهر ايضا ان الصوفية قد استعانوا بالافلاطونية كلالاسماعيلية مع فارق واحد هو ان « الصوفية لم تبغ من الاستعانة بهذه الفكرة الا ان توجد دعامة نفسية تبنى عليها الحياة الدينية بينما الاسماعيلية استخدمتها لكي تنفذ الى صميم الديانة الاسلامية وتعمل على تعديل احكامها وعقائدها » (٣٨) وأهمية هذا الرأى تكمن فى ان جولد تسيهر يرى ان الصوفية قد اخذت مما اخذت منه

(٣٣ - ٣٥) الملل والنحل ١/ ٣٣٣ •

(٣٦ - ٣٨) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٢١٣ •

الاسماعيلية • وقبل ان نعرض لمراحل السلوك التي يمر بها الاسماعيلي في تدرجه الى الكمال الديني تتم هذا البحث في اصول الاسماعيلية فنذكر بان كل ما اورده الشهرستاني وابنته جولد تسيهر من ارجاع اصولها الى الفيشاغورية والافلاطونية الحديثة قد اعاده البغدادي ببحث مقارن الى العقائد الفارسية القديمة ، فقال : « وذكر اصحاب التواريخ ان الذين وضعوا اسس الباطنية كانوا من اولاد المجوس وكانوا مائلين الى دين اسلافهم ، ولم يجسروا على اظهاره فوضعوا للاعمار منهم اساسا من قبلها منهم صار في الباطن الى تفضيل دين المجوس ، وتأولوا آيات القرآن وسنن النبي على موافقة اساسهم» (٣٩) ، ولا يترك البغدادي الامر يمر دون برهان ، فيرى ان « بيان ذلك ان الثنوية زعمت ان النور والظلمة صانعا قديمان ••• وذكر زعماء الباطنية في كتبهم ان الاله خلق النفس ، فالاله هو الاول والنفس هو الثاني وهما مدبرا هذا العالم ، وسموها الاول والثاني وربما سموها العقل والنفس ، ثم قالوا : انهما يدبران هذا العالم بتدبير الكواكب السبعة والطباع الاربع ، وهذا تحقيق قول الثنوية ان النور والظلمة يدبران امر العالم •••» (٤٠) .

والتوبختي يجد في الاسماعيلية اصولا مسيحية بقوله « وزعموا ان اسماعيل هو خاتم النبيين الذي حكاه الله عز وجل في كتابه ، وان الدنيا اثنتا عشرة جزيرة في كل جزيرة حجة ، وان الحجج اثنا عشر ولكل حجة داعية ولكل داعية يد : يعنون بذلك ان اليد رجل له دلائل وبراهين يقيمها ويسمون الحجج الاب والداعية الام واليد الابن يضاهئون قول النصاري» (٤١) ولكن التوبختي يعود فيرى في المظاهر الاسماعيلية الاخرى المتضمنة « ان جميع الاشياء التي فرضها الله تعالى على عباده وسنها نبيه(ص) وامر بها لها ظاهر وباطن » (٤٢) انما هي مذهب عامة اصحاب ابي الخطاب كما رأينا نحن

(٣٩ ، ٤٠) مختصر الفرق بين الفرق ١٧٤ •

(٤٢ ، ٤١) فرق الشيعة ٧٥ •

من قبل ، ويرى ابن النديم ان عبدالله بن ميمون القـداح واباه كانا
ديصانيين (٤٣) وذلك يعنى ان الاسماعيلية تشتمل على مبادئ الديصانية وهى
كما يروى الشهرستانى « مذهب يثبت اصلين ايضا : نورا وظلاما وهو سابق
على المانوية » (٤٤) هذا الاضطراب فى الحكم قد اصاب الاسماعيلية حتى من
المعاصرين لها وكان السبب فى ذلك سرية عقائدهم وتعلقهم بالباطن وهذه
الاشارة اليهما مدخل لنا الى اهم ما يميز به المذهب الاسماعيلي • فالمقريزى
يقول فى تعرضه لهم : « لكل ظاهر من الاحكام الشرعية باطن ولكل تنزيل
تأويل » (٤٥) ويشرح ذلك بقوله : « ان دين محمد (ص) ما جاء بالتحلى
ولا بامانى الرجال ولا شهوات الناس ولا بما خف على الالسنه وعرفته دهماء
العامة ولكنه صعب مستصعب وامر مستقبل وعلم خفى غامض ستره الله فى
حجبه وعظم شأنه عن ابتدال اسراره ، فهو سر الله المكتوم وامره المستور
الذى لا يطيق حمله ولا ينهض باعبائه ونقله الا ملك مقرب او نبي مرسل
او عبد مؤمن امتحن الله قلبه للتقوى » (٤٦) ويضيف المقريزى الى ذلك ان
• محمد ابن اسماعيل عنده ايضا علم المستورات وبواطن المعلومات التى
لا يمكن ان توجد عند احد غيره وان عنده علم التأويل ومعرفة تفسير ظاهر
الامور وعنده سر الله تعالى فى وجه تديره المكتوم واتقان دلالاته فى كل امر
يسأل عنه فى جميع المدومات وتفسير المشكلات وبواطن الظاهر كله والتأويلات
وتأويل التأويلات » (٤٧) • وقد اورد لنا الخوانسارى امثلة من هذه التأويلات
كتأويل الموضوع بموالاته الامام والتميم بالاخذ من المأذون عند غيبة الامام الذى
هو الحجة والصلاة هى الناطق الذى هو الرسول بدليل قوله تعالى ان الصلاة

(٤٣) الفهرست ٢٦٤ •

(٤٤) الملل والنحل ٢/٨٩ •

(٤٥) خطط المقريزى ٢/٢٢٩ •

(٤٦) خطط المقريزى ٢/٢٢٧ •

(٤٧) المصدر نفسه ٢/٢٣٠ •

تتهى عن الفحشاء والمنكر ، والاحتلام بافشاء السر الى غريب دون قصد ،
والغسل بتجديد العهد ، والزكاة بتزكية النفس بمعرفة ما هم عليه من الدين ،
والكعبة بالنبي ، والباب بعلی ، والميقات والتلبية باجابة المدعو ، والطواف بالبيت
سبعا بموالاته الائمة السبعة ، والجنّة براحة الابدان عن التكليف ، والنار
بمشقتها بمزاولة التكليف^(٤٨) وتلك احكام تعود بنا الى الغلو الذي عرفنا انه
رأى ان الدين طاعة رجل وان الصلاة والزكاة وغيرها انما هي كنايات عن
رجال • ثم ان الاسماعيلية تجعل التقباء الهين ايضا وان كانوا من غير الائمة
وتسندهم بان عددهم اثنا عشر رجلا في كل زمان كما ان عدد الائمة سبعة
وانهم مع كل امام قائم منفرقون في جميع الارض عليهم تقوم^(٤٩) ثم يعين
المقریزی مركز هؤلاء التقباء او الحجج بان مقامهم هو مقام الفاهم المطلع
على اسرار المعاني وينص على ان ظهور امر الامام « انما هو ظهور امره ونهيه
على لسان اوليائه »^(٥٠) • ويذكر ابو يعقوب السجستاني ان ميراث النبي
من العلم يتحول الى الوصي ومنه الى الامام ومن الامام الى الحجة^(٥١) • ثم
تتضح المسألة اكثر باطلاعنا على النص الذي يورده المقریزی ايضا مسن ان
« الامام انما وجوده في العالم الروحاني اذا صرنا بالرياضة في المعارف
اليه »^(٥٢) • المعنى الذي يعبر عنه السجستاني الاسماعيلي بقوله : « ان هذه
العلوم لاتصل الا الى مستحقها بالرياضة ولو كان حبشيا او سنديا »^(٥٣) •
وبذلك تتضح لنا فكرة السلوك الاسماعيلي الذي يتيح للمريد ان يصل الى حقيقة
التأويل عن طريق الرياضة العقلية التي بلغ بها النقيب او الحجة ما بلغه الامام
من علم • ويوضح جولد تسيهر ذلك بان « الحقائق لاتوجد الا في المعاني

(٤٨) روضات الجنات ٧٣١ •

(٤٩) ، ٥٠ • خطط المقریزی ٢/٢٣٣ •

(٥١) كشف المحجوب في شرح قصيدة الجرجاني ٦٥ •

(٥٢) خطط المقریزی ٢/٢٣٣ •

(٥٣) كشف المحجوب ٩٢ •

الباطنة • اما المعانى الظاهرة فهي حجب مضطربة واقعة متناقضة • ومريدو الاندماج فى الفرقة الاسماعيلية تزاح عنهم هذه الحجب والافعة بالقدر الذى يناسب استعداداتهم ، ويتدرجون فى هذا المضمار حتى تنهيا لهم المقدرة على مواجهة الحقائق وهى سافرة» (٥٤) ولا بد اننا لاحظنا موازاة هذه المعانى للمثل والمبادئ الصوفية • وقد لاحظ ذلك جولد تسيهر فاورد لنا قصيدة لجمال الدين الرومى الشاعر الصوفى يفصح بها عن فكرتى الجانبين المعبرة عن حقيقة واحدة بقوله : « اعلم ان آيات القرآن سهلة يسيرة ، ولكنها على سهولتها تخفى وراء ظاهرها معنى خفيا مستترا • ويتصل بهذا المعنى الخفى ثالث يحير ذوى الافهام الثاقبة ويعيبها • والمعنى الرابع ما من احد يحيط به سوى الله واسع الكفاية من لاشييه له • وهكذا نصل الى معان سبعة الواحد تلو الاخر ، ولذا لاتتقيد يا بنى بفهم المعنى الظاهرى كما لم تر الشياطين فى آدم الا انه مخلوق من الطين • فالمعنى الظاهرى فى القرآن شبيه بجسد آدم ، فما نراه منه هو هيئته الظاهرة وليس روحه الخفية المستترة » (٥٥) ، وهذا السلوك يصف الانسان بالعلم الالهى الى حد ان الاسماعيلية رأوا - كالتصوفة - « ان الانبياء النطقاء اصحاب الشرائع انما هم لسياسة العامة وان الفلاسفة انبياء حكمة الخاصة » (٥٦) ، وذلك ان الفاطميين كانوا « يتدرجون فى دعوتهم فاذا تمكن المدعو من التعاليم الاولى احواله على ما تقرر فى كتب الفلسفة من علم الطبيعيات وما بعد الطبيعة والعلم الالهى وغير ذلك من اقسام العلوم الفلسفية ، حتى اذا تمكن المدعو من معرفة ذلك كشف الداعى قناعه وقال : « ان ما ذكر من الحدوث والاصول رموز الى معانى المبادئ وتقلب الجواهر » (٥٧) والظاهر ان هذه الدرجات متأخرة جدت فى بدأ دولة الفاطميين وليست من اوائل عقائد الاسماعيلية •

(٥٤ ، ٥٥) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٢١٦ •

(٥٦) خطط المقرئى ٢/٢٣٣ •

(٥٧) خطط المقرئى ٢/٢٣٢ •

ويورد عبدالله عنان المراتب التسع فى دار الحكمة اتى اسمها الحاكم بامر الله الفاطمى ويذكر ان الطالب يلقن تعاليم الثنوية فى المرتبة السابعة ، وفى الثامنة تتقضى كل صفات الالوهية والنبوة ويعلم الطالب ان الرسل الحقيقيين هم رسل العمل الذين يعنون بالشؤون الدنيوية كالنظم السياسية وانشاء الحكومات المثلى ، وفى التاسعة والاخيرة يدخل الى حظيرة الاسرار ويعلم ان كل التعاليم الدنيوية اوهام محضة وانه يجب الا يتبع منها الا ما هو لازم لحفظ النظام وان ابراهيم وموسى والمسيح وغيرهم من الانبياء ليسوا الا رجالا مستتيرين تفقهوا فى المسائل الفلسفية، (٥٨) . والواقع ان هذه النظرة المادية الى المذهب الاسماعيلى تسلبه كل مافيه من غنوصية وروحانية ، فليس الامر كذلك والا ما قامت له خلافة ولا حدثت فى دولتهم طاعة ، بل لقد وجدنا الفاطميين اخلص من غيرهم فى عقيدتهم واسرع الى بذل النفس ، ولا يكون البذل الا بالعاطفة الفياضة والايمان الذى لا يترزعزع ، وكذلك يرى الاستاذ محمد كرد على ان «العقل عندهم هو حقيقة معبودهم» (٥٩) ولكن اى عقل؟ انه العقل الالهى لا المادى وهذا ما يورده فيليب حتى من ان « المرید يتدرج بتأن وهدوء فى مراق بطيئة دقيقة حتى يعلو ذروة العقائد الباطنية الخفية بعد ان يكون قد اقسام على الكتمان ومن هذه التعاليم والعقائد الباطنية فكرة نشوء الكون متجليا عن الجوهر الالهى وتانسخ الارواح وحلول الالوهية فى اسماعيل وانتظار رجعه مهديا . والمراتب التى يتدرج فيها المرید سبع وقد تكون تسعا ، وهى تذكرنا بدرجات الماسونية اليوم» (٦٠) . ومع تناول الباحثين لهذه الدرجات بالبحث على انها قضية مسلمة فان آدم متر يشكك فى كل ما يقال عن درجات الاسماعيلية الا ما يذكره ابن النديم من انه « كان عندهم سبع درجات من الاتباع خلافا لما ذكره اخو محسن من درجات

(٥٨) الجمعيات السرية فى الاسلام ٤٢ .

(٥٩) الاسلام والحضارة العربية .

(٦٠) تاريخ العرب ٥٣٣/٢ .

تسع» (٦١) . والمهم في الامر ان كلا من هذه الدرجات له كتاب خاص يلقي على الواصلين اليها ، وكل كتاب يسمى البلاغ والبلاغ السابع هو الذى فيه نتيجة المذهب الكشف الاكبر ويقول ابن النديم : « انه قرأه فوجد فيه امرا عظيما من اباحة المحظورات والوضع من الشرائع واصحابها » (٦٢) . ومادام الوضع من الشرائع واباحة المحظورات مقصورين على الدرجة السابعة فانها تعنى - ان صح قول ابن النديم - ان المريد قد بلغ درجة الحلول وان العقل الاول قد اتصل به فلم يعد ثمة مجال لفهامه لماذا حرم كذا واحل كذا لانه صار بنفسه مصدرا للتشريع ، وتلك عقيدة وجدناها من قبل عند فرق الغلاة وليست هى جديدة على الاسماعيلية . ومن اهم مايرد فى هذا المقام تقرير محمد بن سرخ انيسا بورى الاسماعيلى (المتوفى فى القرن الخامس) ان «ذلك اليوم هو يوم قوة العقل ودولته ، فيه تتعلق بالنفس آثار القائم الذى يعيد للعقل اشراقه ، وتعود الى النفوس الفيوض الالهية التى حجبت عنها من قبل» (٦٣) . وهذه المكانة فى الاسماعيلية تقابلها فى التصوف درجة المحو والاتحاد بحيث يقول الصوفى فى صراحة : انا الله ، وقد رأيناها آتية من الغلاة اولا ثم نظمتها الاسماعيلية واصلتها واستت لها فأخذتها الصوفية جاهزة وقد رأينا فى رسائل جابر بن حيان الاسماعيلى قوله : « ان حد علم الباطن انه العلم بعلم السنن واغراضها الخاصة الثلاثة بالعقول الالهية » (٦٤) ، وقد وجدنا هذا التفاوت فى العلم - من قبل - فى هذه الرسائل ايضا ووجدنا ان طبقات الناس الالهيين تعد خمسا وخمسين طبقة للواصلين لاسبعا ولا تسعا كما قال الفاطميون بعدئذ . وتبدأ هذه الدرجات « بالنبي فالامام فالحجاب فالبسيط فالسابق فالتالى فالاساس ... حتى تنتهى بالناسك فالحياة فالناهى فذى الامر

(٦١) الحضارة العربية فى القرن الرابع ٥١/٢

(٦٢) الفهرست ٢٨٢ .

(٦٣) شرح قصيدة ابن الهيثم الجرجانى ، طهران ١٩٥٥ .

(٦٤) مختار رسائل جابر بن حيان ١٠٤ .

الذى اذا ظهر فلا بدل منه اذ كان كل واحد منهم مندوبا لامر لا يخالطه فيه غيره» (٦٥) .

وقد دخلت فى التصوف فكرة اسماعيلية صريحة اخرى هى فكرة النقاء التى دارت - فى الاسماعيلية - حول رجال عددهم اثنا عشر يسمون الحجج يثون الدعوة فى غيبة الامام او فى حضرته وهم مقدسون وعددهم ثابت ويسندهم تكوين العالم الطبيعى كما يسند عدد الائمة السبعة فى السلسلة الواحدة وقد بين لنا المقريزى ان هؤلاء الحجج متفرقون فى جميع الارض عليهم تقوم «ويضيف ان عدة هؤلاء الحجج ابداء اثنا عشر رجلا» (٦٦) . وهكذا يشارك الحجة الامام فى العلم والدعوة والسند الالهى ومن هنا نفذت الصوفية الى منازل القطب والابدال . وهذا ابن عربى يذكر - فى الفتوحات عن الصوفية ما ذكره المقريزى عن الاسماعيلية فيقول فى النقاء : « وهم اثنا عشر نقيا فى كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون على عدد بروج الفلك الاثنى عشر» (٦٧) ، وهذه الاشارة تكفى للدلالة على أخذ المتصوفة فكرة هذه المنازل المقدسة عن الاسماعيلية ، ويجب ان نشير هنا الى ان ابن تيمية قد تنبه الى ان هذه المصطلحات ليست مأثورة عن النبى (٦٨) فكأنه يشير الى ان الصوفية قد اخذوها عن الاسماعيلية الذين قالوا بها اول من قال . وقد تنبه ابن خلدون ايضا الى اخذ المتصوفة - وبخاصة ابن عربى - عن الاسماعيلية القول « بالقطب وكذلك ابن قسى وعبدالحق بن سبعين وابن ابى واصل : تلميذه » (٦٩) وسيرد كل ذلك فى موضعه من التصوف .

-
- (٦٥) مختار رسائل جابر بن حيان ٤٨٩ .
 - (٦٦) خطط المقريزى ٢/٢٣١ .
 - (٦٧) الفتوحات المكية ٢/٩ .
 - (٦٨) ضحى الاسلام ٣/٢٤٥ .
 - (٦٩) المقدمة ٣٢٣ .

لقد كانت الدعوة الاسماعيلية تقوم على نظام هرمى يبدأ بالامام ثم يستند على الحجج الاثنى عشر ثم على الدعاة المنتشرين فى ارجاء العالم الاسلامى وقد ذكر ناصر خسرو انهم سبعة على نسق الكواكب السبعة يتنازلون من النبى فالوصى والامام فالحجة فالباب فالداعى فالمأذون (٧٠) • فلما اخذ الاسماعيلية ازمة الحكم تحول ذلك انتظام الى هيئة رسمية تقوم على تلك الصورة نفسها ولكن تغيرت الاسماء فصار رئيس الحجج داعى الدعوة ومنه يخرج الدعاة • ويذكر لنا آدم متر عن ناصر خسرو ان داعى الدعوة هذا هو اكبر اصحاب الدرجات عندهم وهذه الدرجات دينية بالضرورة كما رأينا • وقد كون المتصوفة المتأخرون عالمهم على ذات النسق بادئين بالقطب والابدال وغيرهم ، وكما استند الاسماعيلية فى اعدادهم الى مظاهر الطبيعية الالهية فعل الصوفية كذلك ، وقد رأينا اشارة ابن عربى السابقة فى التقاء الى ان عدد البروج يسندهم وتلك اشارة المقرئى نفسها الى تقاء الاسماعيلية • فكأن ابن عربى يعبر عن عقول الافلاك التى استندت اليها الفلسفة الاسماعيلية ان صح صدورها عن العقل الاول والنفس الكلية من الفلسفة الافلاطونية الحديثة •

وقد كان من اثر اغراق الاسماعيلية فى الجانب الروحى وازافتهم الصفات الالهية الى الائمة ان قيل بالهية الحاكم بامر الله الفاطمى المتسوفى سنة ٤١١/١٠٢٠-٢١ ، وذلك امر ليس بالمستغرب على غلاة الشيعة كما مر بنا فى هذا البحث ، غير ان الحاكم قد كان - دون الائمة كلهم - صريحا فى لبس جبة صوف ابيض وركوب الحمار» (٧١) • وينقل متر عن تاريخ يحيى ابن سعيد الانطاكى انه اعتق سائر مماليكه من الاناث والذكور ••• وانه رفض اللذة الجسدية» (٧٢) وكل تلك امور اذا اضيفت الى نسب الحاكم

(٧٠) جامع الحكميتين ٢٩٦ •

(٧١) تاريخ ابن اياس ٥٣/١ •

(٧٢) الحضارة الاسلامية فى ٥٦/٢ •

العلوى واستناد الدعوة الفاطمية الى روحانية الائمة وحلول الجزء الالهى فيهم تشجع الطامحين الى تأسيس فرقة جديدة الى اهتبال هذه الفرصة • وهكذا استغل الدرزي هذه الظروف كلها ونادى بان روح الاله حلت فى الحاكم^(٧٣) ، وكان هناك «حمزة الندى كان اصحابه يركعون عندما يرون الحاكم فى الشوارع ويصيحون قائلين : انت الواحد الاحد والمحيى الميت»^(٧٤) ، وتلك امور عهدناها عند الشيعة ايام جعفر الصادق وليست علينا غريبة ، ولكن الطريف فى الامر ان يكون التأليه مكشوفاً صريحاً وان يسير الحاكم الاله فى الاسواق وان يسجد له الناس ويتجهوا اليه بالدعاء ولعل ذلك ما كان يتمناه الحلاج لنفسه حين ظهر منه الحلول ، بل لعل السر فى هذا المذهب الفاطمى الذى ربما كان الحلاج يدعو اليه كما سنرى عند عرضنا له • وعلى ذلك فان من المتوقع ان تتأثر الصوفية بالاسماعيلية وبخاصة فى الهدف الذى يرمى اليه الصوفية والذى تحقق فى واحد من خلفائهم بعد قتل الحلاج بتسعين سنة ، وقد كانت نهاية الحاكم القتل سنة ٤١١ كما انتهى الحلاج • ومهما يكن من امر ادعاء الحاكم او ادعاء اصحابه الهيته - التى انكرها ولم يعترف بحدوثها ابن خلدون^(٧٥) والذهبي^(٧٦) وآدم متر^(٧٧) - فان مبادئ الاسماعيلية تشتمل على هذه البذرة التى استطيع الطامحون غرسها وتعهدتها بالسقيا لتثمر هذا الثمر ، غير ان الحاكم قد صار مهدياً للدروز ينتظرون عودته^(٧٨) أو الها كما يذكر جولد تسيهر^(٧٩) •

لقد مرت الاسماعيلية فى ادوار كثيرة وتسمت بها فرق عديدة وذلك

-
- (٧٣ ، ٧٤) الفاطميون فى مصر ٢٠٩ ، عن تاريخ يحيى بن سعيد ٢٢١ •
 - (٧٥) المقدمة ٦٠٤ •
 - (٧٦) خطط المقرئى ١٨٤/٤ •
 - (٧٧) الحضارة الاسلامية ٧٥٦/٢ •
 - (٧٨) وفيات الاعيان ١٩١/٤ •
 - (٧٩) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٢١٨ •

لا يهمننا في شيء طالما جمعها جميعا القول بالباطن وترتيب المعرفة بحسب مستوى المرید العقلي وإضافة السمو الروحي الى الأئمة والدعاة اليهم ، ولكن الاسماعيلية - في تاريخها الطويل - لم تلتفت الى الجنس مع اعتمادها في البداية على الموالي وقد سقطت دون ان نسمع عن ثورة داخلية أو تحكم جنس في جنس داخل الدولة ولعل للمكان الذي اقيمت فيه دوتهم اثره . لقد جمعت الاسماعيلية « العامة الذين قتلت بصائرهم باصول العلم والنظر كالقبط والاكراد والمجوس والصنف الثاني الشعبوية الذين يرون تفضيل العجم على العرب والصنف الثالث اغنام بنى ربيعة من اجل غيظهم من مضر لخروج النبي منهم» (٨٠) ، ويكفي ان اخوان الصفا : اصحاب الحركة السرية الاسماعيلية كانت «تسعى لتهديب العامة» (٨١) ، والغرض معروف وهو الثورة على الدولة العباسية ولكنها لم تستند الى عصية جنسية . وقد اخذ المتصوفة هذا الاتجاه عن الاسماعيلية فاننا لانجد في التصوف عصية جنسية ، وكان في الامكان جدا ان ينشأ التصوف ويتطور معتمدا على العصية الفارسية ، ولكنه تنكب هذا السبيل لانه - في جوهره - تجرر من كل القيود . على ان ذلك لا يمنع انه تأثر باتجاه سبقه وكان متحققا في عالم اسس على العصية الجنسية .

ويجب ان نتنبه الى ان الاسماعيلية مازالت موجودة في العصر الحاضر وانها تمثل في اتجاهين : الاول باطنى مشتق من حركة الحسن بن الصباح الذي كان سند دعوته ضرورة الحاجة الى امام للتمييز بين الحق والباطل (٨٢) كدعوى هشام بن الحكم السابقة ، وهؤلاء هم الاغا خانة (٨٣) الذين ينتسب

(٨٠) الفرق بين الفرق ١٨١ .

(٨١) تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع ٧٧ .

(٨٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٧٨ .

(٨٣) الشيعة في التاريخ ٦٢ .

زعيمهم الى الحسن هذا ، والاتجاه الاخر هو الاتجاه المعتدل الذى كان يمثله المباركية : انصار محمد بن اسماعيل فى بداية الدعوة ، وهؤلاء يتمثلون الان فى البهرة ، وسلطانهم الحالى مولانا سيف الدين^(٨٤) . ولا يفرق براون بين الفريقين وانما يجعل كل فريق منهم يدين لولد مسن ولدى المستنصر آخر !الخلفاء الفاطميين فى مصر ، فالبهرة يدينون بامامة المستعلى والاعا خانية - وهم انزارية - بامامه ابن المستنصر الاكبر نزار^(٨٥) .

ويضاف الى هذين الفريقين اندروز وهم فرقة اسماعيلية معاصرة مستقلة عن الفرقتين السابقتين ، وهم يقولون : « ان روح آدم انتقلت الى على ابن أبى طالب ومنه الى اسلاف الحاكم بأمر الله ملك الفاطميين مقمصة من واحد الى آخر ، والدين الحق توحيد الحاكم»^(٨٦) ، وقد ذكر المقرئى ذلك كله فى تعرضه للدرزى محمد بن اسماعيل^(٨٧) . ويذكر كرد على ان الدروز يعتبرون الصوم صدق اللسان ، وحفظ الاخوان بدل الصلاة ويقرأون القرآن ويؤولونه ويذهبون الى قدم العالم تبعا لتعاليم الفلاسفة ، ويقولون بالتناسخ معبرين عنه بالتقمص^(٨٨) ، وقد قال بذلك المقرئى ايضا نقلا عن مرآة الزمان فى ذكره للدرزى^(٨٩) .

ومهما يكن من شىء فان الاسماعيلية قد اضافت الى الامامة اندليل العقلى وجعلت الفلسفة فى خدمة العقيدة، وذلك امر شاق ولكنه تحقق . ويحبان نذكر - فى نهاية بحثنا للاسماعيلية - انها اضافت الى التصوف كثيرا مما فيه من روحانية وانها كانت اساسا لفكرة القطب والابدال التى شاعت فى التصوف

-
- (٨٤) الشيعة فى التاريخ ٦٢ .
 (٨٥) تاريخ الادب فى ايران ٢٤٧/٢ (هامش) .
 (٨٦) الاسلام والحضارة العربية ٦٦ .
 (٨٧) خطط المقرئى ١٨٤/٤ .
 (٨٨) الاسلام والحضارة العربية ٦٦ .
 (٨٩) خطط المقرئى ١٨٤/٤ .

التأخر وكانت الاصل فى المناصب الصوفية المتأخرة كمشيخة مشايخ الطرق التى تعادل منصب داعى الدعاة فى الاسماعيليه • وقد كان من التقارب بين الاسماعيليه والصوفيه ان اضيف الى خليفة من خلفائهم ما اضيف الى كبار الصوفيه ممن قالوا بالحلول كالحلاج والقائلين بقوله من المتأخرين •

الاماميه

احدث موت جعفر الصادق تفتتا غربيا فى التشيع فقد كان الشيعة - ممن التفوا حوله - يمثلون اتجاهات مختلفة وثقافات متباينة ونفسيات شتى • وسرعان ما بدت الاتجاهات الجديدة مما رأينا لونا منها متمثلا فى الاسماعيليه، ومر بنا لونا آخر هو الغلو فى فصل الغلاة • اما الشيعة التقليديون المحافظون فقد التفوا حول عبدالله بن جعفر الصادق وقالوا بامامته (٩٠) ولكن موته بعد ابيه بسبعين يوما دون عقب (٩١) اعادة الشيعة الى القول بامامة موسى بن جعفر الصادق ، وانصرفت فرقة اخرى الى القول بامامة محمد بن جعفر الصادق النائر بالمدينة وهم الزيدية (٩٢) • ولا بد - فى امام مثل جعفر الصادق - ان يقال بسهديته مادام قد كان الها عند الخطابية ، وقد حدث هذا فعلا اذ قالت الناوسية بمهديته (٩٣) • وقد انصرفت كل فرقة الى مثلها وعقائدها ويهمننا فى هذا الفصل فريق واحد هو الاماميه انصار موسى بن جعفر وهم اسلاف الاثنا عشرية الحاضرة • والحديث فى النواحي التاريخيه والشخصيه يطول ، وملخص مادار من سيره ائمة الاماميه ان موسى بن جعفر قد مات فى سجن الرشيد سنة ٧٩٩/١٨٣ فدارت الامامة حول ابنه على الذى لقبه المأمون بالرضا وولاه العهد من بعده (٩٤) ، وقد كان الرضا من قوة الشخصيه وسمو

-
- (٩٠) فرق الشيعة ٧٧ •
 - (٩١) الملل والنحل ١/٢٧٤ •
 - (٩٢) مقاتل الطالبين ٥٤٠ •
 - (٩٣) فرق الشيعة ٦٧ •
 - (٩٤) مروج الذهب ٣١٦/٢ •

المكانة ان التف حوله المرجئة واهل الحديث والزيدية ثم عادوا الى مذاهبهم بعد موته سنة ٢٠٣/١٨١٨-١٩ بطوس^(٩٥) وحدث اشكال كبير بعد موت الرضا اذ كان عمر ابنه محمد الجواد سبع سنين^(٩٦) فاضطر قوم من الشيعة الى القول بمهدية الرضا وقال قوم بامامة الجواد وحاولوا ان يسندوا امامته بتشبيهه بيحيى بن زكريا وعيسى عليه السلام والصبي الذي حكم بين يوسف بن يعقوب وامرأة الملك وغيرهم^(٩٧) بل لقد اجاز الشيعة له العمل بالقياس^(٩٨) مع انهم اعدى اعدائه وجوزوا « ان يتولى انصلاة لهم وينفذ احكامهم فى ذلك الوقت غيره من اهل الفقه والدين والصلاح»^(٩٩) ، ومات الجواد سنة ٢٢٠/٨٣٥ م خلفا ابنه عليا الهادى فى الخامسة من عمره فعاد امر اضطراب التشيع كما كان وان لم يشر احد الى صغر سنه . ومات الهادى فى سامراء محدد الاقامة سنة ٢٥٤/٨٦٨ ، ووقع الشيعة فى حياته فى اشكال آخر ذكرهم بامامة اسماعيل وذلك ان الهادى كان قد اعد ولده محمدا لتولى الامامة من بعده ولكنه توفى فى حياة ابيه ، فعانج الشيعة الامامة بالبداة ايضا فصارت لابن الهادى الثانى وهو الحسن المسكرى والد المهدي الاثنا عشرى . وقد توفى الحسن فى سامراء ايضا سنة ٢٦٠/٨٧٣-٤ فاختلف الشيعة فى امر عقبه وقالت اثنا عشرة فرقة بامتناع ولادة عقب له وتشككت اخرى فى الامر وقالت الرابعة عشرة بتحقق ولادة محمد المهدي له^(١٠٠) وانصهرت آراء الشيعة فى هذا الاعتقاد الاخير فبينت فكرة المهدي واستت عليها عقيدتها واعادت تنظيم افكارها من جديد واقتصرت على الائمة الاثنى عشر الذين ذكرناهم وسميت بالاثنا عشرية التى مازالت موجودة حتى عصرنا الحاضر . ويجب الا يفوتنا انا لم نتطرق الى تفاصيل التنازع فى الامامة لان فى ذلك

(٩٥) فرق الشيعة ٨٦ .

(٩٦) ذكر الاشعرى انه كان له اربع او ثمانى سنين ، مقالات الاسلاميين ٣١/١ .

(٩٧ ، ٩٨) فرق الشيعة ٩٠ .

(٩٩) مقالات الاسلاميين ٣١/١ .

(١٠٠) فرق الشيعة ٩٦-١١٢ ملخصا .

تطويلا لا مبرر له ، ولكن يحسن بنا ان نذكر بان الائمة من بعد الصادق قد فيل بمهديتهم جميعا كما يرد ذلك في فرق الشيعة للنوبختي وغيره من كتب الفرق التي تنطرق الى التشيع وتشعبه وينبغي ان نذكر ايضا ان انصار الائمة بعد جعفر الصادق قد انشؤوا فرقا غالبية شأن اسلافهم من انصار الائمة قبل الصادق . والطريف في أمر المهدي الاثنا عشرى انه قد عاصر غيبته الصغرى - التي تبدأ سنة ٢٦٠/٨٧٣-٤ وتنتهى سنة ٣٢٩/٩٤٠-٤١ - اربعة سفراء كانوا ينوبون عنه فى قضاء شؤون الشيعة وهم : عثمان بن سعيد ثم ابنه محمد المعروف بالشيخ الخلانى المتوفى سنة ٣٠٤/٩١٦-٧ ثم الحسين بن روح النوبختي المتوفى سنة ٣٢٦/٩٣٧-٣٨ ثم على بن محمد السمرى او السيمرى المتوفى سنة ٣٢٩/٩٤٠-٤١ ، وقد اخرج السمرى - قبل وفاته - توقعا من المهدي « ينذر بانقطاع السفارة ووقوع الغيبة الكبرى الى ان يأذن الله سبحانه بالظهور » (١٠١) وبعد انتهاء الوكالة - التى ألفت فى سيرهم كتب وذلك فى نهاية القرن الرابع وبداية الخامس (١٠٢) ، تسلم الميراث علماء الشيعة

(١٠١) الشيعة فى التاريخ ٧٦ .

(١٠٢) راجع رجال النجاشى ، ٦٢ ، ٣٠٨ .

وانظر صفحة ٦٣ حيث ذكر النجاشى احمد بن محمد بن ايوب الجوهري (المتوفى سنة ٤٠١) باعتباره مصنف كتاب « اخبار وكلاء الائمة الاربعة» وكذلك جاء ذكر احمد بن نوح السيرافى ، نزيل البصرة واستاذ النجاشى وشيخه ، بوصفه مؤلف كتاب « اخبار الوكلاء الاربعة» . وانظر صفحة ٣٨ التى نص فيها النجاشى على تأليف هبة الله بن احمد بن محمد الكاتب ابى نصر المعروف بابن برنية ، ابن بنت محمد بن عثمان العمري ، (وكان حيا سنة ٤٠٠) لكتاب فى الوكلاء الاربعة اعتمد عليه السيرافى فى تأليف كتابه المذكور .

وانظر معالم العلماء لابن شهر اشوب (ص١٦-١٧) حيث ذكر كتابا لاحمد بن محمد بن عبد الله الجوهري فى أخبار وكلاء الائمة مختصرا .

ومما يلفت النظر حقا ان خصوم الشيعة لم يتطرقوا الى الوكلاء حتى فى القرن الخامس فلم يعرض لهم مثلا ابن حزم (المتوفى سنة ٤٥٦) ولا الاسفراينى (المتوفى سنة ٤٧١) .

وقفهاؤهم وجعلوا يلائمون بين عقائدهم القديمة والمعاصرة وينظمون
ويصنفون ، فصبوا كل ما قالته الفرق المختلفة فى تاريخ التشيع على صورة
منسقة ملطفة مسندة بالمنطق العقلى فى التشيع الاثنا عشرى وشرعوا لعلماء
التشيع الاجتهاد ، وهكذا انتهت حياة الائمة لتبدأ حياة المذهب والواقع انه لم
يجد على التشيع جديد بل كل ما صنعه العلماء والمصنفون هو التنظيم لا اكثر
ولا اقل . ونعود الى الائمة الذين اقر امامتهم التشيع الاثنا عشرى فى النهاية
فوجد بعد جعفر الصادق ابنه موسى ثم على بن موسى الرضا ثم محمد بن على
الجواد ثم على بن محمد الهادى ثم الحسن بن على العسكري فمحمد بن
الحسن المهدي . وستعرض لذكر كل واحد منهم على انفراد لئرى مدى تأثير
التصوف بسيرتهم او صدورهم عن المنزح الزهدى .

كان الامام السابع : موسى بن جعفر - ويلقب بالكاظم - اماما من سنة
١٤٨-١٨٣/٧٦٥-٧٩٩ ربيع قرن من الزمان ولكنها امامة سرية وكان رجلا
مسالما جنى عليه شك الرشيد فى احتمال منازعته الخلافة . وكان الكاظم صورة
اخرى من على بن ربن العابدين فى زهده وفى معاملته للناس ، وكانت الصرار
التى يتألف بها قلوب مبغضية مشهورة ، فقد كان يرد الاساءة بالاحسان^(١٣)
صنيع جده زين العابدين ، وكان يقول : « ما اهان الدنيا قوم قط الا هنامهم الله
اياها وبارك فيها لهم ، وما اعزها قوم قط الا بغضهم الله فيها »^(١٤) . وكان
لل امام الكاظم اتصال بالصوفية فان الخوانسارى ينقل عن جامع الانوار ان
شقيقا البلخى المتوفى سنة ١٩٤/٨٠٩-٨١٠ « كان من تلامذته وله الرواية ايضا
عنه . . وكان استاذا لحاتم الاصم المتوفى سنة ٢٣٧/٨٥١-٥٢ ومصاحبا
لابراهيم ابن ادهم المتوفى سنة ١٦١ ، واسشهد (يعنى شقيقا البلخى) فى بلاد

(١٠٣) مقاتل الطالبين ٤٩٩ .

(١٠٤) تاريخ اليعقوبى ١٤٥/٣ .

ما وراء النهر بتهمة الرفض» (١٠٥) وقد جمع الخوانساري بين معروف الكرخي والامام موسى الكاظم وجعل معروفا بوابا له (١٠٦) ، ويجعل الحاج معصوم على توبة بشر الحافي على يده ايضا (١٠٧) ، ويورد القشيري ان بشرا (المتوفى سنة ٢٢٧/٨٤١-٤٢) رأى في منامه الرسول(ص) فذكر له (ص) ان « من جملة الاسباب التي رفعه الله بها من بين اقرانه محبته لاصحاب الرسول واهل بيته» (١٠٨) . وينقل صاحب طرائق الحقائق عن ابن الجوزي في كتابه : (اثارة العزم الساكن الى اشرف الاماكن) - ويسميه صاحب اخبار الدول : (مثير الغرام الساكن) - عن شقيق البلخي انه قال : « قصدت الى الحج ، فنزلت القادسية . فينا انا انظر الى الناس وزيتهم ، اذ نظرت شابا حسن الوجه شديد السمرة نحيفا ، في رجله نعلان ، فجلس منفردا ، فقلت : هذا من الصوفية ، يريد ان يكون كلا على الحجاج ، فقلت : لامضين اليه ولاويخه . فدنوت منه فقال : يا شقيق اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم (١٠٩) ، ثم تركني وولى . فقلت : هذا عبد صالح كاشفني لالحقته ليستغفر لى . فاسرعت في أثره فغاب عني . فلما نزلنا واقصة اذا هو قائم يصلى واعضاؤه ترتجف ودموعه تجرى ، قلت : هذا صاحبى . فلما فرغ قال : يا شقيق اتل قوله تعالى : واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى (١١٠) ، ثم تركني . فقلت : هذا من الابدال كاشفني مرتين . ثم رأيت على مورد ويده ركوة ، فسقطت منه في البئر ، فرمق الى السماء بطرفه

(١٠٥) روضات الجنات ٣٢٨ .

لم يرد في كتب الصوفية اية اشارة الى الرفض مطلقا ، وسيرد على هذه النقطة تعليق في موضوع « الزهد في خراسان» .

(١٠٦) روضات الجنات ٢٠٩ .

(١٠٧) طرائق الحقائق ٨٣/٢ .

(١٠٨) الرسالة القشيرية ١١ .

(١٠٩) الحجرات ٢ .

(١١٠) طه ٨٣ .

وقال : انت ربي اذا ظمئت الى الماء ، وقوتى اذا اردت طعاما ، ثم قال : اللهم - سيدى - مالى سواك فلا تعدمنيها • قال شقيق : فوالله لقد رأيت الماء ارتفع حتى تناول الركوة ، فتوضأ وصلى اربع ركعات ، ثم مال الى كتيب رمل فجعل منه فى الركوة وحركها وشرب • فجئت وسلمت عليه وقلت : اطعمنى من فضل ما انعم الله عليك ، فقال : يا شقيق ، لم تزل نعم الله علينا ظاهرة وباطنة ، فاحسن ظنك بربك ، وناولنى الركوة فشربت منها سويقا بسكر ما شربت الذ ولا اطيب منه وبقيت اياما لا اشتهى طعاما ولا شرابا • ثم رأيت به بمكة قد طاف ، واذا له خدم وحشم وموال يلقونه ، وطافوا به يمينا وشمالا ، وانكفأ الناس يقبلون اطرافه فتعجبت وقلت : من هذا ؟ قيل : هذا موسى الكاظم (١١١) •

وكان الكاظم يلقب بالبعد الصالح (١١٢) ، وهو « الساهر ليله قائما ، القاطع نهاره صائما ، المسمى لفرط حلمه وتجاوزه عن المعتدين كاظما • وهو المعروف عند اهل العراق بباب الحوائج ، لانه ماخاب المتوسل به فى قضاء حاجة قط » (١١٣) •

وكان من كرامات الكاظم التى توافق مشرب الصوفية انه « احيى بقرة ماتت لامرأة بمنى وكان لها صبيان فلما نظرت المرأة الى البقرة صاحت وقالت : عيسى بن مريم ورب الكعبة • فخالط الناس وصار بينهم ومضى » (١١٤) • ويروى صاحب طرائق الحقائق عن الكليني ان الكاظم كان يتنبأ كما كان على يفعل وكذلك جعفر الصادق من بعده ، وقد رأينا النبى (ص) هو

(١١١) اخبار الدول ١١٢ •

(١١٢) اصول الكافي ١٣٠ •

(١١٣) اخبار الدول ١١٢ •

(١١٤) اصول الكافي ٩١ •

القدوة في النبوات ، وقد كان العبد الصالح (موسى بن جعفر) ينعى الى رجل نفسه (١١٥) .

ومن متممات سيرة الكاظم ان نذكر انه حمل الى بغداد من المدينة مرتين : الاولى زمن المهدي والثانية سنة ٧٩٥/١٧٩ زمن الرشيد وحبس في بغداد حتى توفي في السجن سنة ٧٩٩/١٨٣ بتهمة امامته للشيعة وجباية المال الية (١١٦) . ويرد في غيبة الطوسي انه كان بين الكاظم وبين يحيى بن خالد بن برمك صلة لم يكن الرشيد يعلم بها (١١٧) ولعل تلك من اسباب الغضب عليه وذلك امر لايهمنا في هذا البحث ، والمهم ان الكاظم كان زاهدا يروى عنه الصوفية اخبارا تناسب مشربهم وكانوا في ذلك الحين يؤسسون قواعد التصوف ويطورون الزهد الصوفى الى صور التصوف العميقة .

وقام على بن موسى بن جعفر بعد ابيه في المدينة ، وقد ولد سنة ٧٧٠/١٥٣ وولى الامامة عشرين سنة كان في الاربع الاخيرة منها وليا لعهد المأمون نكايه من المأمون في عمومته العباسيين الذين شجعوا الامين على خلع المأمون وضربا للمؤثرين العلويين من اخوة على بن موسى باخيهم (١١٨) .

(١١٥) طرائق الحقائق ١/٩٣٨ .

(١١٦) الصواعق المحرقة ١٠١ .

(١١٧) غيبة الطوسي ٢١ .

(١١٨) يرى السيوطى ان المأمون فعل ذلك « لان ابا بكر - لما ولى - لم يول احدا من بنى هاشم شيئا ، ثم عمر ثم عثمان كذلك . ثم لما على ولى ولى عبد الله بن عباس البصرة وعبيد الله أليمن ومعبد مكة وقثم البحرين ، وما ترك احدا حتى ولاه شيئا ، فكانت هذه في اعناقنا حتى كافأته في ولده بما فعلت » (تاريخ الخلفاء ٢٠٥) . ويرى ابن العماد ايضا ان ميل المأمون الى العلويين كان « اصطناعا ومكافأة لفعل علي كرم الله وجهه لما ولى الامامة لبنى هاشم خصوصا بنى العباس » (شذرات الذهب ٣/٢) ، وليست السياسة بهذه البساطة ولا تدخل في باب العواطف بحال <<

وقد كانت ام على الرضا نوبية كما كانت ام ابيه فارسية وزوجه نوبية ايضا ، وكانت ازواج الائمة جواري لانهم لم يكونوا يقوون على التسرى بالجوارى الغاليات ، ويبدو انهم كانوا فى ضيق مادى منهم الزواج بمن يناسب مقامهم

« ومن اهم النصوص التى ترد فى ابضاح هذه المسألة ما علق به نعيم بن خازم - وكان عربيا من ثقاة المأمون ومستشاريه - على تولية الرضا ، لما استشاره المأمون فى ذلك بحضرة الفضل بن سهل وزيره ووليه فى هذا الشأن .

قال نعيم - بعد ان كلمه الفضل « وخلق لنا وغلظة » :

« انما تريد ان تزيل الملك عن بنى العباس الى ولد على ثم تحتال عليهم فتصير أملكك كسرويا ولولا انك اردت ذلك لما عدلت عن لبسة على وولده - وهى البياض - الى الخضرة وهى لباس كسرى والجوس » .
« ثم اقبل على المأمون فقال : الله ، الله يا أمير المؤمنين لا يخذعك عن دينك وملكك ، فان اهل خراسان لا يجيبون الى بيعة رجل تقطر سيوفهم من دمه » (نشوار المحاضرة ، مجلة المجمع العلمى بدمشق ، المجلد العاشر ، ص ٣١٣ ، الوزراء والكتاب للجيشيارى ٣١٣) ومما يوضح أمر الخضرة أن العبيديين فى مصر اختاروا البياض شعارا لهم . وكان الأولى - اذا كانت الخضرة علوية اصيلة - ان يختاروها شعارا لهم . وقد رأينا البساسيرى - حين خطب للمستنصر العبيدى ببغداد سنة ٤٥٠ - يأمر الناس بترك السواد ولبس البياض (اخبار الدولة السلجوقية ٢٠) والظاهر ان اعتبار البياض شعارا يتأصل مما ورد فى السيرة من أن راية على بن أبى طالب يوم خيبر - وكان فتحها على يده - كانت بيضاء (السيرة ، جوتنجن سنة ١٨٥٩ ، صفحة ٧٥٦) ومما ينبغى ان يلتفت اليه فى هذا الشأن ايضا اشارة البحترى الى خضرة لباس كسرى فى وصفة للصورة التى رأها له فى الايوان بقوله فى ديوانه ، طبع الجوائب سنة ١٣٠٠ ، ١/١٠٩ :

والمنايا موائل وانوشروا ن يزجى الصفوف تحت الدرفس فى اخضرار من اللباس على اصفر يختال فى صبيغة ورس يضاف الى ذلك ان حمزة بن الحسن الاصفهاني (المتوفى قبل سنة ٣٦٠) ذكر فى كتابه « تاريخ سنن ملوك الارض والانبياء » ، برلين ١٣٤٠ ، ص ٣٥ ، أن شعار هرمز بن سابور (وكان من الملوك الاشغانية الذين حكموا بعد الاسكندر) كان « احمر موسى وسراويله اخضر وتاجه ايضا اخضر فى ذهب » .

من الحرائر ، وقد تبه الخوارزمي في رسائله الى ذلك فقال : « والمتوكل زعموا انه تسرى باثني عشر الف سرية ، والسيد من سادات اهل البيت يتعفف بزنجية او سندية » (١١٩) . وقد تطرقنا الى هذا الموضوع لاننا - في كتب الشيعة - نصادف اخبارا اسطورية كثيرة جدا تدور حول الجوارى التي يلدن للائمة ابناهم يحاول بها راووها ان يغطوا على هذه الناحية من سير امهات الائمة التي تسأل عنها الظروف المادية السيئة التي عانوها .

وكان الرضا مشتغلا بالعلم كجده وابيه حتى روى عبدالله بن جعفر الحميري انه اجاب على خمسة عشر الف مسألة وكان ذلك قبل ان يجمع الناس على فضله (١٢٠) ، وكان صاحب كرامات وفراصة يشفى المرضى ويعرف الرجل الاتي من العراق بالاسم قبل دخوله عليه (١٢١) وكان غلامه يصب الماء على يديه فيسيل من بين اصابعه في الطست ذهباً (١٢٢) ، وكان يمثل في علمه جده جعفر الصادق وكانت له آراء في الامامة وانتقالها وعلاماتها .

وللرضا صحيفة تضم مجموعة من الاحاديث يرويها عن ابائه عن النبي ويشترك في سندها القشيري الذي يرويها سنة ١٨٠٧/٥٠١-٨ (١٢٣) وقد كتب السيد فضل الله الراوندي شرحا للقسم الطبى منها (١٢٤) . وينص الحديث الثاني من صحيفة الرضا على أنه : « قال رسول الله : اربعة انا لهم شفيع يوم القيامة ولو اتوا بذنوب اهل الارض : المكرم لذريتي ، والقاضي لهم حوائجهم ، والساعي لهم في امورهم - عند من اضطروا اليه ، والمحب

(١١٩) رسائل الخوارزمي ٨١ .

(١٢٠) غيبة الطوسي ٥٢ .

(١٢١) اصول الكافي ٩١ .

(١٢٢) المصدر نفسه ١٣٣ .

(١٢٣) صحيفة الرضا ٩٢ . مات القشيري سنة ٤٦٥ .

(١٢٤) روضات الجنات ١٨٢ .

لهم بقلبه ولسانه» (١٢٥) • وفي الصحيفة احاديث ذوات مسحة زهدية تشي بالتصوف كحديث : «••• واول من يدخل النار امير مسلط لم يعدل وذو ثروة من المال لم يقض حقه وفقير فخور» (١٢٦) ويجب ان نتبّه الى ان الفقير الفخور ، فان في ايام الرضا كانت بداية ظهور التصوف بمعناه الخاص • بل ان في الصحيفة حديثا ينبيء برفع الوساطة بين الانسان والله ، مع ان الشيعة تعتقد ان الائمة هم شفعاء البشر اليه وهم الوساطة ، وهذا الحديث هو : « قال رسول الله : يقول الله عز وجل : ما من مخلوق يعتصم بى دون خلقى الا ضمننت السموات والارض رزقه فان سألنى اعطيته وان دعانى اجبته ، وان استغفرنى غفرت له » (١٢٧) ، وهذا حديث قدسى التوكل فيه ظاهر • وفي الصحيفة حديث اخر يحض على التوكل ايضا : « لو رأى العبد اجله وسرعه اليه لابغض الامل وطلبه الدنيا» (١٢٨) • وفي الصحيفة مجموعة من الاحاديث الطيبة واحاديث تدور حول الطعام وصفات الناس ومنها حديث زهدى يتعلق بالجوع : « ليس شىء ابغض الى الله من بطن ملان» (١٢٩) • وينقل الحاج معصوم على عن صحيفة الرضا ايضا حديثا غريبا يبدو فيه السلوك واضحا ونسبته الى الرضا عسيرة • وهو غير متضمن فى النسخة المطبوعة من الصحيفة ، ويبدو أنه ينقل عن جامع الاسرار وينسب الى الصحيفة • وذلك انه يروى عنه انه قال - والاحاديث فى الصحيفة كلها مروية عن النبي (ص) : « ان لله تعالى وتبارك شرابا لاوليائه اذا شربوا سكروا ، واذا سكروا طربوا ، واذا طربوا طابوا ، واذا طابوا ذابوا ، واذا ذابوا خلصوا ، واذا خلصوا وصلوا ، واذا وصلوا اتصلوا ، واذا اتصلوا لافرق بينهم وبين

-
- (١٢٥) صحيفة الرضا ٩٢ •
 - (١٢٦) المصدر نفسه ٩٥ •
 - (١٢٧) المصدر نفسه ٩٤ •
 - (١٢٨) المصدر نفسه ١١٣ •
 - (١٢٩) صحيفة الرضا ١٠٤ •

حبيهم» (١٣٠) ويروى الخوانسارى هذا الحديث ايضا غير انه يسنده الى جد الرضا : جعفر الصادق ويضيف اليه عبارة : « واذا طربوا طلبوا » غير ان الافلاكى روى ان جلال الدين الرومى سئل عن معنى عبارة مقارنة لهاتين على انها حديث نبوى ، فأجاب بأن المقصود بالشراب الخمر الالهية على اساس الحديث « اخترت اللبن واختبأت الخمر لاوليائى » (١٣١) . ومما تجب ملاحظته انه وردت فى الطواسين عبارة مقارنة فى معناها ومبناها ، قال الحلاج : « فكان قاب حين تاب وأصاب ودعى فأجاب وابصر فغاب وشرب فطاب وقرب فهاب » (١٣٢) ثالث شرب الذى يعقبه الطيب الصق بسكر الحلاج ولعل عبارة الامامين مؤصلة من هذا المصدر ومنحولة عليها . والاغرب من هذا ان الحاج معصوم على يروى عن كتاب « فقه الرضا » خبرا يدخل فى التصوف المتأخر ، وذلك انه ينقل - عند ذكر تكبيرة الاحرام - : « تذكر رسول الله واجعل واحدا من الائمة نصب عينيك . وهذه هى مراقبة الذكر من حيث ان من شروط الذكر حضور صورتك اى صور الشيخ الروحانية النورانية التى هى هيكل ومظهر رسول الله ، وثمة رسول ظاهرى ورسول باطنى ومنه السلام على هياكل التوحيد » (١٣٣) ، وقد قال بهذه المقالة بالذات متصوف شيعى متأخر هو الجنابدى المتوفى منذ حوالى نصف قرن ، ونسبها الى جعفر الصادق ، وذلك انه يقول فى تفسير : الصراط المستقيم : « وضح ان يقال : ان بشرية الامام ومعرفة بشريته من دون معرفة نورانيته والاتصال بشريته ، والبيعة معه طريق الى الله ، وان الطريق الى الله هو نورانية الامام ومعرفتها والاتصال بها ، ويسمى الاتصال بالامام ومعرفته بحسب نورانيته -

(١٣٠) طرائق الحقائق ١/ ٢٣١ ، جامع الاسرار ورقة ١٩٧ .٢

(١٣١) مناقب العارفين لاحمد الافلاكى (متوفى سنة ٧٦٠) اسطنبول

١٩٥٩ ، الصفحة ٣٥١ .

(١٣٢) الطواسين ٣٢ .

(١٣٣) طرائق الحقائق ١/ ٢١٧ ، ترجمة .

عند الصوفية بالحضور والفكر • واول مرتبة ذلك الاتصال والمعرفة هو ظهور الامام بحسب مقام مثاله على صدر السالك الى الله • وليس المراد بهذا الفكر الحضور وما اشتهر بين مرتاضى العجم من جعل صورة الشيخ نصب العين بالعمل ، وان كان ورد عن ائمتنا الاشعار بمثل هذا المعنى ، فانه ورد عن الصادق (ع) وقت تكبيره الاحرام : « تذكر رسول الله واجعل واحدا من الائمة نصب عينيك » فانه تقيد بانصورة وشبه بعبادة الاصنام • بل المراد ان السالك ينبغي ان يجلو مرآة قلبه بالذكر والاعمال المأخوذة من شيخه، فاذا اجتلى الذهن ونوى الذكر وجلا القلب من الاعيان ظهر الشيخ بمثاله على السالك ••••• واذا ظهر الشيخ بمثاله رفع كلفة التكليف عنه والتذ بحضوره عند محبوه ورأى ان كل مايرد عليه انما هو من محبوه فيلتسذ بها •••» (١٣٤) وللرضا - بعد هذا - صلة بمعروف انكرخى (المتوفى سنة ٢٠٠/١١٥-١٦) : استاذ السرى السقطى المتوفى سنة ٢٥٣/٨٦٧ ومن اول الشارعيين للتصوف طريقته واول قائل بالولاية الصوفية على صورتها التى ثبتت للمتصوفة • ويحدثنا القشيري عن ابي على الدقاق ان معروفا اسلم على يد على بن موسى الرضا (١٣٥) وكان من مواليه (١٣٦) ويروى القشيري ايضا ان الرضا نفسه هو الذى شجعه على الزهد بعد سماع معروف لابن السماك وهو يعظ الناس «فوق كلامه فى قلبى ، فاقبلت على الله وتركت جميع ما كنت عليه الا خدمة مولاي على بن موسى الرضا ، وذكرت هذا الكلام لمولاي فقال : يكفيك بهذا موعظة ان اتعظت» (١٣٧) ، ومن هنا نستطيع - ان صحت هذه الرواية - ان نجد تعليلا شيعيا معقولا لقول معروف للسرى السقطى : « اذا كانت لك حاجة الى الله فاقسم عليه بى » (١٣٨) وذلك انه اخذ عن

(١٣٤) تفسير المنير المسمى ببيان السعادة •

(١٣٥) الرسالة القشيرية ١٢ •

(١٣٦) طبقات الشعراى ١/٦٢ •

(١٣٧ ، ١٣٨) الرسالة القشيرية ١٢ •

الامام الرضا (١٢٩) . ويذكر الحاج معصوم على نقلا عن كتاب (مجالس المؤمنين) ان معروفا انتقد سفينة من الغرق برقعة زود بها تاجرا هدأ لها الماء حين نار ، وكان في هذه الورقة دعاء مأثور عن الامام الرضا وقد كتبه معروف عنه (١٤٠) . وقد كان قبر معروف اقدم مقام صوفى يزوره الناس ويتبركون به ، ويقول فيه القشيري : « قبر معروف ترياق مجرب » (١٤١) ولعل لذلك مدخلا الى صلته بالتشيع واسلامه على يد امام الشيعة الرضا .

ويوافق الحاج معصوم على ان الامام الرضا كان صاحب طريقة وان « معروفا اخذ عن حضرة امام العالمين وقطب دائرة الامكان : على بن موسى الرضا عليهما السلام الفيض ومنه تعلم الطريق وعنه تسلم منصب مشيخة المشايخ ، واذن له ان يوصل المريدين الصادقى العقيدة وانصار الائمة الى الطريقة الرضوية العلوية المصطفوية التى هى عبارة عن العبادة وتزكية النفس وتصفيتها » (١٤٢) . وينقل عن القاضى نور الدين الشوشترى ان معروفا « . . . كان اخذا من العلوم الظاهر والباطن » (١٤٣) ونحن نعلم صلة الظاهر والباطن بالتشيع وعلم الائمة . ويوافق الحاج معصوم على على ما يراه الشاعر الصوفى محمد تقى انكرمانى من ان « الشيعة صنفان : فريق اخص بالشرية وحفظها ، وفريق اخص بالطريقة وهم حملة السر . وكان اوائل حملة السر : سلمان الفارسى واويس القرنى ورشيد الهجرى وكميل بن

-
- (١٣٩) كانت الدولة العباسية ايام الرضا شيعية ، وذلك ان المأمون جعله ولي عهده لمحاولة تألف قلوب الناس ضد قومه العباسيين الذين حاربوه ونصروا اخاه الامين . وروى لنا ابن كثير ان المأمون « اظهر فى الناس بدعتين فظيعتين احدهما آطم من الاخرى وهى : القول بخلق القرآن والثانية تفضيل على بن ابي طالب على الناس بعد رسول اللهص » (البداية والنهاية ١٠ / ٢٦٧-٨)
- (١٤٠) طرائق الحقائق ٢ / ١٢٩ .
- (١٤١) الرسالة القشيرية ١٢ .
- (١٤٢) طرائق الحقائق ٢ / ١٣٣ ترجمة .
- (١٤٣) المصدر نفسه ١ / ٢٣٤ .

زياد والشيخ بسطام (يعنى ابا يزيد البسطامى) وشقيق البلخى ومعروف الكرخى • فكان الرواة حملة العلم الظاهرى والعارفون حملة السر القاهرى • وكان الرواة يحفظون الاحكام الظاهرية والعارفون مكلفين بحفظ الاسرار العميقة» (١٤٤) • ويعود الحاج معصوم على فينقل ان الامام الرضا هو مجدد الدين فى المائة الثانية وان معروفا الكرخى هو مجده باعباره من الزهاد» (١٤٥) • ويكفيها الشيخ محمد باقر الفت الاصفهانى الصوفى الايرانى العالم المعاصر المولود سنة ١٣٠١/١٨٨٣-٨٤ هذا التحسس بان الرضا قد سلم الطريقة الى معروف الكرخى واختصه بها فانفصلت عن الامامة وبقيت الشريعة والعلم الظاهرى لدى الائمة ابتداء من محمد الجواد الذى تسلم الامامة من الرضا سنة ٢٠٣/٨١٨-١٩ وله سبع سنين (١٤٦) • ويعتبر معروف الكرخى اخر صوفى اتصل بالائمة مع ملاحظة ان الرواة نقلوا لقاء ابي يزيد بالصادق (١٤٧) وذلك امر مستحيل لان الصادق توفى فى القرن الثانى سنة ١٤٨/٧٦٥ وابو يزيد متأخر عن ذلك كثيرا • ولم يرد عن اتصال الائمة بعد الرضا بالمتصوفة خبر بل لقد روى عن على الهادى الامام العاشر انه كان خصما للصوفية ولو كانوا معترفين بحق العلويين ومكاتبهم وقد روى عنه انه قال : الصوفية كلهم مخالفونها (١٤٨) وسيمر بنا السبب فى هذا •

وبذلك يتضح لنا ان الفكرة القائلة بانتقال القسم الباطن من العقيدة الى معروف والمتصوفة ، وبقاء القسم المتصل بظاهر الشريعة فى الائمة بعد الرضا

-
- (١٤٤) طرائق الحقائق ٢/١٣٥ ترجمة •
 - (١٤٥) المصدر نفسه ١/٢٣٥ •
 - (١٤٦) مقابلة مع الشيخ الفت •
 - (١٤٧) روضات الجنات ٦٨٤ •
 - (١٤٨) روضات الجنات ٢٣٣ •

آتية من اتصال معروف الكرخي بالرضا الذي ذكره المتصوفة واصروا عليه
وعنهم نقل من نقل من الشيعة • وتلك ظاهرة تبدو فيها محاولة التصوف
ان يؤسس له اساسا من التشيع القائل بالظاهر والباطن من بداية تنظيم التصوف
وايجاد قواعد له يرتفع عليها بناؤه • ولا يدع اصحاب كتب التصوف معروفا
الكرخي بل يلزمونه صحبة الامام الرضا الى مماته بوصفه حاجبا له بل
يجعلون موت معرف على باب دار على بن موسى حين كسر الشيعة اضلعه
بازدحامهم على الباب» (١٤٩) • ومهما يكن من امر العلاقة بين الرضا ومعروف
الكرخي فقد كانا متعاصرين والغالب ان الامام لم ينزل بغداد ولم يقيم بها وانما
التقى بالمأمون في طوس سنة ٢٠٠ (وهي السنة التي توفي فيها معروف) وتوفي
بها (اي الرضا) سنة ٢٠٣/١٨٨-١٩ ، ولم يورد احد خبرا ينبيء باقامة
الرضا في بغداد ، ولكن ذلك لا يمنع ان يكونا التقيا ، وليس هذا مجال
مناقشته • على ان ذلك كله ينبيء بزهد الرضا على الاقل ، ومن المعروف انه
كان يكثر وعظ المأمون اذا خلا به ومن ذلك انه «رآه يوما يتوضأ للصلاة
والغلام يصب على يده الماء ، فقال : يا امير المؤمنين لا تشرك بعبادة ربك
احدا» (١٥٠) •

ومات الرضا مسموما كما يرى اكثر المؤرخين وخلفه في الامامة ابنه
محمد الجواد وكان له سبع سنين كما روينا • وقد حالت حادثة سنة ووفاته
دون ان يتجاوز الخامسة والعشرين دون الاستفادة من علمه (١٥١) وجاء بعده
ابنه على الهادي وله من العمر ست سنين وكان مراقبا في سر من رأى • وخلفه
ابنه الحسن العسكري (نسبة الى العسكر في سر من رأى) ولم تكن ظروفه

(١٤٩) طبقات الصوفية ٨٥ •

(١٥٠) مقاتل الطالبين ٥٦٦ •

(١٥١) يرى ابن خلكان انه قدم بغداد وافدا على المعتصم ومعه امرأته أم
الفضل بنت المأمون فتوفى بها وحملت امرأته الى قصر عمها المعتصم
فجعلت مع الحرم (وفيات الاعيان ، باريس ١٨٣٨ ، ١/٦٣٢) •

احسن من ظروف ابيه ، ومات الحسن وله من العمر ثمان وعشرون سنة عام ٢٦٠/٨٧٣-٧٤ وخلف طفلا فى الخامسة على اكثر تقدير او ولد بعد موته بثمانية اشهر كما سيتبين لنا فيما بعد . ولكن هذا الوليد لم يظهر للناس اماما وانما اختفى من يوم وفاة ابيه وغاب غيبة صغرى - بعد تسليم الوكالة عنه الى سفرائه الاربعة - وانتهت الغيبة الصغرى سنة ٣٢٩/٩٤٠-٤١ ، فغاب ثانية ولم يظهر حتى الان . والشيعية ينتظرون ظهوره ليملاء الارض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا . ويحسن بنا ان نقف هنا قليلا لنترى كيف تطورت فكرة المهدي بعد ان تركناها عند محمد بن عبدالله بن الحسن .

المهدي :

ولد محمد بن الحسن سنة ٢٥٦ وصار اماما للناس وله من العمر خمس سنين حين توفى ابوه الحسن العسكرى سنة ٢٦٠/٨٧٣-٤ (١٥٢) ، وقد مر بنا ان جد ابيه محمدا الجواد قد صار اماما وانه سبع وجده عليا الهادى وله ست ، فصغر السن ليس غريبا على أئمة الامامية المتأخرين وقد رأينا مقارنة الجواد بيحىي والمسيح وها هو صاحب اخبار الدول يقول فى المهدي : « وكان عمره عند وفاة ابيه خمس سنين آتاه الله فيها الحكمة كما اوتيتها يحيى عليه السلام صيبا » (١٥٣) . والغريب ان محمد بن الحسن لم يتسلم الامامة لكى يعكسها على الناس بنفسه وانما تسلمها وغاب عنهم ، وقد رأينا المهديين السابقين يسبغ عليهم هذا الوصف بعد موتهم كجمل الأئمة السابقين او يعتبرون مهديين فى حياتهم يراد منهم الثورة وتبديل الظلم والجور بالقسط والعدل كما تطلب الناس من محمد بن الحنفية وكما فعل محمد بن عبدالله بن الحسن . اما مهدي الامامية - الذين صاروا الان الاثنا عشرية بعد ختام أئمتهم بالمهدي - فقد اختفى مهديهم وهو صغير حال امامته لهم ،

(١٥٢) الغيبة للطوسى ٢٥٦ .

(١٥٣) اخبار الدول ١١٧ .

وبعد ان كانت المهديّة عامل قوّة للشيعّة صارت عامل ضعف كما يبدو ذلك من تصريح الشيعة بان غيبة المهديّ انما كانت خوفاً عليه من الطلب (١٥٤) .

ويجب ان نلتفت هنا الى ان فكرة جديدة قد دارت حول مهديّة اخرى هي مهديّة الاسماعيلية التي رأيناها تعني انتهاء رسالة دينية وبداية رسالة اخرى وكان رأسها محمد بن اسماعيل المتوفى سنة ١٩٨/٨١٣-١٤٠ . وبذلك يتبين لنا اتجاهاً يضافان الى الاتجاه الاثنا عشرى في المهديّة : الاتجاه الزيدى الذى اتخذ المهديّة شرطاً للإمامة ، ويعنون بذلك ان الامام هو القائم بالسيف لدفع الظلم وانشاء العدل فصارت المهديّة عندهم هي الامامة بذاتها . اما الاتجاه الاخر فهو الاسماعيليّ الذى لم يرد من المهديّة القيام بالسيف وانشاء العدل ومحق الظلم وانما عنى بها قيام دين يصلح مانعاً من مثل الاسلام او يحل محله . فانفصلت فكرة السيف عن مهديّة الاسماعيلية واتصلت بها فكرة معنوية هي تجديد الدين . ثم جاءت خاتمة مهديات الامامية فاتصلت بالسيف من جديد ولكن في وقت مناسب للقيام ، ولا يعلم هذا الموعد الا الامام وحده (١٥٥) .

ونعود الى محمد بن الحسن من جديد فنجد الشيعة - بعد موت الحسن بن عليّ الامام الحادى عشر - برواية النوبختى اُتفقوا اربع عشرة فرقة لم تعترف بالمهديّ منها غير ثلاث فقط ، وانكرت العشر الباقيات ان يكون للحسن ولد اصلاً ، وقالت احدى الثلاث : « ان للحسن بن عليّ ابناً سماه محمداً ودل عليه . . . وولد قبل وفاته بسنين » (١٥٦) وقالت الثانية « بل ولد

(١٥٤) الغيبة للطوسى ٥٥ .

(١٥٥) يقول ابو الحسن الاشعريّ في وصفه للروافض - ويعنى بهم الشيعة من غير الزيدية والغلاة - : « اجمعت الروافض على ابطال الخروج بالسيف - ولو قتلت - حتى يظهر الامام وحتى يأمرها بذلك ، واعتلت في ذلك بان النبى (ص) - قبل ان يأمره الله عز وجل ، بالقتال - كان محرماً على اصحابه ان يقاتلوا » (مقالات الاسلاميين ١/٥٨) .

(١٥٦) فرق الشيعة ١٠٢ .

للحسن ولد بعده بثمانية اشهر وان انذين ادعوا له ولدا فى حياته كاذبون
 مبطلون» (١٥٧) وقالت الثالثة وهى فرقة الاثنا عشرية التى انضمت اليها
 سائر الفرق الامامية الاخرى بعدئذ بهذين القولين وغلبت الرأى الاول .
 والغريب فى الامر ان فرقة من فرق الشيعة حين سئلت عن المهدي قالت: «لاندرى
 ما نقول فى ذلك (الامام) اهو من واد الحسن ام من اخوته ؟ فقد اشبهه علينا
 الامر : انا نقول : ان الحسن بن على كان اماما وقد توفى وان الارض لاتخلو
 من حجة ، وتتوقف ولا تقدم على شىء حتى يصح لنا الامر ويتبين» (١٥٨) .
 وهكذا نصل فى نهاية الامر الى ان جوهر الامامة هو الذى اوجب القول
 بالمهدية ، فان بعض الشيعة لم يرضوا بامامة جعفر اخى الحسن بن على
 فاضطر بعضهم الى العودة الى القول بامامة محمد بن الامام العاشر (١٥٩) على
 الهادى الذى كان مرشحا للامامة وتوفى فى حياة ابيه كما توفى اسماعيل فى
 حياة جعفر الصادق ، وقال بعضهم بامامة جعفر نفسه على ما كان له من صلوات
 بالسلطان ، بل لقد قال بعضهم بان جعفرا هذا هو القائم المهدي و «انه افضل
 الخلق بعد رسول الله» (١٦٠) ، وقال بعضهم بمهدية الحسن العسكري الامام
 الحادى عشر و « انه حتى لم يمت وانما غاب وهو القائم ولا يجوز ولا ولد
 له ظاهر لان الارض لاتخلو من امام» (١٦١) . واغرب من هذا كله ان فرقة
 شيعة قالت فى المهدي : انه « قد مات وسيحى ويقوم بالسيف» (١٦٢) ونعل
 هذا يفسر لنا الحيرة التى كانت تستبد بالشيعة من غيبة امامهم وخوفهم من
 الضياع . ويبدو ان هذا انراى قد رآه النوبختى وهو من كبار الشيعة المعروفين ،

-
- (١٥٧) فرق الشيعة ١٦٠ .
 (١٥٨) المصدر نفسه ١٠٦ .
 (١٥٩) المصدر نفسه ١٠٠ .
 (١٦٠) المصدر نفسه ١٠٨ .
 (١٦١) المصدر نفسه ٩٦ .
 (١٦٢) المصدر نفسه هامش ٩٦ .

بل لقد كان ابو سهل التوبختي خال صاحب فرق الشيعة يرى « ان الامام محمد بن الحسن ولكنه مات في الغيبة وكان تاليه في الغيبة ابنه وكذلك فيما بعده من ولده الى ان ينفذ الله حكمه في اظهاره» (١٦٣) • وهذه الفكرة تخرج بالامامة عن حد الاثنا عشرية وتجعلها امامة تشبها الاسماعيلية المستورة • ومهما يكن من شيء فقد زالت كل الافكار الدائرة حول مهدي الاثمة السابقين وغيرهم والتف الشيعة حول مهدي محمد بن الحسن متفقين في النهاية على انه حي لم يموت وانه ولد سنة ٢٥٦/٨٧٠ •

وكما كان في النبي(ص) علامة بحث عنها سلمان ووجدناها في محمد ابن عبدالله بن الحسن اثنان بالمدينة على انه المهدي المنتظر وقد ولد « وبين كفيه خال اسود كهية البيضة عظيم» (١٦٤) كذلك وجدنا في اخبار المهدي انه كان يتميز بعلامة رآها رجل من اهل فارس حكى عنه ضوء بن علي العجلي انه قد شهد ولادة المهدي فاذا هو «غلام ابيض حسن الوجه ، وكشف عن بطنه فاذا شعر نابت من لبتة الى سرته اخضر ليس باسود» (١٦٥) ولعل في هذه العلامة الفرق بين مهدي الاثنا عشرية ومحمد بن اسماعيل مهدي الاسماعيلية الذي ظهر للتبشير بعقيدة جديدة لان الاثنا عشرية قد تحاموا ان يعقدوا صلة بين مهديهم وبين النبي الجديد فغيروا علامة مهديهم تمييزا له عن ان يقرن اسمه بالنبوة ، وعلينا ان نتنبه الى مصدر هذا الخبر فان راوية هو احد العجلين الذين تبوا الغلو واشاعوه في بداية القرن الثاني وها نحن في القرن الثالث وما زال العجلون ممسكين بزمام الاساطير الشيعة •

وهناك شيء اخر هو ان القائلين بمهدي محمد بن الحسن قد عادوا

(١٦٣) الفهرست ٢٥١ •

(١٦٤) مقاتل الطالبين ٢٣٧ •

(١٦٥) اصول الكافي ١٤١ •

يستندون الى الاخبار السابقة التي تقول بمهدية عيسى بن مريم بعد ان تقطعت الاسباب بهذه الفكرة حتى تددت فى مهدى الاسماعيليه ، وعادت الان فى شخص المهدي الاخير ، وذلك ان ابن بابويه القمي المتوفى سنة ٣٨١/٩٩١

ذكر عن محمد بن الحسن انه هو المهدي الذي اخبر به النبي و «انه اذا خرج نزل عيسى بن مريم يصلى خلفه ، ويكون اذا صلى خلفه كمن كان مصليا خلف رسول الله لانه خليفة» (١٦٦) ، ويروى الكنجي عن سفيان الثوري حتى يصل الخبر الى حذيفة بن اليمان الذي عرفنا منزلته من الاسرار، انه قال : « قال رسول الله (ص) : فيلتفت المهدي وقد نزل عيسى كأنما يقطر من شعره الماء فيقول للمهدي : تقدم صل باناس فيقول عيسى : انما اقيمت الصلاة لك • فيصلى عيسى خلف رجل من ولدي ، فاذا صليت قام عيسى حتى يجلس فى المقام فيبايعه فيمكث اربعين سنة » (١٦٧) ، وهكذا يتبين الغرض الذي من اجله وصل المهدي بالمسيح وذلك لتبدو امامته من جنس نبوة محمد التي بشر بها المسيح وراقب حدودها سلمان الفارسي احد الشيعة القدماء ، وهاهو ذا شيعي اخر يروى عنه هذا الخبر الذي وجه الى الغرض نفسه • ولكن الكنجي يفصل فكرة المهدي عن التشيع خاصة ويجعلها ضرورة من ضرورات الاسلام ويقول فى اخباره التي تدور حول المهدي : « وهذه الاخبار مما ثبت طرقها وصحتها عند السنة وكذلك تروى بها الشيعة على السواء فهذا هو الاجماع من كافة اهل الاسلام » (١٦٨) ثم ان ابن خلدون يؤيد صلة المسيح بالمهدي ويذكر « ان عيسى يأتّم بالمهدي فى صلاته » (١٦٩) ولكنه يعقب على ذلك بان هذا المهدي هو الفاطمي المنتظر ويذكر ان الصوفية تقول بنفس المقالة اخذا عن

(١٦٦) اعتقادات الصدوق ٣٨ •

(١٦٧ ، ١٦٨) البيان ٣١٩ •

(١٦٩) المقدمة ٣١١ •

الاسماعيلية (١٧٠) • والواقع ان مهدية الاسماعيلية قد حققت رسالتها وليس لمهديهم صلة بالقيامة واشراط الساعة التي هي علامات ظهور مهدى الاثنا عشرية • وقد غفل ابن خلدون عن هذه الحقيقة ولم يلاحظ ان المهدي قد كان ابن جارية مسيحية (١٧١) ولم يلتفت الى ان صلة مهدي الاثنا عشرية قد جاءت من هذه الناحية • وهكذا تبين الصلة التي تجددت بين المسيح وبين المهدي من كون امه من نسل الحواريين من بنات الملوك (١٧٢) لتتم بذلك فكرة الامتزاج بين الدين المسيحي والاسلام بالصهر كما امتزجت الديانات الفارسية القديمة بالاسلام بمصاهرة الحسين للفرس بزواجه شهربانو بنت يزدجرد • ومن هنا يتبين لنا ان اية فكرة تربط المهدي بالمسيحية وتمزجها انما هي آتية من طريق الاثنا عشرية الى الفرق الشيعية الاخرى •

وعلينا ان نذكر ان ابن خلدون يذكر بان الصوفية تقول بمقالة الشيعة في المهدي اخذا عن الاسماعيلية أما ما يتعلق بالاسماعيلية فقد بناه ، واما ما يتعلق بالتصوف فتحقيقه ان الصوفية يتصلون في اكثر عقائدهم الاثنا عشرية لا الاسماعيلية ، وذلك ان اتصال رجالهم بالائمة انما كان قاصرا على الائمة الاثنا عشرية وبخاصة الامام الثاني على بن موسى الرضا الذي رأينا اتصال معروف الكرخي به واخذه عنه ، ولانجد في كل السلاسل الصوفية سندا يتصل بامام اسماعيلي بعد الصادق ، وانما تقوم الصلة - اذا استندت الى سند علوي - بادثة من على بن موسى الامام الثامن من الاثنا عشرية حتى تصل الى على ، او تقوم من المتصوفة انفسهم حتى تصل الى على ، وليس هذا مجال الاستطراد في الافكار الصوفية عن المهدي ولكن هذه اشارة صغيرة لايضاح فكرة طارئة • وعلينا ان نذكر هنا ان ابن عربي - في اكثر ما اورده عن المهدي - كان يستند الى اسئلة الترمذي المتضمنة للبحث حول الاولياء والمتعلقة

(١٧٠) المقدمة ٣٢٣ •

(١٧١ ، ١٧٢) غيبة الطوسي ١٣٤ •

بالمهدى قطعا ، (وقد توفي اترمذى سنة ٢٨٥/٨٩٨ اى كان معاصرا لغيبة المهدي (الاثنا عشرى) ، وكذلك نجد عند النفرى الصوفى (المتوفى سنة ٣٥٤/٩٦٥) فكرة كاملة عن المهديية ضمنها كتابه المخاطبات الذى نعرض له فيما بعد • وبذلك يحق لنا ان نتلقى بالشك مقالة ابن خلدون عن المهديية من ان المتقدمين من المتصوفة « لم يكونوا يخوضون فى شىء من هذا وانما كان كلامهم هى المجاهدة بالاعمال وما يحصل عنها من نتائج الموجد والاحوال » (١٧٥) • ويشير ابن عربى فى تعرضه لمستند ختم الاولياء من القرآن انه « ذكر بما دل عليه ابو يزيد (البسطامى) فى مناجاته بسماء التوحيد وشاركه فى اوضح الاسماء صاحب سورة الاسراء » (١٧٤) • بل ان الحلاج نفسه قد حاول ان يجعل من نفسه وكيفا لمحمد بن الحسن مهدى الشيعة الاثنا عشرية ، ويذكر الطوسى انه صار الى قم (المدينة الشيعية القديمة) وادعى انه رسول الامام ووكيله (١٧٥) ويرد فى نشوار المحاضرة ان الحلاج « راسل ابا سهل بن نوبخت (الذى مر بنا رأيه فى المهديية) يستغويه • وطلب اليه ان يثبت شعرا فى صلته ليقول : انه نائب الامام » (١٧٦) ولكن الحلاج لم يعد الى مقاتله ويرد مثل ذلك فى الفهرست (١٧٧) • بل لقد ادعى سيد حسن العراقى المتصوف المتوفى سنة ٩٧٣/١٥٦٥-٦ انه رأى المهدي ودعاه عنده فى بيته فاقام سبعة ايام بلياليها ولقنه الذكر (١٧٨) • وهكذا يتبين اتصال المتصوفة فى فكرة المهدي بالشيعة الاثنا عشرية • ويزيد ذلك وثيقة ان محمد بن زينب يقول : ان هذه الغيبة لو لم تكن ... لكان مذهب الامامة باطلا ، (١٧٩) •

-
- (١٧٣) المقدمة ٣٢٣ •
(١٧٤) عنقاء مغرب ٧٢ •
(١٧٥) غيبة الطوسى ٢٦٢ •
(١٧٦) نشوار المحاضرة ٨١ •
(١٧٧) الفهرست ٢٦٩ •
(١٧٨) طبقات الشعرا بنى ١٢٦/٢ •
(١٧٩) غيبة الطوسى ٢١٦ •

ونشأت فكرة متى يظهر المهدي بعد ان طال الزمن على غيبته ، والفكرة الاساسية هي ما يعرضه الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠/١٠٦٧-٨ من ان « الله اعلمه على لسان نبيه (ص) ووقفه عليه من جهة زمان غيبته وزمان زوال الخوف عنه ... وانما اخفى ذلك عنا لما فيه من المصلحة . فاما هو فعالم به لا يرجع الى الظن» (١٨٠) فالغيبية رهن بالموعد الذى حدد لها والظهور يتوقف على زوال الخوف ، هذا هو توقيت الظهور فى بساطة . ولكن الزمن مضى ، دون ان يظهر المهدي ، وقد قطع الشيعة الطريق على كل محاولة للتوقيت ولعنوا الوقتين (١٨١) ، وقام بهذه المهمة المتصوفة وبعض قبالي اليهود بان «اتتهجوا تأويلا قباليا لآيات القرآن وسوره وتجميعات للحروف والاعداد» (١٨٢) غير ان الشيعة استبدلوا الوصف بالتاريخ فحددوا مظاهر اجتماعية هي علامات الظهور وتدل فى الواقع على الفكرة التى تحوج العالم الى ظهور امام يملؤه قسطا وعدلا كما ملئ ظلما وجورا كتحديد الكلىنى ذلك رواية عن محمد الباقر من ان الظهور يكون حين « تخرج الفتاة من خدرها وتوقظ النائم ، ويفزع اليقظان» (١٨٣) ويحدد عمار ذلك باستيلاء الترك والروم على العالم الاسلامى بعد نهاية «خليفتمكم انذى يجمع الاموال» (١٨٤) وهذه العلامات تعنى تفسخ العالم خلقيا واجتماعيا وسياسيا ولذلك اختلطت علامات الظهور باسراط الساعة وجوهر الامرين واحد . وهذا سلمان الفارسى يسأل النبى عن موعد الساعة فيجيبه : « فمنها اضاعة الصلوات واتباع الشهوات والميل الى الاهواء وتعظيم اصحاب المال ... ان عندها يكون المنكر معروفا والمعروف منكرا ويؤتمن الخائن ويخون الامين ... فعندها اماراة النساء .. تشارك المرأة زوجها فى التجارة ، وعندها يكتفى الرجال بالرجال والنساء

• (١٨٠ ، ١٨١) غيبة الطوسى ٢٧٧

• (١٨٢) العقيدة والشريعة فى الاسلام ١٩٣

• (١٨٣) الغيبة لابن زينب ١٣٣

• (١٨٤) البيان للكنجى ٢٩٣

بالنساء ••• ويظهر الربا ويتعاملون بالعينة والرشا ••• ويكثر الطلاق •••
وتفسو الفاقة ••• ويستحسنون الكوبة والمعازف وينكرون الامر بالمعروف
والنهي عن المنكر حتى يكون المؤمن فى ذلك الزمان اذل من فى الامة ••••
ويتكلم فى أمر العامة من لم يكن يتكلم ، فلا يلبثون قليلا حتى تخور الارض
خورة (١٨٥) وتبدو صلة القيامة بظهور المهدي من انه « اذا قام اشرفت الارض
بنور ربها واستغنى الناس ويعمر الناس فى ملكه » (١٨٦) ويوثق ذلك خبر
يروى عن عمار بن ياسر ايضا انه قال : ان دولة اهل بيت نبيكم فى آخر
الزمان (١٨٧) • وقد تركزت الرجعة فى قيام المهدي الى حد ان الحديث
عنها وتوكيدها والتدليل عليها صار امرا ليس له داع • ومما يذكر الشيعة فى
ذلك « ان شعيب بن صالح هو صاحب نوائه » (١٨٨) وشعيب هو الذى ردت
له الشمس كما ردت لعلى - فى رأى الشيعة - فيما بعد • ومن اخبار الرجعة ان
جيش المهدي يعد ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا عدة اهل بدر (١٨٩) ، منهم
النجباء من اهل مصر والابدال من اهل الشام والاخيار من اهل
العراق (١٩٠) • بل يروى الشيعة ان عليا نفسه سيحكم بعد المهدي ويطلب
بدم الحسين (١٩١) والدخول فى هذه التفاصيل لا ضرورة له ولكن علينا
ان نتذكر بان كل هذه المثل يراد بها الانتقام ممن قاسى الشيعة على ايديهم
الجور والقسوة والقتل •

ونذكر فى ختام هذا الفصل ان الشيعة قد ارادوا من فكرة المهدي ان

-
- (١٨٥) تفسير على بن ابراهيم ١٨٨ •
 - (١٨٦) البيان للكنجى ٢٩٧ •
 - (١٨٧) المصدر نفسه ٢٨٩ •
 - (١٨٨) المصدر نفسه ٢٩٣ •
 - (١٨٩) غيبة الطوسى ٢٩٧ •
 - (١٩٠) غيبة ابن زينب ١٧٠ •
 - (١٩١) هامش البيان ٢٩٨ •

يجمعوا امر المسلمين بل امر العالمين على المثل الشيعية العلوية التي رأوا انها خلاصة رسالات الرسل وجوهر اهداف الاديان وقد اورد الطوسي عن الباقر انه قال : « في صاحب هذا الامر سنن من اربعة انبياء : سنة من موسى وسنة من عيسى وسنة من يوسف وسنة من محمد . . . » (١٩٢) . ويرد عن الباقر ايضا تحديد المكان الذي سيظهر فيه المهدي والروح التي تبعث من ظهوره بقوله : ان القائم اذا قام بمكة واراد ان يتوجه الى الكوفة نادى مناديه : الا لا يحمل احد منكم طعاما ولا شرابا ، ويحمل حجر موسى بن عمران وهو وقر بعير ، فلا ينزل منزلا الا انبعثت عين منه : فمن كان جائعا شبع ومن كان ظاميا روى ، فهو زادهم حتى النجف (مدفن علي) من ظهر الكوفة» (١٩٣) . ومكة هي المكان الذي ظهر فيه محمد (ص) والكوفة هي المكان الذي قتل فيه علي وانتهى امر الشيعة . اما بعد فهذه هي المثل الشيعية في فكرة المهدي وسنرى كيف ترد بكل تفاصيلها على صورة صوفية مشتقة من التصوير الشيعي لها . وبهذا نختم كلامنا عن التشيع ، ولكن يجب ان نشير - قبل ان نضع القلم بان ما مر بنا من افكار الشيعة مما كان خاصا بفرقة بعينها لم يلبث ان دخل كله في التشيع الاثنا عشرى ودعم بالحجج العقلية والنصوص . والتشيع الحالي انما هو زبدة الحركات الشيعية كلها من عمار الى حجر بن عدى الى المختار وكيسان الى محمد بن الحنفية وابي هاشم الى بيان بن سمعان والغلاة الكوفيين الى الغلاة من انصار عبدالله بن الحارث الى الزيديين والاسماعيليين ثم الامامية التي صارت اثنا عشرية . وقد قام بعملية المزج

(١٩٢) غيبة الطوسي ٢٧٦ .

(١٩٣) اصول الكافي ٥٤ .

متكلمو الشيعة ومصنفوهم • وليس التعرض لهذه العملية مما يفيد البحث
وانما هي عملية غربلة ومزج لاتغير من امر التشيع شيئاً ولا تضيف اليه و
تقص منه •



الباب الثاني

الزهد

الفصل الاول

الزهد . . . عموماً

مقدمة :

بعد ان فرغنا من بحث التشيع وبيننا اصله ومثله ومذاهبه التي تشعبت منه خلال تطوره حتى ثبت على صورته الباقية حتى الان نعرض للجانب الثاني من هذه الرسالة ، وسنبداً بمبحث التصوف بالزهد الذي هو له اصل والتصوف تطور له كما كان التشيع الاول اصلاً والفرق الشيعية الحاضرة فروعاً له ، وسيكون المنهج الذي سنطبقه هو ما طبقناه في التشيع من مصاحبة للتصوف في مراحلها ، وكلما ظهرت فكرة جديدة فيه بسطنا القول فيها وبحثناها الى نهايتها ورأينا صلتها بالتشيع ، اى ان عرضنا للزهد والتصوف سيكون محاولة للمطابقة بينهما وبين التشيع او بحثنا عن المصادر الشيعية فيهما ، وسنجد من ذلك الشيء الكثير .

ولن نفتح الزهد بتعريفه لان ذلك صار شغل المتصوفة الشاغل فيما بعد وتعتبر تعريفاته التي نطق بها المتصوفة عكساً للمراحل التي مر بها قصد بها بيان ما بين الزهد والتصوف من فرق وسنعرض لهذه المسألة في اثناء بحثنا ولكن يحسن بنا ان نذكر ان لفظ الزهد لم يرد في القرآن الا مرة واحدة في سورة يوسف في آية : « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين »^(١) ولا تعبر هذه الآية عن مدلول معين للزهد ولا تتصل به

(١) يوسف : آية ٢٠ .

ولكننا وجدنا كل عقيدة جديدة فى الاسلام توصل بالقرآن وقد مر بنا التشيع وفرقه ورأينا كيف يتعلق اصحاب الفرق بآيات القرآن تعلق الغريق بطوق النجاة ولهذا وجدنا السرى السقطى (المتوفى سنة ٢٥٣/٨٦٧) يصل الزهد بالقرآن ويرى انه من قوله تعالى : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » (٢) ، ثم يشرح مرماه بقوله : « ان الزاهد لا يفرح بوجود ولا يتأسف على مفقوده » (٣) ، وقد لمح القشيري اختلاف المتصوفة فى تعريف الزهد فصرح بانهم « تكلموا عن معنى الزهد فكل نطق عن وقته و اشار الى حده » (٤) ويكفى ان نورد هنا ان سفيان الثورى (المتوفى سنة ١٦١/٧٧٧-٧٧٨) قد تار على الزهد الاول الذى تمثل فى زهد الصحابة المادى فى اللباس والطعام ففى أن يكون الزهد « أكل الغليظ ولا لبس العباء » (٥) وكان فى مقاله هذا يحاول ان يتطور بالزهد ويقلل من اندفاع المسلمين الى لبس الصوف كما سنرى فى اثناء هذا البحث .

ويجب ان نقرر الآن وقبل الدخول فى التفاصيل اننا نفرق بين الزهد الذى جاء به الاسلام والزهد المنظم الذى نادى به زهاد الكوفة والبصرة والشام وصار مقدمة للتصوف ، وسنرى ان الاسلام كان من اصول الزهد الاولى ، ذلك ان الاسلام قد جاء ليحارب الارستقراطية القرشية ويرتفع بمستوى الاجراء والعباد والفقراء بالاضافة الى الدعوة الدينية والروحية . وقد كان صبغ الاسلام دعوته بالزهد والتقشف العلامة المميزة له عن النظام القرشى فى مكة والشعار الذى يلتف بمقتضاه الضعفاء والمحرومون والعباد حول النبى ويدخلون فى دين الله افواجا . ذلك ان الاسلام لم يكن منجما من الذهب ولم يكن شركة لها اموال وتجارة وانما كان دعوة تهدف الى اقرار مثل من العدالة والمساواة لم تكن موجودة ، ولو استندت الدعوة الى النظام السائد

(٢) الحديد : ٢٣ .

(٣ ، ٤ ، ٥) الرسالة القشيرية :

واشبهته ما رأينا المستضعفين والفقراء والعبيد انصارا له ولكان حركة انقلاب يقصد بها الاستيلاء على السلطة ، ولهذا عجزت قريش عن تحطيم الاسلام المكى وكانت مقاومته محاطة بالاشواك • وقد كان الزهد الذى اصطبغ به الاسلام مانعا لارستقراطي قريش من الدخول فيه وتقويضه فقد كانت ضريبة دخول الغنى فى الدعوة ان يخرج عن امواله وان يساوى زملاءه فى الفقر ، والامثلة على نزول المسلمين الصادق ايمان عن ثرواتهم مشهورة ، وهذا ابو بكر وعثمان من الامثلة الناصعة على ذلك • ولعله ليس من الغريب ان نجد حركة الزهد فيما بعد تعكس لنا هذه الصورة نفسها بنزول محمد بن سودة الزاهد مولى بجيلة عن مائة وعشرين الف درهم من امواله ليدفع بها البلاء عن اهل الكوفة (٦) ، وبهذا يتبين لنا ان الزهد صورة اصيلة من صور الاسلام وبقرة هامة فى منهجه التطبيقى اريد به نزول القادة الى مستوى الفقراء لجمعهم وكسب عطفهم وحماسهم ، فاصطبغ زهد الاسلام بصفات الداخلين فيه من الفقراء والعبيد فكان المسلمون الاولون وحتى خلفاؤهم يلبسون اللباس الخشن ويتناولون الطعام البسيط ولم يكن ذلك منهم نوعا من العبادة الزائدة او شيئا مضافا الى الايمان المتميز وانما كان من طبيعة الاسلام التى دخلت نفوسهم وتمصتها •

ولعل ابداع مثل يضرب للتدليل على هذه الحقيقة ما اورده ابو طالب المكى من انه « لما جاء عبدالله بن عامر بن ربيعة فى بزته الى ابي ذر (ر) وسأله عن الزهد واخذ يتكلم فيه فجعل ابو ذر يضطر به فى كفه ثم اعرض عنه ولم يكلمه ، فغضب ابن عامر - وكان قرشيا شريفا - وشكاه الى ابن عمر (ر) فقال له : « انت فعلت بنفسك تأتى الى ابي ذر فى هذه الثياب وتسأله عن الزهد» (٧) ، وهكذا اوضحت صراحة ابي ذر معنى الزهد وحكت لنا قصته

(٦) صفة الصفوة ٦٥/٣ •

(٧) قوت القلوب ٥٢/٢ • ابن عامر هذا - المتوفى سنة ٥٩ - كان اول من لبس الخبز فى الاسلام (الاعلاق النفسية ١٩٢ ، الوسائل الى مسامرة الاوائل) وهو فاتح راسان ايام عثمان (البلدان لليعقوبى ، اوربا ، ٢٩٦) وكان امويا من بنى عبد شمس (البلدان ٢٩٥) •

الحقيقية واوضحت حقيقة المتلبسين بالاسلام من الارستقراطيين القدامى
الذين جاء الاسلام لمحققهم •

ويضرب لنا ابو الدرداء ، واسمه عويمر بن زيد بن قيس ، مثلا آخر على
هذه الحقيقة بقوله : « كنت تاجرا قبل ان يبعث النبي - صلعم - فلما بعث محمد
زاولت التجارة والعبادة فلم تجتمعا ، فأخذت العبادة وتركت التجارة» (٨) •

وقد رأينا الاسلام يحارب الرهبة ويجعل الزواج اساسا للزهد لان فقر
المسلمين الاولين لم يمنعهم من الزواج ، ولو كان الزواج عسيرا على فقراء مكة
وعبيدهم ممن صاروا مادة الاسلام على الاعتبار السابق لرأينا الاسلام - على
الارجح - يحض على البعد عن النساء ولكننا سمعنا عبدالله بن عباس
يقول : « لا يتم نسك اناسك الا بالنكاح» (٩) ، فعرفنا ان كل ما يقال عن
اتصال اصول الزهد بالمسيحية ورهبتها امور بعيدة عن الصدور عن حقيقة
مبينة ، وهكذا دخل الزهد في قلوب المسلمين منذ اللحظة الاولى وكان
شعارا بل ضرورة من ضروراته بحكم كون الفقر والجوع الامرين السائدين
في العالم المكى والعربى ، ولهذا فليس من المستغرب ان يروى عن النبي (ص)
انه قال : « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام» (١٠)
وعلى ذلك فاننا مضطرون الى ان نرى انه ليس دقيقا - ان لم يكن باطلا - رأى
فليب حتى الذى يرى فيه انه « كان التصوف - ويقصد به الزهد - فى بدئه
مقصورا على الحياة الزهدية القائمة على الاعتزال والتأمل كما كان الحال عند
النسك انصارى» (١١) الا اذا كان يعنى به الزهد الذى نضج فى القرن
الثانى بعد ان دخلته ثقافات وتقاليد من خارج الدين الاسلامى • ونيكلسون

(٨) طبقات ابن سعد ، ٧ : ١١٧/٢ •

(٩) الكواكب الدرية ١/٦٦ •

(١٠) قوت القلوب ٢/١٥٨ •

(١١) تاريخ العرب ٢/٢٢١ •

نفسه يوثق هذه الفكرة فى صورة غير مباشرة بما يذكره من خلو أقوال متصوفة الزهاد من امثال ابراهيم بن ادهم (المتوفى سنة ١٦١/٧٧٧-٨) وداود الطائى (المتوفى سنة ١٦٥/٧٨١-٢) والفضيل بن عياض (المتوفى سنة ١٨٧/٨٠٣) وشقيق البلخى (المتوفى سنة ١٩٤/٨٠٩-٨١٠) من تأثرهم بالمسيحية « او بأى مصدر اخر الا قليلا » (١٢) ، واذا كان نيكلسون يرى ذلك فيما يتعلق بالزهد المنظم الذى يوشك ان يتطور الى التصوف فان صدور الزهد الاسلامى الاول عن جوهر الاسلام يصبح امرا مقطوعا به . وقد تنبه الى هذه الحقيقة باحثون من المسلمين كالشيخ صالح بن مهدى القبلى الذى يقول « اعلم ان من اشد الخلاف ضلالا واعمه بلاء وادقه مسلكا واكثره هلكا ومعترا كما انه تزهد جماعة من الصحابة رضى الله عنهم - لعله يقصد بهم المسلمين الاولين - برفض الدنيا فقط تابعين لنصيحة الله وسنة رسول الله (ص) . . . ثم نشأ بعدهم زهاد كذلك لكنهم قالوا : لا سلامة الا بالعزلة عن الناس هربا من العوارض » (١٣) ، ويرى الشيخ القبلى ان هؤلاء النساك التابعين هم الذين تشبه منهم طائفة برهبان النصارى لا الاوائل ، ويضيف نيكلسون ناقلا لرأى جولد تسيهر الى ذلك انه « ترجع العوامل الرئيسية فى ظهور نزعة الزهد الى عاملين هامين : الاول المبالغة فى الشعور بالخطيئة ، والثانى الرعب الذى استولى على قلوب المسلمين من عقاب الله وعذاب الآخرة » (١٤) ، وهذا رأى له وجاهته ولكنه مع ذلك يدخل ضمن العامل الذى ذكرناه من ان الاسلام قد تبنى الزهد صورة له ، وتلك صورته المادية وهذه المعنوية . فالزهد فى الاسلام اذن ادى اليه عاملان : عامل اجتماعى اسلامى ينعكس من محاربة الارستقراطية باشاعة المظهر الزهدى فى الاسلام والمسلمين وقطع الطريق

-
- (١٢) فى التصوف الاسلامى ٣ .
 - (١٣) العلم الشامخ ٣٦٨ .
 - (١٤) فى التصوف الاسلامى ٢ .

على المملأ المكى فى اندس له والدخول فىه تظاهرا اثم القضاء عليه ، وعامل نفسى استشفه المسلمون من رسالة الاسلام ومن عذاب الاخرة الذى يرد ذكره فى القرآن ومن التخويف بالنار • وزاد ذلك رقة عاطفة المسلمين الاوائل الذين كانوا فى عامتهم فقراء مستضعفين او عبيدا وهم قد عانوا كثيرا فى سبيل عقيدتهم كما رأينا فى التشيع الاول • ولو لم يكن الزهد جوهريا فى الاسلام الاول لرأينا مظهر المسلمين يتبدل بعد الفتوح التى تحققت ايام عمر ، بل لقد رأينا الزهد الصق بالخليفة والمحيطين به فى هذه الفترة ، ولعل مصداق نظرتنا هذه ان الفتنة الكبرى لم تحدث الا لخروج عثمان على هذا الشعار الزهدى • وكذلك كانت ثورة العراقيين على الامويين مؤسسة على ان الامويين كانوا يعتبرون السواد بستانا لقريش^(١٥) ، وكانوا بذلك يخرجون على تقاليد الاسلام من اثار الزهد والبعد عن الترف وهى السياسة التى استنتها الاسلام ودخل فىه العرب على هذا الاساس وكانوا فى النهاية هم الذين حاربهم الاسلام واستقى وجوده من القضاء عليهم • ويؤكد لنا الباحث الايرانى المعاصر الدكتور قاسم غنى هذه الحقيقة ويرى ان قد « كان مسلمو صدر الاسلام فقراء وجياعا يحيون حياة بدوية بسيطة ليس فيها تكلف ، وصار الفتح سببا فى امتلاء ايدى هؤلاء الفقراء بالثروة فاتصل هؤلاء القوم من سكان الصحراء شبه البدائيين بحضارات كثيرة الترف والتكلف واتسعت رقعة المجتمع الاسلامى بنتيجة هذه الفتوح ••• حافلة بالنصخب • والخلاصة ان كل هذه العوامل سببت تبدل حياة الاعراب المعتدلة الهادئة البسيطة الى حياة مليئة بالترف على صورة كان الافراط والتفريط زائدا فيها ، وتحمل المسلمون المتعبدون هذه التغييرات والتحويلات فى حياة العرب فى صعوبة وضيق • ويحدثنا التاريخ ان عمر لما اطلع على حياة معاوية المترفة وسطوته فى سورية غضب ، ووبخ خالد بن الوليد على اسرافه ، وكان من احد اسباب ثورة

(١٥) الطبرى (اوربا) ٢٩١٥/١ •

المسلمين على عثمان الخليفة الثالث انه كان يملك كثيرا من العقارات والمواشى والاراضى بخلاف الشيخين» (١٦) • وهذا يدعونا الى الشك فى صحة مايراه المرحوم محمد كرد على من انه « نشأ فى القرن الاول رجال ربانيون اتقياء عزفت نفوسهم عن بهرج الدنيا وزخرفها فانصرفوا الى العبادة والزهادة لمزاج خاص بهم او جيلة دفعتهم او لسبب من الاسباب التى تعرض للبشر من اخفاق فى طلب مجد او مال او وصال» (١٧) لان الزهد لم يكن نزعة فردية وانما كان لونا اسلاميا اصطبغ به المجتمع الجديد كله ، وهذا ابو طالب المكى يسم المهاجرين جميعا بالفقر والزهد ويجعلهم من جنس اهل الصفة فيقول : « ولا نعلم فى الامة افضل من طائفتين : المهاجرين واهل الصفة وجميعا مدح الله تعالى بالفقر فقال : للفقراء الذين احصروا فى سبيل الله» (١٨) فقدم وصفهم على اعمالهم : الهجرة والحصر» (١٩) • ويسوقنا هذا النص الى ذكر اهل الصفة الذين جعلهم اصحاب كتب التصوف مقدمة المتصوفة واسلافهم ، ويحدثنا السراج انهم « كانوا نيفا وثلاثمائة لا يرجعون الى زرع ولا ضرع ولا الى تجارة وكان اكلهم فى المسجد ونومهم فى المسجد وكان رسول الله (ص) يؤانسهم ويأكل معهم ويحث الناس على اكرامهم ومعرفة فضلهم» (٢٠) ، وكان لاهل الصفة رئيس هو ابو هريرة ، وابو طالب المكى يخبرنا انهم « كلهم كان متبعا لاوامره مجتتبا لزاجره» (٢١) ، ويصفهم بانهم كانوا الصق بالزهد من باقى المسلمين وانهم كانوا يبالغون فيه وكان يشاركهم بعض زهاد الصحابة ذلك ويروى ان احدهم كان «يباشر التراب بجلده ويطرح ثوبه فوقه

(١٦) تاريخ تصوف در اسلام ٢٠ (ترجمة) •

(١٧) الاسلام والحضارة العربية ٢٨ •

(١٨) البقرة : ٢٧٣ •

(١٩) قوت القلوب ١٥٩/٢

(٢٠) اللمع ١٣٢ •

(٢١) قوت القلوب ٨٨/١ •

ويقول : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، كأنهم كرهوا الترفع عنها والوقاية منها
يجدون ذلك ارق لقلوبهم وابلغ لتواضعهم» (٢٢) .

والظاهر من هذه الاخبار أن أهل الصفة هم المسلمون الذين لم يؤاخ
الرسول بينهم وبين زملاء لهم من أهل المدينة وانهم اتخذوا لذلك الصفة
سكناً لهم وملجأ ، يدل على ذلك ما يورده ابو حفص السهروردي (المتوفى
سنة ٦٣٢/١٢٣٤-٣٥) من انه « كان الرجل اذا قدم المدينة وكان له بها
عريف ينزل على عريفه فان لم يكن له بها عريف نزل الصفة» (٢٣) ،
ويبدو ان عددهم قد حدد بعدئذ وقصد به ان يشبهه عدد سنى أهل الكهف او
عدة جيش النبي(ص) يوم بدر ، وقد روى ابن سعد أن عددهم يتراوح بين
ثلاثمائة وثلاثة عشر وثلاثمائة وستة عشر رجلاً بحسب روايات الرواة (٢٤) ،
وقد حدد عدد الابدال في كتب التصوف بثلاثمائة لهذا السبب على ما يبدو .
وقد صنعت رئاسة ابي هريرة لهم ليجمعوا من الصفة رباطاً صوفياً كما يبدو
من تشبيه ابي طالب الرباط بالصفة . ومهما يكن من شيء فانتا وجدنا
المهاجرين زهاداً أو رأينا الزهد رسمياً في المدينة بدليل مؤانسة الرسول(ص)
لهم .

واذا تركنا أهل الصفة وجدنا عبدالله بن عمرو بن العاص الذي كان
من « اتقى الصحابة واقواهم حماسة في الدين واشدهم غيرة وتدقيقاً في
اتباع السنة» (٢٥) ، ويحدثنا جولد تسيهر انه « حرم عينه الرقاد ليقضى الليل
في تلاوة القرآن وانه فرض على نفسه صوماً دائماً ويذكر ان النبي(ص)

(٢٢) قوت القلوب ١/٥٢ .

(٢٣) عوارف المعارف ٧٨ .

(٢٤) طبقات ابن سعد ٣ : ١٣٤/٢ .

(٢٥) العقيدة والشريعة في الاسلام ١٢٤ .

« زجره ليقصر في عادات زهده على الحد المعقول »^(٢٦) ، وعبدالله قد شارك في حرب صفين مع ابيه فهل كان ايام النبي في سن تؤهله لهذا الادراك وتحمله على هذا الصنيع ؟ ومهما يكن الامر فاننا لانعدم امثلة اخرى على لصوق الزهد بالصحابة واختطاطهم له ، وقد رأينا سلمان الفارسي اميرا على المدائن وهو متلبس بالزهد الى حد غريب وكذئك رأينا ابا ذر وعمارا وغيرهم • ويحدثنا ابو طالب ان عمر « كتب الى اهل حمص ان عدوا لى فقراءكم فسموا له في الكتاب نفرا وكان اميرهم سعيد بن جذيم او عمير بن سعد افقرهم »^(٢٧) ، ويحدثنا كذلك ان فضالة بن عبيد والى مصر رؤى اشعث حافيا فقيل : انت الامير وانت هكذا ؟ قال : نهانا رسول الله (ص) عن الارفاء وامرنا ان نحثى احيانا»^(٢٨) ولعل في ذلك مايقطع بما اوردها من ان الزهد صفة عميقة من صفات الاسلام لما ذكرناه في مبحث التشيع ولما اوردها هنا ايضا • ولعله ليس من التكثر في ايراد الاخبار ان نشير الى اهمية مقالة ابي سعيد الخدرى : « ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله(ص) الا ببعض على بن ابي طالب »^(٢٩) ، واذا عرفنا ان المنافقين هم الارستقراطيون السابقون ادرکنا الى اى مدى كان الاسلام متبينا للزهد لونا لحياته • وبهذا نجد ان الاسلام هو منبع الزهد الذى هو التواضع فى اللبس والمشرب والمأكل والتواضع فى المعاملة اى التطبع بطابع الفقراء الذين كانوا يؤلفون اغلبية المسلمين • وليس الزهد الذى مر بنا فى هذه الصفحات هو الزهد الاصطلاحى الذى تطور الى التصوف وانما هو صورة الفقر التى انعكست على سواد المسلمين الاولين •

وقد وجدنا الاسلام قويا ايام النبي (ص) وايام ابي بكر وعمر ووجدنا عليا نصيرا لهما وناصحا ووجدنا زعماء الصحابة معهما ، وقد بينا فى بداية التشيع ان المسلمين الحقيقيين كانوا الارقاء والفقراء من امثال سلمان و ابي ذر

(٢٦) العقيدة والشرعة فى الاسلام ١٢٤ •

(٢٧ ، ٢٨) قوت القلوب ٢ / ١٨٠ •

(٢٩) الصواعق المحرقة ١٢٠ •

والمقداد وعمار وحذيفة وصهيب وغيرهم وانهم كانوا يلتفون حول علي :
افقه الصحابة واعلمهم واشجعهم واقربهم الى النبي والاسلام ، ثم وجدنا من
بقي من هؤلاء الى خلافة عثمان يشاركون في الثورة عليه وبيننا ان كل ما صنعه
عثمان هو شعوره بانه رئيس دولة له ان يصنع ما يشاء باموال المسلمين
ومناصبهم فجعل يوزع الامارات والاموال على اقاربه وارحامه • ولم يكن
ذلك كثيرا على رئيس دولة عادية ولكنه كان كثيرا جدا على رئيس المسلمين
وخليفة النبي الذي اتخذ الزهد والفقير اساسا لبث دعوته ليضم اليها كل العرب
الذين كانوا يشكون الفقر والذل ثم غيرهم ولم تكن حالهم لتختلف عن حال
العرب • وهكذا وجدنا مثل الاسلام تتبلور في جماعة هم المتلفون حول علي
وكانوا هم الشيعة الاولين على الصحيح ، ومن ذلك ما يرويه ابن الاثير ان
«عليًا نظر الى قوم بابيه فقال لغير مولاة - قتله الحجاج سنة ٨٢/٧٠١ - : من
هؤلاء؟ قال : شيعتك يا امير المؤمنين ، قال : وما لي لا أرى فيهم سيماء الشيعة؟
فقال : وما سيماهم؟ قال : خمص البطون من الطوى ، يبس الشفاه من الظما ،
عمش العيون من البكاء» (٣٠) ، وما يرويه ابو نعيم عن مجاهد ايضا ان شيعة على
هم : «الحلماء العلماء الذبل الشفاه الاخبار» (٣١) ، وما يرويه هو ايضا عن
الامام على بن الحسين زين العابدين ان «شيعتنا الذبل الشفاه» (٣٢) ، ويختم
ابو نعيم هذه السلسلة من الاخبار بقوله : « فالحققون بموالات العترة الطيبة
هم الذبل الشفاه المقترشو الجباه الاذلاء في نفوسهم العتاة المفارقون مؤثرى
الدنيا من الطغاة » (٣٣) •

هذا هو الزهد الاسلامي الاصيل المستقل عن المؤثرات السياسية
 والاجتماعية والنفسية والثقافية • وهناك منبع آخر للزهد لا ينضب معينه بل

(٣٠) الكامل ٢٠٤/٣

(٣١ ، ٣٢ ، ٣٣) حلية الاولياء ٨٦/١

منابع كثيرة صبت فيه هي هذه الظروف التي تدفع المسلم الحساس دفعا الى الزهد في الدنيا لما يراه من ظلم محيق وطمع وخروج عن جادة الاسلام ، ثم شاركت الثقافات ووجهت الزهد وجهة خاصة سنراها في الموضوع المناسب •

ويجب ان نذكر هنا مع ماسينيون ان « الميل الى حياة النسك كان في كل بلد وفي كل عصر » (٣٤) ، وذلك امر لا يستطيع احد انكاره ولكنه لاينفى شيئا مما رأيناه من ان الاسلام هو دين الزهد حقا ، ونحن لانكر الشق الثاني من رأى ماسينيون ايضا ن ان تلك الحياة الزهدية « لم تشب ان انتشرت في الاسلام في قرنيه الاولين » (٣٤) ولكننا نزع ان هذه المؤثرات الخارجية هي التي شاركت في صبغ الزهد بالوان جديدة تختلف ن بلد الى آخر حتى ادت الى الزهد الصوفى فالتصوف ، وهذا هو السبيل الذى حدثنا عنه ماسينيون ايضا من ان « الاستعداد للتصوف - الزهد الان - ينشأ في العادة من ثورة باطنية تخامر النفوس فيثور صاحبها على المظالم الاجتماعية ولا يقف عند مقاومة غيره بل يبدأ بجهاد نفسه واصلاح خطيئاته » (٣٥) • ويجب ان نورد ملاحظة نيكلسون ايضا لرى مصداق ماكان للظروف من تأثير في الزهد وتشجيع للميل اليه : قال نيكلسون : « وقد انفرد القرن الاول في الاسلام بالعوامل الكثيرة التي شجعت على ظهور الزهد وانتشاره ، كالحروب الاهلية الطويلة الدامية - التي وقعت في عهد الصحابة وبنى امية - والتطرف العنيف في الاحزاب السياسية وازدياد التراخي في المسائل الخلقية وماعاناها المسلمون من عسف الحكام المستبدين الذين يملون ارادتهم وآراءهم الدينية على غيرهم ممن اخلصوا في الاسم » (٣١) ، ثم اشار نيكلسون الى التشيع الذى يقصد به اعادة الحق الى على وابنائهم فقال : « ورفض هؤلاء علانية كل فكرة تتصل بالخلافة الدينية التي حاول

(٣٥ ، ٣٤) الاسلام والحضارة العربية ٢/٢٨ •

(٣٦ ، ٣٧) في التصوف الاسلامى ٤٦ •

المسلمون ارجاعها : كل اولئك عوامل حركت فى نفوس الناس الزهد فى الدنيا ومتاعها وحولت انظارهم نحو الآخرة ووضعت آمالهم فيها ، ومن هنا ظهرت حركة الزهد قوية عنيقة وانتشرت على مر الايام فكان زهدا دينيا خالصا فى بادىء الامر ثم دخل اليها بالتدريج بعض العناصر الصوفية حتى تحولت فى النهاية الى اقدم صورة نعرفها للتصوف الاسلامي» (٣٧) .

ولن نطيل فى ضرب الامثال على الظروف التى تذكى الميل الصوفى وسنقتصر على : قول ابن عمر : ما شبت منذ قتل عثمان « (٣٨) ، فان فى هذه المقالة هزة نحسها دفعت ابن عمر انذى قال هذه المقالة زمن الحجاج - اكبر باعث على الزهد فى القرن الاول الهجرى كما سنرى - دفعته الى التمسك بالزهد والاصرار عليه بل لقد زاد الالم من اقتناع ابن عمر ان النبى كان حكيما وان الاسلام دين حق حين امر بالزهد ونهى عن الارفاه كما مر بنا . ولهذا فان علينا ان نلاحظ ان الامصار التى شاركت فى الاحداث وتأثرت بالظروف التى جدت على الاسلام قد اسهمت فى تطوير الزهد ، كل مصر بما حدث فيه وما انصب من احداث وثقافات . ومن المعلوم ان اول عامل كبير من عوامل الزهد هو قتل عثمان وقد وجدنا ان اول حركة زهدية متصلة بالسياسة قد اقترنت بهذا الحادث ، ورأينا سعد بن مالك وسعد بن ابى وقاص وعبدالله بن عمر ومحمد بن مسلمة - برواية النوبختى - (٣٩) ويضيف اليهم احمد امين : حسان بن ثابت وعبدالله بن سلام يخرجون الى مكة بعدا عن الفتنة ولسان حالهم يقول سعد بن ابى وقاص : « ان رسول الله امرنى اذا اختلف الناس ان اخرج بسيفى فأضرب به عرض الجدار فاذا انقطع اتيت منزلى فكنت فيه لا ابرحه حتى تأتيني يد خاطية او منية قاضية » (٤٠) ، والنوبختى

-
- (٣٧) فى التصوف الاسلامى ٤٦ .
 - (٣٨) قوت القلوب ٤٦/١ .
 - (٣٩) فرق الشيعة ٤ .
 - (٤٠) فجر الاسلام ٣١٢ .

يسمى هؤلاء اسلاف المعتزلة ويوافقه نيرج على ذلك (٤١) ، ولكن النظرة الفاحصة تجعلهم اسلاف الزهاد المتأثرين بعوامل زائدة على الزهد المنبعث من جوهر الاسلام وبخاصة اذا عرفنا ان الاعتزال الرسمي الذي بدأه واصل بن عطاء في البصرة قد خرج من مدرسة الزهد البصرية التي يتزعمها الحسن البصري (٤٢) ، ويلاحظ جولد تسيهر انه « تأخذ الحياة الزهدية مكانا فائقا له خطره بين ما يفتخر به المعتزلة من خلال عظمة ماجدة » (٤٣) ، ومن رأى جولد تسيهر انه « مما يدل على الجهل بتاريخ الاسلام جهلا تماما وضع المعتزلة في عداد الفرق » (٤٤) .

فمن هذا كله نخرج بان اول اثر سياسى فى الزهد او اول دافع سياسى اليه نشأ بعد قتل عثمان من الخوف من الدخول فى فتن لا اول لها ولا آخر تكون نتيجتها ضياع الاسلام وسيادة الاطماع الشخصية . ولعلنا نذكر - فيما يختص بمكة ايضا - زهد عبدالله بن الزبير (العائد بالبيت) وانقطاعه فى مكة ، ولعل هذه السطور تقوم مقام الزهد المكي .

وقبل ان نختم هذه الصفحات فى الزهد الاسلامى الاول يجب ان نقرر بان النبى نفسه لم يكن زاهدا زهدا ماديا ولم يعرف عنه ذلك لانه كان يعتبر نفسه زعيما للمسلمين ورئيسا لهم يقف بازاء رؤساء قريش الذين جاء لحربهم وليس ذلك غريبا على النبى فانه قد ميز عن المسلمين ماديا فى عدد الزوجات وغير ذلك ليتاح له ان يكون ندا للقرشيين . ولكن الزهاد والصوفية اعتبروا النبى مثلهم الاعلى فى مشربهم لا من مصدره المادى المتمثل فى الزهد فى الطعام واللباس وانما من مصدره الروحى المتمثل فى تصفية النفس والتأمل والخلوة مما ادى فى النهاية الى نزول الوحي عليه ليلغى اختيار الله له نيا .

-
- (٤١) الاسلام والحضارة العربية ٥٨ .
 (٤٢) المال والنجل ٥٧/١ (هامش) .
 (٤٣) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٩٨ .
 (٤٤) المصدر نفسه ١٦٦ .

الفصل الثاني

الزهد في الكوفة

تمصير الكوفة وعناصرها :

كانت الكوفة معسكرا للجيش العربي الذي فتح فارس وصارت مدينة تسكن سنة ١٧/٦٣٨ للهجرة بأمر عمر بن الخطاب وبنيت بالقسرب من بابل^(١) فكانها مركز لموجة سامية جديدة خرجت من شبه الجزيرة العربية وصارت استمرارا للحضارات العراقية القديمة والواقع ان الكوفة جمعت بين طابعي حضارتين حضارة آشور الحربية متمثلة في استمرار الثورات فيها حتى انطفأت جذوتها بانتقال الحكم الى العباسيين وحضارة بابل العلمية التي اخرجت للعالم اولى الشرائع في التاريخ ، وكانت الكوفة - الى ذلك - وارثة الحيرة عاصمة اللخمين التي كانت مجتمعا للقوافل وكانت تربط اعالي آسيا باقاصى اليمن»^(٢) .

اما الكوفيون فكانوا من عنصرين : اغلبية عربية جلهم يمانيون واقلية فارسية هم الحمراء الذين انضموا الى الجيش العربي فى القادسية وسكنوا الكوفة مع العرب^(٣) وكانوا حلفاء لقبيلة عبد القيس الشيعية^(٤) وكان من حسن حظ الكوفة ان كلا العنصرين اللذين حطا فيها الرحال كان على جانب من الحضارة كبير اذا قيس بمستوى العرب الحضارى ، فقد كانت مذحج

(١) تاريخ العرب ٢/٣٠٩ .

(٢) خطط الكوفة ٦ .

(٣) فتوح البلدان ٢٨٠ .

(٤) خطط الكوفة ١٠ .

وحمير وهمدان قبائل متحضرة حقا من سكان المدن والقرى اليمانية^(٥) يضاف اليهم عناصر نصف متحضرة ككندة وبيحيلة وكل اوثلث من اليمن ونحن نعرف درجة العنصر الفارسي من الحضارة • وقد اثبت العنصر اليماني قدرته على تأسيس الثقافة الاسلامية وعلى التمدن والتحضر • وكان اليمانيون اهل تصور وابتكار وكانت فيهم المادة الموجدة لهذين المظهرين الحضاريين^(٦) فكان ما ظهر من ثقافة وحضارة في الكوفة اصيلا له طابع الكوفة الخاص • ويؤكد ماسينيون ان الكوفة هي السبب في ثقافة البصرة التي لم تتصف بالاصالة^(٧) ، ويعدد ماسينيون اوجه الاصلة في حضارة الكوفة فيخبرنا بانها « طورت الخط الكوفي المأخوذ من المصاحف وانها انتجت نهج البلاغة : مجموعة خطب الامام على وطورت الشعر القديم واوجدت الاحاديث والسير في حب الله ، ويذكر « انها كانت موطن البهاليل (جمع بهلول وهو المدعى الجنون) وموطن الصوفية الذين ذكر الغزالي مكاتبتهم واهميتهم وكانت في السياسة تهدف الى العدل الاجتماعي وكانت في الحقوق تلتزم الاجتهاد ، وهي مهد الفقهاء والمرعنين الاقدمين ، وكانت في النحو تبحث عن اوضاع الشواذ (التي تدل على فهم لقواعد النحو وفصاحة عميقة بحيث طرحت البحث في النحو العادي وتعمقته ببحثها عن الشواذ فيه)^(٧) • وهكذا تتبين الميادين التي عكستها حضارة اليمن في الكوفة فاثبتت اصلتها واستقلالها عن الثقافات والمعارف التي شاركت في بناء هذه الحضارة • واذا عرفنا ان « الكوفة كانت مجتمعا تختلط فيه الديانات القديمة من نصرانية ويهودية وامانية وزرادشتية ومزدكية وان الكوفيين كانوا يألفون النصارى واليهود وكان منهم قوم في جيش على^(٨) وان العنصر الفارسي لم يؤثر في صبغتها العربية

(٥ ، ٦) خطط الكوفة ١٢ •

(٧) المصدر نفسه ١٢-١٣ مختصر •

(٨) حركات الشيعة المتطرفين ١٨ •

الادبية^(٩) ادركنا الى اى مدى كانت الكوفة اصيلة فى حضارتها • ويتضح من ذلك ان الكوفة كانت بيئة اصالة لا بيئة تقليد وانعكاس مباشر كما كان الامر فى البصرة وقد قيل لهذا : « ان آداب اللغة العربية ميراث الكوفة »^(١٠) •

وقد كان الكوفيون - واغليتهم يمانية - يجمعون الى هذا الاستعداد الحضارى عاطفة منبعثة من جبلة العنصر اليماني التى يخبرنا ابو الفرج انه يتصف برفقه العاطفية^(١١) ، ويروى البخارى ان النبى (ص) قال فيهم : اناكم اهل اليمن - هم ارق الناس افئدة والين قوبا ، الايمان يمان والحكمة يمانية^(١٢) •

وهكذا جمع هذا التحديث صفتى العنصر اليماني : الحكمة والايمان اى الحضارة والعاطفة •

وقد كانت هذه العاطفة السبب الاول فى تشيع الكوفة ، فقد كانت بداية اتصال اليمانيين بعلى حين عجز خالد بن الوليد عن فتح اليمن فارسل اليهم النبى (ص) عليا فبث الاسلام فيهم دون قتال وكانت همدان اولى القبائل اسلاما وكان ذلك سنة ٦٣٠/٩ - ٣١ للهجرة^(١٣) ، ولهذا لم يكن غريبا ان تستجيب الكوفة لدعوة على حين طلب الى الكوفيين الانضمام اليه ضد طلحة والزبير ، وقد قال قائلهم يومئذ ردا على كتاب على انذى ورد فيه : « ولعمري ما اياى تجيبون ، ما تجيبون الا الله »^(١٤) ، قال قائل اليمن « وانله لو لم

(٩) تاريخ الكوفة ١٣٦

(١٠) المصدر نفسه ١٢٦ •

(١١) الاغانى ١٦٣/٢ •

(١٢) صحيح البخارى ٦٨/٣ •

(١٣) العبر ١١٠/٢ •

(١٤) الامامة والسياسة ١٠٩ •

يستصننا لنصراه سمعا وطاعة» (١٥) ، وكان لهذه الاستجابة السريعة صلة
 بالايان المقترن بالعاطفة • ويحب ان نشير الى ان شيعيين هما سلمان الفارسى
 وحذيفة بن اليمان هما اللذان اختارا بقعة الكوفة (١٦) ، وقد مر بنا ان حضارة
 اليمان تتركز فى الثقافات التى صدرت عن التشيع مما رأينا منه وجها واحدا هو
 الفرق الشيعية وسرى فى هذا الفصل وجها ثانيا من الحضارة الكوفية هو
 الزهد وسيتبين لنا انه قد صدر عن التشيع ايضا •

شابت الكوفة عليا بعد انتخابه مباشرة بل لقد كان على مطمح انظار
 الناشرين على عثمان كلهم وقد كلفت هذه المناصرة الكوفة الكثير من التضحيات
 فقد كان الامام على طرازا من الرجال غريبا نادرا ، لقد نزل الكوفة بعد ان
 تطورت عقلية المسلمين وتفتحت اذهانهم للمادة ورأوا كيف يعيش الولاة
 الامويون الذين عندهم عثمان ورأوا تطور الاسلام من الزهد والاكتفاء بالقليل
 الى البذخ الذى اظهره عثمان واقاربه فثاروا عليه بعد ان صرح عامله عليهم
 ان السواد بستان قريش ويعنى بها بنى امية • وقد انتصرت الثورة
 واستطاعت ان تنفذ مشيئتها بانتخاب على • ونصرت الكوفة عليا ضد خصومه
 وكانت تتوقع الغنم المادى من الاسلاب والغانم والمعنوى الذى يتمثل فى
 انتقال مركز الاسلام اليه • اما الغنم فقد انقلب غرما لان الغنائم قد حرمها
 على فى حروبه على اعتبار ان المسلم لايسلب المسلم واما الغرم فقد جاء من انهم
 كانوا يقتلون اخوانهم وارحامهم وكثيرا ما رأينا ابنا يقاتل اباه وابن عم ينحر
 ابن عمه ، وهكذا كلف الامام على الكوفيين مالم يكلف النبي المسلمين الاولين
 فكانت هذه بداية لظهور الزهد فى الكوفة • فقد هال الكوفيين كثرة القتلى فى
 الجمل ثم صفين ثم النهروان وتعبوا من القتال الموجه الى مثل عليا ليس النفع

(١٥) الامامة والسياسة ١٠٩ •

(١٦) العبر (بيروت ١٩٥٦) ٢ / ٩٥٩ •

احدى نتائجه فتخاذلوا وتواكلوا وفتروا عن الاستمرار فى القتال الذى لانهاية له • ولم يتضح عجز الكوفيين عن الاستمرار فى القتال الا بعد قتل الحسين حين ادركوا انهم قد انتهوا ولم يكن يدور فى خلداهم انهم قد بلغوا هذه الدرجة من الخور والوهن وادركوا مع هذه الحقيقة حقيقة اخرى هالتهم تلك هي انهم قد فرطوا فى حق عقيدتهم تفريطا عظيما • وهنا بدأت عوامل الزهد تزحف على الكوفة ، ويجب هنا ان نورد رأى الدكتور على الوردى الذى علل سرعة تقلب اهل الكوفة فرأى ان العراقى « يفكر بمبادئ » لا يستطيع تطبيقها ويدعو الى اهداف لا يقدر على الوصول اليها ، ولذا تجده يقول للزعماء : انهضوا فانى معكم ثم اذا نهضوا وجد فى نهضتهم مخافة فقبح فى بيته يشكو من تصارييف الزمان» (١٧) ، وبذلك يتضح لنا ان طاقة الكوفى المادية ليست مسائرة لطاقته الروحية والعاطفية ولهذا وجدنا الحياة فى الكوفة تتخذ ثلاثة انماط تدور كلها حول المعارضة وحول التشيع ، فقوم ثبتوا على التشيع وجعلوا يؤيدون كل حركة شيعية ويشجعون الائمة والثائرين على الخروج ، وقوم جعلوا يجمعون حولهم الاتباع ويشققون الافكار الشيعية ليؤلفوا لهم فرقا ترتكز على عقائد شيعية ، والنمط الثانى قوم اتخذوا السيف اداة للمعارضة وهم الخوارج وانظم اليهم كل شيعى لم يطق صبورا على حياة الذل الذى نزل بالكوفة بعد الحسين ، والثالث فريق اعتزل القتال واعتزل الجهر بالعقيدة فانزوى فى بيته او اظهر الزهد للناس وامتنع من القتال ثم دفعته الثورة الداخلية والمرارة والحزن الدين لعجزه عن ان يصنع شيئا لاحقاق مايراه حقا فظهر بذلك الزهد الاصطلاحي الذى ادى الى التصوف • ومن اجمل ما قيل فى هذا المجال ما اورده ابو طالب المكي الذى قرن حركة الزهاد المتطرفين بحركة الخوارج فيبين لنا انهما يستقيان من منبع واحد هو الثورة على الفساد الذى عم الارض والمعارضة له فقال فى الزهاد البصريين - وظروف

(١٧) شخصية الفرد العراقى ٤٧ •

الكوفة اقسى من ظروف البصرة - : « فهرب هؤلاء من الافن والاعتزاز فوقعوا في اعظم منهما من القنوط والاياس فصاروا في كبائر المعاصي من خوفهم منها ، فمثلهم مثل الخسوارج خرجوا على الائمة بالسيف لانكار المنكر فوقعوا في انكر المنكر من تكفير الائمة » (١٨) ، وقد تحالفت الكوارث على الكوفة فزادتهم اندفاعا في ميادينهم الثلاثة حتى جاء الحجاج فبلغ الغاية في التكييل والتعذيب حتى جعل الناس يصرحون بالكفر نجاة من القتل (١٩) . وكان الحجاج نفسه يفضل الخليفة الاموى على النبى بقوله : « اخليفة احدكم في اهله أكرم عليه ام رسول في حاجته؟! » (٢٠) ، ولقد سمعنا ايام الحجاج عجا فقد كان من مناقب العرب يومئذ « الفرخ بقتل الحسين وسب على والحسن والحسين وفاطمة » (٢١) ، وكان مصعب بن الزبير عاتيا على الكوفيين ، واستمرت الاحداث واستمر معها خروج الناس من المعارضة الايجابية الى المعارضة السلبية .

وقائمة الزهاد من الشيعة طويلة ولكنها لم تعرف من قبل ، فقد كان الربيع بن خثيم عامل على على الرى وقزوين اول الزهاد الكوفيين ممن امتنعوا عن قتال المسلمين وفضلوا الخروج الى الثغور (٢٢) ، وكان اويس القرنى المتوفى سنة ٣٧/٦٥٧-٥٨ شيعيا وصفه الاسفراينى بانه « احد النساك العباد » (٢٣) ورجح انه قتل في صفين مع على ، وكان اويس يتمتع بمكانة عظيمة في الزهد الى حد انه ورد فيه حديث نبوى يشر به وينص على اسمه ويأمر عمر وعليان ان يرعياه ، وقد عين النبى علامة يعرف بها اويس (٢٤)

(١٨) قوت القلوب ٢/١٥٣ .

(١٩) الطبرى ، ليدين ، ٢/١٠٩٦-٧ .

(٢٠) مروج الذهب ٢/١٤٥ .

(٢١) المصدر نفسه ٢/١٤٣ .

(٢٢) الاخبار الطوال .

(٢٣) التبصير فى الدين ٢٢ .

(٢٤) صفة الصفوة ٣/٢٢ .

مما رأيناه خاصا بالنبي نفسه ومن ادعى المهديّة من بعد من امثال محمد بن عبدالله الحسن والمهدي الاثنا عشرى بل يورد ابن سعد ان رجلا تحول من جيش معاوية الى جيش علي حين عرف ان اويسا فيه^(٢٥) ، وكان كميل بن زياد النخعي زاهدا شيعيا قديما ولى لعلى ولاية هيت وعانات وآمد وقد قتله الحجاج سنة ٧٠٢/٨٣ ، وكان يقول له : لقد اخبرنى مولاى انك قاتلى^(٢٦) ، ولكميل دعاء مشهور يتلوه الشيعة فى مجموعة ادعيّتهم وهو من رجال السلاسل الصوفية وتتصل به سلسلة خرقة طريقة النور بخشية فى ايران^(٢٧) ، وكان خباب بن الارت ناسكا شيعيا من النواحين البكائين^(٢٨) وكان من المعذنين الاولين فى الاسلام ، وكان سعيد بن جبير المقتول سنة ٧١٢/٩٤-١٣ زاهدا شيعيا مع انه ولى انقضاء للحجاج وخرج مع ابن الاشعث ودليل شيعيته ان الحجاج - قبل ان يقتله - سأله رأيه فى علي وفى معاوية^(٢٩) مما كان يتطلب البراءة من علي او القتل فى سبيله • وكان زيد ناسكا شيعيا ايضا تمنى سعيد بن جبير لو انقطع اليه وروى عنه سفيان الثورى^(٣٠) ، وكان ابو صالح ماهان الحنفى من ضحايا الحجاج ايضا وكان زاهدا ، ولتقى رشيد الهجرى وميثم التمار الشيعيان مصيرهما على يد الحجاج ايضا^(٣١) ، وقد عرض طلحة بن مصرف نفسه للقتل بالامتناع عن البراءة من علي مع انه ندم اشد الندم على اشتراكه فى وقعة الجماجم^(٣٢) ، وقد قتل الحجاج قبرا

(٢٥) ابن سعد ١١٢/٦-١١٣ •

(٢٦) الاصابة ٢١٨/٣ •

(٢٧) روضات الجنات ٥٣٧ •

(٢٨) حلية الاولياء ١/١٤٣ •

(٢٩) الطبرى (ليدن) ١٠٩٦/٢-٩٧ •

(٣٠) المصدر نفسه ٣١/٥ •

(٣١) صفة الصفوة ٣/٤٠ •

(٣٢) حلية الاولياء ١٦/٥ •

مولى على سنة ٨٢/٧٠١ لمجرد شهوته لقتل رجل يوالى عليا وكان زاهدا (٣٣) .

وهكذا يتضح لنا فشو التشيع فى الزهد لان انسحاب الشيعة من ميدان القتال قد اورث فيهم هذا الميل من الدخول فى ميدان المقاومة السلبية والمعارضة القلبية او الندم على الخيانة والبكاء من العجز عن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . ويؤيد شيعة الزهد الكوفى ان عليا قد وصف شيعته لقبر بانهم « خصص البطون من الطوى ييس الشفاء من الظما ، عمش العيون من البكاء» (٣٤) وقد مر بنا وصف حفيده للشيعة بالوصف نفسه وكذلك وصف ابى نعيم لهم بانهم الذبل الشفاء المقترشو الجباه . . . وبذلك يتضح استغراق التشيع للزهد كما استغرق المحاربين . اما بالنسبة لزهاد القرن الثانى فى الكوفة فمن المعروف انه قد كان جابر بن حيان شيعيا وكذلك الامر بالنسبة لسفيان الثورى شيخ مدرسة الزهد الكوفية ويتبين ذلك من مبايعته لمحمد ابن عبدالله بن الحسن الثائر بالمدينة كما مر بنا فى فصل الزيدية ، وكذلك كان عبدك الصوفى (٣٥) . ويمكن ان يصح هذا القول على اغلب زهاد الكوفة ويمكن اثباته من اخبارهم او اقوالهم ، ولعل مما يقوم مثلا على هذا الرأى ان ابن السماك القاص المشهور المتوفى سنة ١٨٣/٧٩٩ الذى تزهد معروف الكرخى بوعظه كان مولى لبنى عجل (٣٦) القبيلة التى اسست مدرسة للفلو ودولة له كما مر بنا .

اما ميادين الزهد الكوفى فقد تعددت ، فقد وجدنا فيها الزهد الاسلامى الاصيل القائم على التواضع فى الملبس والمأكل والتزام تلاوة القرآن والخوف من عذاب الآخرة . ووجدنا فى الكوفة الزهد المنبعث من

(٣٣ ، ٣٤) حلية الاولياء ١/٨٦ .

(٣٥) تاريخ تصوف در اسلام ٤٢ .

(٣٦) وفيات الاعيان ١/٦٨٨ (باريس ١٨٣٨) .

عذاب الآخرة ، والزهد الانبي من الاحداث التي تناوبت عليها من قتل ذريع ومن خيانة ومن نصرة للباطل ومن حسرة على العجز عن رد الظلم • وسنرى ان الكوفة ستكون مثابة لبس الصوف في العالم الاسلامي كله وسيبين لنا ان ذلك كان قاصرا عليها وكان تعبيراً عن معارضة سلبية ، وكان في الكوفة اول من تسمى صوفيا واول من قال بالولاية الصوفية ، وكانت الكوفة منبع الفتوة الصوفية كما سيمر بنا في نهاية هذا البحث • وبذلك تبدو اصالة الكوفة في ميدان الزهد كما رأينا اصالتها في ميدان التشيع وكما اخبرنا ماسينيون باصالتها في الميادين الاخرى من الحياة الاجتماعية والعلمية في القرنين الاول والثاني •

الزهد الاسلامي في الكوفة :

لقد كان الامام علي واصحابه من صحابة الرسول (ص) الذين نصره والتفوا حوله يمثلون الزهد الاسلامي الاصيل وقد رأينا الامام عليا ازهد الصحابة واعرفهم برسوم الاسلام وقد التف حوله مريدوه يأخذون عنه ويعكسون مثلهم الاسلامية على مسلمي الكوفة • ولقد كان للامام علي مثل مقام الرسول في تذكير الناس بان بهم حاجة الى التوبة والى اندم والى البكاء وكان على يذكرهم بان ظروفهم التي يعيشون فيها انما هي صورة مشبهة لصورة ظروف مكة ايام بعثة الرسول (ص) وقد كان علي يقول : « الا وان بليتكم قد عادت كهيتها يوم بعث الله نبيه ، واندى بعثه بالحق لتبلبلن ببللة وتغربلن غربلة حتى يعود اسفلكم اعلاكم واعلاكم اسفلكم •• » (٣٧) • وقد قال الربيع ابن برة قولاً يشبه ان يكون استجابة لمقالة على هذه : « ان لله عبادا اخصوا له البطون عن مطاعم الحرام وغضوا له الجفون عن مناظر الاثام واهملوا له العيون لما اختلط عليهم الظلام رجاء ان ينير ذلك لهم قلوبهم اذا تضمنتم الارض

(٣٧) اصول الكافي ٩٦ •

بين اطباقها فهم فى الدنيا مكثبون والى الآخرة متطلعون ••• وهم الذين تقر أعينهم بطلعة ملك الموت عليهم» (٣٨) •

ولم تلبث احوال الكوفة وظروفها ان طغت على الزهد القائم على السلم والاتجاه الى الله بنفس مطمئنة فاصطبغ زهد الكوفة برد فعل للاحداث التى نزلت بساحتها فبدأ الشعور بالاثم فسمعا الربيع بن خثيم يعلى بكاء وارقه لامة بقوله : «قتلت قتيلا هى نفسى» (٣٩) ، فاقام لمن جاء بعده من الزهاد والمتصوفة مقام المجاهدة ، وكان اول من قال بها ، ولاحداث الكوفة الفضل الاول فى انطاقه بهذا المعنى • وقد اندفع معضد بن يزيد العجلي - وقيلته معروفة فى الغالين - الى الصلاة وهجر النوم وكان يقول : « اللهم اشفى من النوم باليسير » (٤٠) ، وقد ظهر من معضد بداية خطيرة صارت منهجا للزهاد الكوفيين من بعده ، ذلك هو الخروج الى الجبان للعبادة (٤١) وذلك انعكاس مريع للاحداث فقد يش معضد من فائدة الاحياء فخالط الموتى وانقطع اليهم لانهم لايتكبون طريق الصواب ولا يوحون بالحق ويأتون الباطل • وكان سعيد بن جبير يخشع حين يردد هذه الاية : « فسوف يعلمون اذ الاغلال فى اعناقهم والسلاسل يسحبون فى الجحيم » (٤٢) • وقد كان هذا العذاب الدينوى والاهوال التى قاساها اهل الكوفة ثم انعكست من نفوسهم زهدا وبكاء وخوفا باعنا لهم على ملء وقتهم بالعبادة او قراءة القرآن لانهم كانوا يخشون من الجنون اذا عاشوا كما يعيش غيرهم • بل وجدنا غيرهم ممن اعترفوا بثقل وخز الضمير عليهم يقول : « انى لاذكر الشئ من امر الدنيا الهى به نفسى عن ذكر الآخرة ، اخاف على عقلى » (٤٣) • وهكذا يتبين لنا مبلغ خوف الكوفيين

(٣٨) حلية الاولياء ٦/٢٩٨ •

(٣٩) صفة الصفوة ٣/٣٤ •

(٤٠) حلية الاولياء ٤/١٥٩ •

(٤١) طبقات ابن سعد ٦/١١١ •

(٤٢) حلية الاولياء ٤/٢٧٤ المؤمن ٣ ٥ •

(٤٣) المصدر نفسه ٦/٢٤١ •

من التفكير فى الحساب لانهم كانوا يدركون الحد الذى بلغوه من غضب الله فكانوا يشغلون انفسهم بالصلاة الكثيرة والصوم الكثير وقراءة القرآن والانشغال بأية مشغلة تبعد عنهم شبح العذاب الذى ينتظرهم فى العالم الآخر، وكان الزهاد الكوفيون يحاولون ان يكفروا شيئاً من تلك السيئات التى قارفوها فى دنياهم ويدفعوا ضريبة ما اقترفت ايديهم من خذلان الحق بعد ان نصروه ، وقد حزن الندم فى بعضهم حتى تمنى لو قطعت يده ولم يشترك فى قتال (٤٤) . اما المعذبو الضمير الطامحون الى التكفير فقد خرج منهم قوم ققاتلوا بقصد الموت كالتوايين الذين مروا بنا بعد قتل الحسين واما من قعد به الخوف من الموت عن القتال فقد كان يتمنى لو زاد الله فى عذابه فى النزع عند الموت ، وهذا ابراهيم النخعى المتوفى سنة ٩٥ يروى بان الزهاد « كانوا يستحبون للمريض ان يجهد عند الموت » (٤٥) وصارت هذه الفكرة راسخة فى الزهد الكوفى وكان سفيان الثورى (اول زاهد التقت به الولاية الصوفية) يقول : ما من موطن من المواطن اشد على من سكرة الموت ، أخاف أن يشدد على فاسأل التخفيف فلا أجاب فافتن (٤٦) وقد اطال الزهاد التفكير فى الموت فاطالوا التفكير وكان القلق يملأ نفوسهم وكانت احلامهم فى الليل والنهار تطوف حول الموت والآخرة . ولم يلبث ذلك القلق ان ظهر فى اخبارهم فقد « رأى رجل مرة بن شراحيل الهمدانى - من زهاد الطبقة الاولى فى الكوفة - فى المنام بعد موته فسأله ما منزلتك فى الآخرة ؟ قال : خير منزلة ،

(٤٤) حلية الاولياء ١٦/٥ .

(٤٥) صفة الصفوة ٤٨/٣ .

(٤٦) المصدر نفسه ٨٤/٣ .

قارن هذا بما يروى عن ابراهيم بن سيار النظام المعتزلى (١٦٠-٢٣١) من أنه « كان يقول - وهو وجود بنفسه - : اللهم ان كنت تعلم انى لم اقصر فى نصرته توحيدك ، اللهم ولم اعتقد مذهبا الا سنده التوحيد ، ان كنت تعلم ذلك منى فاغفر ذنوبى وسهل على سكرة الموت ! قالوا : فمات من ساعته » . (طبقات المعتزلة لابن المرتضى الزيدى ، ٧٦٤-٨٤٠/١٣٦٣-١٤٣٧ ، لبنان ١٣٨٠/١٩٦١) ص ٥٢ .

دار لا ينتقل اهلها عنها ولا يموتون» (٤٧) بل ان ربيعى بن حراش - من الطبقة الاولى - ايضا مات له اخ - وكان زاهدا ، وحيى بعد موته ، كما يزعم - فقال فى معرض وصفه للآخرة : « وانى وجدت الامر ايسر مما تحسبون » (٤٨) • ونتج شىء آخر من هذه الفتن التى كانت تؤثر فى عواطف الكوفيين فيندفعون الى الخروج ثم لا يلبث الميزان ان يختل بين المثل والارادة الضعيفة فترجح الارادة الضعيفة • وقد اورث ذلك الزهاد روحا انفرادية تأبى الاجتماع وتفتر من الالفقة بالناس والانس بهم فانزوى جماعة وانقطعوا فى بيوتهم ونفروا من الناس وكان قائلهم يقول : « ماكنت ارى ان احدا يستوحش مع الله » (٤٩) وهكذا بدأت فكرة الوحدة والانفراد وهى وان تكن شبيهة بفكرة النسائك المنقطعين للعبادة الا ان منطلق الحوادث يجعل هذا الانفراد نابعا من ظروف الكوفة • وقد سار منصور بن المعتمر المتوفى سنة ١٣٢ فى هذا الطريق الى غايته فرأيناه يصوم ستين سنة يقوم ليلها ويصوم نهارها وكان فى كل ذلك يبكى (٥٠) •

وكل هذا الذى ذكرناه من الخوف والبكاء والروع التى استهدت بالكوفة واستغرقت زهادها كان منبعثا من بيئة الكوفة والتقلب واهدار الملل بين لحظة واخرى ولهذا فانه ليس من المستغرب ان تختفى فكرة الحب من الكوفة مع ظهورها واضحة ناضجة فى شقيقتها البصرة ، فلم يكن للحب محل فى الكوفة غير انه انصرف الى طائفة معينة هم الائمة الذين انصرفت اليهم عاطفة الكوفيين وخذلتهم ايديهم فى الاحيان التى تغلب الخور فيها عليهم غير عامدين ولا متآمرين وانما هو القلب الذى لم يعد يحتمل رهبة ولم يعد يستطع تماسكا بعد التجويع والارهاب وانوت الزوام • فالحب اذن قد انصرف فى الكوفة الى

(٤٧) صفة الصفوة ١٨/٣ •

(٤٨) المصدر نفسه ١٦/٣ •

(٤٩) الرسالة القشيرية ٦٧ •

(٥٠) حلية الاولياء ٤٠/٥ •

الاشخاص ولم يتسام الى المثل الاعلى الذى هو الله كما كان الامر فى البصرة ، ولعل ذلك يقطع بشيعة زهد الكوفة لان الحب عندهم كان مايزال ماديا موجها الى اشخاص باعيانهم اما الخوف فهو الذى كان يدور حول الله فى الكوفة •

الصوف :

لقد ظهر فى الكوفة نوع من الزهد يتمثل فى البساطة فى اللباس لم يكن ظاهرا فيها قبل نهاية القرن الاول ولكننا رأيناه يطغى عليها فى اواخر القرن الاول واولى القرن الثانى حتى صار شعارا للزهاد اولاً ثم اطلق على الزهد نفسه فصار له اصطلاحا وذلك هو الصوف الذى اشتق منه التصوف • واذا استطعنا ان نثبت انفراد الكوفة بالصوف بعد اثباتنا لشيعة الزهد فيها كان ذلك برهاناً جديداً على ان التشيع مصدر الزهد الكوفى الذى يدخل تحته الزهد الاسلامى المعاصر له ثم التصوف •

يكاد الباحثون يجمعون على ان اتخاذ الصوف لباساً انما كان « لان الزهاد المسلمين وعبادهم حاكوا سلك النصارى ورهبانهم فارتدوا الصوف الصوف الخشن» كما يقول جولدم تسيهر الذى يؤرخ بداية هذه العادة فى ايام عبدالملك بن مروان الذى حكم بين ٦٥-٨٦ / ٦٨٤-٧٠٥»^(٥١) ، وكذلك يروى نيكلسون ولكنه يبين بان بداية لباس الصوف الخشن كانت قبل الاسلام^(٥٢) ، ويروى الدكتور قاسم غنى ذلك ايضا ولكنه يحدد ظهور لبس الصوف اى جبة بيضاء منه باواخر القرن الثانى واولى القرن الثالث ويذكر ان هذا النوع من اللباس كان النبى يفضله^(٥٣) ويؤيد ذلك ما يورده الكلاباذى من ان لباس اهل الصفة الصوف حتى ان بعضهم كان يعرق فيوجد

-
- (٥١) العقيدة والشريعة فى الاسلام ١٣٦
 - (٥٢) فى التصوف الاسلامى ٤٨
 - (٥٣) تاريخ تصوف در اسلام ٤٣

منه ربيع الضأن اذا اصابه المطر (٥٤) . فنحن في حيرة متى بدأ لبس الصوف وهل كان تقليدا للرهبان المسيحيين حقا وهم الذين يكاد الباحثون يجمعون على اخذ الزهاد لباسهم المتميز عنهم؟ اذا رجعنا الى كتب التصوف وجدنا ابا طالب المكي يقول : « كان عيسى ويحيى بن زكريا يلبسان الصوف » (٥٥) ويروى السراج ان «لبس الصوف كان دأب الانبياء والصدقيين وشعار المساكين المتسكين» (٥٦) فاوحى الينا بانه لباس الرهبان ايضا . ويذكر ابن سعد ان النبي لم يطلق لبس الحرير لاحد من الرجال الا لعبدالرحمن ابن عوف وذلك لانه كان رجلا قملا او مصابا بمرض جلدي (٥٧) وذلك لايشير الى ان الصوف كان سائدا ، فليس كل ما يلبس من غير الحرير صوفا ولكنه يوحي بانه كان موجودا وملبوسا ايام النبي مادام اصحاب الصفة مرتدين له . والواقع ان لبس الصوف من حيث هو قماش خشن لايدل على اصل معين نقل عنه وانما يتطلب الامر البحث عن اصله اذا اتخذ لباسا في الصيف والشتاء معا . لقد اخبرنا ابن الجوزي ان القراء في الكوفة وكذلك الفتيان كان لهم لباس مخصوص (٥٨) في القرن الاول فلا بد ان كان للزهاد لباس خاص وهو الصوف ، ويجب علينا هنا ان نفضل البحث عن الوقت الذي بدأ فيه لبس الصوف بالتحديد لان ذلك لا يؤدي بنا الى نتيجة ، ولبس اويس القرني للصوف (٥٩) وهو المتوفى سنة ٥٨-٦٥٧/٣٧ لا يدل على امر عرفي وانما هو - اذا صح - تصرف فردي ، والنزعة الفردية لا تقوم اساسا للمجتمع . واذا استحضرننا في الذهن ان

(٥٤) التعرف لمذهب اهل التصوف ٦

(٥٥) قوت القلوب ٣/١٩٢ .

(٥٦) الملح ٤٣ .

(٥٧) طبقات ابن سعد ٣ : ٦٢/١ ، وعن منع لبس الحرير للرجال انظر مثلا « من لا يحضره الفقيه » ، طهران ١٣٧٦ ، ص ٤٦٧ ومما يذكر هنا ان ابن سعد قد نص على انه « كان المسلمون يلبسون الحرير في الحرب » الطبقات ٣ : ٦٢/١ .

(٥٨) صفة الصفة ٣/٤٧ .

(٥٩) طرائق الحقائق ٢/٢٢ .

الزهد هرب من الاحداث الجارية فى الكوفة وانها مازالت حتى الان اعنى مركز للمعارضة بالسيف كما فعل الخوارج ، واللسان والعقيدة كما فعل الشيعة والمعارضة السلبيه التى تنبعث عن زهد الزهاد وكف ايديهم عن نصره الدولة الاموية ثم العباسية او تشجيع العلويين على الخروج ثم النكوص على الاعقاب حين تلمع السيوف او ترن الدراهم والدنانير ، فعلينا الان ان نقرأ هذا الخبر فى شىء من انعام النظر • قال المسعودى فى اخبار سليمان بن عبدالمك الذى ولى الخلافة سنة ٩٦/٧١٤-١٥ أى بعد موت الحجاج الذى فعل الافاعيل فى الكوفة « وكان يلبس الثياب الرقاق و ثياب الوشى ، وفى ايامه عمل الوشى الجيد باليمن والكوفة والاسكندرية ولبس الناس جميعا الوشى جبابا وارديه وسراويل وعمائم وقلائس ، وكان لايدخل عليه رجل من اهل بيته الا فى الوشى وكذلك عماله واصحابه ومن فى داره ، وكان لباسه فى ركوبه وجلوسه وعلى المنبر ، وكان لايدخل عليه احد من خدامه الا فى الوشى حتى الطباخ فانه كان يدخل اليه فى صدره وشى وعلى رأسه طويلة وشى، وامر ان يكفن فى الوشى الثقلة» (٦٠) ، وكذلك فعل هشام بن عبدالمك الذى حكم من سنة ١٠٥/٧٢٣ الى سنة ١٢٥/٧٤٣ «فسلك الناس جميعا فى ايامه مذهبه» (٦١) وبذلك وجدنا لبس الحرير سياسة عامة اتخذتها الدولة الاموية وامرت بها خلفاؤها • واذا عرفنا انه لم يرد للبس الصوف ذكر فى الشام ولا فى مصر التى يسميها متر « مهد الرهبنة» (٦٢) مع ان اول من تسمى صوفيا فيها كان ابا عبدالله الصوفى اثنائى الاندلسى بالاسكندرية سنة ١٩٩/٨١٤-١٥ ولم يرد عنه لبس الصوف وان كان هذا التاريخ متأخرا لاينفى ولا يثبت شيئا ، يدل على انتشار لبس الصوف حتى على فرض اتصاله بالرهبنة

-
- (٦٠) مروج الذهب ١٦٢/٢
 - (٦١) مروج الذهب ١٦٢/٢
 - (٦٢) صفة الصفوة ١٧٣/٤
 - (٦٣) تاريخ اليعقوبى ١٤/٣

لم يتحقق الا فى الكوفة معاصرا لحركة نشر الترف الظاهرى مما رأيناه فى
 خبر المسعودى • ومادامت دمشق والشام - وكان فيها زهد متميز يختلف
 عن زهد الكوفة كما سنرى - لم يلبس زهادها الصوف وهم فى قلب المسيحية
 الشرقية آتئذ فلا ندرى كيف يكون الصوف مرتبطا ارتباطا مباشرا بالرهبة •
 بل لقد كان للزهاد فى الشام اسم مستقل ينم عن جوهر الزهد عندهم ويذكر
 الكلاباذى انهم كانوا يسمون جوعية (٦٤) وسنرى فى تعرضنا لزهد البصرة
 ان الزهاد فيها لم يهتموا بالصوف وان من لبسه منهم انما كان متأثرا بزهد
 الكوفة • ونعود الى الكوفة فنجد انها قد اتيح لها موضوع للمعارضة لا يستطيع
 احد ان يؤاخذها عليه ، وكان هذا الوشى الذى فضله هشام وسليمان يصنع
 فى الكوفة ولعلها كانت من خير المراكز التى يصنع فيها ، والكوفة مشهورة
 حتى الان ، فانقلب الزهاد الذين كانت معارضتهم خفية سلبية تتمثل فى العزلة
 الى الصوف المضاد للحرير يلبسونه ويقبلون عليه وصار لباسا خاصا بهم كما
 كان للقراء والفتيان لباسهم الخاص • ولعل مما يؤكد هذه الحقيقة انه قد روى
 عن سفيان الثورى لومه الامام جعفرا الصادق على لبسه جبة من الخز - وكانت
 بداية امامته فى ايام هشام - فراه الامام ثوبا من شعر خشن تحت الجبة •
 ويحدثنا الشعرانى والعطار وابو نعيم ان سفيان قد كان يلبس جبة
 من الصوف (٦٥) ، ولعل هذا الخبر ينفى ما يروى عن سفيان انه اعتبر لبس
 الصوف بدعة (٦٦) • واذا عرفنا ان الربيع بن ابى راشد المعاصر لسفيان
 الثورى كان يرى السياحة بدعة (٦٧) وان سفيان الثورى كان سائحا مشهورا
 يلام على سياحته كما اورد ابى نعيم انه قيل لسفيان « ان للناس مأوى تأوى

(٦٤) التعرف ٥ •

(٦٥) طبقات الشعرانى ٢٨/١ ، التذكرة ٩/١ ، الحلية ٩٣/٣ •

(٦٦) تلبيس ابليس ٢٠٩ •

(٦٧) حلية الاولياء ٧٧/٥ •

اليه وللبيع مأوى ومالك مأوى تأوى اليه » وانه كان ينسب الى العجب (٦٨)
عرفنا مدى هذا الخبر من الصواب •

وبذلك يتبين لنا ان الكوفة هي مركز اتخاذ الصوف شعارا للزهاد وان الكوفيين قد تأثروا مندفعين مع موجة الزهد الذي اتخذ معارضته للامويين من لباسه - اقتداء بمن لبس الصوف قبلهم من الزهاد او الرهبان • لكن يجب ان نتنبه الى حقيقة مهمة وهي ان لبس الصوف لم يكن آتيا من تأثر بالمسيحية من حيث هي دين بل من تقليد قوم منهجهم في الحياة مشبه لمنهج الزهاد الكوفيين الذين ارادوا ان يظهروا معارضتهم للامويين بلبس لباس مضاد لما أمر به الخليفة الاموي ، وتأتى فكرة التأثر بالرهنة المسيحية في الدرجة الثانية • ولو كان قوم غير الرهبان يتخذون الصوف لباسا لآخذ الكوفيون عنهم لباسهم تحقيقا لمعارضتهم التي تعلقوا بها • وبذلك يتبين ان لبس الصوف بالذات لم يكن تحريا لتقليد الرهبان وانما كان مقاومة سلبية للاتجاه الاموي لبث الارفاه في اللباس في مجتمعهم • واذا عرفنا ان الضرائب والرسوم كانت تجبي من العراق ومن فارس التي فتحت بجهد العراقيين ، وان الحرير نفسه - بالاضافة الى بنات فارس - كانا يشكلان الاسلاب والغنائم التي كان الحجاج يبعث بها الى الشام (٦٩) ، وان عمر بن عبدالعزيز المتوفى سنة ١٠١ كتب الى عامله في الكوفة ان « اهل الكوفة قد اصابهم بلاء وشدة وجور في احكام الله وسنة خيثة سنها عليهم عما السوء » (٧٠) ادركنا لماذا صارت الكوفة بعد ضعفها وخورها مركزا لاتخاذ الصوف لباسا • واذا تبين لنا ان نيكلسون حائر في اصل التصوف ونشأته وانه يرى ان التابع الزمني في تطور الفكرة

(٦٨) حلية الاولياء ٦/٣٧٤ •

(٦٩) راجع ديوان الاخطل ، بيروت ١٨٩١-٢ ، ص ٧٤ •

(٧٠) ابن الاثير ٥/٢٣ •

الصوفية لم يضطلع بدراسته احد^(٧١) ادركنا الى اى حد يظلم الباحثون
التصوف بالاحكام القطعية فيما لا ياحتمل احكاما قطعية •

ويحسن بنا فى ختام هذه السطور ، ان نشير الى ان الصوف لم يكن
مادة يهتم بها العرب وانما كان شيئا مهملا لم يهتم به أحد • ولعل العرب لم
يلبسوا ثيابا منسوجة منه حتى فى الشتاء • وقد ذكر الجاحظ ان اهل البصرة
كانوا يلبسون القمص فى الحر والمبطنات فى البرد^(٧٢) ، وورد فى نشوار
المحاضرة أنهم كانوا يلبسون المحشو^(٧٣) ، وهو لباس من القطن يحشى
داخله ليقى من البرد ، أو كانوا يلبسون الفرو كما كان داود الطائي يفعل^(٧٤) •
ومما يلاحظ انه حتى اللغويون - انذى دأبوا على جمع كل المعانى والالفاظ -
لم يثبتوا للصوف وللنسيج المعمول منه اى اسم او نعت او قماش على كثرة ما
أوردوا من اسماء النسيج من الخز والقز والحريير والقطن والكتان ، وعلى
عديد ما اوردوه من اسماء رقيق الثياب وكثيفها ومزأبرها ومخططها وموشاها
الا فى الاكسية التى تلبس فوق الثياب ، وكل هذا يوحي بأن لبس الصوف كان
تقليدا غير عربى وبأن الاقبال على اتخاذه لباسا انما كان أمرا جديدا على
العالم العربى الاسلامى اخذوه عن غيرهم لتطبيق خطة معينة ، وأن ما اوجب
لبسه لم يكن الحاجة اليه بوصفه نسيجا يلقى من البرد وانما كان لتحقيق مطلب
ملح • ونظرة الى المخصص لابن سيدة^(٧٥) (المتوفى سنة ٤٥٨) توضح هذه
الحقيقة ، فخلو هذا الكتاب الذى أنف فى منتصف القرن الخامس ، وفى
وقت كان التصوف فيه يملأ العالم الاسلامى ، يدل على اهمال الناس والتجار

(٧١) فى التصوف الاسلامى ١٢ •

(٧٢) معجم البلدان ٢٠٢/٢ •

(٧٣) نشوار المحاضرة ، الجزء الثامن ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ،

المجلد العاشر ، ص ١٤٨ •

(٧٤) صفة الصفوة ٣/٧٤ •

(٧٥) المخصص ، مصر ١٣١٦ ، كتاب اللباس ، وخصوصا ٦٣/٣-٨١ •

هذه الصناعة ويدل من ثمة على انه كان لباس الزهاد وبالتالي المتصوفة
المتلبسين بالفقر المتزمين لمظهره .

اول من تسمى صوفيا :

يؤدى بنا البحث فى لبس الصوف الى فضية بدأت فى الكوفة ، وذلك ان
اول من تسمى بالصوفى كان كوفيا ولعل ذلك دليل اخر على ما سقناه من علة
اختيار الزهاد الصوف لباسا لهم . والباحثون مختلفون فى من هو اول من
تسمى بالصوفى وتدور اخبارهم فى هذا الشأن حول ثلاثة من الزهاد الكوفيين
هم جابر بن حيان وابو هاشم الكوفى وعبدك الصوفى ويجب ان نعرض لكل
منهم بالبحث لتعرف حقيقة ما يدور حول كل منهم .

جابر بن حيان :

هو - كما مر بنا تلميذ الامام جعفر الصادق - او عبده (٧٦) - وكان
يلقب بالصوفى وقد اورد عنه ابن النديم انه « المعروف بالصوفى » (٧٧) ،
واورد كذلك ان اناس مختلفون فى امره ، فالشيعة تزعم انه منهم بل من
كبارهم واحد الابواب ، والفلاسفة يروونه منهم لان له مصنفات فى الفلسفة ،
وادعى اهل صناعة الذهب انه منهم ايضا ، وقيل انه كان من جملة رجال
البرامكة وانه كان منقطعا الى جعفر البرمكى بدل جعفر الصادق ، وقيل فى
النهاية : « ان هذا الرجل لا اصل له ولا حقيقة » (٧٨) ، ولكن ابن النديم
يرفض هذه النظرية ويدل على وجود جابر بن حيان بان « امره اظهر
واشهر وتصنيفاته اعظم واكبر ولهذا الرجل كتب فى مذاهب الشيعة » (٧٩)
ويضيف الى ذلك ان اصله من خراسان فيضعه بذلك بازاء ابراهيم بن ادهم

-
- (٧٦) خلاصة الاثر ١/٢١٣ .
 - (٧٧) الفهرست ٤٩٨ .
 - (٧٨) المصدر نفسه ٤٩٩ .
 - (٧٩) المصدر نفسه ٥٠٠ .

الذى عاصره وعاش فى الشام • ثم ينقل ابن النديم نصابه باعتباره قاطعا فى حقيقة وجود جابر ، وذلك ان الرازى يقول فى كتبه المؤلفة فى الصنعة : قال استاذنا ابو موسى جابر بن حيان « (٨٠) بل يذكر ابن النديم لجابر طلابا اخذوا عنه كالحرقى (٨١) (الذى تنسب اليه سكة الحرقى بالمدينة) وابن عياض المصرى (الفضيل) (المتوفى سنة ١٨٧/٨٠٣) والاخيمى (٨٢) وقد لاحظ فليب حتى صلة جابر بالصادق وذكر انه اطلق عليه اسم الصوفى ورأى انه ادعى مذهبا خاصا فى الزهد (٨٢) • ويرد فى اخبار الحكماء ان جابر بن حيان كان « مشرفا على كثير من علوم الفلسفة ومقلدا للعلم المعروف بعلم الباطن وهو مذهب المتصوفين من اهل الاسلام كالحارث المحاسبى وسهل بن عبدالله التستري ونظرائهم » (٨٣) • ويذكر ابن ابى اصيعة كتب جابر دون مناقشة ويؤرخ وفاته بسنة ٢٠٨ (٨٤) اى بعد وفاة جعفر الصادق بستين سنة وذلك امر قابل للشك على كل حال • ومهما يكن من شىء فقد رأينا خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٧٠٢/٨٥ مصيا لعلم الكيمياء وانه قد استقدم من مصر كيميائين ترجموا له الكتب اليونانية والقبطية • اما الشيعة فلا يجدون ضيرا فى الحاق جابر بالصادق لان ذلك لا يمس عقيدتهم فى شىء وهم الى ذلك قد وافقوا على ان جعفرا الصادق كان له بصير بالكيمياء لانه جمع كل العلوم بوصفه اماما معصوما محيطا بكل شىء علما • ويشكو الخوانسارى من انه لم يجد لجابر ترجمة خاصة فى شىء من فهراس رجال الفريقيين (٨٥) وينقل نصابا عن كتاب غاية الحكيم للمجريطى يتضمن هذه العبارة : « واما البارع فى هذه الصناعة على الاطلاق (علوم الطلسمات) فهو المقدم فيها الشيخ الاجل ابو موسى جابر بن حيان الصوفى من شىء كتاب

-
- (٨٠ ، ٨١) الفهرست ٤٩٩
 - (٨٢) تاريخ العرب ٢/٢٢
 - (٨٣) اخبار الحكماء ١١١
 - (٨٤) طبقات الاطباء ٢٠٣
 - (٨٥) روضات الجنات ١٥٤

ومهما يكن من أمر فإن كتب الشيعة القديمة لم تورد اسم جابر بن حيان في سلسلة سند أى حديث ينسب الى جعفر الصادق ثم ان صلة جابر بالتصوف اسمية لانه لم يكن صاحب مجاهدة او خوف او ناطقا بأقوال زهدية وانما نقل عنه اشتغاله بالكيمياء ونقلت عنه كذلك مشارب اسماعيلية في مجموعة الرسائل المنسوبة اليه التي اخرجها بول كراوس • وقد التفت السيد هبة الدين الشهرستاني - من مجتهدي الشيعة المعاصرين - الى هذه النقطة فروى لنا عن استاذه شيخ الشريعة الاصفهاني ان تسمية جابر بن حيان بالصوفي ليست منسوبة الى الصوف وانما النسبة الى سوفيا اليونانية بمعنى الحكمة فقيل : صوفى ثم اشبع العرب السين فصارت (صوفى وصوفية) وقال : واول هؤلاء المسلمين جابر بن حيان المشهور بالصوفى ، ولم يكن هذا الفيلسوف العظيم حاملا لاي مبدأ من مبادئ الطريقة الصوفية» (٨٧) فيبدو من رأى الشهرستاني ان انصوفى هو المتقلد للحكمة اليونانية وعلومها ويرى ان هذا الوصف لم يستقر على الاساس الاصطلاحي الا فيما بعد (٨٨) والواقع ان هذا الرأى قد تعرض له البيروني في كتاب (بيان ما للهند من مقولة ، لندن ١٨٨٧ ، ص ١٥) وتبناه فون هامر غير ان تولدكه قد أثبت خطأ هذه النسبة (انظر في التصوف الاسلامى نيكلسون وترجمة الدكتور ابو العلا عفيفى ص ٦٦-٦٧ ، والصوفية في الاسلام للمؤلف نفسه وترجمة نور الدين شريعة ص ٢-٤) •

اما بعد فان جابر بن حيان - ان صح وجوده - كان رجلا منزويا كزملائه الزهاد ولكنه صرف هذا الانزواء الى الاشتغال بالكيمياء والحكمة اليونانية وذلك يحمل على الحيرة حقا في بيئة مثل بيئة الكوفة التي شغلت بالحديث والرواية والزهد • وكون جابر خراسانيا كما اخبرنا ابن النديم

(٨٦) روضات الجنات ١٥٤ •

في كتاب غاية الحكيم الجريطي (المتوفى سنة ٣٩٥) ، تحقيق ريتز ، طبع المانية ١٩٣٣ ، صفحة ١٤٦ « ٠٠٠ وأما البارع في هذه الصناعة على الاطلاق فهو المقدم فيها ابو موسى جابر بن حيان الصوفى ٠٠٠ منشىء كتاب البحث في صنعة الطلسمات » •

(٨٧ ، ٨٨) املاء للسيد الشهرستاني •

ابعث على الحيرة اذا قرنا به الاشتغال بالكيمياء لان الخراسانيين لم يعرف عنهم ذلك وانما كان جهدهم منصرفا الى البحث فى العلم الظاهر والباطن والدعوة لاسرية • ولهذا فان كون جابر بن حيان اول من اطلق عليه لفظ صوفى فى الاسلام يصطدم بعقبتين : الاولى انه لم يكن زاهدا بالمعنى المفهوم من الزهد المتأثر بالبيئة المتجهة الى البعد عن المشاركة فى الاحداث والاعراض عن المادة التى سببت فساد الضمير اولا واستيقاظه من بعد ذلك ، يضاف الى ذلك اننا لم نسمع عنه كونه من البكائين او العباد المتسكين • والعقبة الاخرى هى الشك فى وجوده وخلو كتب الرجال الشيعية والصوفية من ذكره باعتباره حلقة فى سلسلة سند او ملاقيا لشخص يروى عنه رؤية وعيانا • وما نرجحه نحن ان جابر بن حيان كان شخصية اسطورية ، فلقب «صوفى» لم يطلق على ممارسى هذه العلوم المأخوذة عن اليونان الا فى القرن الرابع حين وجدنا منجما يدعى بالصوفى^(٨٩) • ثم ان جابر بن حيان، فى روايته للعلوم عن جعفر الصادق ، كان على مثال افلاطون الذى روى انتاج سقراط ، وكان هذا الاخذ عن اليونانيين وانتشاره متأخرين عن التاريخ الذى حدد لوفاة جابر •

ولهذا فان علينا ان نبحت عن رجل اخر يمكن ان تدور حوله كلمة صوفى وان كان ذلك كله لايقدم فى احتمال كونه اول من دارت حوله •

ابو هاشم الكوفى :

وكان كوفى اخر يوصف بهذا الوصف ذلك هو ابو هاشم عثمان بن شريك الكوفى الصوفى ، وقد ذكر الجامى انه كان فى الشام وهو كوفى الاصل وكان معاصرا لسفيان الثورى ، ويذكر ان هذا قال فيه : « لولا ابو هاشم ما عرفت دقائق الرياء »^(٩٠) ويذكر انه بنى اول خانقاه للصوفية فى

(٨٩) هو ابو بكر عبدالرحمن بن عمر الصوفى (توفى سنة ٣٧٦) صاحب «صور الكواكب» المطبوع فى حيدر اباد وفى المتحف البريطانى بنندن
نسخة منه مخطوطة تحت رقم Add. 7488 •
(٩٠) نفحات الانس ٣١ •

الرملة • ويورد محمد كرد على ان اول من تسمى بالصوفى من اهل السنة ابو هاشم الكوفى سنة ٧٦٧/١٥٠ وكان من النسك يجيد الكلام وينطق بالشعر كما وصفه الجاحظ» (٩١) • ويعلل الحاج معصوم على تسميته بالصوفى بانه كان يابس لباسا طويلا من الصوف كفعل الرهبان ويرى انه كان يقول بالحلول والاتحاد مثل النصارى غير ان النصارى اضافوا الحلود والاتحاد الى عيسى (ع) و اضافهما هو الى نفسه وكان مترددا بين هاتين الدعويين ، ولم يعلم على ايهما استقر فى النهاية» (٩٢) • وينقل عن كتاب اصول الديانات انه كان امويا وجبريا فى الظاهر وباطنيا ودهريا فى الباطن وكان مراده من وضع هذا المذهب ان يثير الاضطراب فى الاسلام • وينقل ان صاحب اصول الديانات يرى انه ورد عنه احاديث كثيرة فى الطعن على الائمة المعصومين ويرى « انما سماه المشايخ بالصوفى بقطع النظر عن لبسه الصوف او عدمه وقد نسبوه الى الهاشمية وابى الهاشمية والعثمانية والشريكية مرة بالاسم وطورا بالكنية وتارة باسم ابيه » (٩٣) •

وهذا الاضطراب فى أمر ابى هاشم اذا نخل يبقى منه انه كان زاهدا كوفيا ويبدو انه كان من الموالى ايضا لان احدا لم يذكر عربيته ولم يذكر اسم قبيلته ، وانه لم يطق البقاء فى الكوفة الشيعية فانقل الى الشام • ومادام قد توفى هناك فى سنة ٧٦٧/١٥٠ - وكان سقوط الدولة الاموية سنة ٧٤٩/١٣٢ - ٥٠ - فلا بد انه انتقل اليها قبل سقوط دولتها • ولكنها كانت مضطربا للحروب بين مروان بن محمد وخصومه من الامويين والعباسيين والشيعية • أو لعله هجر الكوفة قبل ذلك بعد ثورة زيد سنة ٧٣٩/١٢١ او ثورة عبدالله بن معاوية سنة ٧٤٣/١٢٦ - ٤٤ - وكل هذه الافتراضات تزيد الامر اضطرابا ، ثم نجده

(٩١) الاسلام والحضارة العربية ٣١/٢ •
 (٩٢ ، ٩٣) طرائق الحقائق ١٠١/١ •

صوفيا لانه يلبس الصوف فى رأى الحاج معصوم على ونجده لا يلبسه فى رأى صاحب اصول الديانات واسما سمى بالصوفى على وجه تسمية جابر بن حيان به ، ثم اذا به شيعيا غالبا - مادام يؤمن بالحلول - ثم دعا به الى نفسه فى الشام ، وذلك امر لا يصدق • ثم ان قول سفيان الثورى : لولا ابو هاشم ما عرفت دقائق لرياء ، يوحى بانه لم يلبس الصوف الذى كان يدل على الزهاد فى الكوفة وكون الرجل ناهيا عن الرياء يعنى البعد عن التظاهر بالزهد اى البعد عن لبس الصوف الذى هو مظهر الزهد الخارجى • ومهما يكن الامر فان من الواضح ان المراد باسباغ وصف الصوفى على أبى هاشم هو ان يكون بالكوفة صوفى شيعى وبالشام صوفى اموى - ولعل ذلك مراد الاستاذ كرد على - كما يبدو من معاصرة ابى هاشم لجابر بن حيان الذى اعتبر تلميذا لامام الشيعة جعفر الصادق • وكلا الصوفيين على كل حال كوفى ، ولعل امر المعارضة قد نسى الان بعد ان زالت دولة الامويين فى هذا الوقت وبقي منه الدلالة على الزهد فقط •

ويظهر من كل مادار حول ابى هاشم ان اخباره كانت قليلة وهى فى اضطرابها تعدل الاخبار الواردة عن جابر بن حيان او يزيد ، ولكن ابا هاشم على كل حال كان معاصرا لجعفر الصادق ايضا اى معاصرا لجابر بن حيان • ويسميه الشيعة مخترع الصوفية^(٩٤) وينقلون عن الصادق أنه قال فيه : «انه فاسد العقيدة جدا وهو ابدع مذهبا يقال له التصوف وجعله مقرا لعقيدته الخيثة»^(٩٥) • كل ذلك لينفوا ان يكون التصوف من اختراع شيعى وذلك امر يدل على محاولة التنصل من مسؤولية لم تمحص نتائجها ولا اغراضها • ولعل ابا هاشم الصوفى - بعد - هو خالد بن يزيد بن معاوية

(٩٤) طرائق الحقائق ١/١٠١

(٩٥) الرسالة الاثنا عشرية فى رد انصوفية لمحمد بن الحسن بن الحر العاملى ورقة ١٩ ب •

الذى مارس صناعة الكيمياء ، وكان يكنى بابى هاشم ايضا () ،
ولعله سمي بالصوفى أو الكوفى على أساس
اشتهار الكوفة بتلك الصناعة من قديم ، وقد مر بنا ذلك فى فصل جعفر
الصادق •

عبدك الصوفى :

اما الزاهد الكوفى الثالث الذى سمي بالصوفى فهو عبدك الذى يذكر
الدكتور قاسم غنى نقلا عن ماسينيون انه كان آخر شيوخ فرقة نصف شيعة
صوفية تأسست فى الكوفة وظهرت كلمة «صوفية» فى آثار المحاسبى والجاحظ
اسما لها ، وان عبدك هذا كان رجلا منزويا زاهدا توفى فى بغداد فى حدود
سنة ٢١٠/٨٢٥-٢٦ (٩٦) • وقد ذكر ماسينيون ان عبدك هو اول من اطلق
عليه اسم الصوفى وكان يطلق فى ذلك الحين على بعض زهاد الكوفة من
الشيعة وعلى مجموعة من الثائرين فى الاسكندرية (٩٧) وينقل ماسينيون عن
الحمدانى ان اول من سمي ببغداد (لا الكوفة) بهذا الاسم عبدك الصوفى
وهو من كبار المشايخ وقدمائهم وكان قبل بشر بن الحارث الحافى والسرى
بن المغلس السقطى (٩٨) ويخبرنا المنطى ان عبدك كان رأس فرقة من الزنادقة
الذين « زعموا ان الدنيا كلها حرام محرّم لا يحل الاخذ منها الا القوت من
حيث ذهب أئمة العدل ، ولا تحل الدنيا الا بامام عادل والافهى حرام » (٩٩) •
وذكر المقدسى ان اسم عبدك هو عبدالكريم ، وأن حفيده محمد بن على
ابن عبدك الشيعى كان مقدم الشيعة (١٠٠) • وهكذا يبدو عبدك جامعا لاتجاهات
عديدة مختلفة تابعة من التشيع الممتزج بالزهد المتأثر بظروف الكوفة التى
انتقل منها كثير من سكانها الى بغداد بعد ان صارت عاصمة للدولة الجديدة •

(٩٦) تاريخ تصوف در اسلام ٤٢ •

(٩٧) مجموعة نصوص تتعلق بالتصوف ١٠-١١ •

(٩٨ ، ٩٩) مجموعة نصوص تتعلق بالتصوف ١١ •

(١٠٠) كتاب الانساب لابى الفضل محمد بن طاهر المقدسى (متوفى سنة

٥٠٧) ليدن ١٨٦٥ ، مادة عبدك •

والمهم في شأن عبدك انه اول كوفى يطلق عليه اسم صوفى بعد انتقاله الى بغداد ، وبين لنا الدكتور قاسم غنى ان « كلمة صوفى - على هذا الاساس - شاعت في الكوفة اولا ، ثم لقيت اهتماما كبيرا بعد هذا التاريخ بخمسين سنة ، ويضاف الى ذلك ان المقصود بهذا التاريخ ان المتصوفة كانت تجمع تحت لوائها عارفي العراق وتقابلها كلمة ملامية التى تطلق على عارفي خراسان • وقد زال هذا الفرق منذ القرن الرابع وصار يقصد بالصوفية كل عارفي المسلمين» (١٠٠) •

اما بعد فان نتيجة هذا كله ان كلمة (صوفى) التى قطع الباحثون المحدثون بصدورها عن الصوف قد صارت كذلك لان الصوف قد عمّ زهاد الكوفة نفسها حيث ظهرت هذه الكلمة اولا ، وقد اشتق التصوف من الصوف • وقد رأينا ان لبس الصوف قد نبع من بيئة الكوفة التى عرف تمسكها بالتشيع ومعارضتها وحرابها بالسيف او بالقول او بالقلب لمن نكل بالائمة العلويين ، وذلك - اذا صح - يقطع بان التصوف فى اصوله الاولى كان متصلا بالتشيع ، وسرى ان هذه البذور الزهدية التى صبت فى التصوف فيما بعد ستضاف اليها بذور اخرى مختلفة الالوان من البصرة والشام وخراسان ليستكمل التصوف ملامحه بعد انتقاله الى بغداد ونضجه فيها •

انتظام الزهد فى الكوفة :

فاذا عدنا الى الكوفة من جديد وجدنا الزهد قد انتظم قليلا وكون له مدرسة بسيطة لها رئيس هو سفيان الثورى ، الذى ولد سنة ٧٦٥/٩٧-١٦ فى خلافة سليمان بن عبدالمك الذى اشاع فى الناس لبس الخز وحضهم عليه • وقد بدأ بسفيان الثورى دور جديد هو الهدوء الذى سيتأدى الى الزهد الهادى والصمت بعد البكاء والاتجاه الى التفكير بدل الهرب منه • وقد كان احد زملاء سفيان يقول له : ارى الناس يقولون سفيان الثورى وانت تام الليل،

(١٠٠ أ) تاريخ تصوف در اسلام ٤٢ •

فقال : « اسكت ملاك هذا الامر التقوى » (١٠١) ولكنه مع ذلك كان زاهدا فى لباسه الى اقصى حد ، وقد رآه على بن ثابت فى طريق مكة فقال : « قومت كل شىء عليه حتى نعليه درهما واربعة دوانيق » (١٠٢) • وتبدأ بساطة المجاهدة عند سفیان الثورى ايضا ، ولكنها مازالت لاصقة بالليل حين تخطر الاشباح فى الكوفة مدينة المعاصى والعذاب والموت وكان سفیان يقول لمن سأله أخبرنا كيف تصنع انت فى الليل؟ : « لها عندى اول الليل نومة ، تام ما شئت لا امنعها ، فاذا استيقظت فلا اقبلها » (١٠٣) وقد ظهر من سفیان اتجاه زهدى جديد يسد عليه الفراغ الذى يملأ حياة الزاهد بالاشباح والخوف ، فانقطع الى العلم انقطاعا تاما علله لنا بشر الحافى المتوفى سنة ٢٢٧/٨٤١-٤٢ « بان طلب العلم انما يدل على الهرب من الدنيا ليس على جها » (١٠٤) ، وذلك يذكرنا بجعفر الصادق وابيه محمد الباقر اللذين انقطعا الى العلم بعد ان قتل اباؤهم وابناء عمومتهم ورأوا الراحة من هذا العناء باطراح الطموح المادى وتركيز الهم والجهد فى العلم وطلبه وتلك خدمة تسدى الى الاسلام دين جدهم • وقد ظهر لسفیان امر - بعد ان علم اشياء كان يجهلها - فزاد حزنه وكثر ندمه على هذا العلم الغزير الذى فتح عينيه على الحقيقة المؤلمة ، فقد كان يقول : « لو لم اعلم لكان اقل لحزنى » (١٠٥) ، وهذا هو الفرق بين الامام الشيعى الذى تزيد طمأنينته وصفاء نفسه كلما توغل فى العلم وبين غيره من امثال سفیان الثورى الذى فسر طلبه للعلم بقوله : « ليس طلب الحديث من عدة الموت ، لكنه عدة يتشاغل بها الرجل » (١٠٦) وزاده وضوحا بقوله : « ان

(١٠١) صفة الصفوة ٣/٨٣ •

(١٠٢) ، (١٠٣) المصدر نفسه ٣/٨٥ •

(١٠٤) حلية الاولياء ٨/٣٤٧ •

(١٠٥) صفة الصفوة ٣/٨٣ •

(١٠٦) حلية الاولياء ٦/٢٦٤ •

هذا الحديث عز ، من اراد الدنيا فدنيا ومن اراد الآخرة فأخرة» (١٠٧) وقد كان سفیان يتنقل في البلدان كثيرا ولا يقيم في بلد بعينه ونذلك صلة - كما يبدو من ثقافته الواسعة - بالسياحة المسيحية فكان لا يستقر في بلد بعينه مع علمه بان ما يفعله بدعة صريحة وقد كان معاصره الربيع بن ابي راشد يقول : « لولا ان تكون بدعة لسحت او همت في الجبال » (١٠٨) ، وقد علل سفیان الثوري سياحته تعليلا غريبا ووصل ذلك باستجلاب صفاء الفكر وتصوير النعيم الاخرى بعد ان ليم في ذلك فروى انه « اقتحم على اهل الجنة نور في قباهم كاد ان يخطف نوره ابصار القوم ، فاذا نور سن حوراء ضحكت في وجه وليها (يقصد نفسه) ، فما كنت ادع هذا الخير ابدا القولك» (١٠٩) . وقد كانت سياحته عذلة المطلوب منها التفرغ الى التأمل والتفكر لان رأيه كان منصرفا الى ان « من خالط الناس دارهم ، ومن دارهم رآهم ومن رآهم وقم فيما وقعوا فيه ، فهلك كما هلكوا » (١١٠) ، وذلك ترديد لمقالة جعفر الصادق التي يروونها سفیان نفسه عنه انه قال : « عزت السلامة حتى لقد خفى مطلبها ، فان تكن في شيء فيوشك ان تكون في الخمول .» (١١١) .

وقد اعترف اهل البصرة لسفیان بالفضل والعلم (١١٢) وكان انتقل اليها في آخريات ايامه (من سنة ١٥٥/٧٧٣ الى سنة ١٦١/٧٧٧-٧٧٨) ، وصار للزهاد شيئا وصاروا له مریدين الى حد ان ابراهيم بن ادهم نفسه قد اعترف بولايته وامامته على الزهاد جميعا حتى انه رجا سفیان الا يقف عند الصخرة بعد ادائه الصلاة في صحن المسجد الأقصى لئلا يراه الناس - ولعل

-
- (١٠٧) حلية الاولياء ٣٦٦/٦
 - (١٠٨) المصدر نفسه ٧٧/٥
 - (١٠٩) حلية الاولياء ٣٧٤/٦
 - (١١٠) قوت القلوب
 - (١١١) صفة الصفة ٩٦/٢
 - (١١٢) حلية الاولياء ٢٦٠/٦

ابراهيم يعنى الزهاد - فتكون سنة لهم (١١٣) • والغريب ان سفيان قد وافق ابراهيم على ذلك ولم يعترض عليه • ويتوثق ذلك بان سفيان كان يحضر موت الزهاد - بوصفه شيخا لهم - ويخفف عنهم (١١٤) ، بل يبدو انه كان يجمع اموالا ينفقها على الزهاد مما يروى عنه من قوله : « ما بقى احد يدفع به عن اهل الكوفة الا ابن سوقة (محمد) (١١٥) ، كان عنده عشرون ومائة الف (درهم) فقدمها (١١٥) وقد كان سفيان يرمى بالعجب (١١٦) وطلب الشهرة كما اتهم المتصوفة بعدئذ •

وقد جمع سفيان الى مشيخته للزهاد وولايته احترام اصحاب الحديث وحامله وكان لهم شيخا الى حد ان الشعراني يروى انه سمى بامير المؤمنين فى الحديث (١١٧) ، ولا عبرة بتحديد الامارة بالحديث فقط فان سفيان الثورى الذى نشأ فى بيئة الغلاة والمنتبئين والمؤلهين للائمة وخالط الائمة انفسهم لا يبعد ان يكون قد شعر بالامامة بنفسه ، ويؤيد ذلك ان قبيلته كانت مشهورة بانها « كثيرة المشايخ والفقهاء والمتعبدين » (١١٨) ، وقد جاء فى سيرة الربيع بن خثيم انه « كان فى بنى ثور ثلاثون رجلا ما منهم رجل دون الربيع » (١١٩) وبذلك يتبين لنا ان اسرة جديدة قد تولت بث مذهب جديد هو الزهد الموازى للتشيع الغالى كما فعل بنو عجل من قبل •

وكان سفيان نفسه زيديا وناصر محمد بن عبدالله بن الحسن الثائر بالمدينة وبايع له كما مر بنا ، وكان السلطان يطلبه لذلك ، ولكنه لم يشارك فى

-
- (١١٣) حلية الاولياء ٥٠/٨
 - (١١٤) صفة الصفوة ٩٦/٢
 - (١١٥) المصدر نفسه ٦٥/٣
 - (١١٦) حلية الاولياء ٤/٦
 - (١١٧) طبقات الشعراني ٤٠/١
 - (١١٨ ، ١١٩) طبقات ابن سعد ١٢٩/٦

القتال لأنه آثر السلم كما يقضى مبدأ الزهاد بذلك ، وآية ذلك انه لام زاهدين هربا من الكوفة الى البصرة متكرين فى زى الحماليين ولم يكلم احدا منهما على ذلك حتى مات (١٢٠) ، والظاهر ان ميل سفيان الى المذهب الزيدى آت من ان عقيدة الزيدية تقضى بان الامام ليس معصوما وليس اعلم المسلمين ولا يتميز عنهم الا بانه علوى فاطمى يصلح لامامة المسلمين ، اما التفوق فى العلم فميسر لمن انقطع اليه • ويجب ان نكرر هنا ان هذه النظرية الزيدية هى التى فتحت للزهاد باب الولاية واثارت فى نفوسهم الطموح اليها ، فما دام المجال قد انفتح امام المسلم بعمله وجهده لا بتوقيف ونص الهين فقد زال الحاجز الذى كان يطامن من غلواء الزهاد فرأينا سفيان نفسه يجرؤ على لوم الامام الصادق على لبسه الخبز ، وكان عيسى بن زيد بن على يحتكم اليه (١٢١) (اى سفيان) •

وكان من ثقة سفيان فى مكاته فى الزهد انه سلم على المهدي الخليفة تسليم العامة (١٢٢) • والمهم ان ابن النديم قد ايد زيدية سفيان فنقل عن محمد ابن اسحق ان أكثر علماء المحدثين زيدية وذكر سفيان الثورى فى فقهساء المحدثين الزيديين (١٢٣) •

داود الطائى :

ويأتى بعد سفيان الثورى داود الطائى المتوفى سنة ١٦٥/٧٨١-٨٢ ودخل اسمه فى قائمة الزهاد الصوفيين وهو الصلة بين الكوفة وبغداد ، وكان داود الطائى كسفيان تعلمنا وقد اخذ علمه عن ابي حنيفة (١٢٤) الذى ناصر

(١٢٠) مقاتل الطالبين ٣٥٦ •

(١٢١) المصدر نفسه ٤١٥ •

(١٢٢) تاريخ المسعودى ٢/٢٥٤ •

(١٢٣) الفهرست ٢٥٣ •

(١٢٤) صفة الصفوة ٣/٧٤ •

محمد بن عبدالله بن الحسن التائر الزيدى ومات فى السجن لتمسكه ببيعته فلما اتم داود تعلمه قال له ابو حنيفة : بقى العمل به ، فنازعت داود نفسه الى العزلة والوحدة (١٢٤) • وزاد تاثير النسك فى داود حتى رأيناه يتخذ التبتل منهجا لحياته ومظهرها لها ، فبقى اربعا وستين سنة اعزب ، وقد علل ذلك بقوله : « قاسيت شهوتهن عند ادراكى سنة ثم ذهبت شهوتهن من قلبى » (١٢٥) فداود اذن اول زاهد دخل فى زهده العامل المسيحى واضحا ، وقد سبقه سفيان الثورى الى السياحة والتجول • وترد فى سيرة داود اول اشارة الى كونه شيخا لمريد آخر ، فان العطار يذكر انه كان شيخ طريقة الراعى (١٢٦) ويذكر الجامى انه من اقران الفضيل و ابراهيم بن ادهم (١٢٧) ، وهذه رائحة التصوف ترد من الكوفة الى بغداد • وقد زادت الولاية وضوحا فى داود بحيث كان الناس يقصدونه و ينتظرونه اياما ليلقوه و يسمعوا منه (١٢٨) ، وكان محصول القاصد « صم الدنيا واجعل فطرك الموت ، فر من الناس فرارك من الاسد غير طاعن عليهم ولا تارك لجماعتهم » (١٢٩) ، ولم يطق داود ان يخرج عن صمته اكثر من ذلك فوثب الى المحراب وقال : الله اكبر (١٣٠) •

وقد انتظمت عند داود مسألة الزهد فى الطعام والاعراض عن زخرف الدنيا ، فكان يقول : « اذا كنت لا اشرب الا باردا ولا آكل الا طيبا ولا البس الا لينا فما ابقيت لآخرتى » (١٣١) • وداود بهذا قد ابتعد عن بساطة الزهد الاول واقترب كلامه من كلام المتصوفة وبدا زهده زبدة ميراثه من احداث الكوفة وعبرها وظهرت فى داود ظاهرة اخرى جديدة هى التفكير والتأمل والتركيز

-
- (١٢٤) صفة الصفوة ٣/٧٤ •
 - (١٢٥) طبقات الشعرائى ١/١٨٥ •
 - (١٢٦) تذكرة الاولياء ١/١٨٥ •
 - (١٢٧) نفحات الانس ٤٢ •
 - (١٢٨) صفة الصفوة ٣/٧٤ •
 - (١٢٩ ، ١٣٠) صفة الصفوة ٣/٦٥ •
 - (١٣١) طرائق الحقائق ١/٣٧ •

والبعد عن الهرب بالعلم او بالبكاء فقد روى عنه معاوية بن عمر قال : « كنا عند داود الطائي يوما فدخلت الشمس من الكوة ، فقال بعض من حضر : لو اذنت لى سددت الكوة ، فقال : كانوا يكرهون فضول النظر • وكنا عنده يوما فاذا بفروه قد تمزق وخرج خمله فقال بعض من حضر : لو اذنت لى خيطته فقال : كانوا يكرهون فضول الكلام» (١٣٢) وبذلك يبدو ان داود الطائي اول شيخ يلتف حوله المریدون ويسمعون منه ويلغون عنه لاتعلما كما فعل هو بل مراقبة واخذنا عن اعماله مما سيكون منهجا للصوفية من بعده • وقد بقيت فى داود ظاهرة كوفية بارزة هى استجابهم طول النزاع ، وقد طال نزع داود (١٣٣) فدل ذلك على رضى الله عنه لان عذاب الدنيا ينقص من عذاب الآخرة • وبقيت فى داود ظاهرة اخرى من رواسب الزهد البسيط هى اتصال الزهد بالائمة ، فقد اوردنا فى تعرضنا للصادق ان داود طلب المشورة منه وقال له : يا ابن رسول الله انكم افضل الخلق والمشورة منكم واجبة (١٣٤) •

الفضيل بن عياض :

ويأتى الفضيل بن عياض ليزيد الزهد صلة بالتصوف الذى سيدأ عما قليل ، واصحاب السير الصوفية حائرون فى اصله ، فقوم يجعلونه مولودا فى سمرقند ناشئاً فى ابي ورد (١٣٦) وقوم يرون انه مصرى (١٣٧) وفريق جعله بخارى الاصل (١٣٨) وآخرون يعتبرونه من الكوفة (١٣٩) بل لقد رأوه عربيا تميميا (١٤٠) ولكنهم متفقون على انه مات بمكة سنة ١٨٧/٨٠٣ • وقصة

-
- (١٣٢ ، ١٣٣) صفة الصفوة ٣/٧٤
 - (١٣٤) تذكرة الاولياء ١/١٢
 - (١٣٥) طبقات الشعرائى ١/٥٨
 - (١٣٦) الرسالة القشيرية ٩
 - (١٣٧) الفهرست ٥٠٠
 - (١٣٨) نفعات الانس ٣٨
 - (١٣٩) نفعات الانس ٣٨
 - (١٤٠) صفة الصفوة ٢/١٥٤

توبته هي التي تفضح اصله وهي اسطورية من جنس القصص التي تروى عن توبة الخراسانيين التي يبدأ بعدها زهدهم • والتوبة جديدة على الزهد الكوفي بل لم نجدتها في الكوفة ولم يشر اليها احد ، وانما هو الزهد طول الحياة لان الجو مشبع بروحه ولم يكن عملا فرديا يقوم على مطالب الحياة المادية او الجنسية كما تعكس لنا قصة توبة الفضيل التي تروى انه « كان يعشق جارية ، فينا هو يرتقى الجدار اليها سمع تاليا يتلو القرآن : ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله (١٤١) ؟ ، فقال : يارب قد آن فرجع » (١٤٢) وصلت الفضيل بالكوفة آتية من انه نزلها في تجوله فسمع الحديث وانتقل الى مكة ومات بها سنة ١٨٧/٨٠٣ (١٤٣) وكان في الفضيل مظهر آخر لم يكن للكوفيين به عهد وذلك انه كان يغشى عليه عندما يسمع صفة النار (١٤٤) فان ذلك لم يصادفنا في الكوفة ، ولذلك فالفضيل زاهد خراساني يحمل صفات الزهد الخراساني ولكنه نزل الكوفة وتأثر بزهدها وصدر عن روح كوفية ممزوجة بهذه الروح الخراسانية المبالغة في الحساسية العاطفية حين قال : « لو خيرت ان اعيش كلبا ولا ارى يوم القيامة لاخترت ان اعيش كلبا وأموت كلبا ولا ارى يوم القيامة » (١٤٥) • وقد كان في الفضيل ولاية ظاهرة قرننها بحمل القرآن وتطلب من حامله الا « يكون له الى الخلق حاجة : لا الى الخلفاء فمن دونهم ، وينبغي ان تكون حوائج الخلق اليه » (١٤٦) وتلك ولاية تقرب من الامامة ، ولعله قد استفادها من الكوفة الشيعية • وهو

-
- (١٤١) الحديد ١٦ •
(١٤٢) الرسالة القشيرية ٩ •
(١٤٣) صفة الصفوة ٢/١٣٤ •
(١٥٤) راجع المشتبه في اسماء الرجال ، وميزان الاعتدال ٢/ ٣٢ •
(١٤٤) صفة الصفوة ٢/١٣٥ •
(١٤٥) حلية الاولياء ٨/٨٤ •
(١٤٦) حلية الاولياء ٨/٩٢ •

الذى روى احاديث «أزرى فيها على عثمان» (١٤٧) • وقد اعتذر البغدادي عنه بأنه « روى ما سمع ، فكان ماذا؟ » (١٤٨) •

ويتبين - بعد - هذا الفرق الظاهر بين الزهد الكوفي والخراساني معا رأينا طرفا منه عند الفضيل الذى بدا زهده مختلفا اختلافا ظاهرا عن زهد الكوفيين •

فرقد السبخي :

قبل ان ندخل فى تفاصيل زهد فرقد يهمننا ان نصحح خطأ طالما وقع فيه الباحثون ذلك انهم يلقبونه بالسبخي (بالتون والجيم) والواقع انه السبخي (بالباء والخاء) نسبة الى سبخة البصرة التى سكنها كما يخبرنا السمعاني (١٤٩) والفيروزابادي (١٥٠) وكما يضبطه ابن الجوزي (١٥١) والمناوى (١٥٢) وابن العماد (١٥٣) • اما البغدادي والذهبي فينسبانه الى سبخة الكوفة (١٥٤) يمثل فرقد ناحية اخرى من اصالة الزهد فى الكوفة فان نزوحه فى فجر زهده الى البصرة قد اثر فى زهده بحيث صبغه بالهجنة التى جاءته من بيئة البصرة المقلدة فقد انفرد فرقد من بين الكوفيين جميعا بتبنيه الاسرائيليات فى الزهد فكان يسرف فى رواية نصوص عن التوراة او عن بنى اسرائيل وربما تطرق الى ذكر المسيح ، وكان ذلك امرا عجيبا حقا • وكان حتى فى كلماته ونفسه غريبا ، فانه لم يعبر الا عن تفضيل الجوع اما باقى موضوعات الزهد فكان يسندها بالنصوص المستخرجة من الكتب المقدسة القديمة • والمشهور

-
- (١٤٧ ، ١٤٨) ميزان الاعتدال للذهبي ٣٣٤/٢ •
 - (١٤٩) الانساب (ظهر الورقة ٢٨٨) •
 - (١٥٠) القاموس المحيط ٢٦١/١ •
 - (١٥١) صفة الصفوة ١٩٥/٣ •
 - (١٥٢) الكواكب الدرية ١٤٧/١ •
 - (١٥٣) شذرات الذهب ١٨١/١ •

عندنا ان النبي(ص) قد قال : الجوع كافر ، اما فرقد السبخي فقد كان يقول :
 الشبع ابو الكفر^(١٥٥) فكان بذلك يعبر عن زهد صادر عن نسبة الفساد
 وخراب الذمم الى الغنى والشبع اللذين يورثان البطرو والكبر ، ويتضح من ذلك
 ان فرقدا لم يكن ذا صلة بالاحداث السياسية ، او لعله نظر اليها نظرة الى
 مورد للمال الحرام ولعل ذلك صحيح ولكن لم يبد من اقواله ما يشير الى اتصال
 زهده بالاحداث الحربية والعذاب الروحي اللذين كانا يستغرقان الكوفة . وذلك يعنى
 انه امضى معظم حياته فى البصرة مع كونه كوفى الاصل برواية الشعرانى
 والمناوى^(١٥٦) ، بل يبدو ان فرقدا كان يتحرز من التعبير الذاتى المباشر
 اما للخوف او لشك فى قدرته على التعبير وفضل التعبير غير المباشر ، فاستشهد لكل
 حالة امضته بنص من النصوص المقدسة القديمة . وذلك يدل على ان من
 المحتمل انه كان لا عربيا ولا فارسيا ولعله كان من انباط العراق بل ان السمعانى
 يخبرنا مصيبا كما يبدو ، بانه كان من اهل ارمينية^(١٥٧) . وقد مر بنا انه استشهد
 بنص روى عن النبي وعلى بن ابي طالب وزعم انه وارد فى التوراة وذلك هو : من
 اصبح حزينا على الدنيا اصبح ساخطا على ربه عز وجل ، ومن جالس غنيا
 فتضع له ذهب ثلثا دينه ، ومن اصابته مصيبة فشكا الى الناس فانه يشكو
 ربه^(١٥٨) ، وقد روى عن المسيح عليه السلام انه قال : « طوبى للناطق فى
 آذان قوم يسمعون كلامه . ما تصدق رجل بصدقة اعظم اجرا من موعظة قوم
 يصيرون بها الى الجنة »^(١٥٩) فكأنه هنا يشكو اعراض الناس عن سماع
 حديثه . ويخبرنا المناوى الى ذلك انه قد « شغله التعب عن حفظ
 الحديث »^(١٦٠) ولكنه لم يشغل عن حفظ احاديث السيد المسيح وقراءة

-
- الكواكب الدرية ١/١٤٧ (١٥٥)
 - طبقات الشعرانى ١/٣٢ (١٥٦)
 - الانساب : ظهر الورقة ٢٨٨ (١٥٧)
 - صفة الصفوة ٣/١٩٦ (١٥٨)
 - الكواكب الدرية ١/١٤٧ (١٥٩)
 - حلية الاولياء ١/١٤٧ (١٦٠)

التوراة والاقْتباس منها فكان من نتيجة ذلك ان «اعرض النقلة عن نقل حديثه» (١٦١) • وقد صنف فرقد الخطايا لامن نفسه ولكن من التوراة ايضا فقال : « في التوراة امهات الخطايا ثلاث : الكبر والحسد والحرص ، فنشأ من الثلاث ست فصارت تسعا : الشبع والثوم والراحة وحب المال وحب الجماع وحب الرياسة» (١٦٢) بل لقد كانت مواعظه لاخوانه البصريين منعكسة عن رؤى اسرائيلية يراها في المنام ، فقد كان يلوم البصريين ويقول لهم : « يا اشباه اليهود كونوا على حياء من الله ، فانكم لم تشكروا اذ اعطاكم ولم تصبروا حين بلاكم » (١٦٣) • وهكذا يضرب لنا فرقد السبخى مثالا واضحا في دخول الثقافة الى الزهد وطبعه بطابعها الخاص بحيث رأينا ان ينشغل عن رواية الحديث الذي كان شغل معاصريه الشاغل وينصرف الى رواية احاديث المسيح ونصوص التوراة • والغريب ان فرقدا صار من القلائل النادرين الذين اعتبروا عند المتصوفة من اصول التصوف ودخلوا في سلسله • ويبقى بعد ذلك ان نذكر انه توفي بالبصرة سنة ٧٤٨/٤٩ وقد اخبرنا ذكره لنين كيف كانت اصالة الكوفة نابعة من بيئتها ذات الطابع الخاص وكيف تبدد هذه الاصاله اذا تحول زاهد منها الى بيئة اخرى تغلب عليها الهجته والتقليد •

الفتوة الكوفية :

لقد كان من اثر الحروب والاضطهاد والروح العسكرية التي سادت الكوفة ان برز قوم من الزهاد بخلق الفرسان على صورة زهدية جوهريها التضحية المقرونة بالعاطفة الرقيقة والبعد عن الطمع المادى والانصراف الى الزهد والفقر • وقد ظهرت بوادر الخلق الذي ينسب الى الفتوة من سعيد ابن جبير الذي قتله الحجاج سنة ٧١٢/٩٤ ، وكان سعيد يقول : « لدغتنى

(١٦١-١٦٣) الكواكب الدرية ١/١٤٧ •

عقرب فاقسمت على امى ان استرقى فاعطيت الراقى يدى التى لم تلدغ وكرهت ان احتها» (١٦٤) • وسعيد بن جبير فى ذلك يعكس التوكل والرضى على اوضح صورهما ويضرب لنا مثلا واضحا - وان يكن بسيطا - على بذور الفتوة التى انشأتها ظروف الكوفة الحربية واساليب القمع التى انتشرت فيها • وظهر فى الكوفة مثل آخر على الفتوة التى انبتتها بيئتها ، وذلك ان ابراهيم التيمى الزاهد قد سلم نفسه لشرطة الحجاج على انه ابراهيم النخعى فحبس من اجل ذلك (١٦٥) ولم يقتصر الامر على امثلة تصيدها من اخبار الزهاد وانما يخبرنا ابن الجوزى بان اصحاب الفتوة قد كان لهم لباس مخصوص كما كان للقراء لباسهم ، ومن ذلك ان ابراهيم بن يزيد النخعى - الذى يضيفه ابن رسته الى قائمة الشيعة - (١٦٦) كان «يلبس الثوب المصبوغ بالزعفران وبالصففر وكان من يراه لا يدرى امن القراء هو ام من الفتيان» (١٦٧) وبذلك يتضح ان الفتوة كانت مبدءا جماعة محدودة فى الكوفة لها طابعها الخاص ولباسها المتميز ولا بد ان كان لها نظمها ومثلها وان تكن ساذجة بسيطة • ولعلنا - بهذا الخبر الوارد عن ابن الجوزى - نقدم اقدم نص يشير الى الفتوة الاسلامية بحسب ماسيكون لها من اتصال بالتصوف ، وليس ذلك على الكوفة بغريب • ولمعترض ان يلفت ذهننا الى ان موطن الفتوة خراسان لا الكوفة ، فالواقع ان ظروف الكوفة - على ما يبدو - هى المسؤولة عن ذلك • يضاف الى هذا أن امتزاجا تاما قد حصل بين سكان الكوفة وخراسان ، فكما كان بالكوفة حميرار الفرس كان فى خراسان كثير من العرب وهذا البلاذرى يحدثنا بان معاوية ارسل عددا كبيرا من عائلات الكوفة والبصرة الى خراسان واسكنهم فيها» (١٦٨) ويخبرنا ابن عبد ربه الاندلسى

(١٦٤) صفة الصفوة ٤٢/٣ •

(١٦٥) المصدر نفسه ٤٧/٣ •

(١٦٦) الاعلان النفيسة ٢١٩ •

(١٦٧) صفة الصفوة ٤ / ٣ •

(١٦٨) فتوح البلدان ٤١٠ •

ان الحجاج قد شتت الكوفيين فى البعوث والمغازى وكان يرى ان ذلك ادوى دواء لدائهم^(١٦٩) ، ويورد الشيخ البراقى ان الاشعريين هاجروا من الكوفة وتوطنوا قم بعد ان قتل الحجاج رئيسهم محمد بن السائب الاشعري^(١٧٠) ، ويزيد ولها وزن الامر وضوحا بان خراسان - ويعنى بهامرو - كانت موجهة من الكوفة^(١٧١) بالنسبة للدعاة الشيعة (يعنى العباسيين) وانه بعد عام ١٠٠/٧١٨-١٩ بزم من طويل ما فتىء الدعاة فى خراسان كوفيين فقط وهم تجار غرباء ، ويذكر ان العرب فى خراسان ذابوا فى المجتمع الخراسانى فلم يعودوا واضحين من بين الخراسانيين^(١٧٢) . ولكى ندلل على ما كان للكوفيين من أثر فى غيرهم من المسلمين نذكر ان قبائل برمتها قد هاجرت الى الشام احتجاجا على شتم عثمان ، ولكن معاوية - برغم ذلك - لم يدعهم فى الشام بل عزلهم فى الجزيرة مخافة افساد اهل الشام^(١٧٣) ، بل لقد اخرج الامويون كل عراقى وجدوه فى الحجاز وخذروا الحجازيين من ابواهم^(١٧٤) ، وبذلك يتضح ان نشوء الفتوة فى الكوفة ، وان كان تأثر بما كان فى خراسان منها ، كان للظروف السائدة فيها أثرها الكبير ايضا فى اخراجها الى حيز الوجود .

وبذلك نختم البحث فى الزهد الكوفى الذى خدم فكرة التصوف بظهور مبدأ التفكير فيه ، وكان الصوف الذى اشتق منه التصوف من ثمرات الزهد الكوفى ، وقد رأينا فكرة الولاية الكوفية التى نبعث من الامامة اولا

(١٦٩) العقد الفريد ١٧٩/٥ .

(١٧٠) تاريخ الكوفة ١٨٣ .

(١٧١) الدولة العربية وسقوطها ٤٠٦ .

(١٧٢) الدولة العربية وسقوطها ٣٩٠ .

(١٣) حركات الشيعة المتطرفين ٥١ .

(١٧٤) تاريخ اليعقوبى ٣٤/٣ .

وحرركات الغلاة ثانيا آتية من الكوفة ، بل لقد كانت فكرة الشيخ والمريد نابعة من البيئة الكوفية عن طريق داود الطائي ، ورأينا أخيرا ان الفتوة نشأت في الكوفة متأثرة بالظروف وبسبق الخراسانيين الذين خالطوا الكوفيين اليها .
لقد نبع كل ذلك من اللون الشيعي الذي كان يصبغ الكوفة ومن العاطفة الدينية التي كانت تستغرق الكوفيين . ويحسن بنا ان نختم فصل الزهد الكوفي بان « الزهري (محمد بن مسلم المتوفى سنة ١٢٤/٧٤١-٤٢) قارف ذنبا فاستوحش من الناس وهام على وجهه فقال له زيد بن علي : يا زهري ، لقنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء اشد عليك من ذنبك . فقال الزهري : الله اعلم حيث يجعل رسالته ، ورجع الى هله وماله واصحابه (١٧٥) .

(١٧٥) البيان والتبيين ٣/ ١٥١ .

الفصل الثاني

الزهد في البصرة

تمصير البصرة وبيئتها :

من النادر جدا ان يكون بين بلدين متقاربين في المكان والضمير والزمان ما كان بين البصرة والكوفة من اختلاف يكاد يكون تضادا . فقد مصرت البصرة والكوفة سنة ١٧/٦٣٨ بعد ان كاتنا معسكرين للجيش التي فتحت فارس ، وكما انشئت الكوفة على انقاض بابل والحيرة بنيت البصرة بالقرب من ميناء الابله القديم ^(١) ولكي نعرف مدى تأثير الابله - التي ورثتها البصرة - بالثقافات الاجنبية فعلينا ان نرجع الى معجم البلدان لنجد انها كانت تسمى بارض الهند ^(٢) . وكانت البصرة - من الناحية الادارية - مركز حكومة خراسان ايام الامويين ^(٣) ، وذلك يعنى ان الفرس كثيرا ما كانوا ينزلونها لقضاء شؤونهم التي تتصل بالسلطان ، والعاصمة - على كل حال - مرجع دائم ومستمر لقاطني البلدان التابعة لها ، ولعل هذه الحقيقة توضح لنا سببا قد يكون خافيا لتأثر البصرة بالثقافات والمثل الفارسية . وقد نقل الينا الجاحظ هذه الحقيقة على لسان ابي عمرو بن العلاء البصرى حين قال : «لنا دهاء الفرس واحلامهم» ^(٤) . وكانت البصرة الى ذلك تضم من العرب قبائل مضر بينما سكنت حمير الكوفة ^(٥) وهذا يعنى انه قد كان في البصرة اغلبية مضرية من عرب الشمال اما الكوفة فكانت اغليبتها من اليمن كما رأينا . وهذا

-
- (١) معجم البلدان ٢/٢٠١ .
 - (٢) المصدر نفسه ٢/١٩٦ .
 - (٣) تاريخ العرب ٢/٣٠٩ .
 - (٤) البيان والتبيين ٢/٨٩ .
 - (٥) امير على : مختصر تاريخ الاسلام ٦٦ .

يشرح لنا لماذا اتصفت الكوفة بالاصالة العربية والبصرة بالاختلاط والهجنة ، فقد كان اليمانيون على جانب من الحضارة اتاح لهم ان يتغلبوا على الآثار الواردة الى الكوفة من الحضارات الاجنبية وان يهضموها ، اما العنصر العربي الذي نزل البصرة فقد كان ضعيف الحضارة فقلبت عليه الثقافة الاجنبية التي قابلته في بيئته الجديدة • ويجب الا يفوتنا ان كون البصرة ميناء يستقبل كثيرا من الزوار والمتقنين والتجار قد اسهم في ذلك ، ولا بد ان يكون لهؤلاء دور واثر في بيئة البصرة لتقبل كل جديد • ومما يزيد هذا وضوحا ان الاتجاه القبلي الجاهلي كان قانون القبائل النازلة في الكوفة والبصرة وان اتباع كل شيخ قبيلة كانوا يطيعونه في الحرب والسلم طاعة عمياء كما يرى الاستاذ احمد امين^(٦) • واذا اضفنا الى هذه الحقيقة ان القبائل الكوفية قد اتجهت وجهة عاطفية شيعية وان نصرة هذا المذهب قد استغرقته وأن البصرة لم تكن ميالة الى تبني المذاهب العاطفية والافكار الدينية عرفنا لماذا كانت الكوفة اصيلة والبصرة جامعة للاختلاط والاشتات • وقد اسهم كل ما ذكرناه في شيء آخر اصاب البصرة خيره وشح على الكوفة ، فان الاخيرة قد تأخرت في التحضير عن البصرة التي « بنيت دورها ومساكنها باللبن والآجر قبل الكوفة بزمن ، وكانت دساكرها السبع القديمة مأهولة وذات منازل ثابتة من قبل »^(٧) وبناء على هذا ونظرا لان البصرة قد قامت على تخوم فارس ، فقد « نشأت فيها دراسات اللغة العربية ومنها اصول الصرف والنحو ، وذلك - بالاكتر - لتعليم الاعاجم انداخلين في الاسلام • على ان بعض هؤلاء اصبح - فيما بعد - من مدرسي هذه العلوم وحملتها • وانما دفع الاعاجم الى العربية اولا رغبتهم في ان يدرسوا القرآن ويشغلوا المناصب الادارية ويخاطبوا الفاتحين بلغتهم ••• واذن فليس صدفة ان يظهر في البصرة اول واضع للنحو العربي - على قول الرواة - وهو ابو الاسود الدؤلي المتوفى سنة ٤٩ هـ

(٦) فجر الاسلام ٢٢٩ •

(٧) خطط الكوفة ١٠ •

٦٨٨م» (٨) • ويؤيد ذلك ان موسى بن سيار الاسوارى « كان اذا جلس مجلسه لتفسير القرآن فسر للعرب بالعربية وللذين من دماء فارسية بالفارسية» (٩) • ويخبرنا دى بور ان « سبق اهل البصرة بالانتفاع بالمنطق لم يكن محض صدفة لان تأثير المذاهب الفلسفية ظهر فى البصرة قبل ظهوره فى غيرها ، وكان بين نحاة البصرة كثير من الشيعة والمعتزلة الذين افسحوا السبيل للحكمة الاجنبية لكى تؤثر فى مذاهبهم الكلامية» (١٠) وبهذا صارت البصرة كأنها «عجوز شمطاء ذفراء اوتيت من كل حلج» (١١) كما وصفها الحجاج من قديم بينما كانت الكوفة «شابة حسناء جميلة لاحلى عليها ولا زينة» (١٢) ، ومن الانصاف ان نذكر لها انها مازالت كذلك حتى الان بالنسبة للعلوم العربية والاتجاه العربى بالرغم من كثرة من يتعلم فيها من المرس ويعلم •

ويجدر بنا قبل الخوض فى زهد البصرة ان نبين تهافت الزعم القائل بان البصرة كانت عثمانية معادية للشيعة على اطلاقها ، وقد رأينا الاخنف بن عيس المتوفى فى ولاية مصعب بن الزبير فى الكوفة يعتزل فى معركة الجمل مع عشرة آلاف مقاتل حتى هزم على بن ابي طالب البصريين ثم دخل فى بيعته (١٣) • بل لقد كان الجيش البصرى ثلاث فرق : فرقة مع طلحة والزبير وفرقة مع على ، وفرقة لاترى القتال مع أحد الفريقين (١٤) ، وكانت قبيلة عبد القيس فى البصرة شيعية (١٥) • وقد رأينا ان ابراهيم بن عبدالله

(٨) تاريخ العرب ٣٠٩/٢ •

(٩) حركات الشيعة المتطرفين ٢٠٩ •

(١٠) تاريخ الفلسفة الاسلامية ٣٩ •

(١١ ، ١٢) مروج الذهب ١٤٨/٢ •

(١٣) تاريخ الطبرى ١٩٧/٥ •

(١٤) المصدر نفسه ٢٠١/٥ •

(١٥) خطط الكوفة ٣٨ •

ابن الحسن قد ثار في البصرة وهو من الائمة الزيديين ويدهشنا ابو الفرج
 الاصفهاني بروايته ان ديوان ابراهيم قد احصى من اهل البصرة مائة الف
 رجل^(١٦) . ويخبرنا الجاحظ ان بشار (بن برد) « كان يدين بالرجعة »^(١٧)
 وهي من مبادئ الشيعة كما مر بنا . ولكن لا يستطيع احد ان ينكر عثمانية
 البصرة وسنتها الغالبة من ان اهلها « كانوا ينكرون بكل جرأة ووقاحة الخلاف
 بين الصحابة »^(١٨) كما قول ماسينيون ولكنها « انقلبت شيمية منذ القرن
 الخامس الهجري »^(١٨) .

اسس الزهد في البصرة :

لقد كانت الحياة في البصرة رحية سهلة ، قال فتى من اهل المدينة دخل
 البصرة في وصفها لاصحابه : « خير البلاد للجائع والغريب والمفلس » وراجع
 تفصيل ذلك في معجم البلدان^(١٩) ، وكانت التجارة فيها مجزية رابحة كما
 اتفق عليه سائر المؤرخين ونعل هذا هو السبب في فخر البصريين « بانهم
 اكثر اموالا واولادا واطوع للسلطان »^(٢٠) فقد كانت البصرة هادئة اذا
 قيست بالكوفة وقد رأيناها تشارك في قتال على ثم سكتت حتى نصرت حفيدا
 له من بعد ثم رأينا حوادث الخوارج تخرج منها شأن باقي اجزاء العالم
 الاسلامي . وقد ظهر الزهد في البصرة قويا نشيطا ، والنظرة الفاحصة اليه
 ترجعه الى نوع من يقظة الضمير على تخلفها عن المشاركة في احقاق الحق
 وازهاق الباطل وانصرافها الى الربح والتجارة واللهو ، وتلك علة الخوف
 البصري كما سنرى كما كان علة الخوف الكوفي الذي كمن في امتلاء القلب

(١٦) مقاتل الطالبين وكذلك ابن الاثير ٢١١/٥ (مصر ١٣٠٣) .

(١٧) الاغانى ٢٤/٣ .

(١٨) خطط الكوفة ١٤ .

(١٩) معجم البلدان ٢٠٢/٢ .

(٢٠) ضحى الاسلام ٧٨/٢ .

بالايمان بمثل تفصر اليد عن تحقيقها ، فظاهرة الخوف املتها مؤثرات شيعية ولا ريب • ثم ادى هذا الرخاء وضعف العقيدة الدينية او تمييعها على الاقل الى الانحلال الخلقى الذى اوضحه زياد فى خطبته بقوله : « ما هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر » (٢١) ، و اشار الحسن البصرى ايضا الى الشذوذ الجنىسى الذى كان منتشرًا فى البصرة (٢٢) • وقد اشار زياد كذلك الى حدث احدثته البصرة فى الاسلام وذلك تركهم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله» (٢٣) وسبب ذلك « ان السلطان فى البصرة كان بيد القبائل لا بيد الحكومة وبما ان هذه القبائل لم تكن موحدة وكانت دوما منهمكة بالا يفوتها نفع فانا نستطيع ان نتصور نتائج ذلك» (٢٤) • ومما زاد الامر صعوبة انه لم يكن لدى البصريين الا مثل فردية تتركز فى الطمع الشخصى دون سند من عقيدة دينية او مثل اعلى لا كما كان الامر فى الكوفة ، ومن المعلوم ان العرب كانوا يأتفون من الحرف والصناعات والزراعة وكان الفنى بالنسبة اليهم يعنى الغارات وما يجنونه من الحروب • وهكذا صار رخاء البصرة بلاء نبه الناس الى الشقاء الذى يعانونه بالاضافة الى الكسل الدينى الذى كان سائدا فيها • وبينما وجدنا فى الكوفة فتوة وفتيانا من الزهاد يضحون بانفسهم فى سبيل المنل العليا ولهم لباس خاص ، فاتا تقابل فى البصرة طبقة مقابلة للفتيان - لم يلتفت اليها الباحثون - هى طبقة السفهاء الذين اسهموا فى اذكاء القتال فى حرب الجمل وكان انصار على يوحون اليه ان جيش البصرة هين لأن مادته السفهاء» (٢٥) • وقد اكد لنا زياد فى خطبته هذه الحقيقة فاشار

(٢١) البيان والتبيين ٤٨/٢ •

(٢٢) حلية الاولياء ١٨٦/٦ •

(٢٣) البيان والتبيين ٤٨/٢ •

(٢٤) الدولة العربية وسقوطها ٩٢ •

(٢٥) تاريخ الطبرى ٢٢١/٦ •

الى هؤلاء فى ثلاثة مواضع من خطبته (٢٦) ويبدو ان هؤلاء هم خلف الفتوة الجاهلية كما سيتبين لنا جوهرها فى فصل مقبل • وقد وصف على البصرة لعبدالله بن عباس بقوله : « اعلم ان البصرة مهبط ابليس ومغرس الفتن فحدث اهلها بالاحسان اليهم واحلل عقدة الخوف عن قلوبهم » (٢٧) • وبذلك يتضح اساس من اساس الزهد البصرى آت من ظروفها الاقتصادية والاجتماعية واستعلاء المثل القبلية فيها • ومن المهم ان نستعين برأى الزهاد انفسهم فى هذا المجال فننقل تحليل احدهم ذلك بقوله : « ضعف الناس والذنوب والشيطان » (٢٨) وقول ابراهيم بن ادهم : « عرفتم الله ولم تؤدوا حقه ، وقرأتم كتاب الله ولم تعملوا به وادعيتم حب رسول الله (ص) وتركتم سنته وادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه وقتلتم : نجب الجنة ولم تعملوا لها ، وقتلتم : نخاف النار ورهنتم انفسكم بها ••• » (٢٩) ويضيف ابو طالب المكي الى ذلك سببا آخر هو البلبلة العقلية وانتشار المذاهب الكلامية وتشعبها فى البصرة فادى ذلك الى الزهد فهرب الناس « من الافن والاغترار » (٣٠) •

ويأتى اساس اخر للزهد من العنصر الثانى الذى كان ينزلها ، اولئك هم الفرس الذين كان بعض سراهم يحتفظون بتقاليدهم الفارسية فى الترف الذى ناه عليهم الحسن البصرى (٣١) وليس هذا - فى حد ذاته - مدعاة للزهد ، ولكن الذى يورث هذا الاثر هو ان الزهد كان معروف فى فارس قبل ذلك وكان منتشرا الى حد ان المسعودى يذكر - فى معرض بطولة ابى محجن

(٢٦) البيان والتبيين ٢/٤٧-٨

(٢٧) نهج البلاغة ٣/٢٠ •

(٢٨) حلية الاولياء ٦/٣١٠ •

(٢٩) المصدر نفسه ٦/١٦ •

(٣٠) قوت القلوب ٢/١٥٤ •

(٣١) حركات الشيعة المتطرفين ٢٠٩ •

الثقفي في القادسية انه «قتل رجالا كثيرا من نساكهم» (٣٢) . وهاتان الحقيقتان تؤلفان مقدمة ونتيجة تتصلان بالزهد الفارسي الذي انتقل الى البصرة بعلمته وبعنصره كليهما ولم يكن بسيطا كالزهد الكوفي وانما كانت له اصول ومثل نبذوا للدارس الذي لا يلم بالبصرة وظروفها مفاجئة ليس لها داع كفكرة الحب والامتناع عن دخول الحمام واطالة الشعر مما لا يناسب تقاليد الاسلام التي كان الزهاد القدماء احرص عليها من سائر المسلمين في الكوفة وسرى ذلك في هذا الفصل .

وكما كان في الكوفة طرازان من الزهد احدهما ينبع من الاسلام والاخر ينبثق من الظروف المحيطة بالمصر ، كذلك كان في البصرة زهدان اسلامي ومحلي وستتطرق الى كل منهما فيما يلي :

الزهد الاسلامي :

لقد مر بنا ان الاسلام في جوهره انما هو تغليب لمظهر مادته من الفقراء والمستضعفين وانه انما التزم ذلك بالحفاظ على مثله من ان تبيد بفعل اصحاب الاموال والجاه والسلطان ممن جاء الاسلام للقضاء عليهم ، فكان من ذلك بساطة اللباس وخشونة الطعام ورقة العاطفة والاندفاع الى الدفاع عن مبادئ الاسلام بكل حمية وشجاعة واخلاص . فلما غلبت على البصرة مثل غير اسلامية استشعر المشركون بروح الاسلام الانجاة لهم الا بالاصرار على السلبية والاندفاع الى التطرف في الزهد والبكاء وتعذيب النفس جزاء عجزها عن تغيير ماجد من اخطار تكاد تطيح بالاسلام ، فوجدنا قوما من جنس سعد بن ابي وقاص وعبدالله بن عمر وزملائهما في مكة ومثل الربيع بن خثيم في الكوفة ، ذلك هو الاحنف بن قيس الذي اعتزل جيش البصرة في

(٣٢) مروج الذهب ١/٤٢٣ .

الجمل (٣٣) ، وكذا الاخنف «يجيء الى المنصباح فيضع اصبعه فيه ثم يقول :
 حس» (٣٤) . وتلك بداية بصرية للمجاهدة وصلتها بالشعور بالاثم والخوف من عذاب
 الآخرة واضحة . وكان عامر بن عبدالله بن (عبد قيس) من بنى تميم
 صاحب مجاهدة ايضا وكان يقول لنفسه : « قومي يا مأوى كل سوء ، فوعزة
 ربك لا زحفن بك زحوف البعير ، لئن استطعت الا يمس الارض من زهمتك
 لافعلن . ثم يتلوى كما تتلوى الحبة على المقل ، ثم يقوم فينادى : اللهم ان
 النار قد منعتنى من النوم فاغفر لى » (٣٥) . ولم يكن عامر بذلك بل حاول
 ان ينحو منحى الرهبان من الامتناع عن ملامسة النساء ولكنه لم يجعل ذلك له
 منهجا وانما قصر رغبته على دعوته لله ان «ينزع شهوة النساء عن قلبه» (٣٦) .
 وكان عامر يعبر عن حيرة البصريين تعبيراً بديعاً بقوله : « اللهم فى الدنيا الهموم
 والاحزان وفى الآخرة العذاب والحساب ، فاين الروح والفرح » (٣٧) فكان
 بذلك يفتح عن العذاب الذى كان يعانىه فى دنياه البصرية من ظلم وفساد
 وضعف عقيدة وبعد عن المثل الاسلامية وتغليب للمصلحة الشخصية وعبث
 بمال الغير وعرضه ، فكان يدفع الهموم والاحزان عن نفسه بآيات
 يطيل ترديدها يكمن فيها جوهر الزهد البصرى ، وكان تأثيرها فيه انه - اذا
 ذكرهن - « لم يبالي بعلام اصبح او امسى » (٣٨) والآيات : « ما يفتح الله للناس
 من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده » (٣٩) ، و :
 « ان يمسك الله بضر فلا كاشف له الا هو » (٤٠) و : « سيجعل الله بعد عسر

-
- (٣٣) تاريخ الطبرى ١٩٧/٥ .
 (٣٤) صفة الصفوة ١٢٤/٣ .
 (٣٥) صفة الصفوة ١٢٦/٣ .
 (٣٦) المصدر نفسه ١٣١/٣ .
 (٣٧) المصدر نفسه ١٢٦/٣ .
 (٣٨) صفة الصفوة ١٣١/٣ .
 (٣٩) فاطر : ٢ .
 (٤٠) الانعام : ١٧ .

يسرا» (٤١) و : « وما من دابة الا على الله رزقها » (٤٢) وهذه آيات تمثل التوكل والرضى باجلى مظاهرها مما سيكون لهما شأن فى تكوين العقيدة الصوفية • وهذا يعنى ان اليأس قد ادى بعامر الى التسليم المطلق لقدرة الله وارادته وتصرفه فى هذه الامة التى طفح بها كيل الذنوب فكان انه « صلى يوما فدخلت حية من ذيله وخرجت من جيبه فقيل له : لم لاتنجيها ؟ قال : والله ما اعلم بها حين تدخل ولا حين تخرج ، واني لأستحيى من الله ان اخاف غيره » (٤٣) فجمع - بذلك - الى التوكل والرضى المجاهدة الشديدة والاتجاه المطلق الى الله وحده • ونظرة الى سيرة عامر تجعله شبيها بالشيعة الاوائل ولعله كان واحدا منهم ، فقد نفاه عثمان من البصرة الى الشام لانه « كان شديدا فى الامر بالمعروف » (٤٤) فيكون عامر صنو أبى ذر فى العمل والجزاء ولعله كان شبيها له فى الروح • وقد يعترض معترض بان معارضة عثمان لاتعنى التشيع ، ولكن الواقع ان البصرة فى الاغلب الاعم عثمانية اى رأى من يطبع دون مناقشة وان كان فى الطاعة اهدار للمثل الاسلامية ، فاعتراض عامر على عثمان - وروى ابن قتيبة ما يفيد معارضته له - (٤٥) يضيفه الى زملائه ممن اصابتهم نقمته كأبى ذر وعمار بن ياسر اللذين كانا من اوائل الشيعة وبذلك يمكن اضافة عامر الى التشيع ولو باتفاق الميل والمشرب • وكان عامر الى ذلك اول من قال بالحب وسنرى ذلك فى الشطر الثانى من زهد البصرة النابع من بيئتها •

الحسن البصرى :

وكان الحسن البصرى الذى يعتبره جولد تسيهر مؤسساً لمدرسة البصرة

-
- (٤١) الطلاق : ٧
(٤٢) هود : ٦ •
(٤٣) الكواكب الدرية ١/١٢٨ •
(٤٤) الكواكب الدرية ١/١٢٩ •
(٤٥) عيون الاخبار ٢/٢٧٠ •

في الزهد والتصوف^(٤٦) زاهدا آخر صدر عن روح الاسلام كما فعل عامر، ولم يختلط زهده بالزيادات التي حتمتها الظروف الا بالقدر الذي لامندوحة عن التأثير به . وقد كان الحسن البصرى من مواليد المدينة سنة ٦٤٢/٢٢-٤٣ وكان ابوه من سبى ميسان^(٤٧) وهى بليدة باسفل البصرة^(٤٨) وكانت امه مولاة لام سلمة زوج النبي (ص)^(٤٩) ، ويقال انه ولد على الرق^(٥٠) . والمهم في ذلك كله ان الحسن قد نشأ في المدينة ولم يقصد اليها من فارس كغيره من الزهاد الموالى في البصرة ، فزهده نابع من الاسلام ومن بيت الرسول وهذا هو ملاك ما يرد اليه زهده وهو الذي اسبغ عليه - عند الشيعة - أهمية قصوى . يضاف الى ذلك انه عاصر الخمسة الاولين من أئمة الامامية ومات سنة ١١٠/٧٢٨-٢٩ أى في حياة الامام الخامس محمد الباقر . وقد ذكر فيه فليب حتى انه «قد تغذت الصوفية طوال الاجيال بآثار زهده وتقاه ، اما اهل السنة فيتأقلون عنه الحكم والاقوال الرشيدة كما ان المعتزلة تحسبه منها»^(٥١) ، ويرى ابو طالب المكي ان كلامه « يشبه كلام رسول الله »^(٥٢) وقد نظر ابو طالب الى صدور الحسن البصرى عن مثل الاسلام الاول في زهده وعلل ذلك بمخالطته للصحابة^(٥٣) . والواقع ان الشبه قائم بين الحسن البصرى وعلى بن ابي طالب لا النبي(ص) لانه (ص) لم يكن زاهدا بالمعنى الذى صدر عن الحسن والصحابة ، ووجه الشبه بين الحسن البصرى وعلى انهما كانا غاية في الزهد وان الحسن كان يندمج على علم الباطن اخذا

(٤٦) في التصوف الاسلامى ٤٦ .

(٤٧) الفهرست ٣٥٤ .

(٤٨) روضات الجنات ٢٠٨ .

(٤٩) ابن سعد ٧ : ١١٤/١ ولم يؤكد ابن سعد الخبر وانما قال : «يقال» .

(٥٠) الفهرست ٣٥٤ .

(٥١) تاريخ العرب ٣١١/٢ .

(٥٢ ، ٥٣) قوت القلوب ٢٢/٢ .

عن حذيفة صاحب سر الرسول (٥٤) ، بل ان فريد الدين العطار يروى ان الحسن « شرب في طفولته من جرة النبي في بيت ام سلمة ، فقال الرسول عليه السلام : من شرب هذا الماء؟ قيل : الحسن . فقال : سيسرى اليه من علمي بقدر ما شرب من الماء» (٥٥) وقد التفت العطار الى هذه الصلة التي لاحظناها بين الحسن وعنى فقال : « وكانت ارادته مرتبطة بعلى واخذ العلوم والطريقة عنه» (٥٦) وبذلك يتبين ان الحسن يشبه عليا في العلم لا لانه قد تعلمه وانما اخذه عن النبي كما يتلقاه اى امام شيعى من جده بالوراثة الروحية وذلك أمر يصل الحسن البصرى بالامامة الشيعية التي لم يكن للبصريين بها عهد . وينبغي ان نلاحظ ان حذيفة الذى سرى منه العلم الى الحسن قد كان متصلا بعلى بن ابي طالب وان العلم السرى كان خاصا بعلى نفسه اما حذيفة فقد كان علمه محدودا يختص بمعرفة المنافقين فقط . ويتبين وصل الصوفية للحسن بعلى - وهذا هو الهدف الذى سنيته - من انه نقل عنه قوله فى على : « لقد فقدوه سهما من مرامز طيب» (٥٧) ولما سئل عما رمى به من لومه عليا على الخروج قال : « كلمة باطل حققت بها دما وعدد لمعاوية اربع صفات موبقات» (٥٨) وورد عنه عطفه - على الأقل - على العلويين فى قوله : « لو كنت ممن رضى بقتل الحسين رضى الله عنه ، وعرضت علي الجنة ما قبلتها حياء من المصطفى (ص)» (٥٩) .

وبعد هذا كله يجب علينا ان نصرح بان شخصية الحسن البصرى قد نسجت - عند المتصوفة - على مثال شخصية على فنسبوا اليه نشأته فى بيت النبوة وتلك صفة على ، ونسبوا اليه الاطلاع على الاسرار الدينية وعلم الباطن،

(٥٤) التعرف ٥٩ .

(٥٥ ، ٥٦) تذكرة الاولياء ٢٢/١ ترجمة .

(٥٧) حلية الاولياء ٨٤/١ .

(٥٨) ابن الاثير ١٩٣/٣ .

(٥٩) الكواكب الدرية ٩٧/١ .

وتلك صفة اخرى لعللي وكان الحسن البصرى يعبر عن زهده تعبيراً فيه حكمة وجمال وعمق كما كان يفعل على - ولعل هذا هو الاصل فى هذا التشابه - وقد سمي الحسن بسيد الفتيان (٦٠) وقد قيل فى على : « لافى الا على » (٦١) ، بل لقد نسبوا الى الحسن ان عرض رنده كان شبرا (٦٢) ليلحقوه بعلى حتى فى التكوين الجسمى .

اما بعد فيحسن بنا ان نذكر انه قد عز على الحسن البصرى شىء واحد هو النسب العربى الذى احس كل اصحاب الكتب التى عرضت لسيرة الحسن البصرى باثره فى الاقلاق من السمو الذى ارتفع اليه هذا الزاهد فكلهم نسبه الى نفسه فقالوا الحسن بن ابى الحسن مع ان اياه هو يسار (٦٣)

وقد كان الحسن ذا عاطفة وحساسية تابعتين من تعمق فى الصدور عن الاسلام فكان زهده اسلامياً صادراً عن جوهر المثل الاسلامى دون خروج بالزهة الى نمط جديد يختلف عما عكسه المسلمون الاوائل ، وكل ماجد فيه هو المبالغة فى الحزن والعبادة تتجاوبا مع الظروف الجديدة فكان - فى حزنه - « اذا اقبل فكأنما اقبل من دفن حميمه ، واذا جلس فكأنه اسير قد امر بضرب عنقه ، وكان اذا ذكرت النار عنده فكأنها لم تخلق الا له » (٦٤) . ومن هنا قال « رحم الله رجلاً خلا بكتاب الله فعرض عليه نفسه ، فان وافقه حمد الله وسأله الزيادة من فضله ، وان خالفه اعتب واناب » (٦٥) ، وكان يقول : « طول الحزن فى الدنيا تلقيح العمل الصالح » (٦٦) وعلل حزنه بان المؤمن

(٦٠) المصدر نفسه ١/٩٩ .

(٦١) محاضرة الاوائل ٣٧ .

(٦٢) وفيات الاعيان ١/٣٥٤ .

(٦٣) ابن سعد ٧ : ١/١١٤ ، مروج الذهب ٢/١٦٣ ، امالى المرتضى ١/١٠٦ .

(٦٤) البيان والتبيين ٣/١٥٤ .

(٦٥) المصدر نفسه ٣/١٢٠ .

(٦٦) مجموعة نصوص تتعلق بالتصوف ٢ .

« لا يسعه غير ذلك لانه بين مخافتين : بين ذنب قد مضى لا يدري ما الله يصنع فيه وبين اجل قد بقى لا يدري ما يصيب فيه من المهالك » (٦٧) وانه « لا يؤمن عبد بهذا القرآن الا حزن وذبل والا نصب والا ذاب والاتعب » (٦٨) . وقد كان الحسن يصدر عن نفس اسلامية اصيلة حين اجاب على سؤال من استفهم عن سبب بكائه : « اخاف ان يطرحنى غدا فى النار ولايالى » (٦٩) فخرج بذلك عن الاختيار والجبر ونفى ان يتحكم احدهما دون الاخر فعل أئمة الشيعة .

وقد كان الحسن - الى ذلك - يلبس الصوف (٧٠) فعل الكوفيين وقد رأيناه يصدر عن روحهم ، فيتضح بذلك انه كان نسخة بصرية فارسية من الامام علي ولم يختلف عنه الا فى شىء واحد هو ايثار السلم ولعل ذلك لا يدخل فى باب الاختلاف ايضا لان عليا كان يؤثر السلم ايام كانت المقاليد بيد غيره فكان ينصح للخلفاء ويطيعهم ، فلما تقيد بالخلافة ورأى ان لا سبيل الى الاصلاح الا بما فعل الرسول (ص) مع المكيين ، عندئذ سل سيفه ، وسرى ان الصوفية قد جعلوا سيفه شيئا روحانيا الهيا ينبعث منه الحق والعدل . اما الخلاف الاخر فهو كون الحسن فارسيا ، وقد حاول كل الذين رووا سيرته سواء اكانوا عامدين ام غافلين ان ينفوا عنه ما يشير الى الفارسية فلم ينسبوه الى ابيه يسار بل نسبوه الى نفسه فقالوا دائما : الحسن كما مر بنا . وهذه المكانة السامية التى احتلها الحسن هى التى وصلته بعلى حتى رأيناه يوصل بسلسلة معروف فى اسناد الخرقه ، « وقد اخذها معروف عن داود الطائى - وهو كوفى كما رأينا - وهذا عن حبيب العجمى - الذى سيرد ذكره - وهذا عن

(٦٧ ، ٦٨) حلية الاولياء ٢ / ١٣٢ .

(٦٩) صفة الصفوة ٣ / ١٧٥ .

(٧٠) الكواكب الدرية ١ / ٩٩ .

سيد التابعين الحسن البصرى عن علي عليه السلام عن رسول الله (ص)» (٧١)
وقد عزز الحاج معصوم على ذلك بإيراده - فى السلسلة الكميلىة الصوفية - ان
نسبة الخرقه متصله بالنبي « البسها عليا فالبسها الحسن البصرى وكميل
ابن زياد» (٧٢) وهكذا نجد الاصول الشيعية فى الزهد البصرى كما
وجدناها فى الزهد الكوفى • ويجب ان نلتفت هنا اننا سنقابل التصوف فى
بعض اصوله موازيا للتشيع لا متصلا به مباشرة كما مر بنا من موازاة شخصية
الحسن البصرى لشخصية الامام علي وكما انتبهنا الى الشبه القائم بين عمر
ابن عبدالعزيز وعلي ايضا • •

وما دنا بصدد الخوف ومدرسته فيجب ان نشير الى ان بصريا آخر كان
يصدر عن نفس اسلامية اصيلة فى الخوف الزهدى وقد قال ذلك البصرى
وهو هرم بن حيان - الذى كان عاملا لعمر بن الخطاب - : «لوددت انى
شجرة من هذه الشجر اكلتنى هذه الراحلة ثم قذفتنى بعسرا ولم اكابد
الحساب» (٧٣) وذلك يذكرونا بقول النبي (ص) الذى ينسب - على
الصحيح - الى ابي ذر : «لوددت انى شجرة تعضد» (٧٤) • ثم وجدنا الخوف
يتطور والتجاوب له يتطور ايضا الى احد ان بهز بن حكيم - من طبقة
الحسن البصرى - خرميتا لما سمع الاية : فاذا نقر فى الناقور (٧٥) • ثم بدأ
البكاء ينفصل عن سماع ايات القرآن وصار مجاهدة ملازمة للزهاد فرأينا
عطاء السليمى الذى روى عنه ابراهيم بن ادهم انه كان «يمس جسده بالليل خوفا

-
- (٧١) طبقات الاطباء ٢٥٠ •
(٧٢) طرائق الحقائق ٣٩/٢ •
(٧٣) صفة الصفوة ١٣٧/٣ •
(٧٤) اللمع ٣٧٨ •
(٧٥) صفة الصفوة ١٥٢/٣ ، المدثر : ٨ •

من ذنوبه مخافة ان يكون مسخ « (٧٦) ولقينا هشام بن أبي عبدالله (وهو الاسم الاسلامى الذى اختاره لنفسه سنبر الدستوائى المتوفى سنة ١٥٣) قد اظلم بصره لطول البكاء » (٧٧) وشعبة بن الحجاج « قد جف جلده على عظمه ليس بينهما لحم » (٧٨) ثم اذا بلغنا نهاية القرن الثانى صادفنا رياح بن عمرو القيسى المتوفى سنة ١٩٨/١١٣-١٤ الذى « كان له غل من حديد قد اتخذه ، وكان اذا جنه الليل وضعه فى عنقه وجعل يبكى ويتضرع حتى يصبح » (٧٩) بل لقد بلغ من اندفاع بعض زهاد البصرة الى المجاهدة ان رأينا مالك بن دينار المتوفى سنة ١٣١/٧٤٨-٤٩ يتمنى لو استطاع ان يصطنع المجاهدة حتى بعد موته وذلك بان يغل بالحديد بعد وفاته « فادفع الى ربى مغلولا كما يدفع العبد الابق الى مولاه » (٨٠) . وهكذا تنتهى الى ان البصرة قد كانت موطناً للشعور بغساد الارض فكان الزهاد - احساسا منهم بهذه الظروف السيئة التى حاقت بالمجتمع الاسلامى وعجزا عن تداركها واصلاحها - قد انزوى كثير منهم فى عقر داره أو فى سرداب يخلو فيه (٨١) كما فعل عبدالعزيز الراسبى معاصر رابعة العدوية . ويحسن بنا فى ختام بحثنا للزهد التقليدى فى البصرة ان نذكر بان الزهاد فى البصرة قد اتخذوا البكاء والمجاهدة علامة لهم تعكسها مدرسة لها رئيس هو الحسن البصرى ، ومما يذكر ايضا ان المجتمع البصرى الذى كان مليئا بالخطايا والذنوب هو الاساس البارز لهذا المشرب فيها .

مظاهر الزهد البصرى الجديدة :

لقد استطاعت البصرة ان تشكل زهداها التابع من انعكاسات المجتمع على الزهاد باشكال تختلف باختلاف النفسية والاستجابة ، وقد رأينا البكاء

-
- (٧٦) ، (٧٧) صفة الصفوة ٢٤٦/٣ ، ٢٦٢/٣ .
 - (٧٨) صفة الصفوة ٢٦٣/٣ .
 - (٧٩) صفة الصفوة ٢٦٣/٣ .
 - (٧٩) صفة الصفوة ٢٨٠/٣ .
 - (٨٠) طبقات الشعرائى ٣٢/١ .
 - (٨١) حلية الاولياء ٢٤٥/٦ .

والخوف فى الصفحات الماضية بحسبانهما صادرين من جوهر المثل
الاسلامية التى اهدرت فى البصرة ، وسرى فى هذا الفصل شكلا اخر من
الزهد يتمثل فى الحب المضاد للبكاء والخوف ، ونعقب على ذلك بالتعرض
للعواظ الذين احترفوا الالبكاء •

الحب :

من الملاحظ ان البصرة وحدها هى التى استطاعت تطوير الخوف الى
الحب ، والسبب فى ذلك ان جوها لم يكن كجو الكوفة مليئا بغبار المعارك
التى ادت الى عكس ما كان الكوفيون يتطلعون اليه ، فلم يستطع الكوفيون
الخروج الى الحب لانهم كانوا يحسون بثقل الاثم الذى يعانونه ، بل لقد
رأوا شدة النزاع دليلا على الرحمة • اما البصريون فقد كانت ذنوبهم فردية
لاتصل بخيانة المبادئ او بالكبائر المتصلة بالمثل العليا ولهذا استطاع بعضهم
ان يقطع المسافة بين الخوف والحب فى مدة يسيرة قضيت فى التكفير السريع
عن السيئات التى بدت - اذا ما قيست بمثيلاتها فى الكوفة - هينة • يضاف الى
ذلك ان الكوفيين - فى تشيعهم - كانوا يصدرون عن حب عميق لاهل البيت
فلم يستطيعوا ان يفسلوه عنهم ويرتفعوا به الى الله على عكس البصريين
الذين لم يكن لهم ارتباط بامام يفترض فى اتباعه ان يكونوا له الحب الخالص
باعتباره جزء لا يتجزأ من صلب العقيدة •

المحبون :

وكان عامر بن عبدالله بن عبد قيس هو اول زاهد استطاع ان يتخلص من احزانه
وهومومه بالاتجاه الى الله بالحب فقد كان يقول : « احببت الله جبا سهل على كل
مصيبة ورضاني بكل قضية ، فما ابالى - مع حبي اياه - ما اصبحت عليه » (٨٢)
وبذلك خرج الزهد من حدوده الضيقة التى حاصرها البكاء والحزن الى عالم

(٨٢ ، ٨٣) الكواكب الدرية ١/ ١٢٩ •

الرحب وابتعث على التفاؤل وادعى الى التأسيس والتطور • ويجب ان نبين ان عامرا قد توفي في بيت المقدس ايام معاوية اى قبل سنة ٦٠ لان هذا التاريخ هو بداية ظهور فكرة الحب في البصرة وقد كان عامر قد تخلص عندئذ من الحقد والضغينة وامتألت نفسه بالحب لله والناس معا فكان يدعو لمن وشى به قائلا : « اللهم ••• فاكثر ماله وولده واصح جسمه واطل عمره » (٨٣) •

وما دنا بصدد الحب فان من المهم ان نذكر زاهدا اخر من قبيلة شيعية في البصرة صدر عن المشرب نفسه ذلك هو خلود بن عبيدالله العصرى (عصر بطن من عبد قيس الشيعية) فقد كان يقول : « يا اخوتاه هل فيكم من احد لا يحب ان يلقي حبيبه؟ الا فاجبوا ربكم وسيروا اليه سيرا كريما » (٨٤) • وكان كهمس بن الحسن القيسى المتوفى سنة ١٤٩ / ٧٦٦ وارثا للمحبة معبرا عنها ايضا وكان يقول في جوف الليل : « اراك (لعلها اتراك) » معذبى وانت قرة عينى يا حبيب قلباه » (٨٥) •

وجاء من بعده عتبة الغلام المعاصر لعبدالواحد بن زيد (المتوفى سنة ١٧٧ / ٧٩٣-٩٤) وكان عتبة اكثر اندفاعا في الحب وافصح في التعبير عنه فقد كان يقول : « ان تعذبني فاني لك محب وان ترحمني فاني لك محب » (٨٦) • ولم يكتف عتبة بان يسأل الله ان ينزع شهوة النساء عن قلبه كما فعل عامر بن عبد قيس بل قرن المحبة بالانقطاع الى الله دون ان يشاركه في حبه احد فقال : « العرس في الدار الآخرة » (٨٧) ثم تواجه فارسيا تطور بالحب من الثقة التي استشعرها عتبة الى التبسط والاطمئنان فقد كان يقول : « وعزتك

(٨٣) الكواكب الدرية ١ / ١٢٩ •

(٨٤) صفة الصفوة ٣ / ١٥٤

(٨٥) حلية الاولياء ٦ / ٢١٢ •

(٨٦ ، ٨٧) صفة الصفوة ٣ / ٣٨١ •

انك لتعلم انى احبك» (٨٨) وهكذا رأينا الحب يتطور من صدوره عن الحزن عند عامر ثم التجائه الى الله ليذهب عنه الهموم والاحزان التي يعانيتها فأحب الله حبا سهلا عليه كل مصيبة لانه كان يؤمن به ايمانا لا شائبة فيه الى حد انه قال : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » (٨٩) ولكى نعرف ما تعنيه هذه العبارة فان علينا ان نلاحظ انها قد نسبت بنصها الى على بن ابي طالب كما مر بنا وهكذا يصدر المحب الاول فى البصرة عن روح علوية نابعة من الرضى واطمئنان القلب بالايمان كانا طابع أئمة الشيعة كلهم • اما خلود فانه نصح بسلوك هذا الطريق لاعتماده بانه طريق الخلاص الوحيد ، ثم جاء كهمس فصرف الى الحب نفسه وجهده الى حد تسائل معه عن امكان تعذيب الله له ثم فقى على آثار هؤلاء عتبة الغلام الذى صار الحب عنده طريقة ومذهبا ، ولم يكن يقصد بالحب ان يستجلب ثوبا او يدفع عقابا • ثم اذا بنا نشم رائحة القرب يعكسه لنا حبيب الفارسى بتأكد من حب الله له •

رابعة العبودية :

ويحسن بنا ان نذكر رابعة بين المحبين ، فيبدو - قبل كل شيء - انها متأخرة عن هؤلاء جميعا فقد لقيت سفيان الثورى وناقشته وافحمتها وانته على كذبه فى حزنه (٩٠) • ويذكر المناوى انها ماتت سنة ١٨٠ وبيروى ماسينيون انها ماتت سنة ١٩٥/٨١٠-١١ ، ويتوسط الدكتور قاسم غنى بينهما فيختار سنة ١٨٥ لوفاتها ، ولكن ابن خلكان يحدد موتها بسنة ١٣٥ ، وكذلك ابن العماد فى الشذرات وذكر ايضا احتمال موتها سنة ١٨٥/٨٠١ (٩١) ولكنه لم

(٨٨) صفة الصفوة ٣/٢٣٩ •

هو أبو محمد حبيب بن عيسى العجمي ، وقد ذكر السمعاني شهرته الواسعة فى التعشق والعبادة الى الحد الذى كان يفنى معه عن الذكر (الانساب ورقة ١٢٨٥) •

(٨٩) اللع ٧١ •

(٩٠) الكواكب الدرية ١/١٠٨ •

(٩١) شذرات الذهب ١/١٩٣ •

يؤيد هذا الاحتمال . . والراجح انها توفيت بعد سنة ١٥٥ هـ بعد نزول سفيان الثوري البصرة (٩٢) . ومهما يكن من امر تحديد وفاتها فانها اشهر من اعتنق عقيدة الحب هذه ولعل جوهر المسألة يكمن في كونها امرأة .

واول واشهر ما ينسب اليها قولها في وصف حقيقة ايمانها : « ما عبدته خوفا من ناره ولا طمعا في جنته فاكون كالأجير السوء : عبدته حبا له وشوقا اليه » (٩٣) . وقد رأينا التداخل بين معنى هذا الكلام وبين عبادة الاحرار التي اصطبغ بها ايمان علي بن ابي طالب او حفيده زين العابدين . ثم هناك الايات المشهورة التي اسندها ابو نعيم الى مجهولة :

احبك حين : حب الهوى	وجبا لانك اهل لذاكا
فاما الذى هو حب الهوى	فذكر شغلت به عن سواكا
واما الذى انت اهل له	فكشفتك للحجب حتى اراكا
فما الحمد في ذا وفي ذاك لى	ولكن لك الحمد في ذا وذاكا (٩٤)

ويبدو من هذه الايات التأخر اولا ، وضعفها باد في التعبير وفي السبك وعليها مسحة الشعر التعليمى الذى يقصد به ضغط تفاصيل العلوم فى آيات تحفظ عن ظهر قلب ، ونحله - لذلك - بين وان يكن الاتصال بين عبارة عامر : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » وبين عبارة : « فكشفتك للحجب حتى اراكا » ظاهرا واضحا (٩٥) . وينسب الى رابعة بيتان يحتمل صدورهما عنها وهما :

(٩٢) طبقات الشعرائى ٤٠/١ .

(٩٣) الكواكب الدرية ١٠٩/١ .

(٩٤) حلية الاولياء ٣٤٨/٩ .

(٩٥) مما يوضح هذا النحل خبر ينسب الى الكندى الفيلسوف (١٨٥) - (٢٥٢) حين عرض عليه شعر شبيه بهذا الذى نسب الى رابعة ، فقد سمع انسانا ينشد ويقول : <

انى جعلتك فى الفؤاد محدثى وابحت جسمى من اراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبب قلبى فى الفؤاد انيسى (٩٦)

وذلك يعنى انها فتحت باب الحضور الدائم فى القلب وان حب الله كان الشاغل الوحيد لها • ويستقيم مع هذا الميل الى الحب الالهى قولها لعبدالواحد ابن زيد حين خطبها : « يا شهوانى اطلب شهوانية مثلك » (٩٧) ووثق العطار هذا الاتجاه بخبر اورد فى عرضه لرابعة يشتم منه ارتفاع الفروق الجنسية بين الرجال والنساء فى الزهد ، وذلك امر يدخل تحت الرهينة المسيحية ولكن التطور الذى مرت به فكرة الحب يجعل وصول الامر الى هذا الحد منطقيا ، اورد فريد الدين العطار « ان المرأة فى سبيل الله رجل وليس فى الاستطاعة ان تسمى امرأة » (٩٨) واسند ذلك بخبر رواه عن زاهدة اخرى قالت : « ينادى فى عرصات القيامة : يا رجال ، فتكون مريم اول من يتقدم من الناس » (٩٩) • وقد سارت رابعة فى القرب الى آخر الشوط وبلغت الولاية فيها اقصاها حتى سوغت لنفسها وهى واقعة تحت هذا الشعور ان تسخف الاتصال الجسدى حتى فى الجنة (١٠٠) فاثارت عليها نائرة الناس

« وفى أربع منى حلت منك اربع فما انا أدرى أيها هاج لى كرى :
خيالك فى عينى ؟ ام الذكر فى فمى ؟ ام النطق فى سمعى ؟ ام الحب فى قلبى ؟
فقال : والله لقد قسمتها تقسيما فلسفيا (سرح العيون ص ١٥٨) •
واذا كان هذا التعداد الجميل يدخل فى باب التقسيم الفلسفى فما
اخلق ابيات رابعة - والمفروض انها سابقة عليه ان تدخل المدخل نفسه
فتنقطع الصلة بين الابيات وبين زاهدتنا العاشقة التى لم تخطر لها المنطقة
والترتيب على بال •

(٩٦) الكواكب الدرية ١/١٠٩ •

(٩٧) مجموعة نصوص ٧ •

(٩٨ ، ٩٩) تذكرة الاولياء ١/٥٧ ترجمة •

(١٠٠) الكواكب الدرية ١/١١٠ •

حتى الصوفية انفسهم كل ذلك لترتفع المادية عن الحب ولو كان في الجنة ويخلو لها وجه ربه الحبيب الفرد للعالمين جميعا • وهي - لذلك - كانت تريد ان تزيل الحائل الذي يمنع صفاء حب الله حبا مجردا من الغرض ، فقد رؤيت تحمل باحدى يديها ماء وبالاخرى نارا لتطفىء نار جهنم وتشعل الجنة فلا يبقى عند الناس من هدف الا الله « فيتجه عباد الله الى الله دون غرض من رجاء او خوف » (١٠١) •

أما بعد فان الحب قد عجز عن التغلب على الخوف بل لقد اقترن به وبالمجاهدة ، فقد كان عامر بن عبدالله المحب الاول « فرض على نفسه في كل يوم الف ركعة وكان اذا صلى العصر جلس وقد انتفتحت ساقاه من طول القيام » (١٠٢) ، وكان خلود العصرى « يقوم الليل ويصوم النهار » (١٠٣) وكان كهمس يصلى الف ركعة في اليوم والليله ، فاذا ملّ قال لنفسه : « قومي يا مأوى كل سوء فوالله ما رضيتك لله ساعة قط » (١٠٤) اما حبيب الفارسي فقد كان من اكثر الناس بكاء (١٠٥) وكذلك كانت رابعة التي « كان كنفها لم يزل عندها ويجدون محل سجودها كالماء المستنقع من كثرة البكاء » (١٠٦) وهكذا يتبين لنا ان الحب - وان تطور عن البكاء والخوف والمجاهدة فانه مازال في البصرة مقترنا باصوله التي تفرع منها •

الوعظ والوعاظ في البصرة :

لقد ظهر في وضوح ان زهاد البصرة قد اتخذوا البكاء والمجاهدة طابعا

-
- (١٠١) مجموعة من النصوص تتعلق بتاريخ التصوف ص ٧ (ترجمة) •
 (١٠٢) صفة الصفوة ٣/ ١٢٦ •
 (١٠٣) الكواكب الدرية ١/ ١٠٢ •
 (١٠٤) حلية الاولياء ٦/ ٢١١ •
 (١٠٥) صفة الصفوة ٣/ ٣٣٧ •
 (١٠٦) الكواكب الدرية ١/ ٧٨ •

لهم وان المجتمع البصرى الذى امتلاً بالخطايا والذنوب قد كان فى حاجة الى قوم يذكرونه بأخطائه ويخوفونه ويحذرونه فظهرت طائفة الوعاظ والقصاص التى تأخرت عن ظهور الزهد كما يقضى المنطق بذلك • وكان صالح المري المتوفى سنة ١٧٢/٧٨٨-٩ من ابلغ الوعاظ واشدهم تأثيراً ، فقد قال فيه سفيان الثورى : « ليس هذا بقاص ، هذا نذير قوم » (١٠٧) والوعظ يذكرنا بما كان الامام علي يفعله فى الكوفة من التذكير بالعذاب والآخرة ومن قرنه حال الكوفة بحال مكة يوم بعث فيها النبى ، ولكن ما يلفت الذهن حقاً ان اكثر الوعاظ كانوا فى البصرة وحتى فى الكوفة من الموالى كابن السماك الذى كان مولى لبني عجل وهذا صالح المري الذى كان مملوكاً فاعتق (١٠٨) • ويجب ان نذكر هنا ان القصاص الذين كانوا يؤثرون فى عواطف الناس فيكونهم قد كان لهم اثر فعال فى بعث الناس الى الزهد واستمالتهم اليه وقد كانت تلك القدرة واضحة فى الفرس وهى مازالت حتى الان ظاهرة فيهم فى المساجد الشيعة فى العراق وايران ، فان قدرة الفارسى على استدرار الدمع تفوق قدرة العربى كما يستطيع ان يلمس ذلك كل من له اتصال بهذه البيئة • وقد كان صالح المري يجمع بين البلاغة والايمان بالزهد وضرورة البكاء وكان له مجلس فى البصرة يؤمه الناس « فكان - اذا اخذ فى قصصه - كأنه رجل مذعور يذعرك امره من حزنه وكثرة بكائه كأنه ثكلى » (١٠٩) •

عبدالواحد بن زيد :

وكان عبدالواحد بن زيد المتوفى سنة ١٧٧/٧٩٣-٤ - وقد اعتبره ابن تيمية الصوفى الاول (١١٠) - مؤثراً فى مواعظه الى حد ان رجلاً قدم فى مجلس وعظه مرة (١١١) ، ومات اربعة فى مرة

-
- (١٠٧، ١٠٨) صفة الصفوة ٣/٢٦٥ •
 - (١٠٩) حلية الاولياء ٦/١٦٩ •
 - (١١٠) الاسلام والحضارة العربية ٢/٢٨ •
 - (١١١) حلية الاولياء ٦/١٥٩-٦٠ •

اخرى (١١٢) ، وكان هو نفسه محزوناً الى حد انه قيل فيه : « لو قسم بث عبدالواحد بن زيد على اهل البصرة لوسعهم » (١١٣) وكانت مواعظ عبدالواحد تنصب على التخويف من النار بتجسيماها وتحض على الزهد وترك الدنيا وكانت مواعظه من طراز : « يا اخوتاه ، الا تبكون شوقاً الى الله عز وجل ؟ الا انه من بكى شوقاً الى سيده لم يحرمه النظر اليه • يا اخوتاه ، الا تبكون خوفاً من النار ؟ الا انه من بكى خوفاً من النار اعاده الله منها • يا اخوتاه ، الا تبكون خوفاً من شدة العطش يوم القيامة ؟ يا اخوتاه الا تبكون ؟ فابكوا على الماء البارد ايام الدنيا لعله يسقيكموه في حظائر العرش مع خير الندماء والاصحاب من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن اولئك رفيقا » (١١٤) • وتذكرنا هذه الموعظة بعبارات علي بن ابي طالب ، وعلى ابن الحسين في ادعيته ، وفي هذه الموعظة نفسها عبارة تذكر برؤية الله القلبية التي صدرت عن علي الا وهى قوله : الا انه من بكى شوقاً الى سيده لم يحرمه النظر اليه » •

مالك بن دينار :

ثم يخرج مالك بن دينار عن وعظ الناس فى مجتمعاتهم فيرتقى الى التوجيه السياسى الذى هرب منه اسلافه الزهاد فيعلن - بذلك - بدء حركة جديدة فى الزهد هى استقلاله الاجتماعى وظهور الزهاد بمظهر طبقة قائمة بذاتها ، وذلك ارهاص بانتهاء عهد العزلة وبدء عهد التجمع ، فقد كان يقول : « قرأت فى بعض الكتب : يجاء براعى السوء يوم القيامة فيقال له : يا راعى السوء شربت اللبن واكلت اللحم ولم تؤوى الضال ولم تجبر الكسير ، لم ترعها

(١١٢) صفة الصفوة ٣/ ٢٤١ •

(١١٣) حلية الاولياء ٦/ ١٦١ •

(١١٤) صفة الصفوة ٣/ ٢٤٢ •

حق رعايتها ، اليوم انتقم منك » (١١٥) وكان مالك بن دينار يقول للناس :
 « اتقوا السحارة فانها تسحر قلوب العلماء يعنى الدنيا » (١١٦) وذلك صدى
 لتحذيرات على بن ابي طالب من الدنيا وقوله : « يا دنيا اليك عنى غرى
 غيرى » (١١٧) . وكان مالك الى ذلك - تجاوبا مع طبقة من الوعاظ - يرى
 البكاء والحزن ضروريين للقلب لانه « اذا لم يحزن حزب كما ان البيت اذا
 لم يسكن خرب » (١١٨) .

وما دنا اشرنا الى ان اكثر الوعاظ البصريين كانوا من الموالى فلا بد لنا
 ان نشير الى ان شيوخ الزهد الحقيقيين فى البصرة كانوا من الموالى ايضا وان
 هذا التطور السريع فى الزهد البصرى حدث لانها تأثرت بالثقافات وبحاملها
 فيها وكانوا من الموالى على الاغلب لما رأيناه من انصراف العرب الى المثل القبلية .
 ويكفى ان يكون الحسن البصرى فارسيا ليكون للفرس الاثر الكبير فى زهد
 البصرة . ولا بد من الاشارة الى الموالى الاخرين لتتجلى هذه الحقيقة ، فقد كان
 ميمون بن سياه مولى وايوب السخثيانى مولى لعنزة وكان الحسن البصرى
 يسميه « سيد شباب اهل البصرة » (١١٩) . وكان عبدالله بن عون المتوفى
 سنة ١٣١/٧٤٨-٤٩ مولى وكذلك حبيب الفارسى الذى يسميه الشعرانى
 « العجمى » ، وكان سنبر الدستوائى مولى لبنى سدوس (١٢٠) وقد توفى
 سنة ١٥٣/٧٦٩ وصالح المرى وحماد ابن سلمة كذلك .

خاتمة :

ويجب علينا فى ختام عرضنا للزهد فى البصرة ان نلخص ما عرضنا له
 لنجمع خيوطه فى ايدينا ففتين من الزهد جوهره ومثله وما اثر فيه . لقد كان

-
- (١١٥ ، ١١٦) حلية الاولياء
 - (١١٦) حلية الاولياء ٦/٢٨٧
 - (١١٧) صفة الصفوة ١/١٢٢٠
 - (١١٨) حلية الاولياء ٦/٢٨٧
 - (١١٩) صفة الصفوة ٣/٢٠٩
 - (١٢٠) المصدر نفسه ٣/٢٦٢

في البصرة زهد اسلامي مثله لنا الحسن البصرى او زهد متأثر قليلا بالاحداث الحربية كالزهد الصادر عن الاحنف بن قيس الذي فتح باب المجاهدة حتى رأينا رياح بن عمرو القيسى يغلقه بالحديد • ثم رأينا البكاء النابع من الحزن والخوف من الذنوب ثم اذا بهما يتطوران الى الحب ويندمجان فيه • وادى الحب الى التبتل مبالغة في الانقطاع الى الله كما مثل لنا ذلك عتبة الغلام ثم رابعة العدوية ، ثم استقل التبتل عن الحب عند بعض المتصوفة فيما بعد • ثم رأينا في البصرة اتجاها جديدا هو اظهار شيوخ الزهاد على مثال الائمة على نحو ما رأينا من وصل شخصية الحسن البصرى بشخصية علي بن ابي طالب • وكانت البصرة سبابة الى جمع الزهاد في طبقة اجتماعية كان رئيسها الحسن البصرى وفاتنا ان نشير الى ان هذه الطبقة كانت تعيش من الصدقات او من تبرعات الزهاد الاغنياء كما فعل حبيب الفارسي وغيره (١٢١) الذين خرجوا من اموالهم لاثبات زهدهم الحقيقي • وظهر في البصرة اول انحراف عن طريق الزهد الرسمي مما رأيناه من مالك بن دينار الذي خرج من عزلة الزهد الى وعظ الحكام وتوجيه السلطان مما سيكون له اثره البالغ في مركز المتصوفة فيما بعد •

ومن الاهمية بمكان ان نجتمع في ختام عرضنا للزهد البصرى النقاط التي اتصل منها الزهد بالتشيع فاول ما نشير اليه ان الزهد عموما قد شاع في الاسلام على صورته الجديدة لان اهل بيت النبي قد قتلوا وشردوا وسالت دماء الناس انهارا في سبيل نصرتهم ، ورأينا شخصية الحسن البصرى نسخة ثانية من شخصية الامام على مما يقطع باثره في الزهد البصرى وهو على كل حال ازهد الصحابة كما رأينا ، ثم مر بنا تداخل كلام الحسن البصرى مع كلام الامام على ولم نشر الى ان هارون بن رثاب كان يلبس الصوف تحت

(١٢١) صفة الصفة ٣/١٧٦ ، ٢٧٦ وحلية الاولياء ٦/١٤٩ •

نيابه^(١٢٢) صنيع جعفر الصادق • وكان الحسن البصرى يطلق على مردييه
من الزهاد القابا اطلقت على الائمة فسمى ايوب السخيتاني سيد شباب اهل
البصرة^(١٢٣) كما سمي النبي الحسن والحسين سيدى شباب اهل الجنة كما
هو مشهور • وكان عبدالله بن اربطبان يكتم غضبه ويقابل الاساءة
بالاحسان^(١٢٤) فعل على بن الحسين • وكان عتبة الغلام ينظر الى قول على
في خطابه للدينا : قد طلقتك ثلاثا لارجعة لى عليك « فى قوله : « طلقت الدينا
ثلاثا لارجعة لى فيها حتى القاك »^(١٢٥) (الخطاب لحوارية من الجنة كانت
تنتظره فيها) • وقد رأينا البصريين يثورون مع ابراهيم بن عبدالله بن الحسن
واحصى ديوانه منهم مائة الف رجل^(١٢٦) ورأينا الزهاد ينصرونه •

-
- صفة الصفوة ٢٠٩/٣ (١٢٢)
 - صفة الصفوة ٢٠٩/٣ (١٢٣)
 - المصدر نفسه ٢٢٩/٣ (١٢٤)
 - الكواكب الدرية ١/١٣٧ (١٢٥)
 - مقاتل الطالبين ٣٨٨ (١٢٦)

الفصل الرابع

الزهد في الشام

البيئة الشامية :

كانت الشام عثمانية اموية حكمها معاوية ابتداء من سنة ٦٣٨/١٧ أيام عمر^(١) ثلاثا واربعين سنة وكانت له فيها رسالة طبقتها ، كان يريد ان تكون مملكة له وحده كما كان ابوه يحكم مكة . وقد كان اكثر اهل الشام يحكم اعتيادهم الحكم الرومانى واليونانى من قبل مطيعين لينين ولم يكونوا كأهل الكوفة والبصرة قبائل قريبة الخروج من الصحراء ، وهذا هو رأى ولها وزن الذى يضيف الى ذلك انهم « ما كانوا يعصون حكامهم حتى ولو كان هؤلاء الحكام من بنى امية »^(٢) . وكان أهل الشام بعد صفين مدللين وكان القتال كله ملقى على عاتق الكوفيين والبصريين كما مر بنا فعاشت الشام فى رخاء لم يذقه العراقيون ولم يحلموا به فى نومهم . وقد كان معاوية من الصحابة يفرض فيه ان يطبق مثل الاسلام الزهدية كما فعل ابو بكر وعمر وعلى ولكنه آثر ان يكون ابن ابى سفيان وحكم الشام كما يحكمها اى ملك رومانى . وقد اورد لنا المسعودى^(٣) منهجه اليومى فرسم لنا صورة ملك دنيوى لا صلة له بعمر الذى ولاه الشام ولا بعلى الذى حاربه وكان يأكل الاطياب ويلبس النواعم ويجلس على الكرسى . بل لقد استطاع معاوية ان يبدأ سب على الذى حاربه من قبل فى بدر وغيرها وجعله سنة ينشأ عليها

(١) الطبرى ٢٠٣/٣ .

(٢) الدولة العربية وسقوطها ٤٨-٤٩ .

(٣) مروج الذهب ٣٩/٣ .

الصغير ويهلك عليها الكبير واستمر السب من بعد موته اربعين سنة اخرى حين قيض للشام حاكم يصدر عن جوهر الاسلام فأعتبره سفيان الثوري الخليفة الخامس^(٤) - اى بديل معاوية - ذلك هو عمر بن عبدالعزيز الذي كان يفرض ان تكون سيرة معاوية سيرته • وبينما كان الزهاد فى الكوفة والمدينة والبصرة يشتغلون برواية الحديث وبتحرون الصدق فيه وكانت الرواية صفة لازمة لاكثر الزهاد كان معاوية يلفق الاحاديث والتأويلات فى ذم علي ويدفع مئات الالوف من الدراهم لنشرها بين الناس^(٥) وكان معاوية الى ذلك غنيا وقد تبرع بنصف امواله لبيت المال كأنه اراد ان يطيب له الباقي^(٦) • ومن الغريب ان مسلما مخلصا يعكس المثل الاسلامية على حقيقتها لم يستطع ان يحيا فى دمشق أيام معاوية ، ولم يطلقه معاوية لانه يئبه الناس الى حقائق هم عنها غافلون : ذلك هو ابو ذر الغفارى الذى رأيناه من رواد التشيع الاول • وقد سار على هذه السياسة جميع من جاء بعد معاوية من خلفاء بنى أمية ، فهم « لا يكادون يرون فى الشام رجلا لسنا منطقيا يحاول تنبيه الناس حتى يعدوه عنها »^(٧) •

وهكذا تبين الشام دولة مدنية قدمت الحياة على العقيدة - على عكس باقى الامصار - وكانت فى عزلة فكرية اذا قيست بالكوفة والبصرة ، وكان نشاطها مقصورا على بعض « مناقشات دينية بين المسلمين والمسيحيين نتيجة لاتصال الآراء »^(٨) • وقد وصف صعصعة بن صوحان الشاميين بانهم « اطوع الناس لمخلوق »^(٩) والواقع ان الاطلاع على المثل الاسلامية الحقيقية لم يتح

(٤) صفة الصفوة ٦٣/٢ •

(٥) شرح نهج البلاغة ١/٣٦٢ •

(٦) الطبرى ٦/١٨٢ •

(٧) وعاظ السلاطين ٢١٥ •

(٨) مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ٩ •

(٩) مروج الذهب ٢/٧٨ •

لشاميين ، وقد كان الصحابة الذين انتقلوا الى بلاط معاوية هاربين من زهد على وتشده الاسلامى مندفعين الى دنيا معاوية التى تكسو وتشبع ، وكان من هؤلاء عقيل اخو علي بن ابي طالب نفسه . وقد افصح مخلد بن يزيد عن جوهر اهل الشام حين دخل على عمر بن عبدالعزيز فى ثياب الزهاد - وكان عمر يتهمة - فقال له : « انتم الائمة اذا اسبتم اسبلنا واذا شمرتم شمرنا » (١٠) وقد بلغ من انزال الشاميين عن اسبط المعلومات الاسلامية - وذلك هو هدف معاوية الذى تحقق - ان «اشياخا من اهل الشام من ارباب النعم والرياسة حلقوا لابي العباس السفاح انهم ما علموا لرسول قرابة ولا اهل بيت يرثونه غير بنى امية » (١١) ، وكانوا ايام معاوية يعتقدون ان « ابا تراب لص من لصوص القتن وان عليا هو الذى قتل عمار بن ياسر ، وكان منهم قوم يظنون معاوية ابا فاطمة امرأة النبي بنت عائشة اخت معاوية وان عليا قتل فى غزاة حنين » (١٢) ، بل يروى الجاحظ ان حاجا من اهل الشام كان يعتقد ان احدا سوف يكلمه من الكعبة وكان يجهل محمدا ويظنه ربا » (١٣) .

هذه هى سداجة الشاميين ايام معاوية وبعدها ، وقد اجتمع الرخاء والسداجة فناموا ملء جفونهم ايام كان الكوفيون والبصريون ينفرون من الوساد خوفا من الاشباح والرؤى المزعجة . لهذا كله ضعف الزهد فى الشام وكاد يمتنع .

الزهد والزهاد :

لقد كان الامراء الامويون الحساسون هم السابقين الى الزهد كعثمان بن عتبة بن ابي سفيان الذى رفض الخلافة لانه آثر السلم فكان منه ان تزهد ودخل مكة فى حملة ابن الزبير « (١٤) ، وكان معاوية بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٦٥ من هذا الفريق الحساس ايضا وقد كان فى نزعه يقول « اتفوز بنو امية بحلاوتها وابوء انا بوزرها ومنعها اهلها (يعنى العلويين) كلا

(١٠) تاريخ اليعقوبى ٤٥/٣ .

(١١-١٣) مروج الذهب ٧٢/٢ .

(١٤) مروج الذهب ١٣/٢ .

انى لبرىء منها» (١٥) وقد نسب بنو امية المحافظون هذه الحساسية الى البدع وعلل عمر القوصى معلم معاوية الثانى هذا التصرف منه بانه « مجبول ومطبوع على حب على بن ابى طالب » (١٦) . وهكذا تبدو الحقائق من وراء الاستار ويبدو على قدوة للأمويين المنصفين الصادرين عن جوهر الاسلام . وكان حول الخلفاء نفر من الطامعين الجشعين يستغلون لهو الخلفاء الامويين عن الرعية اشنع استغلال ويزينون لهم حياة الترف ، ومن ذلك ان يزيد بن عبد الملك الذى نشر الخبز حاول فى بداية حكمه ان يطبق سياسة عمر بن عبدالعزيز ، فانبرى له هؤلاء العاشية : « فأتوه باربعين شيخا شهدوا له ان الخلفاء لاحساب عليهم ولا عذاب ، فأقبل على الظلم واتلاف المال والشرب والانهماء على سماع الغناء والخلوة بالقيان » (١٧) . وقد كان فى الامويين ناهون عن المنكر من امثال يزيد بن الوليد الذى ثار على الوليد بن يزيد لما ظهر من فسقه وشمل الناس من جوره سنة ١٢٦/٧٤٣-٤ (١٨) وليس لنا ان ننسى عمر بن عبدالعزيز الذى سنعرض له فى اثناء بحثنا للزهد الشامى .

وليس معنى هذا كله خلو الشام من الزهاد ، فاننا سنجد زهادا يصدرون عن روح الاسلام الزهدية وسنجدهم من الصحابة ولكن ذلك يجبرنا الى ظهور الزهد فيها على نطاق واسع بعد ان ملأتها الحروب منذ بداية القرن الثانى الى ان زالت الدولة الاموية ، وصارت الشام كوفة اخرى ايام العباسيين وصارت الجزيرة مثابة للخروج (١٩) .

وبذلك يتبين لنا جوهر الزهد الاتى من الظروف السياسية والاجتماعية

-
- (١٥) الطبرى ٣/ ٨٢ .
(١٦) اخبار الدول ١٣١ .
(١٧) شذرات الذهب ١/ ١٢٨ .
(١٨) مروج الذهب ٢/ ١٩٣ .
(١٩) تاريخ اليعقوبى ٣/ ١٤٢ .

والنفسية التي تدفع قوما الى القتال وفريقا الى الانزواء والتعلق بالزهد ، وسنجد الزهد الخراساني المتأثر بالاحداث اأشيعية فيها ينزل الشام ليستقر فيها • وقد كان فى الشام قوم من زهاد الصحابة كأبى الدرداء^(٢٠) الذى اصطبغ زهده بالهرب من الحروب كما رأينا من تركه جيش معاوية فى صيفين وانقطاعه الى العبادة • وقد كان ابو الدرداء صديقا لسلمان^(٢١) ، ويبدو ان زهده لم يعجب الشاميين شأنهم مع ابى ذر فقد كان ابو الدرداء يشكو من ان اهل الشام يمنعونه مودتهم^(٢٢) ، ولعل ذلك كان لقوله : « يا اخى ، لاتقرن بصحابة رسول الله (ص) فانا عشت بعده دهرا طويلا ، والله اعلم بالذى اصبنا بعده »^(٢٣) • ويبدو ان معاوية اول من انتبه الى دور الزهد فى تسيط العزائم وايهان القوى والهرب من القتال ، فقد اسبغ معاوية على يزيد بن الاسود شيئا من القدسية فاستسقى به بعد قحط وكذلك كان الامر مع ابن قيس الفهرى^(٢٤) •

وكما كان الخوف ركن الزهد فى الكوفة والبصرة وجدناه كذلك فى الشام ايضا ، وقد عكسه لنا يزيد بن مرثد الهمداني^(٢٥) على نحو مبالغ فيه وكذلك ابو بكر الغساني وامية الشامي فى القرن الثانى^(٢٦) ، وكما كان الظلم باعنا للناس فى الكوفة والبصرة على الزهد صار فى الشام كذلك بحيث اصبح موت عبدالملك بن مروان من بعد عظمتها العسكرية وحروبه وتقتيله الناس عبرة حدث بصديقه عبدالرحمن بن يزيد بن معاوية الى الزهد

(٢٠) ذكر ابن سعد انه توفى سنة ٣١ أو ٣٢ بالشام فى خلافة عثمان

(الطبقات ٧ : ١١٧/٢) •

(٢١-٢٣) صفة الصفوة ١/٢٥٩ •

(٢٤) صفة الصفوة ٤/١٧٣ •

(٢٥) المصدر ٤/١٧٥ •

(٢٦) المصدر نفسه ٤/١٨٧ •

« فاجتهد في العبادة حتى صار كأنه شيء بال » (٢٧) • وكان الناس حائرين بين ما يبدو من امرائهم الحساسين من تجاوب مع الاحداث وبين ما يرويه لهم شيوخهم واولياء خلفائهم من ان الحق معهم ، ففاه عبدالله بن عبدالاعلى المعاصر لعبدالملك بن مروان بمقالة هي ملاك جوهر الناس ومظهر لنفوسهم وعقولهم وارواحهم قال - يعنى الدنيا - : « دخلتها جاهلا واقمت فيها حائرا واخرجت منها كارها » (٢٨) وقد كانت هذه الحيرة وهذا الجهل حافزين قويين للناس على الزهد فى الشام كما مر بنا مما اراده الامويون لاهل الشام من جهل وبعد عن النظر الصحيح وحرية التفكير ، وصارت المجاهدة - لهذا السبب - من مناهج الزهاد فى الشام ايضا على نحو ما كان يفعل ابو مسلم الخولانى المتوفى سنة ٦٥ من قوله : « انا اولى من الدواب بالسوط ، فاذا دخلته فترة مشق ساقه سوطا » (٢٩) •

وقد برز زهد الشام فى أمر جديد هو الجوع وكان يقابل الصوف الذى كان شعار الزهد فى الكوفة والحب والبكاء الذين وجدناهما من ابرز اوصاف الزهد فى البصرة ، ولهذا فان الزهاد فى الشام يسمون جوعيين كما اخبرنا الكلاباذى من قبل • وقد يبدو الجوع غربيا من حيث انه نقطة تجمع المثل الزهدية فى الشام ، ولكن هذه الغرابة تتبدد بمعرفتنا ان الشام كانت ريفا (٣٠) لايجوع فيه انسان فكان الشبع أمرا يورث اللامبالاة فيها وينسأى بالنفس عن ادراك ما يحيط بها من مظالم فيقوم الشبع سدا يمنع الناس من التفكير فى غيره • وقد كان عمر بن الاسود السكونى الزاهد القديم « يدع كثيرا من الشبع مخافة الاشر » (٣١) وقد مثل لنا ابو سليمان الدارانى الزاهد

(٢٧) صفة الصفوة ٤/ ١٨٧ •

(٢٨) البيان والتبيين ٣/ ١٤٨ •

(٢٩) صفة الصفوة ٤/ ١٨٧ •

(٣٠) ضحى الاسلام ٢/ ٤٠٨ •

(٣١) صفة الصفوة ٤/ ١٧٣ •

الشامى المتوفى سنة ٢١٥/٨٣٠ اثر الشيع فى النفس بانه رأى طائرين
 « يلتقطان الحب ، فلما شبا اراد الذكر الاثى • فقال : لما شبا دعه بطنه الى
 ما ترى » (٣٢) وفى هذا القول اشارة الى تأثير المثل المسيحية فى الزهد الشامى
 وذلك اتنا قد لاحظنا ان ابا سليمان يقرن بين الشيع واللذة الجنسية التى
 اعتبرها قاذحة فى الزهد وذلك تقليد مسيحي واضح •

وقد كانت انشام اول بلد اسلامى يقام فيه رباط صوفى على نحو ما رأينا
 من انشاء ابى هاشم الكوفى له •

اما بعد فليس من موضوع هذه الرسالة تفصيل القول فى خصائص كل
 بلد فى الزهد ، ولكن هذه مقدمة لابد منها للتعرف الى الزهد الشامى وقد
 تبدو الشام ابعديئة يمكن ان تتأثر بالتشيع •
عمر بن عبدالعزيز :

واول ما يجب ان ننبه اليه ان عمر بن
 عبدالعزيز (الذى حكم من سنة ٩٩/٧١٧ الى سنة ١٠١/٧٢٠ بعد
 سليمان بن عبد الملك الذى اشاع الخبز) لم يحكم على مثال عمر بن الخطاب
 ولم يصدر عن مثل زهده كما هو مشهور بين الباحثين وانما كان صورة من على
 ابن ابى طالب شأن معاصره الحسن البصرى الذى مر بنا فى زهد البصرة •
 لقد كان عمر بن عبدالعزيز رجلا دين لاسياسة
 كما كان على ، وكان عمر بن الخطاب يجمع بين
 الدين والسياسة وقد وجدنا عمر بن عبدالعزيز موضع سخريه دوزى (٣٣)
 من حيث هو سياسى ، ولو كان على مثال عمر بن الخطاب ما سخر منه
 ولا انتقده • وكان عمر بن عبدالعزيز يطفىء الشمعة اذا انتهى من نظر امور
 المسلمين لانها سمعتهم (٣٤) وذلك يذكر بعل بن ابى طالب الذى قسم رغيفا
 سبعة اسهم ، ومن الملاحظ انه اول خليفة اموى يبطل سب على المنابر •

(٣٢) حنية الاولياء ٢٦٨/٩ •
 (٣٣) الدولة العربية وسقوطها ٢٤٥ •
 (٣٤) صفة الصفوة ٦٧/٢ •

وقد جمع اصحاب كتب التصوف بينه وبين الخضر (٣٥) كما فعلوا مع علي بن ابي طالب . وكان من المعروف ان التقابل بين الحق والباطل يستغرق الامويين والعلويين فقط ، فكان عمر بن عبدالعزيز يسمى اعمال اهل بيته : مظالم (٣٦) . وكان يردد دائما : اوصيكم بتقوى الله فان تقوى الله خلف من كل شيء (٣٧) وتلك لازمة على بن ابي طالب التي ترد في اقواله كثيرا . وكان عمر بن عبدالعزيز يقول : « الا ترون انكم في اسلاب الهالكين وسيخلفها من بعدكم الباقون كذلك حتى ترد الى خير الوارثين . في كل يوم ليلة تشيعون غاديا ورائحا الى الله عزوجل ، قد قضى نحبه وانقضى اجله حتى تسيوه في صدع من الارض في بطن صدع ثم تدعونه غير ممد ولا موسد » (٣٨) ، وتلك معاني علي بن ابي طالب التي مرت بنا فيما مضى . وقد كان عمر كتب الى عامله في العراق ان يكف اذاه عن اهل الكوفة « الذين اصابهم بلاء وشدة وجور في احكام الله وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء » (٣٩) وقد كان عمر الى ذلك يقتفى سياسة علي بن ابي طالب كما اقتضى اثر أفعاله وأقواله ، فقد احتاجت مدينة الى مرمة ، فكتب عامله يخبره بذلك ، فقيل له : ان بعض عمال علي بن ابي طالب كتب بمثل هذا وكتب اليه : اما بعد فحسنها بالعدل ونق طرقها من الجور . فكتب بذلك الى عامله (٤٠) . وقد كان عمر يرتدى اظمارا غليظة حين ولي الخلافة كما كان علي وعمير بن الخطاب يفعلان ، ولم يترك عمر بن عبدالعزيز الا اربعمائة دينار ، وقد كانت غلته لما ولي الخلافة اربعين الف دينار ، وذلك يذكرنا بعلي ايضا (٤١) . وقد كانت نهاية عمر القتل بالسم لان الامويين خافوا ان يخرج ما بأيديهم من

-
- الكواكب الدرية ١٤٣/١ (٣٥)
 - تاريخ اليعقوبي ٤٨/٣ (٣٦)
 - صفة الصفوة ٦٤/٢ (٣٧)
 - المصدر نفسه ٧٠/٢ (٣٨)
 - ابن الاثير ٢٣/٥ (٣٩)
 - تاريخ اليعقوبي ٤٩/٣ (٤٠)
 - حلية الاولياء ٢٥٧/٥ (٤١)

أموال وان يخلع يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد (٤٢) . وقد كان يقال في عمر : « الناس يقولون : مالك بن دينار زاهد . انما الزاهد عمر بن عبدالعزيز » (٤٣) . وقد كان الحسن البصرى وكذلك وهب بن منبه يقولان : « ان كان في هذه الامة مهدي فهو عمر بن عبدالعزيز » (٤٤) . بل لقد اورد السيوطى أخبارا عن ابى عساكر والترمذى وابن سعد رواية عن عمر وابن عمر انه كذلك (٤٥) . ومما لاشك فيه ان زهد عمر بن عبدالعزيز اسلامى خالص يمثل جوهر الدعوة الاسلامية وملاك ما يورده الاسلام ويتطلبه من خليفة المسلمين .

ابو سليمان الداراني :

وقد كان في الشام زاهد آخر من طراز عمر بن عبدالعزيز هو ابو سليمان الداراني المتوفى سنة ٢١٥/٨٣٠ وكان عراقى الاصل من واسط التى بناها الحجاج لتكون في منتصف الطريق بين الكوفة والبصرة . وقد عرضنا لابي سليمان - على تأخره - لانه ذو أثر كبير في زهد الشام وفي تاريخ التصوف ، فقد كان اول من اسس للتوكل عقيدة مستقلة . والتوكل في حقيقته البعد عن مناقشة ما اوجبه الله والتسليم المطلق للارادة الالهية . والنظرة العميقة ترى انه جوهر الاسلام وليس تتبعا ليخطط من خيوطه المتشابكة . فليس التوكل جريا وراء التفويض ولا وراء الجبر وانما هو تسليم بواقع الاسلام الذى يجمع كل هذه المعانى ، وتلك خطة تذكرنا بما اختاره الائمة لانفسهم من اتباع الاسلام كله لا اختيار فكرة يتضمن القرآن كثيرا غيرها فيكونون كانوا رضوا جزءا من الاسلام وتركوا منه اجزاء . وقد كان ابو سليمان يصدر عن هذه الفكرة لقوله : « من رضى بكل شىء فقد بلغ حد

(٤٢) الطبرى ١٨/٥ .

(٤٣) حلية الاولياء ٢٥٥/٥ .

(٤٤) حلية الاولياء ٢٥٧/٩ .

(٤٥) تاريخ الخلفاء ص ١٥٢ .

الرضى ، ومن تورع فى كل شىء فقد بلغ حد الورع ، ومن زهد فى كل شىء فقد بلغ حد الزهد» (٤٦) . ويجب ان يفهم الرضى والتوكل فى التصوف على هذا الاساس الشيعى لا على انه نوع من الجبر . ومن هذا التسليم المطلق الذى توحى به الثقة تصدى ابو سليمان لزهاد الكوفة الضعفاء الخائرين الذين كانت الوسواس والرؤى تملأ احلامهم فقال : « انما يجىء الوسواس وكثرة الرؤيا الى كل ضعيف » (٤٧) . وكان هذا الاخلاص من ابى سليمان يدعوه الى القول : « لو شك الناس كلهم فى الحق ما شككت فيه وحدى » (٤٨) وتلك مقالة علي بعينها : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيننا ، وقوله : وان معى لبصيرتى ما لبست على نفسى ولبس على» (٤٩) . وقد ورد النور - الذى وجدناه عند الغلاة وقد عنوانا به الله - فى اقوال ابى سليمان الداراني من عراقيته وقربه من الكوفة ، فقد كان يقول : « لا يزهد فى شهوات الدنيا الا من وضع الله فى قلبه نورا يشغله دائما بامور الآخرة » (٥٠) . وكان ابو سليمان الداراني كالمختار وغلاة الشيعة « يرى الملائكة يكلمونه » (٥١) . لقد وردت فى اقوال ابى سليمان العصمة الشيعية التى جمع الادلة لها هشام بن الحكم كما مر بنا من قبل ، وابو سليمان هو القائل : « انما عصى الله من عصاه لهوانهم عليه ، ولو كرموا عليه لحجزهم عن معاصيه » (٥٢) وهكذا وصل ابو سليمان الحب بالولاية وجعل منها شيئا واحدا يؤدى بالولى الى مقام الامام الشيعى المعصوم ، وتلك صلة بارزة بين التشيع والتصوف سيكون لها اثرها فيما بعد فى تطوير فكرة التصوف الى فكرة الحلول والاتحاد . ويجب أن لا نفهم

-
- (٤٦) حلية الاولياء ٢٦٠/٩
 - (٤٧) المصدر نفسه ٢٦٠/٩
 - (٤٨) المصدر نفسه ٢٥٦/٩
 - (٤٩) نهج البلاغة ٣٨/١
 - (٥٠) تذكرة الاولياء ٢٣٢/١
 - (٥١) البداية والنهاية ٢٥٩/١٠
 - (٥٢) صفة الصفوة ١٩٨/٤

من أقوال أبي سليمان انه كون هذه الافكار فى الشام ونحتها من بيئتها لانه يعترف بكونه زاهدا عاملا منذ كان فى العراق ولكنه بين انه اشتهر فى الشام (٥٣) • وبذلك تبدوا لنا جذور زهد الذى انصب فيه زهد الشام حتى وصل الى بغداد لتسلمه مدرستها فتمزجه بالافكار التى وصلتها من الكوفة والبصرة ومصر وخراسان فتكون مدرسة التصوف البغدادية التى سارت بالافكار الصوفية شوطا بعيدا •

كعب الاحبار :

ويحسن بنا ان نذكر بان زاهدا قديما قد عبر عن العصمة فى الشام ، ذلك هو كعب الاحبار - اليهودى السابق - المتوفى سنة ٣٢ الذى كان يقول : «مؤمن عالم اشد على ابليس وجنوده من مائة الف مؤمن عابد لان الله يعصمهم به من الحرام» (٥٤) • ولا بد ان نشير الى ان كعب الاحبار هذا قد كان سابقا الى البكاء ونعله نقل عن دينه القديم قوله : « لان ابكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجعتي ، احب الي من ان اتصدق بوزنى ذهباً • والذى نفس كعب بيده ما بكأ عبد من خشية الله حتى تقع قطرة من دموعه على الارض فتمسه النار ابدا » (٥٥) ، وقصة ايوب تحتل ركنا مهما من الادب الاسرائيلى القديم وهى سنين من البكاء المر ولعل تشابه الظروف يورث ردود فعل متشابهة •

خاتمة :

بقى ان نقول كلمة اخرى فى بيئة الشام ، ذلك انها قد دخلت فيها الآراء الشيعة الغالية ايضا ولكن على صورة جديدة لاتصل بامام علوى

(٥٣) صفة الصفوة ٤/١٩٧ •

(٥٤) المصدر نفسه ٤/١٧٦ •

(٥٥) المصدر نفسه ٤/١٧٦ •

كما فعل الشيعة فى الكوفة ، وانما هى فكرة فردية مائة كالحلمانية اتباع ابى
 حلمان الدمشقى الفارسى الاصل الذين كانوا يقولون : « كل شخص حسن
 فروح الاله حال فيه » (٥٦) « فاذا رأوا صورة حسنة سجدوا لها » ، وكان ابو
 حلمان يقول : « من كان اعتقاده مثل اعتقادى فلا تكليف عليه ، وكل ما يشتهي
 فهو حلال » (٥٧) وتلك افكار واضحة الصلة بافكار الكوفة الغالية بكل
 دقائقها • ومن ذلك نخرج بان الشام – وان كانت اموية الجذور – قد تأثرت
 بالزهد الكوفى النابع من عقيدتها الشيعية الى حد ان افكار الغلاة التى تكون
 اعلى ما وصل اليه التناقض بين الشام والكوفة قد وجدت لها منفذا الى الشام على
 هذه الصورة التى عكسها لنا ابو سليمان الدارانى وابو حلمان الدمشقى
 بالاضافة الى ما رأيناه من أثر على : خصم الامويين الاكبر فى أمرائهم وبعض
 خلفائهم •

(٥٦ ، ٥٧) البتصير فى الدين ٧٧ •

الفصل الخامس

الزهد في خراسان

البيئة الخراسانية :

قبل ان نخوض في الزهد الخراسانى يحسن ان نقرر ان خراسان التى نعيها هى المنطقة التى تستغرق مجموع مدن بلخ ونيسابور وسرو الروذ وبيروذ ونسا وغيرها (١) وتقع هذه المنطقة فى الشمال الشرقى من ايران الحالية . ويجب ان نقرر اولا ان خراسان لم تعاصر احدا من الخلفاء الراشدين وهى مسلمة كالبلدان الاسلامية الاخرى ، لانها فتحت صلحا سنة ٣٠/٦٥٠-٥١ أيام عثمان وظلت نائرة عاصية الى مقتل على بن ابي طالب سنة ٤٠ (٢) . وقد ارسل اليها معاوية زهاء خمسين الفا من البصريين والكوفيين بعيالاتهم (٣) ليحاول ان يكسر حدة ثورتها القومية . وكانت خراسان - من الناحية الادارية - مرتبطة بالبصرة ايام الامويين (٤) ، ولكن يبدو انه لم يستطيعوا تحقيق غرضهم لاننا وجدناها نائرة على الدوام . ويخبرنا البلاذرى ان هشام بن عبد الملك ارسل اليها عشرين الفا من اهل البصرة والكوفة لمحاربة الترك فيها (٥) ، وقبل ذلك كتب عاملها الى عمر بن عبدالعزيز يخبره « بان اهلها لا يصلحهم الا السيف والعصا » (٦) ، ولكن عمر بن عبدالعزيز الذى يعلم كيف عوملت خراسان وكيف استعجل الخراسانيون التخلص من الجزية بالدخول فى الاسلام بدون ايمان صادق به وخيب الحجاج املهم باصراره على أخذ الجزية منهم - كتب الى عامله : « بل كذبت ، بل يصلحهم العدل

-
- (١) تاريخ يعقوبى ٤٠/٣ .
 - (٢) فتوح البلدان ٣٩٤ .
 - (٣) المصدر نفسه ٤٠٠ .
 - (٤) تاريخ العرب ٣٩/٢ .
 - (٥) فتوح البلدان ٤١٨ .
 - (٦) الكواكب الدرية ١٤٣/١ .

والحق فابسطه فيهم» (٧) وهكذا تكون في قلوب الخراسانيين اول رد فعل ضد الاسلام وكانت معاملة الحجاج لهم اول مأخذ لهم على العرب الذين كانوا يدعون الى الاسلام او الجزية او القتل فلم ينجهم الاسلام من الجزية ولا من القتل وقد ادرك عمر بن عبدالعزيز عيب السياسة الاموية لخراسان فكتب لعامله ما كتب •

لقد كانت خراسان معقلا من معاقل القومية الفارسية لم يستطع الناقل الكوفيون والبصريون ان ينالوا من شدة تعلقها بجنسها وقوميتها الى حد انه قد اشير على هشام بن عبد الملك بانه « انما يقوى على خراسان من كانت له بها عشيرة من جنودها» (٨) والى حد ان بيثة خراسان قد اذابت الجنس العربى فى تقاليدها وعرفها فكانوا يرون انفسهم خراسانيين (٩) • وعلينا ان نضع هذه الحقيقة نصب اعيننا ونقرر من الان ان خراسان قد كانت فارسية اصيلة لم يؤثر الاسلام ولا تقاليد ولا سيوف الفاتحين ولا منطلق اصحاب الفرق فى قوميتهم او تقاليدهم • بل يخبرنا ولها وزن ان لغة السوق فى البصرة والكوفة هى - على ما يقال - فارسية وعربية بمقدار واحد (١٠) ، وذلك يدل على قوة الشعوب بالقومية الفارسية وعزتها فيها • وقد عربت المدن الفارسية القريبة من العراق فاستقرت عربيتها وكانت شيعية الهوى فى الاكثر : فكانت المدائن شيعية اصيلة (١١) وكذلك قم التى مصرت سنة ٧٢٢/٨٣ (١٢) ونزلها الاشعريون الذين قتل الحجاج قائدهم محمد بن السائب فصارت شيعية (١٣) وصارت مركز الاسحاقية الغالية فيما بعد (١٤) • وكانت المدن الفارسية

(٧) الكواكب الدرية ١/١٤٣ •

(٨) الاخبار الطوال ٢٩٢ •

(٩) ، ١٠) الدولة العربية وسقوطها ٣٩٠ (عن الطبرى) •

(١١) شخصيات قلقة فى الاسلام ٢٣ •

(١٢) معجم البلدان ٧/١٦٠ •

(١٣) تاريخ الكوفة ١٨٣ •

(١٤) الحضارة العربية فى القرن الرابع ٨٠ •

القريبة من العراق كالدائن على هذه الشاكلة وشاركت العالم الاسلامى فى صدوره عن الاسلام مشاركة ايجابية الا خراسان المتطرفة البعيدة عن التسلط العربى وتأثيره • وقد حملت لواء المقاومة بالسلاح اولاً ثم بالعقيدة ثانياً وبالزهد الذى سنراه فى هذا الفصل اخيراً • ولعل خير ما نوردته للتدليل على هذه الروح ان ولها وزن يذكرنا بان سقوط الدولة العربية (الاموية) لم يحصل من اهل ما وراء النهر الذين ظلوا ايرانيين مناوئين للعرب بل من الخراسانيين الذين اسلموا^(١٥) ، وتلك اشارة الى الخطة التى اختطتها خراسان فى مقاومة الفتح العربى وهى التى تسلمت امانة الدفاع عن الوطن الفارسى وحمائته • وقد رأينا فى بحث التشيع كيف اسهم الموالى فى الثورة التى قادها المختار على أمل المشاركة مع العرب على قدم المساواة فى الافادة من خيرات بلاد الاسلام ومثله وكيف نكل بهم مصعب بن الزبير شر تنكيل وكانوا منذ البداية دون العرب حتى فى الحرب فانهم كانوا يباشرون الحرب راجلين^(١٦) • لهذا كله وجدناهم يناصرون العباسيين الذين آلت اليهم الدعوة من ابي هاشم بن محمد بن الحنفية ضد الامويين لانه كان يعتمد على نصرهم^(١٧) ، ولم يعتمد عليهم جعفر الصادق لانه لم يكن يرى المعارضة الايجابية او يطمح الى قلب نظام الحكم وهذا هو الذى يفسر لنا الثورة التى كانت تتأجج فى صدور الخراسانيين الذين اضمروا الغيظ لادولة العربية التى استعبدتهم فلم تعاملهم بما يليق بهم بل اذلتهم واحقرتهم • وكان الخراسانيون لب الفرس وفيهم جوهر روحهم النائرة ، فكان ان حملوا لواء المعارضة واستطاعوا ان يحققوا كثيراً من اغراضهم • ويؤيدنا فيما نذهب اليه باحث فارسى حديث هو الدكتور قاسم غنى الذى يقول : « وكان الفرس الذين يعتبرون انفسهم ابناء الاحرار - وكانوا ينتقصون

-
- (١٥) الدولة العربية وسقوطها ٢٩٤ •
(١٦) الدولة العربية وسقوطها ٣٩٣ •
(١٧) تاريخ اليعقوبى ٤٠/٣ •

العرب في زمن الساسانيين - قد وصلوا الى درجة من الذل والهوان بحيث اطلق عليهم اسم الموالي وصاروا في عداد العبيد وابناء الاسرى . وبلغت بهم الحال ان مصعب بن الزبير ضرب اعناق اربعة الاف رجل منهم في يوم واحد وذلك بعد تغلبه على المختار « (١٨) ، وهو يرى - مع براون - ان التشيع والتصوف كانا من الاسلحة التي حارب بها الفرس العرب للقضاء عليهم (١٩) . وهو رأى سبقهما اليه ابن حزم (٢٠) . وهذا باحث ايراني اخر يخبرنا بانه « قد ظهر التصوف في ايران في عصر تسلط على وطننا فيه عدو قوى ، فلما لم يجد الايرانيون في انفسهم قدرة على مخالفة الاعداء ومبارزتهم سلكوا سبيل الهزيمة واتخذوا القوى الغيبية معتقدا لهم ، والقوا سلاحهم في ميدان تنازع البقاء وعلى هذا فقد كان التصوف حينئذ ضرورة من الضرورات،

(١٨) تاريخ تصوف در اسلام ٢١ ترجمة .

(١٩) تاريخ تصوف در اسلام ٣-٤ .

(٢٠) لقد اشتهر براون بهذا الرأي وأقر له بأصالته سائر الباحثين المحدثين . وقد عرض ابن حزم للفكرة نفسها وعبر عنها بمعان وكلمات تكاد تطابق ما اوردهنا هنا ، فقد ذكر ، في معرض تناوله الغلو الشيعي ، ان « الاصل في اكثر خروج هذه الطوائف عن ديانة الاسلام ان الفرس كانوا يسمون انفسهم الاحرار والابناء (ابناء الاحرار) وكانوا يعدون سائر الناس عبيدا لهم . فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب - وكانت العرب أقل الامم عند الفرس - تعاضمهم الامر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الاسلام بالمحاربة في أوقات شتى ، ففي كل ذلك يظهر الله سبحانه وتعالى الحق فإظهر قوم منهم الاسلام واستمالوا اهل التشيع باظهار محبة اهل بيت رسول الله ص - واستشناع ظلم علي - رضي الله عنه - ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الاسلام » (الفصل ٢/١١٥) . هذا ما يتعلق بالتشيع الغالي . واما التصوف فقد قال فيه ابن حزم : « واعلموا ان كل من كفر هذه الكفرات الفاحشة - ممن ينتمى الى الاسلام - فانما عنصرهم الشيعة والصوفية : فان من الصوفية من يقول : من عرف الله سقطت عنه الشرائع ، وزاد بعضهم واتصل بالله تعالى » (الفصل ٤/١٨٨) . وقد استشهد ابن حزم لتأييد ذلك بما كان يفعله ابو سعيد ابو الخير (كذا) المعاصر له في نيسابور (١٨٨/٢) وذكر الحلاج ايضا واتهمه بالتهمة ذاتها (١١٤/٢) .

وليس اليوم كالامس» (٢١) . وقد رد الدكتور قاسم غنى على ما قد يرد من اعتراض المعترضين من الفرس بقوله : « ويجب ان نوضح - فى هذا المقام - ان ردى الفعل هذين : التصوف والتشيع ، لم يأتيا عن اختيار وعمد واردة على خطة مرسومة يراد بها الانتقام بل كان اكثر ذلك متأبياً بحكم الانفعال النفسى وبتأثير العواطف والاحاسيس الخفية على صورة يعرفها علم النفس اى ان ذلك قد حدث غالباً دون ان يجد له الناس علة واقعية ودون ان يحلوه ، ولكن ذهنهم كان مسوقاً الى هذا العمل بهذه الطرق» (٢٢) .

الزهد والزهاد :

وعلى هذا فقد كان الزهد الذى خرج من خراسان طليعة هذه المقاومة السلية ، وقد بدأ بخروج عبدالله بن المبارك و ابراهيم بن أدهم مع جماعة عدتهم ستون ، وكان الغرض الظاهرى - كما قال عبدالله بن المبارك - «نطلب العلم ، ما منهم آخذ غيرى» (٢٣) . ويجب ان نشير هنا الى ان خراسان كانت مركزاً من مراكز التشيع غير المتعين . فقد شجعت خراسان ابا هاشم التوفى سنة ٩٧ كما نصرت زيدا الثائر بالكوفة سنة ١٢١/٧٣٩ وآوت ابنه ، ثم دخلت فى دعوة عبدالله بن معاوية الذى كان يحمى من العباسيين من صاروا خلفاء من بعده ورأينا مولد فكرة النور الذى هو الله فى ذلك الوقت وكان يتناسخ فى الائمة . وقد اله الرزامية بعد ذلك ابا مسلم الخراسانى سياقة للامامة اليه من ابراهيم الامام (٢٤) ، وقال الخرمية بذلك فكان ان قتل المنصور منهم ستين الفا (كذا) سنة ١٣٦/٧٥٣-٤ بعد ان ثاروا عليه (٢٥) وبتدهم فى الارض سنة ١٤٥/٧٦٢-٣ (٢٦) وكان الرزامية يقولون فى ابى مسلم مقالة ابن الحارث فى عبدالله بن معاوية من ان روح الاله حلت فيه ، ويرى

-
- (٢١) تصوف : مقدمة المترجم ، ترجمة .
 (٢٢) تاريخ تصوف در اسلام ٢١ ترجمة .
 (٢٣) حلية الاولياء ٧/٣٦٩ .
 (٢٤) الملل والنحل ١/٢٤٧ .
 (٢٥) مروج الذهب ٢/٢٣٧ .
 (٢٦) الاخبار الطوال ٣٢٤ .

الدكتور عبدالعزيز الدورى ان حركة الخرمية لم تكن الا مزدكية مقنعة وان ابا مسلم لم يكن الا المنقذ الذى بشر به زرادشت^(٢٧) . لقد كانت خراسان كما مر بنا موطننا لكثير جدا من الكوفيين والبصريين بل لقد رأينا الربيع بن خثيم يهجر الكوفة الى فارس ليشارك فى الفتوح وكان يمثل الزهد الإسلامى الخالص . ولا بد ان افكار الزهد الكوفى الدائرة حول المجاهدة والخوف وافكار الزهد البصرى التى تتمثل فى الحب والبكاء قد انصبت فى خراسان بلد الظلم والحركات السرية والعقيدة الغالية . ثم اننا قد رأينا الجيش الفارسى الذى انهزم امام الجيش العربى الفاتح فى القادسية يضم زهادا من الفرس ، وذلك يعنى قدم الزهد فيها وسبقه على الاسلام ، وهذا هو تفسير عودة اصحاب ابراهيم بن أدهم من الشام الى مدينة بلخ الخراسانية^(٢٨) ، ذلك انهم ارادوا ان يلائموا بين زهدهم القديم والزهد الإسلامى الجديد ليؤسسوه فى خراسان وينظموه ويحققوا منه هدفهم .

وكان للفرس « نزعة صوفية من مختلف المذاهب تحاول التوفيق بين الاديان وتمزج الدين بالفلسفة »^(٢٩) كما يقول دى بور الذى يضيف الى ذلك ان « انو شروان (٥٣١-٥٧٩) اسس فى جنديسابور معهدا للدراسات الفلسفية والطبية ، وكان معظم اساتذته من المسيحيين النسطوريين »^(٣٠) « وآوى سبعة من فلاسفة المذهب الافلاطونى الحديث ، جاء بهم من اثينا »^(٣١) ، ومن المعلوم ان فى الاسماعيلية والتصوف تلك الاصول من الفلسفة الافلاطونية الحديثة . ومهما يكن من شئ فقد اغفل مؤرخو الزهد والتصوف التطرق الى ذكر الزهاد الاقدمين فى فارس وخراسان ، وكان عطاء ابو مسلم اقدم من

(٢٧) مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ٨٩ .

(٢٨) الملامتية والصوفية واهل الفتوة ٣١ .

(٢٩) تاريخ الفلسفة الاسلامية ١٢ .

(٣٠ ، ٣١) تاريخ الفلسفة الاسلامية ١٨ .

ارخوا له وقد توفي سنة ١٣٥/٧٥٢-٥٣ (٣٢) وكان من بلخ • وبذلك يتبين لنا ان الزهد في فارس وخراسان قد تأخر ظهوره الى بداية القرن الثاني على الاقل ، وهذا يعني ان خراسان قد عكست لنا الزهد الصوفي قبل ان تتطور بالزهد الاسلامي البسيط الذي لم يذقه الفرس ولم يدركوا كنهه وفلسفته التي ذكرناها لمناسبة الزهد الاسلامي • ولهذا فاننا نجد بداية الزهد في خراسان وفارس على صورة تختلف عن طراز الزهد الاسلامي ويتجلى ذلك صورة في زهد ابراهيم بن ادهم الذي نبهته في السطور التالية :

ابراهيم بن ادهم :

لقد تزهد ابراهيم بن ادهم - وكان ابوه من ملوك خراسان - لانه مسلم يطبق مثل الاسلام التي تملى على المسلم ان يتواضع في مأكله وملبسه وخلقه بل وجدناه يتزهد لانه سمع نداء الهيا من قبروس سرجه يقول : « والله ما لهذا خلقت ولا بهذا امرت » (٣٣) ، وتلك قصة تذكرنا بنبوة موسى حين حدثه الله من الشجرة وان كان الباحثون يصلون بين ابراهيم وبوذا • ورأينا شقيقا البلخي يتوب عن التجارة بعد ان بين له تركي في بيت الاصنام تهافت حجته في طلب الربح من التجارة مع ادعائه ان له خالقا قادرا على كل شيء (٣٤) • ورأينا الفضيل بن عياض - وهو خراساني كما مر بنا - يتوب ايضا لدى سماعه قرآنا وهو يصعد الى جاريه كان يعشقها • ثم اننا نلاحظ ان شيوخ الزهد الصوفي الخراساني وهم ابراهيم بن ادهم وعبدالله بن المبارك وشقيق البلخي كانوا من الاغنياء وابناء الامراء ولعل ذلك يعكس لنا ما نزل بالفرس من هوان ويوضح ان الزعامة الزهدية لم تكن لمجرد التلبس بالفقر وانما اقترنت به امور لها مدخل الى السياسة والمقاومة ، وآية ذلك ما نطق به ابراهيم بن ادهم حين مد رجليه مستريحاً

(٣٢) صفة الصفوة ٤/١٢٥ •

(٣٣) حلية الاولياء ٧/٣٦٨ •

(٣٤) صفة الصفوة ٤/١٣٣ •

فى نهر الاردن : « لو علم الملوك وابتاء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور لجالدونا عليه بالسيوف» (٣٥) . ومع هذه البدايات الغريبة للزهد الخراسانى فاننا نجد ابراهيم بن ادهم ينزل البصرة والاسكندرية ومكة ويعيش فى الشام (٣٦) فىكون بذلك قد صدر عن سياحة كانت معروفة حينئذ فى الكوفة عند سفبان الثورى الذى كان من شيوخ ابراهيم بن ادهم كما مر بنا . وقد تأثر ابراهيم بن ادهم بالزهد البصرى كذلك فكان اساتذته كلهم - فى رأى الدكتور ابو العلا غيفى - من رجال البصرة (٣٧) ، وبدا اتصال الزهد الخراسانى بالشيخ الكوفى حين وجدنا عبدالله بن المبارك المتوفى سنة ١٨٩/٨٠٨ يترك خراسان حيث غناه ومنزلته الى الكوفة الشيعية لينقطع الى الله فى بيته (٣٨) ، ولعله ليس من السذاجة ان نسمعه يصف الزهاد بانهم الملوك (٣٩) . وقد صدر الزهاد الخراسانيون عن ولاية واضحة حين قال قائلهم : « ان كنت تحب ان تكون وليا فذع الدينى والاخرة ولا ترغبن فيهما . . . » (٤٠) وذلك قول يعكس الحب البصرى وولاية سفبان الثورى التى رأيناها منبثقة من التقليد الزيدى فى اطلاق الامتياز الروحى للمسلمين جميعا دون قصره على صفوة ممتازة هم ابناء على الارشدين . ثم اتنا نجد ابراهيم بن ادهم يقول حين اجاب البصريين عن علة عدم استجابة الله لدعائهم بانهم « يعرفون الله ولا يطيعونه» (٤١) . الخ ، وتلك مقالة تذكرنا بقول جعفر الصادق فى اجابته على السؤال نفسه لانكم تدعون من لاتعرفونه» (٤٢) وكان ابراهيم بن ادهم يلبس الصوف أو العباء (٤٣) وذلك شعار زهاد الكوفة

-
- (٣٥) المصدر نفسه ٤/١٢٤ .
(٣٦) طبقات الصوفية ٣٠ .
(٣٧) الملامتية والصوفية واهل الفتوة ٣١ .
(٣٩) صفة الصفوة ٤/١٠٩ .
(٤٠) مجموعة نصوص تتعلق بالتصوف ٢٢ .
(٤١) تذكرة الاولياء ١/٨٦ .
(٤٢) الرسالة القشيرية ٦٨ .
(٤٣) كشف المحجوب ص ٥١ ، صفة الصفوة ٤/١٢٧ .

الصادرين عن التشيع ، وليس من الغريب ان يصدر ابراهيم بن ادهم عن تلك
المثل وهو الذى نشأ فى بيئة شيعية فيها الاسرار والمثل الروحية • ويؤكد
الخوانسارى هذا الاتجاه فيروى نقلا عن كتاب مجالس المؤمنين ان ابراهيم
« انتهى فى ايام سياحته الى خدمة مولانا الباقر (ع) بمكة المشرفة واخذ عن
مركات انفاسه ما اخذ» (٤٤) وينقل كذلك عن عدة الداعي لابن فهد الحلبي
(المتصوف الشيعي المتوفى سنة ١٤٣٧/٨٤١-٣٨) « انه لقي جعفرا الصادق
عليه السلام فى الكوفة » (٤٥) • بل ان ابا نعيم يدعى دعوى غريبة مستحيلة
التحقق وهى ان ابراهيم بن ادهم رأى على بن ابي طالب كرم الله وجهه (٤٦)
ويذكر انه كان من العرب من بنى عجل (٤٧) وتلك محاولة اخرى للربط
بين التشيع وبين زهد ابراهيم بن ادهم لانه قد مر بنا ان قبيلة بنى عجل
كانت مشهورة بالعلو فى التشيع وانها قد اتخذت ذلك حرفة ووسيلة للملك
ومن اخطر ما يصل زهد ابراهيم بن ادهم بالتشيع انه كان يرى نفسه
معصوما كأئمة الشيعة الذين عاصروهم وقد بدا شئ من ذلك فى قصة تزهد
التي بدت كأنها تكليف من الله بذلك ، وقد قال ابراهيم بنفسه فى قصة توبته
التي يوردها ابو نعيم : جاءنى نذير من رب العالمين ، والله لاعصيت الله بعد
يومى ذا ما عصمتى ربي» (٤٨) وذلك تصريح ظاهر التعبير عن العصمة
الشيعة • ومما يزيد هذه الصلة وثوقا ان ابن ادهم قد عاصر جعفرا الصادق
الذى دارت حوله العصمة وواجبها له هشام بن الحكم كما مر بنا فى عرضنا

(٤٤ ، ٤٥) روضات الجنات • ٤٠

(٤٦) حلية الاولياء ٨/٤١ •

(٤٧) المصدر نفسه ٧/٣٧٣ •

نقلا عن ابى قتيبة (عيون الاخبار ٢/٣٣٠) • واورد الخوانسارى
نسبه فى بنى عجل على الوجه التالى :

ابراهيم بن ادهم بن منصور بن ثعلبة بن سعد بن حلام بن عزيزة
بن اسامة بن ربيعة بن ضبيعة بن عجل بن لجيم (روضات الجنات ص ٣٩) •

(٤٨) حلية الاولياء ٧/٣٦٨ •

للامام جعفر الصادق وعصمته • وقد لاحظ الدكتور ابو العلا عفيفى افاضة ابراهيم بن ادهم فى الكلام عن التوكل الصوفى والرجوع الى الله فى كل شىء (٤٩) وتلك خطة الشيعة فى جوهرها لان التوكل كما مر بنا انما هو تسليم لله واوامره كلها بكل ما فيها من تنوع كالجبر والشفويض مثلا • وقد رأينا الشيعة يتحامون ان يختاروا وجهة معينة وانما بقيت فى عقيدتهم كل المثل الاسلامية مجتمعة وهذا هو التوكل الحقيقى المجرى • ومما يؤيد هذا الرأى ان ابا طالب المكى قد استشهد للايمان الذى هو التسليم فى رأيه بقولين للامام جعفر الصادق وابيه محمد الباقر (٥٠) •

شقيق البلخى :

وكان شقيق البلخى المتوفى سنة ١٩٤/١٠٠٩-١٠ من افضل تلامذة ابراهيم بن ادهم (٥١) ، وقد تاب وترك التجارة كما تاب استاذه وترك الامارة والجاه ، ولكن شقيقا تاب مرة اخرى حين ذكره عبدالعزيز بن ابى رواد المتوفى سنة ١٥٩/٧٧٥-٧٦ بانه « ليس الشأن فى اكل الشعير ولا لباس الصوف والشعر • الشأن فى المعرفة وان تعبد الله ولا تشرك به » (٥٢) وفسر ذلك بان « يكون جميع ما عمله خائفا لله » (٥٣) وبذلك سار شقيق بالزهد شوطا الى التصوف بتركه الظاهر واتخاذ الزهد الباطن فنقل الزهد من الجوع الشامى والصوف الكوفى والبكاء البصرى الى أمر قلبى باطن ، فكان ان زاد لصوق زهد شقيق بالتوكل فرأيناه فى اجلى صورته عند تلميذه حاتم الاصم الذى كان يقول : « فما هو الا ان تكون قلوبكم عند السيد حتى تروا من عجائب لطفه مالم تروا من الاء والامهات » (٥٤) ولهذا فليس من الغريب ان يظنه السلمى اول من تكلم فى علوم الاحوال بكور خراسان « (٥٥) • وقد ظهرت

(٤٩) الملامتية والصوفية واهل الفتوة ٣١ •

(٥٠) قوت القلوب ٣/٢ •

(٥١) فى كشف المحجوب ١٣٨ بنسبه الهجويرى الى الازد •

(٥٢ ، ٥٣) صفة الصفوة ٤/١٣٣ •

(٥٤) صفة الصفوة ٤/١٣٦ •

(٥٥) طبقات طبقات الصوفية ٦١ •

الولاية واضحة فيه بحيث وجدناه قد سافر مرة وفي صحبته ثلاثمائة فقير من العباد والزهاد^(٥٦) ، بل لقد توسل المأمون اليه بنفسه حتى اجتمع به (٥٧) .

وقد ظهرت الان رسالة المتصوفة موازية لرسالة العلماء ، فوجدنا شقيقا البلخي يقول : « الرعاة في كل عصر العلماء والصوفية »^(٥٨) . وبينما يرى الجامي انه كان سنيا صادقا من طلاب الامام زفر^(٥٩) يورد الخوانساري انه كان « من تلامذة الامام الهمام موسى بن جعفر وله الرواية عنه ايضا ، وانه استشهد في بلاد ما وراء النهر بتهمة الرفض^(٦٠) ولكن الخوانساري ليس واثقا من نقوله^(٦١) غير ان ملاك الامر في الفكرة التي يحملها شقيق وهي فكرة التوكل الذي هو الاستقلال الروحي عن المطالب المادية وقد رأيناه مستمدا من الاستقلال الشيعي في العقيدة وتحامى تبنى فكرة معيثة من الاسلام - مما ورد في القرآن - دون فكرة اخرى . وقد كان شقيق - على عادة الصوفية - يرى خصوصية على بالعلم المخصوص وتلك فكرة متصلة بالتشيع في جذورها وقد تمنى شقيق للمأمون في وعظه له بلوغ هذا المقام ودعا له بقوله : « واحلك محل على كرم الله وجهه ويطلب (كذا) منك العلم والعدل كما كان »^(٦٢) .

(٥٨-٥٦) الكواكب الدرية ١/ ١٢١ .

(٥٩) نفحات الانس ٥١ .

(٦٠) روضات الجنات ٣٢٨ .

(٦١) ينقل الخوانساري هذا الخبر عن مجالس المؤمنين (طبع طهران ١٢٦٨ ، ص ٢٥٣) مع انه طعن في اخبار مؤلفة (روضات الجنات ٣/ ١٨١) . وقد ذكر القشيري اشتراك شقيق البلخي في حرب الترك (الرسالة القشيرية ، مصر ١٣١٨ ، ص ١٦) وذكر الجامي استشهاده في ولاية ختلان (نفحات الانس ص ٥٠) ومن هنا أخذ صاحب مجالس المؤمنين الاشارة فحورها الى الرفض . ولكن ابن العماد ذكر في حوادث سنة ١٩٤ انه استشهد في غزوة وهذا هو المعقول (شذرات الذهب ١/ ٣٤٠) .

(٦٢) الكواكب الدرية ١/ ١٢٢ .

اما بعد فقد كان الزهاد لا يرتضون خراسان سكنا - على ما خرج فيها من زهاد ومتصوفة - ويذكر لنا الكلاباذي « ان الشيوخ كانوا يهجرون الفقير لثلاث : اذا حج عن غيره بمال ، واذا اتى خراسان واذا دخل اليمن • وقالوا : من اتى الى خراسان لم يأتها الا للرفق ليس بها مباح فيطيب مطعمه » (٦٣) ، وكان سفيان الثوري لا ينزلها لان فيها « مذاهب مختلفة وآراء فاسدة » (٦٤) ، وبذلك يصدر زهد خراسان عن بيئتها الفاسدة كما صدر زهد الكوفة والبصرة على الخصوص • ولهذا وجدنا ابراهيم بن ادهم وابن المبارك والزهاد الستين يتركونها ، وقصد ابراهيم بن ادهم الى الشام طلبا للحلال (٦٥) • ويجب ان نقرر في ختام عرضنا للزهد في خراسان باننا لم نستقصه لانه متأخر وقريب من التصوف ، وسنبحث كثيرا من اموره حين نبلغ مرحلة المقارنة بين المثل الصوفية والشيعية في الفصول القادمة • ويهمننا هنا ان نبين ان الزهد في خراسان قد صدر عن رواسب قديمة فارسية وغير فارسية مزجت مزجا خفيفا بالزهد الاسلامي المتأخر ، وهذا هو السبب في انه اسرع الى التطور الى التصوف وفي ان متصوفة خراسان او الفرس على العموم هم الذين بلغوا بالتصوف مداه • وقد وجدنا في هذا الفصل ان التوكل والولاية قد تطورا هنا بفعل المثل الشيعية التي ملأت خراسان ايام الكفاح ضد الفتح العربي الذي لم يتم الا مؤخرا على يد الامويين ممن لم يرعوا لله حرمة في الخراسانيين فكان ان احسوا برد فعل ادى بهم الى تبني التشيع والتصوف لحماية كيانهم ورد الفاتحين على الاعقاب •

(٦٣) التعرف ١١٣ •

(٦٤) قوت القلوب ٣/١٨٠ •

(٦٥) قوت القلوب ٢/١٩٧ •

الفصل السادس

الزهد في مصر

مقدمة :

ليس غرضنا من كتابة هذا الفصل استقصاء ما كان للزهد من منازع ومشارب في مصر وانما دفعنا الى ذلك التزام التسلسل في عرضه والبحث عن الآثار الشيعية في زهد مصر . فمن المعروف ان المصريين كانوا من زعماء التأثيرين على عثمان ، وقد اخبرنا المسعودى انه قد قتل عثمان رجلان منهم هما : كنانة بن بشر التجيبى وسودان بن حمران المرادى (٦٦) ، ومن المتفق عليه ان هدف الثوار على عثمان كان المحافظة على المثل الاسلامية التي تمثلت في خلافة ابي بكر وعمر ومحاربة الارستقراطية القرشية القديمة التي ارادت ان تميل بالاسلام الى الملكية الطبقية بعد المساواة والديمقراطية ، فكانت مصر - شأن العالم الاسلامى - منذ البداية تريد الاسلام خالصا ومثلا مطبقة لا أقوالا ليس تحتها عمل . وهذا كله يعنى ان مصر قد تحسست الاسلام على حقيقته وارادته ان يكون كذلك ومن هنا يفترض ان يظهر الزهد في مصر على صورته الاسلامية التي رأينا حدودها في الفصول السابقة (٦٧) .

(٦٦) مروج الذهب ٤٤٢/١ .

(٦٧) ومما ينبغي ان نذكره ان عبدالرحمن بن ملجم - قاتل على - كان مصريا ايضا (ابن الاثير ، اوربا ، ٣/٣٢٦) وهو يبين حساسية المصريين الشديدة تجاه ماكانوا يرونه الطريق السوى الى تطبيق مثل الاسلام ، فكان منهم الثائرون على عثمان ثم كان منهم اوائل متطرفى الخوارج فيما بعد .

وقد ذكرت ام الهيثم بنت الاسود النخعية - التي احرقت جثة ابن ملجم بعد قتله - حقيقة سبق المصريين الى الزهد وعكوفهم على العبادة فى رثائها لعلى فقالت :

لعمر أبى لقد اصحاب مصر
وعزونا بأنهم عكوف
على طول الصحابة أوجعونا
وليس كذاك فعل العاكفينا
(مقاتل الطالبين ص ٤١) .

لقد اهلل المؤرخون واصحاب السير الاشارة الى زهاد مصر الاوائل وقصروا همهم على اخبار اخوانهم فى الكوفة والبصرة فشحت الاخبار وتقلصت النصوص التى تحدد ملامح الزهد المصرى فى القرن الاول • وقد روى ابن الجوزى سيرة زاهد من قبيلة قاتل عثمان وكان دعاء من البكائين وكان ضيق الحال جدا ، ذلك هو حيوة بن شريح التجيبى^(٦٨) • وروى ابن الجوزى ان زاهدا آخر - هو الفضل بن فضالة - كان مجاب الدعوة وكان مع ضعفه طويل القيام^(٦٩) وكان - الى ذلك - قاضيا •

الليث بن سعد :

وكان فى مصر زاهد من طراز جديد هو الليث بن سعد مولى قيس الذى استقل بالفتوى والكرم (وقد توفى سنة ١٧٥/٧٩١-٩٢) وكان رقيق العاطفة ، سمع وعظ منصور بن عمار فتأثر به وقال له : « كأنك فتت عضوا من اعضائي »^(٧٠) • ويستتج من سيرة الليث انه استقل بالفتوة مع الفتوى لان الاخبار التى دارت حوله تبين كلها فتوته التى اقترنت بالسخاء والمروءة ، وقد اوضح لنا هذا طلب مالك بن انس من الليث ان يرسل اليه شيئا من العصفر^(٧١) وهو المادة التى تصبغ بها الثياب وكان من علامات لباس القراء والفتيان فى الكوفة قبل ذلك^(٧٢) •

لقد روى عن الليث اتصاله بجعفر الصادق وقد صورت هذه الصلة على شكل قصة يرويها هو ويتبين منها مدى ما كان للصادق من مقام عند الزهاد فى سائر الاقطار الاسلامية فى القرن الثانى الهجرى خاصة حتى ليبدو الصادق من اولياء الله اصحاب الكرامات وهو هنا بدل من الابدال قال الليث بن سعد : حججت سنة ١١٣/٩٣١ فاتيت مكة ، فلما صليت العصر رقيت أبا قيس واذا

(٦٨) صفة الصفوة ٤/٢٨٢ •

(٦٩) صفة الصفوة ٣/٤٧ •

(٧٢-٦٠) صفة الصفوة ٤/٢٨٢ •

انا برجل جالس وهو يدعو ، فقال : يارب يارب ، حتى انقطع نفسه ، ثم قال :
الله الله حتى انقطع نفسه ، ثم قال : اللهم انى اشتهى من هذا العنب
فاطعمينه اللهم وان بردى قد اخلقا . قال الليث : فوالله ما استتم كلامه حتى
نظرت الى سلة مملوءة عبا - وليس على الارض يومئذ عنب - وبردين
جديدين موضوعين ، فاراد ان يأكل ، فقلت : انا شريكك ، فقال لى : ولم ؟
قلت : لانك كنت تدعو وانا أو من فقال لى : تقدم فكل ، واذا هو عنب لاعجم له
فأكلت حتى شبعت والسلة لم تنقص ، ثم قال لى : خذ احب البردين اليك فقلت
اما البردان فانا غنى عنهما فقال لى : نواز حتى البسهما فتواريت فاتزر بالواحد
وارتدى بالآخر ، ثم اخذ البردين اللذين كانا عليه فجعلهما على يده ونزل
فاتبعته حتى اذا كان بالمسعى اذ لقيه رجل فقال : اكسنى كسالك الله ، فدفعهما
اليه فلحقت بالرجل فقلت له : من هذا ؟ فقال : هذا جعفر بن محمد . قال
الليث : فطلبته لاسمع منه فلم اجده (٧٣) .

الحسن بن خليل :

وكان الحسن بن خليل - المعاصر لليث بن سعد - كثير البكاء مصفر
اللون وكان مستغرقا فى العبادة حتى شغلته عن رواية الحديث ، وكان
اذا قرأ القرآن غشى عليه (٧٤) ، وقد نسب الى الحسن هذا انه كان يندمج على
قوة روحية استطاع بها ان « يمر على مكة فى كل ليلة » (٧٥) ولعل ذلك
كان مما يشارك فيه زهاد مصر عندئذ . وقد شارك الحسن فى رفته عبد الله بن
وهب المتوفى سنة ١٩٧/١١٢-١٣ ، وقد روى عنه انه قرىء عليه كتاب احوال
القيامة « فخر مغشيا عليه ، فلم يتكلم بكلمة حتى مات بعد ذلك بايام » (٧٦) .

الصلوات بين الكوفة ومصر :

وكانت الكوفة ذات تأثير كبير فى زهد مصر وكانت مثل الزهد فيها هي

-
- (٧٣) مطالب السؤول فى مناقب آل الرسول ٣٣٦ .
(٧٤ ، ٧٥) صفة الصفوة ٤/٢٩٣ .
(٧٦) حلية الاولياء ٨/٣١٩ .

مثل الكوفة كما يتضح ذلك من الامثلة التي اوردناها • يضاف الى هذا انه قد كان في مصر قوم ينتحلون صناعة الكيمياء كما كان الامر في الكوفة ، بل لقد أخبرنا ابن النديم ان عثمان بن سويد الاخيمى كان من تلامذة جابر بن حيان الكيمياوى الكوفى^(٧٧) وتلميذ جعفر الصادق ، واخبرنا ابن النديم انه « كان مقدما فى صناعة الكيمياء ورأسا فيها »^(٧٨) واورد ان له كتاب «صرف التوهم عن ذى النون المصرى»^(٧٩) فدل على اتصاله به وبخاصة انهما كانا من مدينة واحدة هى اخميم^(٨٠) • واذا وصلنا بذلك ما يرويه القفطى من ان « ذا النون من طبقة جابر بن حيان فى اتحال صناعة الكيمياء وتقلد علم الباطن والاشراف على كثير من علوم »^(٨١) ، وان حاجى خليفة قد ذكر ان لذى النون قصيدة فى الكيمياء شرحها ايدير بن على الجلدكى^(٨٢) ، تبين لنا الى اى حد اتصل الزهد المصرى بالكوفى واخذ عنه • ومن امارات الصلة بين الزهدين ان كلمة « صوفى » ظهرت فى الكوفة اولا ولم تطلق على أحد فى الاقطار الاسلامية - فيما عدا الكوفة - الا فى مصر حيث دارت حول ابي عبدالله الصوفى الذى شارك صحبه الاندلسيون فى الثورة الهادفة الى الامر بالمعروف وكان ذلك فى الاسكندرية سنة ١٩٨/١١٣-١٤^(٨٣) • ويبدو ان عبدالله قد خيب ظن اصحابه فيه وفى زهده وعدله لانه « كان يسفك الدماء ويقتل المسلمين »^(٨٤) فاضطروا الى عزله • وهكذا اقترن لفظ صوفى بالزاهد المصلح الداعى الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك مبدأ كان قديما فى مصر ولعل اندفاعهم الى الثورة على عثمان يتصل بذلك •

وقد يتساءل متسائل : ما العلاقة بين الكوفة ومصر ولم يكن للاخيرة

(٧٧-٧٩) الفهرست ٥٠٠ •

(٨٠) المصدر نفسه ٥٠٥ •

(٨١) اخبار العلماء بأخبار الحكماء ١٢٧ •

(٨٢) كشف الظنون ٥٣٨/٤ •

(٨٣ ، ٨٤) تاريخ يعقوبى ١٧٤/٣ •

اتصال بعلى ولا بأحد من ابائه طوال الحكم الاموى ؟ لقد ظهر من روايات الكليني انه قد كان فى مصر شيعة امامية فى بداية القرن الثالث الهجرى ولعلمهم وجدوا قبل ذلك ، فقد روى لنا ان على بن اسباط - وهو شيعى مصرى ولعله اخو يوسف بن اسباط. الزاهد الذى يروى عن سفيان الثورى - قد ذهب الى مقر الامام محمد الجواد الامام التاسع المتوفى سنة ٢٢٠/٨٣٧ وقد اوتى الامامة وله من العمر سبع سنين ، وقال : « خرج على فظرت الى رأسه ورجليه لاصف قامته لاصحابنا بمصر » (٨٥) وابن اسباط يروى ذلك فى سنة ٢٠٣/٨١٨-١٩ أى ايام المأمون . وروى المسعودى ان مصر - لقربها من الحجاز - كانت ملجأ ومقصدا للثوار العلويين وحدثنا فى اخبار سنة ٢٥٢/٨٦٦ انه «قدم الى سامراء عيسى بن الشيخ الشيبانى من مصر ومعه مال كثير وستة واربعون رجلا من سائر ولد ابى طالب من ولد على وجعفر وعقيل كانوا خرجوا من الحجاز خوف الفتنة والجهد النازل بهم بالحجاز الى مصر فحملوا منها ، فامر المعتز بتكفيهم والتخلى عنهم لما وقف من امرهم» (٨٦) . وقد ثار ابراهيم بن محمد بن يحيى بن عبدالله بن محمد بن على بن ابى طالب المعروف بابن الصوفى بصعيد مصر وملك مدينة اسنا كما يروى ابن الاثير فى حوادث سنة ٢٥٦/٨٧٠ (٨٧) اى بعد تسليم الشيبانى للعلويين باربع سنين والملاحظ. فى نسب ابن الصوفى انه من نسل ابن الحنفية وهذا يعنى ان حركته لم تكن زيديية ولا امامية ولا اسماعيلية لان هذه الفرق تقصر الامامة على نسل على من فاطمة ، فلايد - بناء على ذلك - ان يكون انصار ابن الصوفى من الغلاة خلف انصار ابى هاشم الاسبقين وتلك ناحية اخرى لها اتصال بالكوفة وافكارها . والمهم فى امر ابن الصوفى ان جيشه التقى بجيش احمد بن طولون

(٨٥) اصول الكافى ١٣٢ .

(٨٦) مروج الذهب ٤٢٨/٢ .

(٨٧) تاريخ الكامل ابن الاثير ٩٥/٧ .

في نواحي اخميم^(٨٧) بلد ابن سويد وذى النون مما يوضح ما اشرنا اليه من وجود البذرة الشيعية والانصار في مصر قبل ذلك ويفضح اتصال الكوفة بها منذ زمن ، ولعل في انتقال الشافعي من الكوفة الى مصر دليلا آخر على هذا الارتباط والتبادل بين المصريين^(٨٨) وروى لنا الخوانساري عن رجال من فقهاء الامامية كانوا يسكنون مصر واردين من الكوفة من امثال ابي الفضل الصابوني الذي كان زيديا وعاد اماميا وكان له منزلة بمصر^(٨٩) ومحمد بن محمد بن الاشعث الكوفي الساكن بمصر « وكان من اعظم فقهاء الامامية منصوصا على امانته ووثاقته في رجال النجاشي ٠٠٠ وله من المؤلفات كتاب الجعفریات الذي تضمن الف حديث بالاسناد المتصل كلها عن مولانا الصادق في كثير من ابواب الفقه ٠٠٠»^(٩٠) ولعل على بن اسباط قد كان كوفيا ايضا فانتقل الى مصر .

اما بعد فقد كتبنا هذا الفصل الصغير للتدليل على الاتصال بين مصر والكوفة وتأثر مصر بالتشيع وصدورها عن منزع الكوفة الزهدي قبل نزول الفاطميين فيها وتأسيس دولتهم . ولم تتطرق الى ذكر ذى النون وما في تصوفه من آثار شيعية لانه معدود في المتصوفة لافي الزهاد فان ذكره سيرد في باب التصوف في موضعه المناسب .

(٨٨) وقد كان الشعراني نفسه من نسل محمد بن الحنفية (الكواكب الدرية ، مخطوط محفوظ في المتحف البريطاني بلندن تحت رقم Add. 2369) ولعله كان من احفاد الثائرين الصوفيين بمصر .

(٨٩) روضات الجنات ٥٥٤ .

(٩٠) روضات الجنات ٥٥٤ .

ثبت الجزء

أ - ب	تصدير
٥ - ٣	تمهيد
(٧ - ٢٥٢)	الباب الاول : التشيع
(٨ - ٨٤)	الفصل الاول : مقدمات فى التشيع
٨	التشيع لفظا واصطلاحا
١١	متى ظهر التشيع
١٨	الشيعة الاولون
٢٠	سلمان الفارسى
٢٨	ابو ذر الغفارى
٣٣	عمار بن ياسر
٤٢	حذيفة بن اليمان
٤٨	المقداد بن اسود
٤٩	الشيعة الاخرون
٥٣	الامام على
(٨٥ - ١٢٥)	الفصل الثانى : تميز التشيع وتطوره
٨٥	الشيعة بعد على
٩٣	الحسين وحركته
١٠١	الشيعة بعد الحسين
١٠٧	محمد بن الحنفية
١١٥	الرجعة
١٢٠	الكيسانية
١٢٢	ابو هاشم بن محمد بن الحنفية

الفصل الثالث : الغلو والغلاة

(١٢٦ - ١٥٢)

١٢٦

مقدمة

١٢٨

بيان بن سمعان النهدي

١٣٠

المغيرة بن سعيد العجلي

١٣٤

ابو منصور العجلي

١٣٠

عبدالله بن معاوية

١٤١

ابو الخطاب الاسدي

١٤٦

هشام بن الحكم

١٥٠

النصيرية

(١٥٣ - ٢٠٥)

الفصل الرابع : عودة الى تطور التشيع

١٥٣

علي بن الحسين

١٦٩

محمد الباقر

١٧٧

زيد والزيدية

١٨٧

جعفر الصادق

(٢٠٦ - ٢٥٢)

الفصل الخامس : تشعب التشيع التقليدي واستقراره

٢٠٦

الاسماعيلية

٢٢٧

الامامية وائمتهم

٢٤٢

المهدي

(٢٥٤ - ٣٦٢)

الباب الثاني : الزهد

(٢٥٥ - ٢٦٧)

الفصل الاول : الزهد عموما

٢٥٥

مقدمة في الزهد العام والزهد الاسلامي

(٢٦٨ - ٣٠٦)

الفصل الثاني : الزهد في الكوفة

٢٦٨

تمصير الكوفة وعناصرها

٢٧٦	الزهد الاسلامى فى الكوفة
٢٨٠	الصوف
٢٨٦	اول من تسمى صوفيا
٢٨٦	جابر بن حيان
٢٨٩	ابو هاشم الكوفى
٢٩٢	عبدك الصوفى
٢٩٣	انتظام الزهد فى الكوفة
٢٩٣	سفيان الثورى
٢٩٧	داود الطائى
٢٩٩	الفضيل بن عياض
٣٠١	فرقد السبخى
٣٠٣	الفتوة الكوفية
(٣٠٧ - ٣٣٢)	الزهد فى البصرة
٣٠٧	تمصير البصرة ويثتها
٣١٠	اسس الزهد فى البصرة
	الزهد الاسلامى : الاخنف بن قيس وعامر بن
٣١٣	عبدالله بن عبد قيس
٣١٥	الحسن البصرى
٣٢١	مظاهر الزهد البصرى الجديدة
٣٢٢	الحب
٣٢٢	المحبون
٣٢٤	رابعة العدوية
٣٢٧	الوعظ والوعاظ فى البصرة
٣٢٨	عبدالواحد بن زيد
٣٢٩	مالك بن دينار
٣٣٠	خاتمة

(٣٤٤ - ٣٣٣)	الفصل الرابع : الزهد فى الشام
٣٣٣	اليئة الشامية
٣٣٥	الزهد والزهاد
٣٣٩	عمر بن عبدالعزيز
٣٤١	ابو سليمان الداراني
٣٤٣	كعب الاحبار
٣٣٤	خاتمة
(٣٥٦ - ٣٤٥)	الفصل الخامس : الزهد فى خراسان
٣٤٥	اليئة الخراسانية
٣٤٩	الزهد والزهاد
٣٥١	ابراهيم بن ادهم
٣٥٤	شقيق البلخي
٣٥٦	خاتمة
(٣٦٢ - ٣٥٧)	الفصل السادس : الزهد فى مصر
٣٥٧	مقدمة
٣٥٨	الزهاد
٣٥٨	الليث بن سعد
٣٥٩	الحسن بن خليل
٣٥٩	الصلوات بين الكوفة ومصر

تصويبات

لم يكن في الوسع تجنب كثير من الاخطاء المتصلة باثبات همزة ابن وحذفها وليست القاعدة بخافية على القارىء . وقد اختلف في بعض الاحيان توزيع النقاط على الحروف وذلك مما لا يخفى على القارىء اللبيب ايضاً . ولكثرة ما وقع من هنات مطبعية اولا ولقدرة القارىء على تلافيها ثانيا سنقتصر في هذا الجدول على الضرورى منها .

أ - يضاف العنوان « ابو هاشم بن محمد بن الحنفية » على ما قبل الفقرة الثانية في ص ١٢٢ ، ويضاف العنوان « موسى بن جعفر الكاظم » الى ما قبل الفقرة الثانية من ص ٢٣٠ ، والعنوان « على بن موسى الرضا » الى ما قبل الفقرة الثالثة من ص ٢٣٣ .

ب - تصوب الاخطاء المطبعية التالية .

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
١٠	١٦	صادر من	صادر عن
١٥	١٤	الصدف	المصادفات
٢٣	١٠	للزهد	الزهد
٢٦	٨	ويعوت	ويموت
٣٣	١٢	الربذة	بالربذة
٣٨	٧	فقاله	فقال له
٣٩	٤ (هامش)	من طريق	من طريق
٤٥	٢٠	يرويه	يرويه
٥٢	١	بالناس	الناس
٥٦	٤	فاذا ابصرته ابصرتنى	فاذا ابصرتنى ابصرته
٥٦	٤	واذا ابصرتنى ابصرتنا	واذا ابصرته ابصرتنا
٦٣	٩	تتلمذه على النبى	تلمذته للنبي
٦٧	١٠	الصدفة	المصادفة
٨١	١٤	بلاء	بلاد
٨١	٤ (هامش)	المخطوط	المخطوط r. 3634 فى
٩١	١٧	عمر	عمرو
٩٢	١٤	اقطار	افكار
١٠٤	٢	عمر بن قيس	عمرو بن قيس
١١٢	٣ (اسفل)	فرقة قالت بها اولا	(تحذف)
١١٤	١١	حديث	حديثا
١٢٤	١٤	أما ان	اما ابن

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
١٣٤	١٩	صور انسان	صورة انسان
١٤٤	٧	٣١٨	٢١٨
١٤٥	٢١	آخرها	آخرهم
١٤٩	٢١	الزائدة عن	الزائدة على
١٥٠	١٣	يعلى	لعلى
١٥١	٢٦	فكأنه	فكان
١٥٢	٨	ولا يأمركم الله ان تتخذوا	ولا يأمركم ان تتخذوا
١٥٢	٩	ايأمركم الله بالكفر اذ	ايأمركم بالكفر بعد اذ
١٦٩	١	فيم	فلم
١٧٤	٢٣	١٨	٦٨
١٨٤	١٥	ابن خالد الاحمر	ابى خالد الاحمر
٢٠٢	١٨	ويفسر الصادق ذلك	ويفسر الصادق يسن
٢٠٢	١٩	بقوله (ص)	لقوله (ص)
٢٠٧	٢٢		وكذا مقالات الاسلاميين
			٢٧/١
٢١٢	٢١	الساعات	الساعات
٢١٤	١٦	ونفس هو كل	ونفس كل
٢١٨	٢٢	خطط المقرئى ٢/٢٣٣	خطط المقرئى ٢/٢٣١ ، ٢٣٣
٢٢٦	٩	مقمصة	مقمصة
٢٢٧	١١	اعادة الشيعة	اعاد الشيعة
٢٢٩	١٣	وبعد انتهاء الوكالة-التي	وبعد انتهاء دور الوكلاءالذين
٢٣٣	١٥	٩٣٨/١	٣٨/١
٢٣٣	١٩	ثم لما على ولى ولى عبدالله	ثم لما ولى ولى عبدالله
٢٣٤	٢٤	وصفة للصورة	وصفه للصورة
٢٣٧	٩	منحولة عليها	منحولة عليهما
٢٣٨	٢٢	بيان السعادة	بيان السعادة : ١٩
٢٤٠	١٦	مخالفونها	مخالفونا
٢٤٢	١٠	سنة ٢٥٦	سنة ٢٥٦/٨٧٠
٢٤٤	١٥	ولا يجوز ولا ولد	ولا يجوز ان يموت ولا ولد
٢٤٧	١٥	الامام الثانى	الامام الثامن
٢٤٨	٧	ذكر	ذكره
٢٥٧	٢٥	الاعلاق النفسية	الاعلاق النفيسة
٢٥٧	٢٦	مسامرة الاوائل	مسامرة الاوائل : ٧٠
٢٦٠	١	تظاهرا ثم	تظاهرا ثم
٢٦٦	١٩	يقول سعد	يقول بقول سعد
٢٦٧	١٢	العائد	العائد

THE RELATION BETWEEN SŪFISM AND SHĪ'ISM .

Volume I

Shī'ism & Asceticism

By

KĀMIL M. AL-SHAIBĪ

B.A., M.A. (Alex.), Ph.D. (Cantab.)



Al- Zahra' Press—Baghdad.

1382/1963

تم انجازه بتاريخ ۱۹/۸/۱۹۶۳

THE RELATION BETWEEN ŠUFISM AND SHĪ'ISM

Volume I

Shī'ism & Asceticism

By

KĀMIL M. AL-SHAIBĪ

B.A., M.A. (Alex.), Ph.D. (Cantab.)

Al- Zahra' Press—Baghdad.

1382/1963

تم انجازه بتاريخ ١٩/٨/١٩٦٣
التمن : نصف دينار

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY